THE BOOK WAS DRENCHED

كامل كيلاني

روائع من قصص الغرب

« هذى طباع الناس معروضة
وخالطوا العالم أو فارقوا »
« أبو العلاء »

صياد الخيال

وقصص أخرى

الطبعة الأولى — ١٩٣٣ م - ١٣٥٢ هـ

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر
صندوق بريد الغورية نمرة ٢٦ بالقاهرة

مكتبة ومطبعة

عيسى البابي الحلبي وشركاه

بجوار سيدنا الحسين بمصر

صندوق بريد الغورية نمرة ٢٦ مصر

لها فهرست يرسل هدية لمن يطلبه

مستعدة لطبع الكتب المفيدة وفق ما يطلبه مؤلفوها

تصدير

ـ« هذى طباع الناس معروضه   خالطوا العالم أو فارقوا »

هكذا يقول شيخ المعره أبو العلاء ، وليست القصص إلا معرضا رائعاً تتمثل فيه ألوان الحياة وجوانبها ومثلها العليا وحاجاتها الخفيه المستتره .

وقد برع كتاب الغرب وشعراؤه فى هذا الفن براعه لاتوصف ونقل إلينا كثير من أدبائنا ومترجمينا روائع من قصصهم الخالده ، ورأى الناس فى هذه المائده من ألوان الغذاء الفكرى مابهر ألبابهم وسحر عقولهم فراحوا يطلبون المزيد من هذه الألوان المعجبة الشهية .

ولقد لقى كتاب « مختار القصص » من ترحيب الأدباء والصحف والمجلات وتقديرهم ماشجعنى على السير فى هذه الطريق .

وليس لى من أثر يذكر فى هذا القصص إلا الاختيار والترجمه ، فقد توخيت ــ فى اختيارى ــ أن تجمع كل قصه من هذه المجموعه إلى عمق الفكره دقه التحليل وسمو الغايه وبراعه الأداء ، كما توخيت أن أختار ــ من روائع الغرب ــ قصصا إنسانيه عامة غير محلية ، ومثل هذا القصص الإنسانى صالح لكل أمة وفى كل زمن لأنه لايكاد يعرف بيئه بعينها .

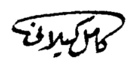
وقلما يحفل بتحليل عادات خاصه بل هو معنى بتحليل النفس الإنسانية تحليلا ، يجمع بين البراعة والصدق والدقة .

« وبعد »

فقد أحسن الأدباء الظن بكتاب « مختار القصص » ورضوا عن كثير من قصصه ، ونسج بعض الأدباء على منواله .

وتغالى بعضهم فى حسن الظن بقصتى « سيرسيه » و « إوزفلورنسا » حتى كاد يفضلهما على كل قصه قرأها .

وقد وعدت فى مقدمته باظهار بقية القصص الأخرى ولعلى قد انجزت فى هذا الكتاب بعض ماوعدت به على قدر ماسمح به وقتى الضيق وذهنى الكليل وجهدى الضئيل .



چان سارمان

" Jean Sarment . "

صياد الخيال

كوميديا في أربعة فصول .

« إنها قصة يرويها مخبول ،

ضجيجها عاصفة مجنونة ، ثم

هي – بعد – لا تعني شيئاً »

« شكسبير – مكبث »

" . .   . . . .   It is a tale

Told by an idiot, full of sound & fury,

Signifying nothing "

(Shakespeare , Macbeth .)

اشخاص الرواية

چان	صياد الخيال
الأب لسكور	قريب نيللى
رينيه	أخو چان
نيللى	حبيبة چان
الأم	أم چان ورينيه
ماريا	خادم
عامل	

الفصل الاول

(فى الريف ـ فصل الصيف)

« يقع هـذا الفصل فى فيللا . ويرفع الستار عن غرفة أرضية نصفها صالون ونصفها للاستراحه وبها سلم من الخشب يؤدى إلى بقية الغرف ونافذة كبيرة تشرف على الحديقه . وهذه الغرفه تدل على حسن الذوق أكثر مما تدل على الفخامه . وهى تدل على أنها مأهولة فى الغالب ، وبها أرائك عند النافذة ، ووسائدها منمقة مطرزة بشغل الإبرة . وقد علقت على الحائط بعض صور وبعض صحاف مزخرفه وعليها صور أطفال ، وعلى الأبواب صور أخرى تبين أنها من هدايا المسرح ، وقطع موسيقيه فى صندوق أو درج صغير ، وكتب على رف وسلة عمل للسيدات فوق المائدة . وتبدو فى الحديقة أشجار باسقه وزهور على حافة النافذة . »

« الساعه الحاديه عشرة صباحاً والشمس ساطعه فى الخارج ، ورينيه مكب على لوحه مهندس معمارى على المنضدة . وهو فى الخامسه والثلاثين من عمره عريض المنكبين واضح المعارف (الملامح) ولكنه ـ فيما يبدو ـ قليل الابتسام ، وهو مرتد ثيابه بدون اكتراث ولا عناية . فهو مشوش الهندام لا أثر فى زيه للتناسق والنظام .

تدخل « ماريا » وفى يدها إناء ملون وبه طاقه زهور بيضاء . »

ريديه	فى أية ساعة يصل القطار يامار يا ؟

ماريا	قطار الأب الجليل ؟

ريديه	نعم .

ماريا	يصل إلى المحطة فى الساعة الحادية عسره والدقيقه السابعة والأربعين ياسيدى ريديه .

ريديه	حسن ، لدىّ إذن وقت .

ماريا	يجدر بك ألا تجعل أبانا ينتظرك ، فقد لا يكون متعوداً ذلك .

ريديه	طبعا (يشير إلى الزهور) يالله ، ما أنصع بياض هذه الزهور ! أهى لغرفة الآنسة « كواسلين » ؟

ماريا	كلا — بل جاءت لتوضع على مائدة الأب الجليل .

ريديه	شد ما أحسنت صنعا ، إذ فكرت فى ذلك ياماريا ، ولكن ضعى أيضا طاقة أخرى من الزهور فى غرفة الآنسة « كواسلين » .

ماريا	ليس عندنا وعاء آخر .

ريديه	إذا لم يوجد فى البيت إلا وعاء واحد ، فيجدر أن يكون موضع الزهور غرفة الفتاة ، ذلك خير من أن توضع فى غرفة قسيس .

ماريا	(متأثرة) — لقد أمرتنى سيدى بذلك ، ولها وحدها أن تأمر بما تشاء .

(ثم تخرج وتهز ريديه كتفيه ويستأنف عمله)

صوت الأم	(يسمع صوتها وهى تغنى فى الغرفة المجاورة)

« أقسم بالله ياحبيبى	إنك — من وحشتى — طبيبى
أنت حبيب لكل نفس	وكل قلبٍ من القلوب .

إنهــم أوشكوا أن يصلوا يارينيه ، فهل أعددت نفسك للقائهم . » ؟

رينيه نعم .

صوت الأم : لاتتأخر عن الذهاب إلى المحطة

رينيه وماذا يؤخرنى عن الذهاب ؟

صوت الأم : لقد ارتديت ثوبى النَّليّ الأسود وسبكون بلا شك جيلا .

رينيه هذا حسن جداً

صوت الأم : « عصف الدهر بآما ل محبّ مُستهامْ
وأبى الشوق على عيـ ن محبّ أن تنام
ومن الشوق سعير مثل مشبوب الضِّرام

* * *

شدّ مابلقى فؤادى من تباريح الهْيام
كم تذوّقتُ أفاويـ ق وصال ومُدام
وتحملتُ من الهجر أفانـين السـهام

* * *

سوف تخبو نار حبّى مالأمر من دوام
ثم أنساك وتنسا نى وينسانا الغرام
ثم لايبقى – على الأيّام – حب أو خصام»

(تدخل الأم وهي فى الخامسة والخمسين من عمرها أو تزيد ، وقد وخط الشيب رأسها قليلا ، ولـكن حركاتها وأسارير وجهها تنم عن عصارة الشباب ونضرته)

رينيه : ما أشد ابتهاجك يا أمى فى هذا الصباح !

الأم كلا ـ لست مبتهجة

رينيه كيف لا ؟ ألست تغنين ؟

الأم (بدون تفكير) ياحفيدى العزيز ، أغنى على مايغمرنى من الهموم والأحزان .

رينيه إن صوتك مايزال رخيما .

الأم لا أدرى ، وأؤكد لك أننى لا أفكر فى مثل هذا .

رينيه يارباه ، إن الأمور لست أسوأ مما ألفناه .

الأم أهكذا ترى ؟

رينيه نعم ، إذا استثنينا مرض جان .

الأم شد ما يغمرنى الهم ويستولى على الحزن يا ولدى ، ألا ينظر إلى كتبه ؟ ما كان أجملها ، ولشد ماتفيض نفسى باللوعة والألم ، حين أذكر أن بداية حياته كانت تبشر بفأل حسن ومستقبل رائع .

رينيه إنه ـ على ضعف بنيته ـ متعب منهوك القوى .

الأم لم يكن يوماً قوى البنية، نعم لم يكن قوى البنية ولا عاقلا، فقد قيل لى إن بعضهم وجدوه مصادفة وهو ملقى على الإفريز فى الرابعة صباحاً ، وهو يسير ـ ويداه فى جيبه ـ فماذا تريد بعد ذلك ؟

رينيه يالهذا الصغير من مسكين ، لشد ما أنهكت قواه !

الأم طبعاً . إنى عند ما كنت أغنى وكنت أتأخر للعشاء بعد انتهاء المسرح مع أصدقائى أو مع أبيك ، كنت أدفع ثمن ذلك

التأخر فى اليوم التالى تعبا وضنى جزاء إسرافى فى تلك الليلة الماضية . أما هو فإنه يدأب على السهر فى كل يوم ، فانظر إذن عقبى ذلك الاسراف وآخرته الوخيمة التى نعانيها الآن .

ريديه ما أشد عناءك أيتها الوالدة المسكينة الرحيمة !

الأم نعم ما أشد عنائى ياولدى !

ريديه ألا تجعلين للأمل سبيلا إلى قلبك ؟

الأم نعم ياولدى ، إننى متعلقة بالأمل ، ولكن من المؤلم المضنى ، ومن المؤيس المحزن، أن يبقى الأمل مدة طويلة بلا جدوى . خبرنى ياولدى ، أتظننا قد أصبنا حين بعثنا فى إحضار تلك الفتاة الصغيرة ريديه ؟

ريديه نعم أصبنا إذا لم يكن قد نسيها بعد . لقد تألم أشد الألم — فيما يبدو لى — من جرَّاء تلك الفتاة ، فلعله إذا رآها عاوده ذلك الألم فصحا وعاد اليه عقله قليلا ، فإن الألم كثيرا مايحفز الشعور ويوقظ الشارد الواله من حيرته وذهوله .

الأم هذا إذا استطاع أن يعرفها ، وما أجدرنا أن نبحث فى الوسيلة التى نسلكها لنذكره بها ، ونعيد إلى خياله صورتها. إنه لم يتكلم عنها قط .

ريديه كيف ؟ لقد نطق باسمها منذ أيام قليلة !

الأم آه . نطق باسمها ؟

ريديه نعم نطق به من غير أن يبدوَ على أساريره شىء من امارات التأثر والحزن ، فقد أرسل اسمها وهو خالى البال من غير اكتراث ، ومن يدرى ؟ فلعله لفظه من غير أن يعىَ مايقول

أو يفهم لهـذا الاسم مدلولا ـ بعينه ـ مستقراً فى ذهنه .

الأم هل يصل به عشقه إلى هذا الحد ؟ أإلى هذه الغاية البعيدة برّح به الوجد والغرام ، فما باله إذن لم يكاشفنى بامره ، و إلى أى حد كان حذرا فى الافضاء إلىّ بدُخلته وحقيقة وجده !

ريديه هلا تعجلت الأمر يا أمى ؟

الأم أظننى فعلت ، وسأذهب توًّا لألقى هذه الآنسة .

(رينه يبسم)

حقيقة إننى لا أفهم هؤلاء الفتيات، فإنهن مسوثفات من أنفسهن ، ولا يبالين ماينتظرهن .

ريديه إنهن لايفكرن فى شىء من ذلك يا أمى ، وليس لنا أن نحقد عليهن أن يحببن ماشاء لهن الحب من غير أن يكون لنا عليهن سلطان .

الأم صه ياولدى إنك تتحدث الآن إلى من كانت ـ من قبل ـ فتاة غضة الشباب. إن قلبى لم يكن يطلب سوى من يملكه ، إنما كل ما فى الأمر أنى كنت صعبة المراس ، فلم أجد بين هؤلاء الأولياء من هم على جانب من الجمال ، أو لعلى لم أكن أرتاح إلى أسلوب حبهم إياى ، ثم انتهى أمرى بأن لقيت أباك .

ريديه لاتحمليه مالا يطيق .

الأم هذا على سبيل التحدث إليك ، ولكنى لم أحبّ أحدا كما أحببت شقيقك ، و إن كنت لم أره تاتا يتألم من أجلى أو يرثى لما أكابده .

رينيه وهل لاحظت ذلك يا أمى ؟

الأم		طبعا

ريديه		حسن

الأم		وأخيراً يجب عليّ ألاّ أسئ حكمى على هذه الفتاة ، فقد قبلتْ راضية أن تحضر إلينا دون أن تنتظر أملا أو رجاء ، وهذا جميل منها ، ولقد كان كتابها ـ فى الحق ـ غاية فى الرقة .

ريديه		نعم .

الأم		فما أسعد الحظ يا رينيه الذى جعلنى أفكر فى صاحب الغبطة « لسكور » ، فقد ظهر لى أنه عم قريب لأسرة هذه الآنسة . وقد أحسنت صنعا بأن كتبت له كما ترى . فلولا هذا القسيس لما كانت تأتى بدون ريب ، إننى كنت مغنية كما تعلم . آه ما أشد بلاهة الناس .

رينيه		(وهو يرسم بدون تفكير) نعم .

الأم		سينزل القسس ضيفا على البارون وهو سيجىء بين وقت وآخر لتناول الغداء أو العشاء هنا . ماذا تريد بعد ؟ إنه صديق قديم لطيف كثيراً ومحبوب كما ترى ، وقد كان كذلك منذ ثمانى أو عشر سنوات على الأقل . . وأظن أن حضور هذا الدخيل لن يضجرك كثيراً ؟

ريديه		بل على العكس

الام		وهل ستصير أنت عاشقاً أيضاً ؟

ريديه		عاشقا لمن ؟

الام		للآنسة التى نتحدث عنها

رينيه	يالك من مسكينة يا أمّى

الأم	أنت تدرى كيف أستطيع سريعاً أن أخبرُ الأمور لأن الشبان لايحسنون النظر .

رينيه	ولـكنهم يتمسكون بما يطبب لهم .

الأم	نعم . . . . نعم . . .

رينيه	إن من ميزة السن الناضجة إجمال الغلطات وإعادة النظر فى القضايا .

الأم	وأى قضايا تعنى ؟

رينيه	(بكاية) القضايا التى كسبت والقضايا التى خسرت .

الأم	(تنظر اليه)
ألا تراك سعيداً أنت ؟

رينيه	لقد أعدت النظر فى قضاياى المختلفة

(سكوت قليل)

الأم	الأمور منظمة تنظيما سيئاً لك ياولدى . . . إن زوجتك ...

رينيه	بربّك يا أمى . . . . !

الأم	أوه . . . لست أريد أن أحدثك عنها بخير .

رينيه	ولا أريد أيضا أن تذكريها بشر .

الأم	ياولدى . . . اذا أردت . . . إن المستقبل . .

رينيه	لنأكل ياوالدتى خبزنا اليومى ولا نفكر فيما يَخْبَؤه لنا القدر

الأم	(بتنهد)
ليس كل هذا مما يسر ويشرح الصدر . إنى تركت الملهى

لأجلكما يا ولدى عند ما كبرتما ، ومع هـذا فلم يجد ذلك نفعاً كبيراً. فلى ولدان أحدهما مخبول حل به المرض، والثانى تعس حل به الشقاء .

ريديه لم يحلّ بى الشقاء ، ولست تعساً ، فأنا لا أزال بخير .

الأم حسن هذا ما دمت مرتاحاً له .

(ينتقل إلى مواضع أخرى من الحديث)

لا تنس أن تمضى فى إحضار الحَمَام من عند الأم «كوريديه»، أين شقيقك ؟

ريديه فى غرفته.

الأم ماذا نقدم من طعام للقسيس يوم الجمعه ؟

(يظهر جان فى أعلى السلم)

جان هأ نذا يا أمى .

الأم كيف تجدك فى هذا الصباح ياجان ؟

جان أجدنى فى أتمّ صحـة . ما أجمـل ثوبك يا أمى ، فمن ستتزوجين ؟

الأم لا أحد ، ولـكن سيكون عندنا ضيف يتغدى معنا

جان إذن فستتغدى بشهيه .

الأم إنك لا تأكل بشهيه كعادتك .

جان بل آكل أحسن من ذلك ، فمن الذى سيتغدى ؟

الأم رجل جاء ليراك . . .

جان يجب إذن أن أصنع بعض الشصوص فليس عنـدى

منها شيء، وربما أحب هذا الضيف أن يصيد سمكا بشص منها.

الأم لاتتعب نفسك فقد لايكون غالباً فى حاجة إلى ذلك ، فهو صديق قديم ، هو القسيس لسكور ألا تعرفه ؟

جان آه . . نعم . . من ؟

الأم قسيس بلوا

جان نعم . . . ذلك الذى يشبه يد مظلتك التى أهدتها إليك السيدة إمبو .

الأم لا . بل أنت تخلط بينه و بين القومندان .

جان أخلط بينه و بين القومندان ؟ فيجب أن أعرف ماذا يشبه !

الأم إنك لم تر القسيس لسكور منذ عشر سنوات على الأقل .

جان آه ؟

الأم ألا تذكر ؟

جان لا

(بعد تفكير)

إنه لشيء تعس .

(يجلس هادئا وهو يبتسم)

الأم نعم ياولدى جان . وذاكرتك كذلك .

جان نعم

الأم يجب ألا تَدْهَشَ لذلك .

جان هذا طبيعى

الأم إن منا من يقول لك شيئا ومنا من لايقول .

(تشير بطرف عينيها إلى رينيه ليشترك معها فى التجربة)
لقد وقفت يوما فى مذكرة صغيرة على أسماء كتب كتبتها
منذ سنوات ، ولست أذكر وجوه أصحابها ، فهل تذكر
يار ينيه جان سلبر ؟
(كان رينيه عند ذكر كل اسم يبدى إشارة سلبية)
السيدة ألان ؟ لوسيل مرغريت ؟
(ثم تقول لغرض خاص)
نيللى . . نيللى —

جان نيللى كواسلين ؟

الأم هل تعرفها ؟ هل ذكرتها الآن ؟

جان (بهدوء)
أعرفها جيداً . نيللى كواسلين . .

الأم ومن تكون ؟

جان آنسة شابه ، ولكنها لا تسمى كذلك الآن .

الأم ولماذا ؟

جان لأنها تزوجت

الأم أواثقٌ أنت ؟

جان نعم .

الأم إنك تخلط .

جان كلا . إنها تزوجت ، وأنا أعرف زوجها

الأم وهل رأيتها ؟

جان　　كلا . بل رأته هو .

(تشير بعينها لرينيه إشارة مؤلمة)

الأم　　(باستسلام)

قد تكون على حق ياولدى . . هيا يا ولدىّ إلى اللقاء القريب . . لاتنس يارينيه ولا تتأخر

جان　　(بكثير من السرور)

إلى اللقاء القريب ياسيدتى .

الأم　　قبل الغداء يجب أن ترسل لى كتابا بالبريد ياصغيرى جان

جان　　بكل سرور

الام　　فى خمس دقائق

(تقول لرينيه)

لا أود أن أكون هنا عند مجيئهم.

(تقول لجان وقد تمدد على الأريكة)

هل أنت مستريح هكذا ؟

جان　　كثيراً . . فقد استيقظت وأنا أحسن حالا مما لو كنت نائما.

(الأم تخرج)

رينيه　　هاك القلنسوة التى حسبتها فقدتْ

(يعطيه إياها)

لقد وجدها فرنسوا الشيخ .

جان　　وأين وجدها ؟

رينيه　　عند الغدير ، تحت شجرة صفصاف.

چان　نعم أتدرى ماذا يشبه فرنسوا ؟

رينيه　لا ياصغيرى .

چان　يشبه الخزام .

رينيه　آه .

چان　نعم بسبب الانفراط الذى بوجهه — إن للخزام شيئا من البركة والشرف . نعم إنه يشبه الخزام .

(رينيه يضحك بدون اقتناع)

إنى أعرف أشباه كل الناس ، وإنى لأتبين هذا لأول وهلة . فعندك الصيدلى جالاديس . . لقد قلت له أمس « إنك ياجالادبس تشبه القنفذ »

فظهره وعينه الصغيرة كالقنفذ . ولا يوجد أحد لاأستطيع أن أجد لى شبيهاً إلا أنا ، وقد أطلت النظر فى المرآة ، فلم أجد ما أشبه نفسى به . على أننى قد وجدتنى حسنا

رينيه　نعم . . فلا تجهد رأسك .

چان　هذا لايجهدنى بل يهمنى . وإنى أود أن أتعلم جيدا كما تعرف .

رينيه　ابق ساكنا ياچان ولا تفكر فى شئ

چان　يالك من معتوه ! لماذا لاتريد منّى أن أفكر فى شئ ؟ ألأنى مجنون ؟ إن هذا لايحول دون التفكير

رينيه　اسكت . ألا تريد أن تسكت ؟ إنك لست مجنونا

چان　بل أنا مجنون يارينيه . . إنى أؤكد لك ذلك

رينيه　أنت لاتدرك ماتقول .

جان فماذا أكون إذن ؟

رينيه أنت تعب مجهود، وكل الناس تصادفهم فترات من التعب .

جان هذا رأيك ، ولكنني أعرف أنني مجنون . وأعرف أنك لا تلاحظ ذلك .

رينيه كفى ياصغيري العزيز . ألا تريد أن تسكت ؟

جان إنني محزون ياريديه، فإن ذاكرتي ليست من الجلاء والصقل بحيث أدرك ماأشعر به. على أنني لاأدرى أأنا الآن أتعس حالا مما كنت من قبل ؟ . . ماأظن ذلك .

رينيه إنك لم تكن يوماً تعس الحظ. نعم لم تكن أبداً تعس الحظ .

جان اصغ إلي . . إنني لا أستطيع أن أؤكد لك شيئاً . ولكني — على ذلك — أعتقد أن ما أقول هو الصحيح. وسأذكر لك لماذا ، وإنني إن أجهدت نفسي فربما أستطيع أن أتذكر ، ومع هذا فأنا لا أحاول ذلك، وأشعر بأني في غير حاجة إلى هذه المحاولة .

رينيه حاول التحرر نه على كل حال.

جان أتريد ذلك ياريديه ؟ أتريد ذلك حقا ؟

(يجهد نفسه في البحث بحالة ظاهرة)

حدث يوما أن « هرفيه » الكبير ارتدى معطفا لونه رمادى غامق وكانت السماء تمطر بعد ظهر ذلك اليوم ولم تكن مع «بريدل» المسكين مظلة تقيه المطر . . وكان والد « هرفيه » جنرالا .

رينيه و بعد ؟

جان أوه !! إنك تتعبنى يار ينيه . . فقد كنت فى حال حسنة .

رينيه نعم ياعزيزى فلا تجهد نفسك فى البحث والتذكر . هل لك أن تصنع شصا ؟

جان لقد كسرت ما كان عندى أمس . أنظر كم ترى هذا الشص متينا وخفيفا . إنك لتستطيع أن تشده بكل قواك دون أن ينكسر

رينيه (يشد من قبيل الملاطفة)
سل نفسك ياعزيزى جان.

جان وعندك كثير من العمل هذه الأيام ؟

رينيه كالعادة . عندى مايشغلنى ، فأنا أصنع تخطيطا لقصر صغير يريد صاحبه أن ينشئه فى سان ماري . وبعد هذا أعمل تخطيطا آخر لرجل آخر . . وهكذا .

جان إنك لاتحب عملك كثيراً يارينيه !

رينيه لماذا تقول لى هذا القول مادمت أنجز عملى بدون ملل

جان نعم . . ولكن بدون سرور

رينيه هذه مسألة أخرى .

جان لماذا ؟

رينيه لأنه ربما ضعف الميل للعمل مع طول العهد .

جان نعم . . نعم . أنا مدرك جيداً . فأنت مكب كل يوم على عمل متماثل، وتظل تقضى حياتك سابحاً فى بحيرة تريد الخروج منها ثم لا تخرج .

رينيه	هو كذلك ياعزيزى،وقد أصبت الرأى فأنت تقول ماتراه .

چان	نعم أنا أقول على ما أعلم .

رينيه	(يهول بمرارة)

ومن فضل عملى هـذا أنه يمفل حياتنا جيعا،وآنا لا آطلب إليه أ كثر من ذلك . كن لطيفا وابر لى هذا القلم

(حان يبرى القلم بانتباه وقتاً وجيزاً)

حان	إنى أشكرك لأنك تعمل من أجلى.

رينيه	إنك تداعب . وليس أحب إلى من مداعبتك.

حان	أتحبنى كثيراً ؟

رينيه	نعم ، أحبك الحب كله .

حان	ومع هذا فأنا لا أستطيع أن أساعدك . . إنها لخسارة . حتى القلم ها أنت ذا ترى ما أنا فاعل به .

(تكسر رصاصه القلم)

رينيه	أعطنيه .

حان	انتظر فقد كسرت الرصاص .

رينيه	كلا كلا إنه حسن جداً وهو بهذه الحالة.

چان	أترى ذلك ؟

رينيه	نعم وأشكرك .

حان	إنه لخير للإنسان أن يستطيع العمل ولو كان لا يحب عمله . حَذارِ أن تمرض يا رينيه ، وصدقنى أنى أقول لك هذه وأنا جاد فيما أقول .

...

رينيه ولـكنك أنت . أنت نفسك اشتغلت كثيراً ، كثيراً جداً ، وستستأنف عملك عند ما يتم لك الشفاء ، وما هى إلا غمرة ثم تنجلى .

چان لا أدرى ، وأنا لا أثق بذلك .

رينيه هو ماقلت وسترى .

چان أتظن ذلك ؟

رينيه نعم ، وقد بدأت بداية حسنة .

چان بدأت بداية حسنة ؟

رينيه وكانت جميع رغباتك مباحة لك ياعزيزى .

چان خبرنى وهل أنا أفضل مما كنت وأنا صغير ؟

رينيه إنك لترى ذلك .

چان نعم . وكل مافى الأمر أننى توقفت .

رينيه إلى أجل .

چان أليس هـذا شقاء وتعاسة ؟ قل . لقد كنت بدأت بداية حسنة . إنى لا أذكر ذلك جيداً ، ولـكن مادمت أنت تقول ذلك فهو شقاء وتعاسة .

رينيه كنت تريد أن تعيد قراءة كتبك ، فهل فعلت ؟

چان لقد بدأت فى ذلك وكنت أقرأ قليلا فى كل مرة ، وثمة أشياء صغيرة بسيطة تعجبنى كثيراً وتستهوينى وإن كان هناك أشياء كثيرة يستعصى علىّ فهمها ، إذ ليس لها معنى .

رينيه (ينظر اليه)

عجيب .

چان　　أحقق لك ذلك، فاصغ الىّ.

(يتناول كتاباً من فوق المنضدة ويقلب صفحاته سريعاً ويقرأ :)

«أيها الحب عنيف أنت جدّاً　　وثقيل الظل، مرهوب الشذاة

أنت مُرُّ الطعم ، شُهْدٌ مستساغٌ ،　　أنت جَهْم الوجه، حُلو البسمات

أنت كالحبل – علوّاً وهبوطاً –　　تحت أقدام العوانى الراقصات

أنت – فى عنف – كقلب الطفل قاسٍ　　لا يبالى ما أتاه من أذاة

فارغ حاو ، كمنطاد صغيرٍ　　فى يد الطفل ، وصلْدٌ كالصفاة

صاخب أنت ، وقاس ورحيم　　مفرط القسوة، جم الرحمات»

(يقفل الكتاب)

هذا كلام لا معنى له ، ولعلى كنت مريضا كثيراً ، قبل أن أصبح مجنونا.

ڤينيه　　اسكت ولا تفكر فى ذلك .

چان　　لا – أنا ذاهب للصيد .

ڤينيه　　لتكن موفقا فى صيدك .

چان　　إنى لا أظفر بشئ ، فإن هذه الأسماك قليلة الشجاعة وقليلة الثقة بى للغاية، فهى تخاف وترتاع وتمضى مسرعه كأنها ضاربات سكين فى الماء .

ڤينيه　　هل كنت تصيب شيئا منها من قبل ؟

چان　　نعم – عندما كنت أصيد فى المستنقع . أما الآن فانى أصيد النّينان السليمانية فى الغدير ، أتدرى ؟

ڤينيه　　ما هى هذه النينان يا عزيزى ؟

چان　　اسمها هكذا.

رينيه نعم . نعم — هى نوع عجيب الشكل .

جان هى غاية فى السرعة يارينيه . غاية فى السرعة . ولم أوفق بعد إلى صيد شىء منها . وانى أتربص لها بكل يقظة وعناية . ولا يمكن أن ترى شبيها لهذه الشصوص فى الجودة ، ومع ذلك فإنها تمر دون أن تقف .

رينيه ستصيبها الآن فاذهب .

جان إننى كثير الصبر ، فلن أضجر .

(يضع القلنسوة ويقف ، ثم يهم بالانصراف ويتكىء على المائدة التى وضع عليها رينيه رسوم خططه)

سيكون بيتهم هذا كبيراً ؟

رينيه إنه مركب من طابقين بها اثنتا عشرة غرفة .

جان وفى أى غرفة من هذه الغرف يموتون ؟

رينيه اسكت اسكت .

جان لو كنت تعرفها لعنيت بها بصفة خاصة .

رينيه نعم ياعزيزى الصغير .

جان يجب عليك أن تتزوج يارينيه .

رينيه أترى ذلك ؟

جان على ما يظهر لى .

رينيه إن التجربة الأولى لم تنجح معى جيداً

جان تريد أن تقول إنها خدعتك ؟ هل خدعتك كثيراً ؟

رينيه (بضيق قليل)

لا أعرف بالدقة ياصغرى .

حان هذا بالتحقيق . فإنهن عند ما يبدأن فى خداعك لا يمكن أن يكون هناك أمل فى أن يقلن لك بعد ذلك الحقيقة برمتها. ولو أننى فى مكانك لتزوجت لأرى

ريديه وأنت . ألا تفكر فى أن تتزوج ؟

حان إنى مريض .

ريديه وعند ماتشفى ؟

حان سأكاشفك بالباعث الذى يحول ـ فيما أظن ـ دون زواجى، فإما أننى لن أحب زوجتى، أو أننى لأول نظره لاأعرف ما ذا تشبه زوجتى وهذا مما يضايقنى. وإما أننى ساملها حين لا أرى لها شبيهاً أعرفه ، ولكننى أقطع وقتى أسائل نفسى عن ذلك ـ أفهمت ؟

ريديه نعم ياصغرى هذا حسن جداً .

مارى (معها كتاب فى يدها)
هذا يا سيدى حان كتاب لك . وسيدتى تطلب إليك أن تذهب فى الحال . نعم فى الحال .

(تشير لرينيه بأن يعمل على إبعاده بأسرع مايمكن)

حان سأذهب حالا . وإلى الملتقى القريب . وسأعود يا ريديه لتناول الغداء.

رينيه عجل بالذهاب .

حان نعم.

الأم (تدخل مسرعة)

هل ذهب أخوك؟ الحمد لله . إنهما عند المدخل وقد سبق أن قلت لك لا تتأخر.

ريبيه هل جاءا ؟

الأم وسيصادفهم أخوك، وليس هذا من حسن الحظ الذى كنا نرجوه.

(تذهب إلى النافذة)

لا إنه خرج من باب الحديقة . اذهبي ياماري . هاهما قد أقبلا ياربيه .

(يمر وقت قصير ويكون ريبيه ووالدته واقفين ، ويدخل القسيس لسكور والآنسة بيللى كواسلين ، القسيس ليسكور طويل القامة معتدلها، عمره ستون سنة، مرفوع الجبهة عريضها ، وهى مكشوفة ، وبيللى كواسلين فتاة شابة صفراء الشعر ، يدل مظهرها على الحياء والجرأة فى آن واحد)

القسيس لقد جاء بنا صديق فى سيارته ، ونخشى أن تكونى قد أوفدت أحدا من قبلك لانتظارنا فى المحطه .

نهارك سعيد ياسيدتى .

(ويمد لها يده ، وتتردد فى تقبيل خاتمه ، وهو من الكهرمان وتنحنى ماريا ويداها على صدرها ويقدم لها القسيس الخاتم .)

الأم لنا وقت طويل لم نرك فيه ياسيدى.

القسيس منذ بضع سنوات ياسيدتى .

الأم ونحن صديقان قديمان ــ ما قولك ياسيدى ؟

القسيس كنت أعرفك ، وشعرك مرسل على ظهرك

الام فى العهد الذى كنت تلبس فيه البنطلون القصير . لقد كان ذلك زمننا السعيد ياسيدى .

القسيس أشكرك وأشاطرك الأسف على ذلك الزمن .

الأم هذا ولدى رينيه السليم الصحة .

القسيس نهارك سعيد ياسيدى

رينيه (يحى ويصافح القسيس)

هل كان سفرك حسنا مريحا ياأبانا ؟

القسيس غاية فى الحسن والراحة.

(تقدم نيللى التى كانت واقفة على مسافة غير بعيدة)

الآنسة كواسلين .

نيللى سيدتى

الأم (تنظر إلى الفتاة بتعفف وعدم ثقة وبعطف)

لقد كنت يا آنسة أكون أكثر سعادة لو عرفتك فى ظروف أخرى . . . ولكن هكذا قُدِّرَ . . . ولن نستطيع أن نغير شيئاً وإنى لاشكر لك محبتك من كل قلبى ، وإنه لَصنيعٌ جميل منك ، وسنعمل على أن نرد لذلك الابن المسكين عقله قليلا. فاسمحى لى أن أقبلك يا آنسه . . ولعل شفاءه يكون من حظنا معا . وأحقق لك أننى اليوم فى أمس الحاجة إلى معونتك .

(يتعانقان)

نيللى لقد كنت أجهل ياسيدتى أن جان مريض . وقد تألمت كثيراً عندما علمت ذلك

الأم لابد أن يكون سيدى القسيس قد أخبرك بما نأمله ونرجوه . إن جان لم يحدثنا عنك من قبل . ولكنا علمنا حين

قرأنا كناشته الصغيرة ، أنه يضمر لك حُبًّا مُبَرِّحا كما تقولين . نعم . قد يحدث أن السرور الذى يفعم قلب مريض يكون أعظم أثراً من أى شىء آخروعلى هذا . . .

نيللى إذا كان فى وسعى أن أدخل على قلبه السرور فإنى أفعل ذلك من كل قلبى .

الأم ألسى كذلك ، لقد قمت بسفر سعيد يا آنسة .

نيللى أشكرك ياسيدتى .

الأم لقد أعددنا لك عرفه حسنة ، ولى كبير الأمل فى أنك لن تتركيها عاجلا .

نيللى هل حان مرغم على أن يظل راقدا ؟

الأم لا . . لا . . لا . . إنه خرج الآن فقط .

نيللى حرج ؟

الأم نعم خرج ، وحالته حسنة أيضا .

نيللى (يظهر عليها شىء من الدهشة)
وما هى علته ؟

الأم ألم يخبرك بها حصره الأب .

نيللى لفد حدثنى أنه مصاب بضعف شديد .

الأم (تقول لرينيه بحزن)
ألا يجدر بنا أن نخبرها ؟

رينيه بالطبع باوالدتى .

نيللى نعم – إنى أوثر أن أقف على ذلك .

الأم ليس هذا بالأمر الهين على أم . إنه لقاس عسير أن أحدثك به

رينيه إنه متعب الرأس يا آنسة . فقد ذاكرته وأصبح لا يملك أن يجمع أفكاره .

نيللى (متأثرة)
أحق ما تقول ؟

رينيه نعم .
(يشرد فكر الفتاة وتلبث محزونه)

الأم إنه لن يروعك لأنه ألطف منه فى أى وقت مضى . وهو يتكلم أحياناً بغاية التعقل والتنبه . وغاية الأمر أنه نسى — على ما يظهر — كل ما مضى قبل أن يصاب بهذه العلة ، ولم يبق فى ذاكرته سوى بعض تذكارات صغيرة طافية على صفحة ذهنه ، ثم هو يخلط أيضا بين كل هذه الذكريات فى رأسه .

نيللى أوه .

الأم نعم — إن هذا ليس مما يسر . ولنا عظيم الأمل فى أنه عند ما يراك أو يسمع رنة صوتك ..

القسيس (وكان منذ لحظة يقلب صفحات كتاب على المائدة)
وهذه أشعاره ؟

الأم نعم — آه لو كنت تعلم مبلغ حزنه ؟ وهل قرأتها يا آنسة ؟

نيللى (دون أن تجيب مباشرة)
لقد أرسل إلى كتبه .

الأم فى وسعك أن تقرئيها إذن لترى أنه يتحدث عنك فيها أكثر مما يتحدث عنى .

(نيللى لا تجيب بشىء)

لماذا يا آنسة سببت لولدى كل هذه المتاعب والعناء ؟

نيللى ما كنت أحسب ياسيدتى أنى سأسبب له مثل ذلك الألم

الأم ألا ترين أنه جدير بعطفك ؟

نيللى لقد كنت أحبه كثيراً .

الأم طبعا وليس هذا هو مايطلبه إليك هذا المسكين . أما أنا فلست حاقدة عليك شيئاً ، ولكنا نريدك على أن ترى إلى أى حد وصل

ريد أمى !

نيللى إننى لم أسئ إليه ياسيدتى .

الاسقف لا — إن ألمه فيك كان كبيراً ، وإن نفسه كانت قلقة متوثبة .

نيللى إنى أؤكد لكم أنى لا أستطيع أن أصدق ذلك .

القسيس ألم يكاشفك بذلك تماماً . ؟

نيللى كاشفنى بهذا ! . . ولكن فى كلمات

القسيس اقرئى الأشعار التى قرأتها الآن .

نيللى إن الكلمات المكتوبة . . .

القسيس إنك قليلة التصديق .

الأم هكذا كَتَبَ يا سيدى — انظر الى هذه الصفحة وحدها

(تقدم للقسيس كراسة صغيرة مفتوحة فيتلو الصفحة)

القسيس نعم إنها تحوى آلاماً كثيرة

(يقدم الكراسة للفتاة ويشير لها بإصبعه على موضع آلامه)

نيللى نعم — ربما كنت قد سببت له شيئاً من العناء فى الأوقات

الأخيرة ، فإنني ما كنت أراه إلا نادرا .

الأم — ولماذا ؟

نيللى — (بكل صراحة)
عند ماعرفته ، كنت أحبه كثيرا ، وكان يسرني أن أراه ، وكان ـ فيما يبدو لى ـ سعيدا وأنا لم أكن أقل منه سعادة .

الأم — أفما كان يجب أن تستمرى على ذلك ؟

نيللى — نعم .

الأم — وبعدئذ ماذا جرى ؟

نيللى — تغيرت حاله وصارت محبته قليلة الاحتمال وثقيلة للغاية ، فصرته من حيث لا أريد ، وأحسب أنه هو الذى أضر نفسه لأننى صارحته ولم أحاول خداعه ، فسرعان ما أصبح عابساً مهموما ، ولم أجد نفسى فى اطمئنان إلى صحبته .

القسيس — وهنا حل به العذاب .

نيللى — نعم وأخذ يزداد وجده على مَرّ الأيام ولم يعمل شيئا لتبديد آلامه .

القسيس — وهنا أنشأ ينظم أشعاراً حزينه فياضة باللوعة والألم .

نيللى — نعم .

الأم — لقد كان هذا التعس دائما مرتبكا .

القسيس — هذا لأنه وضع حبه فى غير موضعه ، ومثل هذا يضاعف الألم .

نيللى — ما كنت أحسب أن ألمه يصل إلى هذا الحد . والعجيب أنه عند ما كان يتحدث إلىّ عن أحزانه ، كان يهزأ بها ساخرا بلا مبالاة .

القسيس لأنه كان فخورا متكبراً دون ريب . وهذه طريقة لمضاعفة آلامه .

الأم وإني على يقين من أن نيته كانت معقودة على الزواج منك.

نيللي لم يوجه إلى هذا الطلب ياسيدتي .

القسيس لقد وجهه إليها ولكنها كانت خائفة.

نيللي . . . .

القسيس أليس كذلك ؟

نيللي نعم — لقد كنت خائفة أن أحمل أعباء نفسه المهمومة ، كنت خائفة . . . فلم أقبل . . . وقد حزنت كثيرا عندما علمت أنه مريض .

الأم نعم . إن ولدي مريض . ورجائي إليك أن تكوني رفيقة معه ، فإذا عاودته الذكرى حين بلقاك بشيء من أفكاره القديمة فلا تشطي عزيمته بسرعة ، يالله — إننا لم نكن متدللات على أننا طالما ألعينا حولنا ، — ونحن فتيات — شبانا كانوا يحبوننا أو كانوا يظنون ذلك ، ومن المحقق أننا ما كنا راغبات فيهم ، ولكن كلمة مجاملة كانوا يسمعونها منا طالما نفَّست عنهم وهبتهم الصبر وكانت الواحدة منا تقول : « نعم . . . نعم . » ثم هي لا تفعل شيئا ، ولكن الزمن قد تبدل ، ولقد طالما أسفت — وأنا أدرج إلى شيخوختي — على أنني لا أستطيع

أن أقول هذه الكلمة البسيطة لأفرج بها عن أحد . إن الواحدة منا لتكون قاسية ، وهي شابة ، ألا ترى ذلك ياسيدي القسيس ؟

القسيس نعم .

(وينظر إليها في صمت . ولا تجد أحد ماتقوله)

الأم سأرتك ياسيدي القسيس القاعة الصغيرة التي هيأتها لك لتأوي إليها التماساً للراحة متى أردت . . .

القسيس ما أكرمَ نفسكِ وأنبلَها ! .

الأم إلى أي شيء تنظر ياأبانا ؟

القسيس إلى هذه الصورة .

الأم هي صورتي .

القسيس أعرف ذلك .

الأم هي صورتي عندما . . .

القسيس نعم .

الأم عندما بدأت العمل في المسرح .

القسيس أذكر ذلك.

الأم بارك المنزل ياأبانا .

(القسيس يبارك والأم تدعو ، وريتيه تجيء ونيللي تفكر)

تعال من هنا ياأبانا ، وأنت ياريتيه ابقي مع الآنسة .

(تخرج الأم والقسيس)

ريتيه ألا يسرك ويرضيك مايطلبانه منك ؟

نيللي (تهز كتفيها) آه

رينيه	أفى استطاعتك أن تقفى قليلا من وقتك على هذا العمل الكريم ؟

نيللى	أوه ـ أقف كل حياتى .

رينيه	وإنى لآمل أن تستغلى هذا الوقت خير استغلال ، وأرى أن ذلك خير لك وله .

نيللى	من يدرى ؟

رينيه	لقد أردنا أن نحاول مع جان هذه المحاولة .

نيللى	نعم .

رينيه	وكلنا امل فى نجاحها .

نيللى	حقق الله آمالنا .

رينيه	ألست على ثقه ؟

نيللى	ولماذا تحدث رؤيتى مثل هذا الأثر فى نفسه ؟

رينيه	(بقليل من التردد)
لأنه هام بحبك حتى جُنّ .

نيللى	. . . . .

رينيه	ألست مصدقة ؟

نيللى	إننى كثيرة الشك .
(تبدو على وجه رينيه ابتسامه خفيفه)
قل ـ قل .

رينيه	ماذا ؟

نيللى	ما كنت على وشك أن تقوله ، فإننى كلما أظهرت ارتيابى فيما أسمعه أجابونى بأننى ما أزال فى سن الشك التى من

قواعدها ذلك . فمل هدا أنب أبضا .

ر بديه إنك ترين أنى لم أنتفد عليك شيئاً . وأنا مثلك كثير الشك قليل التصديق .

نيالى وهل معنى هذا أنك غير سعيد ؟

ريديه كلا ، ولكنها عاده يعتادها الإنسان .

نيالى على أنها ليست عظيمة الخطر .

ريديه نعم — فى مثل سنك .

نيالى لقد أدركت ماتعنين

ريديه إن من الجور أن لاتكونى سعيده .

نيالى آه — أترى ذلك ؟

ريديه نعم — وفى هـذا البيت الذى ربما شعرت فيه بقليل من العزلة — هل لك أن تعدنى صديقا لك ؟

نيالى بكل سرور ياسيدى .

ريديه ألست على خطأ إذ قد عرضت عليك هدا الرأى ؟

نيالى أى خطأ فى هدا ؟

ريديه فى الصداقه أحيانا شىء مخيف قليلا.

نيالى لمن ؟

ريديه إنى أداعب بآنسة .

نيالى أيعود شفيقك عاجلا ؟

ريديه سيكون هنا حالا — فهل ترعجك رؤيته ؟

نيالى كلا .

ريديه وهل كنت ترضين أن تريه لو كان معافى غير مريض ؟

نيللى (فى لهفة وحماسة)

نعم .

ريبيه اعترفى أن رؤيتك إياه ستكدرك قليلا .

نيللى نعم قليلا . . إن حديقتكم بديعة رائعة الأزهار .

ريبيه نعم فهذا أوان نضرتها .

(تضع الفتاة على المصدة قبعتها وعمارها)

الأم (تأتى وهى تعدو مسرعة)

ريبيه . . . . جاء أخوك . . . . ويحسن أن تدع الآنسة منفرده .

أسألك المعذرة يا آنسة فقد بادر بالحضور على غير ما كنت أظن . هاهو ذا آتيا فهل تريدين أن يجىء هنا ؟

نيللى كما تريدين ياسيدتى .

الأم فلتبقيا وحدكما — وسنرى إذا كان يستطيع أن يعرفك . اصعد إلى غرفتك ياريبيه واترك بابها مفتوحا قليلا — أتسمحين يا آنسة أن أكون أنا والقسيس هناك — فإنى أريد أن أرى أول حركة تبدو منه ؟ آه — كم أنا متأثرة . . اصعد ياريبيه . . . وكونى معه لطيفة رقيقة يا آنسه . فلقد أحبك وهام بك — ربّاه ، تُرى ما الذى سيقوله — أسألك الصفح يا آنسة .

(تذهب ويصعد ريبيه السلم — وبعد وقت وجيز يسمع صوت جان ، وهو يغنى فى الحديقه . ثم يدخل ويقع نظره على نيللى ، فيقول بغير كبير دهشة ، بل بمفاجأة لذيذة .)

جان	ها أنت ذى يانيللى .

نيللى	أسعد الله نهارك ياجان .

(تمد له يدها)

جان	أسعد الله نهارك يانيللى — كيف أنت ؟

صوت الأم	(تصيح بمرح)

لقد عرفها !

جان	ما أجمل منظرك !

نيللى	لقد مضى زمن طويل .

جان	وهل اهتديت إلى المنزل بسهولة ؟

نيللى	نعم .

جان	لو أنك أنبأتنى بحضورك لذهبت إلى المحطة لانتظارك !

نيللى	لم أفكر فى ذلك .

جان	ألم يصحبك زوجك ؟

نيللى	إننى لست متزوجة .

جان	ألم تتزوجى ؟

نيللى	كلا .

جان	أحق أنك لم تتزوجى ؟

نيللى	لمّا أتزوجْ !

جان	لقد كنت مقتنعاً بأنك قد تزوجت ، ولهذا لم نلتق منذ زمن طويل ، ولم يكن لهذا الجفاء أى داع

نيللى	لم يكن له من داع بتاتا .

چان		عنـدما تسافرين سأذهب لأراك بباريس فى كل فرصة لأسعد بلقائك .

نيللى		عندما أسافر ؟ أهكذا تطردنى عاجلا ؟

جان		كلا — فإنى جدّ سعيد بأن أراك هنا . إنك لآية فى الجمال يا نيللى — ولقد كان ريديه على حق فيما قال ، ولكننى كنت مستوثقا من أنك تزوجت ، حتى لقد تمثلت زوجك نفسه ورأيته بشبه جواد ضابط ، فلم يعجبنى كثيراً ، إنى فى غاية السرور ، نعم فى غاية السرور . وسترينى غالبا بباريس — عندما يتم لى الشفاء طبعا ، فإنهم لن يسمحوا لى بالسفر قبل أن أشفى تماما .

نيللى		(تقول بحيطة واحتراس)
أمريض أنت ؟

جان		قليلا .

نيللى		وماذا بك ؟

جان		أنا ؟ أنا مجنون .

نيللى		(بحيلة سريعة)
أوه — لا .

جان		نعم — فإنى أعرف ذلك ، وكم من مجانين آخرين ولكنهم لا يعرفون أنفسهم .

نيللى		ما أراك جادًّا فى قولك .

چان		جادّ ومجنون فى وقت واحد ؟ هـذا كثير على فتى مسكين مثلى ! إن الجدّ والجنون لا يجتمعان ! آه . أنت تنظرين إلىّ ؟

نيللى نعم أنظر إليك .

جان وماذا يبدو لك منى ؟ أسوءك مظهرى أم ماذا يريبك منى ؟

نيللى كلا . بل أنت — على العكس — تبدو أكثر نشاطا وأصح جسما مما كنت .

جان لقد استرحت جيداً

نيللى إن منظرك أكثر هدوءاً وأسارير وجهك تدل على أنك أقل هموما .

جان لست عندى هموم ، وكل ما أريد هو أن أرى زيدنه متزوجا ، ومار يا العجوز أقل تدماً وتعداداً ، أما أنا فلست بمهموم .

نيللى إنى على يقين أنك لا تشعر الآن بشيء من الهموم أو البأس كما كنت من قبل .

جان أعندى هموم أو بأس ؟ أعندى أمراض ؟ لا — ليس عندى شيء من ذلك ، ولكن ليس عندى أمل . وأنت — هل أنت مسروره ؟

نيللى (بدون اكتراث)

نعم

جان إنك تقولين ذلك بامتعاض .

نيللى لأننى محزونه متألمه .

جان ولماذا ؟

نيللى لو كان لحزنى أى سبب لكان من السهل علاجه .

جان (بحزن)

أيتها الصغيرة — أيتها الصغيرة .

نيللي لاتتأثر — فإن مابى ليس بالأمر الجلل .

جان شد ما يؤلمني أن يتملكك الحزن .

نيللي أحق ما تقول ؟

جان كل الحق .

نيللي آه !

جان أأنت غير مسرورة ؟

نيللي وغير مستاءه

جان اصغى إلىّ — يجب أن تتزوجي.

نيللي أحِبُّ بها وكرد !

جان نعم . . . . نعم . . . .

نيللي (تنظر إليه)

أتريد أن أتزوج ؟

جان كنت أحزن لو قلت لى :

« لقد أحببت وإنى سأتزوج »

لأننى حينئذ أقول فى نفسى متألما :

« هاهى ذى قد سافرت ولن أراها أبداً »

ولكن يجب أن تتسامحى معى قليلا، ففى حالتى يتسنى للإنسان أن يغضى عن أمور كثيره .

نيللي إننى لا أفكر فى الزواج ياجان وماأنا براغبة فيه .

جان يجب ألا ترددى فى أن تقولى لى هذا .

نيللي لا أتردد قط .

چان	حسن . إذن فلنبحث عن العلاج فى ناحية أخرى . علاج همك

نيللى	ولماذا ؟

چان	نعم – نعم . خبرينى ما الذى تشعرين به ؟

نيللى	أشعر أنى عجوز كأمنا الدنيا .

چان	نعم إن هذا مما يضايق حقا، وأنا لم ألتفت إلى شئ من ذلك – ثم ماذا ؟

نيللى	لا أدرى – وأنا لا أرجو شيئا .

چان	ولماذا ؟

نيللى	لأنى لا أدرى أى شئ أرجوه .

چان	ماذا كنت تقولين لو أنك مللى قد حيل بينك و بين كل رجاء وأمل.

نيللى	وكيف حيل بينك و بين الأمل ؟

چان	بسبب مرضى أجدنى خائفاً كثيراً من أن أرجو أو أتمنى أشياء جنونية ، ثم أذكر ذلك بعد – وهذا ما يضنينى ولكن أنت . ما الذى يسرك و يرضيك ؟

نيللى	إذا اهتديتُ إلى معرفته فسأقوله لك يوماً .

چان	وإذا كنت لا تعرفينه، فإن هذا دليل على أنك مريضة مثلى.

نيللى	ماذا تقول ؟

چان	يجب أن نعْنَىْ بنفسك ، فهل لك أصدقاء ؟ هل لك أصفياء يمحضونك الود ؟

نيللى	(تقلىل من الحزن)
لم أجرب أحداً منهم .

جان نعم . إنك لم تعتمدى عليهم ، وإذن فسأطلب منهم أن يعنوا بنا جميعا ، فهل تريدين ؟ حتى إذا ما شفى أحدنا ينتظره الآخر .

نيللى (تضحك)
فلتكن .

جان أتعدينني بذلك ؟

نيللى نعم .

جان اعتمدى علىّ . فانى سأبذل كل مافى وسعى فى تحقيق رغبتك، وإنى لأشكرك من أعماق قلبى على حضورك .

نيللى أرى أننى أحسنت بحضورى ؟

جان كل الاحسان — لقد كنت أفكر فيك ، ولكن ذاكرتى عنقودية. فلو أننى لم أرك بعد هذا مرة ثانية لنسيتك لامحالة.
(متحمسة فرحة)
لقد أحسنت بحضورك ، وإنى لمبتهج مسرور بذلك ، وأريد أن أقبلك.
(يقبلها عدة مرات وهو يضحك ،فتتركه يفعل مايشتهى بارتياح)
أتحبين الصيد بالشبكة ؟

نيللى لا أعرف الصيد .

جان سأصحبك معى لصيد السمك ، فانتظرى .
(ينادى)
ماريا ، وستعرفين أيضاً أن القسيس يشبه — لا إنى أخلط بينه و بين الفومندان .

ماريا (تدخل)

ماذا يريد سيدى جان ؟

جان   أجلسى الآنسة إلى جانبي على المائدة أمام النافذة ، فإذا جاء الشتاء فأجلسيها إلى جوار المُوقَد .

(ماريا تخرج بدون أن تجيب)

نيللى   الشتاء ؟ ولكن كم من الوقت تظنني أبقى هنا ؟

جان   إلى أن يتم لك الشفاء . وأنا لن أتركك حتى يتم لك الشفاء وما أسعدنى حين تقولين لى . « أنا راغبة فى شيء تعمله . وإنى أريد أن نحقق هذا الأمل الجميل . » وحينئذ أجيبك إلى طلبك وأقول لك : « هلم نحققه عاجلا يا نيللى وحذار من إضاعة الفرص » .

نيللى   فى ذلك اليوم تكون أنت قد شفيت منذ زمن طويل ، ومن اليوم إلى أن يتم شفاؤك لن أتركك .

جان   أما أنا فلست أثقل فى الطلب ، ولن أطلب أكثر مما أُعْطاه وأعطى مامعى . سأريك شبكة جميلة صنعتها فى هذا الصباح .

(يصعد السلم وهو يجرى ثم يختفى وتنظر نيللى بابتسامة رقيقة إلى الباب الذى دخله)

نيللى   ما أظرفَهُ عاشقاً ، وما أملحَ دُعابتَهُ وأخفَّ روحَهُ !

تنزل الستار

الفصل الثانى

(بعد أسبوع . الساعة الرابعة بعد ظهر يوم أحد)

(عندما يرفع الستار يكون جان منهمكا فى الكتابة على ركبته وتحت يده إضبارة صور ، وتدخل نيللى)

نيللى ماذا تصنع ؟

جان (يخفى الورق)

كنت أرسم.

نيللى يبدو لى أنك كنت تكتب .

جان كنت أكتب مايمثله الرسم .

نيللى أرنى ماصنعت .

جان لا — إننى لم أتم شيئاً بعد .

نيللى ألا تريد أن أرى ماصنعت ؟

جان ربما .

نيللى ولماذا تقول ربما ؟

جان صه — اسمعى هذه أجراس يوم الأحد .

(متوسلا)

لعل صحتك قد أصبحت على مايرام ؟

نيللى نعم .

چان حسن . يجب قبل كل شئ أن تـكونى متمتعة بالصحة ـ أماأنا أيضاً فقد تحسنت صحتى ، ومتى صح الجسم أصبحت حياتنا ناعمة هنيئة .

نيللى أتظن ذلك ؟

جان سأشرح لك الآن مانوى علينا أن نعمله .

نيللى يالك من ظريف !

جان أنا ؟ نعم .

(عد له يدها فيداعب أناملها)

شد مايفتننى جمال الأيدى الطويلة .

نيللى وأنت ، فما أجمل يديك .

جان ليستا بقبيحتين

نيللى ماهذا الأثر الأبيض الصغير ؟

جان هوأثر شص صغير علق بالجلد وأهملت الجرح فبقى أثره .

نيللى لو أننى كنت هنا لعنيت به .

جان لا ـ فانى لا أحب أن يعنى بأمرى أحد

نيللى ولماذا ؟

جان لأن هذا يوهمنى أننى لمّا أزلْ مريضا ويزيدنى ألما أن أراهم يعبسون فى وجهى .

نيللى ولـكنهم لم يتعمدوا مضايقتك.

چان إننى لست منحيا عليهم باللائمة ـ ولـكننى أنصح لهم بأن يتبعوا طريقة أخرى لعلاجى .

(تضحك)

وأحقق لك ذلك، ألا تجدين أنك قد أصبحت أكثر سروراً من اليوم الذى جئت فيه ؟

نيللى — بلى — باجان .

جان — لقد رأيت جيداً أنك كما قلت لك .

نيللى — (تطرق الى الأرض وتبتسم)

نعم

جان — يجب أن تصدقينى إذا قلت لك إنى أرى — أكثر جلاء من غيرى — أننى أقضى حياة بسيطة ، وليس عندى ما يشغلنى ، أما الآخرون ، فإنهم يخلطون ويخلطون فى كل شىء ، وأنا لا أبحث إلا عن الوسيلة التى تجعلنى سعيداً ما أمكنتنى السعادة، وحينئذ يمكن الاعتماد على. أليس كذلك ؟

نيللى — (تكلم نفسها)

نعم .

جان — ألا تجدين فى نفسك رغبة فى الذهاب ؟

نيللى — لا .

جان — عندما تشعرين بهذه الرغبة فأنت تعلمين . . .

نيللى — ليست لى رغبة

جان — هذا حسن إذن . وكل ما أريد أن أرتبه يمكن أن يرتب جيدا .

نيللى — وما الذى تريد أن ترتبه ؟

جان — سأقول لك ذلك متى حان الوقت ، فهل تجيئين للصيد ؟

نيللى — لا — فإننى لا أعرفه وأخشى أن يرتاع سمكك من رؤيتى .

جان	نعم إنك لتخيفينه ، وسأذهب وحدى حالا . فلا تتكدرى حين أتركك قليلا .

نيللى	لا ـ فإن ذهابك إلى الغدير يسرك كثيراً .

جان	إننى منذ ثمانيه أيام ـ أى منذ حضورك ـ أصبحت قلما آنس بالدهاب إلى الغدير . ولكن قبل حضورك لم تكن لى سلوى سوى ذلك .

نيللى	والآن أمامك شاغلان : سمكك وأنا.

جان	إنك غيورة ـ فلا تكونى كذلك ، انى أذهب ـ بين حين وآخر ـ لأرى سمكى من قبيل الاعتراف بالجميل ، إذ لاسبيل إلى إنكار فضله على . ويجب أن أعود من وقت لآخر إلى اللعب السابق الذى يسرنى و يسلينى كثيراً . ومثلى لاينكر الجميل ، وهذا اللعب هو الذى يرفه عنا آلام الحياة حتى لانشيخ قبل الأوان فلأذهب لأرى سمكاتى وقتا قصيراً.

نيللى	ألست فى هذا خبيثا ؟

جان	كلا

نيللى	أأنت طيب ؟

جان	إننى لم أر ذلك فى نفسى قط .

نيللى	وهل تستطيع أن تكون طيبا ؟

جان	لم أجرب هذا بعد .

نيللى	وهل ستكون طيباً من أجلى ؟

جان نعم متى أردت أنْ أكون كذلك فإنى أكونه لأجلك .

نيللى (بقليل من الضجر)

أوه ، وهل تظن ذلك ؟

جان أنا متحقق — إنها رغبه وحاجه .

نيللى أنا لست فى حاجة إلى شىء.

جان بلى — بلى — إنك صغيرة لاتدركين الأمور ،أما أنا فأعرف.

نيللى أن عندى من الحماسة أكثر مما تظن .

جان بل أقل مما تقولين — إنك جريئة كطفل يريد أن يقفز على الغدير وحده ، وهو يصيح :«يدى — لا — يدى — لا » أى أنه لا يريد أن يعطى يده لمن يساعده ، وأنت معجبة بنفسك،فلست ترغبين فى أن تظهرى بمظهر التردد ، ولكنك تكونين مسرورة إذا ما استطاع أحد أن يسندك من ظهرك عندما تقفزين .

نيللى عندى شىء قليل مما تقول .

جان بل لا يوجد غير ذلك . لأنك جريئة وهيابة.

نيللى ربما .

جان هو ما أقول . . .

نيللى أنت الآن تفهمنى كثيرا

جان الآن ؟ ولماذا الآن ؟

نيللى لأنك كنت أقل فراسة من قبل .

جان أحق ما تقولين ؟ إننى لم أذكر ذلك

نيللى		يقولون إنك تتعمد ذلك

جان		هذا غريب ــ فحدثنى كيف.

نيللى		إنك ما كنت تفهمنى وكفى ، أو فى الغالب ، على الرغم من حسن ارادتى ، كنت تفهمنى على العكس .

جان		وهل كان هذا مما يسرنى ؟

نيللى		لا ، ولكنك كنت حاقداً على

جان		ألم أفعل شيئاً حتى نفهم كلٌّ منا الآخر جيداً ؟

نيللى		وهل ستطرح على أسئلة ؟

جان		وإذا فعلت ! !

نيللى		أجيب عليها ، ولكنك ستخطئنى أيضاً .

جان		هـذا يرجع إلى أنى لا أحفل بالكلمات ، فقد كنت آخذ الكلمة بمدلولها الحرفىّ ، أما الآن فلا .

نيللى		وهل تطرح على أسئلة أيضاً ؟

جان		نعم ــ ولكنّى لا أطلب أن يكون الجواب فى الكلمات ــ فإنى أفهمه فى . . . لمحة عين . . . فى انفراج شفة . . فى حركة يد . . فى طريقة اللعب بثنيات ثوبك ، أو بلآلىء قلادتك . إن الكلمات ليست إلا مظهراً يبديه الانسان .

(ينظر إليه)

لقد أجبتنى من مدة طويلة ــ وأجبت على أسئلة لم أطرحها عليك بالمرة ,

نيللى		إنه لمن المدهش أنك تعرفنى جيداً الآن .

چان أعرفك جيداً لأنى لا أنتبه لما تقولين .

نيللى نعم .

حان أعرفك جيداً .

(ينظر إليها)

ولكن شيئاً واحداً يدهشنى .

نيللى وما هو ؟

حان هو أننى لا أستطيع أن أجد شبهاً ينطبق عليك تماما ، فأى شيء تشبهين ؟ إن من عادتى أن أعرف الشبه لأول وهلة وأن أدركه بأدنى نظر .

(ينظر إليها ويبحث مفكراً)

نحن وحدنا منقطعا الشبه فكلانا لا يشبهه أحد .

(يمد إليها يده فتقدم إليه يدها)

هذه صلاة الغروب قد انتهت .

نيللى نعم وما أبهجه يوما !

حان ما أحلاه وألذه يوم أحد ! إننى مسرور ، وأنت ؟

نيللى وأنا أيضاً .

حان إلى اللقاء العاجل .

سأقرأ حتى تعود ، هأنذى فى انتظارك

نيللى (تشير إلى كتاب من كتبه)

حان فى كتابى ؟ لا — يجب ألا تقرئيه ! لا

(يخطفه من يدها بغتة)

نيللى استبقه معى .

چان	لا ـ إنه كتاب تافه لا يدل على شيء ، فقد كتبته وأنا مريض في ذلك الوقت ، ولا أود أن يقع نظرى عليه .

(يمزقه)

انتهى ، ولك أن تقرئى غيره .

نيللى	ولماذا مزقت كتابك ؟

حان	هكذا أردت .

(يضحك ضحكة غامضة خفيه)

ربما كتبت غيره فيما بعد .

نيللى	أحق هذا ؟

حان	لا أستطيع أن أعد بشيء .

نيللى	(مسرورة)

لو أنك فكرت فى كتابة غيره لبدأت .

(يبتسم ابتسامة من لا يريد أن يطيل الكلام)

ولكنك كنت تكتب الآن .

حان	صه .

نيللى	ومتى تريدينه ؟

چان	سنرى ذلك . . . سنرى . . . إلى اللقاء العاجل .

نيللى	لا تتأخر .

چان	سأعمل جهدى.

(تبتسم له متوددة)

أظن أن كل شيء سينتهى على أحسن حال ، ألا تثقين بى ؟

نيللى　(ينظر إليه باخلاص وكثير من الوفاء)

نعم .

جان　إلى اللقاء ، أنا ذاهب لأجرب صيد السمك .

(فى اللحظة التى يتحفز فيها للخروج يدخل ريديه)

ريديه　مع السلامة !

جان　(يقف أمامه وينظر اليه)

ما أجملك ياشقيق ! إن أخى قد اشترى رباط رقبة ، وقد أصبح أخى فى يوم الأحد هذا أجمل منه فى الأيام الأخرى

ريديه　إنك تضايقنى .

جان　جميل جداً أن تكون حسن الهندام ، وثيابك جميلة منسقة إلى اللقاء .

ريديه　ياله من طفل !

نيللى　إنه غاية فى . . .

ريديه　فى أى شىء .

نيللى　فى اللطف .

ريديه　طبعا . إنه لطيف ، هذا الصغير المسكين ، ما أطول يوم الأحد ، أليس كذلك ؟

نيللى　إن جميع أيام الآحاد لا تتماثل

ريديه　لقد صادفت دائماً أيام آحاد لا تنتهى — إن يوم الرب هو يوم يفرغ فيه المخلوقات من مشاغلهم

(يبتسم بأدب)

نيللى كم من أناس يلهون فى يوم الاحد .

ريديه نعم هم السادة الشيوخ ، الذين يسمعون الموسيقى فى الحدائق العامة .

نيللى (تضحك)
إنك تغالى فى تهكمك .

ريديه والأطفال كذلك ، يحبون اللهو فى هذا اليوم . ، أعنى بعض الأطفال .
(تضحك)

. ولعل بعض الشبان الذين فى نضارة العمر ونضوجه يحبون اللهو أيضا ، ولماذا لا يكون لهم نصيب ؟

نيللى صدقت ولماذا لا يكون لهم من اللهو نصيب ؟

ريديه وجملة القول أن جميع الأيام فارغة إذا لم يجد الانسان مايملؤها به من العمل .

نيللى هذا حق .

ريديه أما أنا فلدىّ عملى ، واليوم الذى لا أجد فيه ماأعمله . . . .
(يسكت لحظة)

نيللى لا تجدك مسروراً فيه .

ريديه على أننى أودّ أن أعمل فى غير إرهاق ، فلا غنى لنا عن العمل و إلا فبأى شىء نملأ فراغ الحياة ؟

نيللى إن سيدتى والدتك قالت لى الآن :
« إنك إذا شئت ، فإن أمامك مستقبلا باهراً »
(يهز كتفيه)
أليس هذا صحيحاً ؟

رينيه لقد كان هذا صحيحا من قبل ، فقد كانت لى منذ سنوات أطماع وأحلام شريفة عظيمه ، عند ما كان لى غرض أسعى لأُدْرِكَهُ ، ثم دار الزمن دورته فطاح بأحلامى وأخلق آمالى القديمة فذهبت جِدَّتُها وأصبحت كالثياب المستعملة ولا شك أننى كنت فى ذلك العهد أتطلع إلى مستقبل باهر ، أما الآن . . .

نيللى هل ضاع الوقت ؟

رينيه إنك تتسرعين .

نيللى (معتذرة)

إننى لا أقصد . . .

رينيه أنا أعرف ما ذا تقصدين .

(يتظاهر شيئاً فشيئاً بقوة الإقناع التى يريدها)

لم يضع الوقت بَعْدُ ، ولكننى إذا نظرت إلى المستقبل باهتمام وجِدّ استطعت أن أتلافى الزمن المفقود ، وأسترد ما فاتنى من الفرص ، وقد يتسنى لى أيضاً أن أصير مهندساً معروفاً إلى حد مّا . . . على ما أظن .

نيللى (بدون تحمس وارتياح)

نعم . . . و بعد . . .

رينيه ولكننى لن أبذل شيئاً من الجهد لأجلى وحدى .

نيللى . . . . .

رينيه　فإذا ظفرت بمن احِب ورأيت من يندمج فى حياتى فثم ترين أى عظيم أكون .

نيللى　(متحدة خطه الدفاع)
على التحقيق

رينيه　وهل يتيسر أن تظفر بهذه الطّلبَة ؟

نيللى　نعم

رينيه　ولكن العثور على من أُحِبُّ ليس شيئاً يذكر بالقياس إلى الوثوق من حبه إياى ، فأنا أجد من أحب ولكنى لا أستطيع الوصول إليه . . . وسترين .

نيللى　سأرى . . .

رينيه　إنك شابة فى ميعة الصبا . والذى يخيفنى قليلا هو أننى أراك أمامى شابة فتيّة جذّابة

نيللى　وهل هذا يخيفك ؟

رينيه　بي أمرك أنت فمن تختارين ؟

نيللى　من يدرى ؟

رينيه　أتظنيننى أُفشِى سراً ؟

نيللى　إذا لم يكن عادتك الكتمان .

رينيه　هل نقصت ثقتك بى ؟

نيللى　كلا ! !

رينيه　(بقليل من النقهة)
أليس لك هوى خاص ؟

نيللى ما ذا تريد بخاصة؟

ريديه ألم يذهب فكرك إلى شاب أو رجل ؟

نيللى لا .

ريديه هذا من الميسور أن يكون (يقول بجهد وبشاشة متكلفة).
ألا تفكرين فى الزواج ؟

نيللى (تشعر بالغرض الذى يرمى إليه) أى زواج تعنى ؟

ريديه الزواج ، أعنى أن تتزوجى .

نيللى لا أفكر فيه بتاتاً .

ريديه إنك تكونين أجمل زوجة .
(تضحك وهى مصافحة قليلا وهو يصمت)

نيللى (لكي تغير مجرى الحديث)
وما ذا تقول فى أخيك الذى يأبى إلا أن يعاند ويصر على رؤية الأسماك وهى مسرعة فى الغدير أمامه ؟

ريديه إن أخى لا يقدر ما ينتظره من سعادة .

نيللى أية سعادة ؟

ريديه السعادة المدخرة له والتى توشك أن تغمره وهو لا يعنى بها.

نيللى (بشدة)
شدة ما تقسو عليه فى حكمك الجائر .

ريديه أنا ؟ ليس فى الدنيا أحد يحبه أكثر منى .

نيللى آه .

ريديه إنك تتولين الدفاع عنه ولا يطاوعك قلبك على أن تعتنى به.

نيللى (تحول عينيها)
وهل كنتِ عادلة معه من قبل ؟ وهل شعرت بأى تأنيب.

أو وخز ضمير على صدك وقسوتك ؟

ـللى (يرفع رأسها)

كلا .

ـنيه والآن .

ـللى أهيم به كل الهيام .

ـنيه أنت على حق . . . فما ذا أنت صانعة يوم الأحد وهو على نفسك ـ بلا شك ـ يوم طويل بطيء السير والحركة .

ـللى سأحرر كتاباً .

ـنيه ألا ترين أن تصحبيني فى نزهة قصيرة فى هذه الطريق ؟

ـللى لا بد لى أن أكتب الرسالة .

ـنيه حسن .

(يسير خطوتين فى الغرفة)

إنى ذاهب لأنجز بعض عملى .

ـللى أتنجزه بدون حماسة ؟

ـنيه بلى . . لا . . أه .

(ينظر إليها)

ـللى يخيل إلى أن عندى شيئاً أود أن أفضى إليك به .

ـللى (يبتعد)

نعم

ـنيه لا أدرى بالتحديد ماهو . . . سأفضى به إليك قريبا .

ـللى حسن .

ـنيه نعم ، سأخبرك به . . . إلى اللقاء يا آنسة .

نبالى إلى اللقاء يا سيدتى

(تبقى وحدها لحظة ثم تجىء الأم والقسيس)

الأم كان يجب أن تحضر صلاة الخلاص يا رينيه . . . لقد ألقى العظة حضرة الأب ، وكان غاية فى اللطف .

رينيه لقد كنت أنظم أوراقى وأرتبها وأرجو ألا يكون حضرة الأب غاضباً علىّ .

الأم سأعود إلى هنا أنا التى لا تعرف إلا يوم الأحد ـ أين أخوك ؟

رينيه فى المرج يصيد .

الأم والآنسة كواسلين ؟

رينيه فى غرفتها .

الأم سيعتشى الأب معنا هذه الليلة . . . . وقد حجزته بالقوة .

رينيه أتسمح لى يا أبانا بالانصراف ؟

القسيس لك ما تريد .

(يتوجه رينيه إلى السلم)

الأم يبدو عليك أنك غير مسرور .

رينيه نعم ـ فإنى أشعر بألم قليل فى رأسى .

الأم مسكين ياولدى العزيز . .

(يخرج)

لا . . لا أدرى ما الذى به . .

(تقدم مقعداً للقسيس وتجلس إلى جانبه)

إنى غاية فى السرور ، إذ رآنا القسيس منصرفين معا

القسيس حقيقة ؟

الأم نعم . . وهكذا أنا كبرت فى عينيه وفى رأى البلدة جميعا .
نعم ليست علاقتنا سيئة مع قسيس الكنيسة ، إنه رجل شهم نبيه . ولكن إيمانه أعمى .
إنه ليس أقل رسوخاً وثباتاً

الأم إننى جد مسرورة . . . إذ ما كنت أستطيع أن أذهب إلى الكنيسة ، وكنت أقصر أيام الآحاد فى الذهاب أحيانا وكان هذا شأنى منذ الصغر ، منذ كنت بمدرسة الراهبات وكان أبواى شديدى التدين ، وكذلك كان أبواك بالطبع

القسيس لقد نشأت أمى فى الدير . أما أبى فكان من أشد أنصار الفكرة الحرة ، وبعد أن تزوج والدتى أغفلت ذكر الله حتى لا تكدر زوجها .

الأم عند ما بدأت أغنى رأى أبى أن كل آماله قد طاحت ، ولم يغتفر لى ذلك أبداً ، وأسرها فى أعماق قلبه .

القسيس هونى عليك ياسيدتى ، فإن أبى قد رأى أيضا أننى تحولت تحولا شديداً سيئاً ، فقد كان أبوانا شديدى الزهو بولديهما .

الأم يا لهما من مسكينين إننا الآن فى مثل السن التى كانا فيها إن لم نزد عنها قليلا .

القسيس طالما فكرت فى ذلك

(تخرج نيللى من غرفتها)
نهارك سعيد يا آنسة

نيللى	نهارك سعيد ياسعيدى ، أنا ذاهبة لألقى بهذا الكتاب فى صندوق البريد .

الأم	إن ماريا تلقيه ياصديقتى الصغيرة .

نيللى	وسأبحث عن چان فى طريقى .

الأم	نعم ، وأدخلى على قلبه السرور .

(نيللى تبتسم وتبتعد فى رشاقة وحمة)

ياإلهًا من بدبعة هذه الصغيرة .

القسيس	نعم بدبعة .

الأم	إنهما يكونان ـ بلا شك ـ زوجين سعيدين . . ولو أن هذا قد تم ـ من قبل ـ لما وقع شىء من كل ماحدث من المصائب ... ولا ريب عندى أن هذه الفتاة لم تكن تدرك سر ولدى . ولم تفهم منه شيئاً .

القسيس	لا تحقدى عليها ياسيدتى ، فما هو إلا سوء تفاهم عادى كثيرا مايحدث .

الأم	نعم ـ أوه . إنى أعلم ذلك فكم من أخطاء يرتكبها الإنسان فى شبابه ثم يدفع ثمنها غالياً بعد ! إن كل ما انتابنى من شقاء إنما يرجع إلى زواجى ، وما أحسب أن واحدة ارتكبت فى زواجها من الحماقة والغفلة مثل ما ارتكبت . فلماذا تزوجت هذا المسكين چورج ؟ إنى لأسائل نفسى دواماً لماذا . . . أتنظر إلىّ ؟

القسيس	إنى أرجع بالذاكرة إلى ذلك العهد الذى كنت فيه فتاة .

الأم نعم إنه عهد بعيد . . . وأظن أنك قد حزنت على انفضائه أشد الحزن . . ولقد أخذت بنصيبك كما أخذت بنصيبي .

القسيس لعل ذلك يضايقك أكثر مما يضايقني .

الأم أي أنني بلغت سن الشيخوخة ؟

القسيس إني أراك في سن شيخوخة . . .

الأم يالها من بلاهة ـ وأنت هل بلغت سن شيخوختك بدون ألم ؟

القسيس بل بسرور .

الأم أما أنا فأتألم إذ صرت إليها .

القسيس ولكنني أنا كنت أرقبها وأتمناها من كل قلبي .

الأم نعم ـ ولكنك أنت يا أبانا تحلق روحك في أجواء السمو والسعادة ، فأنت تعيش في كنف الله .

القسيس في كنفه و بعيداً عنه ياسيدتي

الأم بعيداً عنه ؟

القسيس هو وأنا متواجهان . أنا في احترامي لاسمه المقدس ، ولكنني لست موقناً من أنني أسمعه كما يريد أن يسمع

القسيس (يصمت)

الأم عند ما تمتلئ بالإيمان نفس الإنسان . . عند ما يكون قلبه عامراً باليقين . . .

القسيس (ببطء)

يجب أن يولد الإنسان مؤمناً ، أي أن يكون الإيمان فطرياً فيه أما الإيمان الذي يتكلفه الإنسان و يصطنعه

اصطناعا وتضطره إليه الحاجات الانسانية فهو إيمان حافل بالعيوب والنقائص

الأم ألست قوىّ الايمان ؟

القسيس عندى إيمان اصطنعته ، ولا أدرى فيمنه على التحقيق .

الأم إن قولك هذا لعجيب مدهش .

القسيس أليس كذلك ؟

الأم وها أنت ذا قد أصبحت قسيساً .

القسيس نعم

الأم شد ما تدهشنى يا أبانا ! إنك لتملأ نفسى حيرة مما تقول .

القسيس فانى أراك هنا بين ولديك تصنعين ملابس لأطفال الملجأ وستتركيننى الآن لتراقبى خادمك الى تهيء المائدة . وهذا نشاط يدهشنى أيضا . . .

الأم ولماذا انخرطت فى سلك رجال الدين ـ إذا لم تكن منهم ؟

القسيس صه . . صه . . حسبك هذا

الأم أفى الأمر سر ؟

القسيس بل هو تاريخ يُقَص

الأم إذاً فاقصصه علىّ ـ وأنا أقص عليك حديث همومى وأحزانى فمن كان فى سننا فهو جدير أن يروى حديث حياته بغير تجميل أو تزويق .

القسيس ألست بهازئة ؟

الأم هازئة !

القسيس هكذا عوّدْتِنا من قبل

الأم في وسعك أن تتكلم

القسيس أتذكريننى عند ما كنت شابا ؟

الأم نعم

القسيس وكيف كنت ؟

الأم (بشىء من الدهشة)

جميلا ـ كنت شابا جميلا كما كنت فى طفولتك عالى التربية غاية فى العقل والحزم . . . غاية فى . . . وإنى لأذكر أنك كنت تفوز بجميع جوائز فصلك

القسيس كنت صبياً عاقلا

الأم ولم تكن تحدث شيئا من الغوغاء والصَّخَب

القسيس لا

الأم وكنت تلعب بوقار ألعاباً بريئة لا تضايق أحداً

القسيس ولما صرت شاباً ؟

الأم (تضحك)

لا أدرى ما ذا كنت تصنع . وإن كنت على ثقة من أنك كنت تصطنع العقل والوقار .

القسيس نعم

الأم أما أنا فقد كنت طائشة كثيرة الشغب والأراجيف .

القسيس هذا كان سائغاً لك وكان الإنسان يسر كلما رآك .

الأم وكنت طيبة القلب

القسيس وكنت كثيرة الود .

الأم (شاردة الفكر)

نعم وقد كنت أحبك كثيراً .

القسيس لا أريد أن أتحدث عن الحب الذى كنت تبدينه لى .

الأم لاتريد ؟ ولماذا ؟

القسس لأنك ما كنت تظهرين لى شيئا منه . ولقد أغفلتِنى وكنت أنا عاقلا .

الأم أتأنيب منك هذا ؟

القسيس بل هو بدء حكايتى إذا أردت أن تعرفيها من أصلها .

(تنظر إليه)

أفاهمة أنت ؟

(تنظر إليه أيضاً ثم تقول وهى فى غاية الدهشة)

الأم كلا .

القسيس نعم . أنت فاهمة ياسيدتى ، فإنى وأنا شاب قد أحببتك وأنت شابة .

الأم رباه . . . نعم هذا حق ـ فقد قلت لى ذلك

القسس هل نسيتِه ؟

الأم كل النسيان .

القسس لقد ذكرته أنا وقتا طويلا فلم أنسَهْ

الأم هذا لأنه لم يَدُرْ بخلدى لحظة واحدة ، أنك كنت جا- فى قولك .

القسيس وفى ذلك الوقت لم يكن ليجدُر بى أن يكون لى عقل مازح

الأم ما كان علىّ أن أنظر إليك

القسيس آىْ . . !

الأم ماذا ؟

القسيس لاشئ .

الأم لقد كنت صغيرة ياصديقي المسكين .

القسيس وأنا كنت صغيراً أيضا.

الأم نعم ولكنك كنت حاد الذكاء دائما .

القسيس لا تضايقيني .

الأم وأنا كنت أحب الحياة كثيراً ، ولم أكن أستطيع أن أحب أحداً ، وما كان يوجد موضع لأحلامى إلا لنفسى ، و بعدئذ، كان العهد الذى بدأت أغنى فيه .

القسيس نعم . . نعم . . إن آخر عهد رأيتك فيه وأنت شابة كان بدء عملك فى أول مسرح ، وكنت فى البهو وصعدت إليك فى فترة الراحة بين الفصول .

الأم أحق ذلك ؟

القسيس إنى ألتمس لك العذر لعدم تذكرك إياى ، فقد كنت فى شغل عنى ، فلم ترينى حينئذ .

الأم وهل كنت مختفيا ؟

القسيس كلا . بل كنت واقفة فى الغرفة وكان حولك لفيف من الأصدقاء . وقد سحرتِ جميع الموجودين واستحوذت على كل المكان وكنت الوحيد غير المرئى .

الأم ما أعجب أمرى

القسيس　وفى ذلك اليوم حاولت أن أبتسم بحماقة، فارتديت ملابسى بعناية قبل الوقت بساعتين ونظر إلىّ أحد أصدقائك بخبث. فتضايقت وارتبكت كأننى أبله ، وأنت لم تسعفينى بالمساعدة .

الأم　أحقاً تقول ؟

القسيس　كيف لا ـ وقلت لى : « إلى اللقاء » ومددت إلى يداً غير مكترثة ثم عقدت النية بعدئذ على أننى لا أعود ، وكان لا يزال باقيا من الرواية فصل ، وعدت إلى الصالة وظهرت أنت على المسرح ثم رأيتك تنصرفين وأنا جالس فى مكانى .

الأم　ولكننى فى أعماق قلبى قد بقيت ساذجة كثيراً . ولقد انصرفت بعد قليل .

القسيس　وأنا أسوة بالشبان الأذكياء كنت آخذ بالظواهر .

الأم　يالله ! كيف لا تحسنون معرفة القلوب !

القسيس　إن القلوب لا تفعل شيئا يذكر حتى تعرف معرفة حسنة .

الأم　ولكن لماذا انخرطت فى سلك رجال الدين ؟

القسيس　لو كان لى صوت حسن لحاولت أن أكون مغنيا كبيراً ، وأن أتفوق عليك يوما ما فى مهنتك . ولكن ليس لى مثل هذا الصوت .

الأم　وكيف ؟

القسيس　لقد حاولت فى أوقات أخرى أن أصير رُبَّاناً أو ملاحا غنيا بشهرته ، فلم يسمح لى الزمن بذلك من جهة ، ولم يكن لى الروح الحربى منْ جهة أخرى

الأم ماذا تقول ؟

القسيس فاندمجت فى سلك رجال الدين لكى أفتنك ، ولكى أتغلب على قلبك يوما من الأيام

الأم تتغلب على قلبى ؟ ما هذا الذى تعترف لى به ؟

القسيس هى فكرة دفعتنى إليها الأنفة والكبرياء وسترين كيف عوقبت من أجلها — لقد أمضيت سنى شبابى ، وأنا أتوقع اللحظة التى أراك فيها وأرتقب الفرصة التى تتاح لى وكنت أترقبها من قبل .

الأم وما الذى كنت ترجوه من ذلك ؟

القسيس كنت أرجو أن تريى جميلا وأن تجدينى قد وصلت إلى منزل أسمى مما وصلت أنت إليه ، فأبديت لك إشارة بسيطة حبية. وقد كنت أشعر بشئ من الكآبة لأن القسيس فى معزل عن العالم ولكننى كنت أشعر أن شبابى قد لقى جزاءه .

الأم يا أبانا . . . . يا أبانا . . .

القسيس لم يعوّض على شئ ياسيدتى . فإننى قد سموت سريعا وأنا بالتحقيق أصغر قسيس سناً فى فرنسا . و بعد سنوات قليلة كنت ستنحنين أمام قلنسوتى الحمراء ، حين أصبح سيد الكنيسة . ولكن كتب على أن أراك قبل ذلك الأوان .

الأم ومتى كان ذلك ؟

القسيس فى زواج أحد أقاربك — أتذكرين ؟

الأم ولـكن لماذا تقولْ قبل الأوان . ؟

القسيس ذلك بأنى كنت أعلم يا سيدتى بذلك اليوم المكتئب اللطيف حين أبدو أمامك بعد سنوات فى عزلتى المجيدة . فقد كنت مدركا أننى منذ زمن وأنا فى هبوط ونقص وميل إلى الزوال ، أما فى ذلك اليوم الذى ضربت لك فيه موعداً فقد نعمت برؤية وجهك الشاب . والإنسان إذا كان فى حالة حلم لا يفكر فى كل شئ .

الأم و بعد ؟

القسيس رأيتك قبل الأوان . . . لقد تغيرت قليلا ياسيدتى . . . وتقدمت إلى الشيخوخة قليلا ، وهذا أمر عادى . . . ومن عهد تلك المقابلة لم يعد لى مطمع بعد .

(سكوت طويل)

الأم لقد قيل لى إنك قسيس عظيم فقد سمعت يوماً وأنا بالقطار عجوزين تتحدثان عن طيبتك و بساطتك .

القسيس إن الأسقفية هى التى تصنع الأسقف .

الأم ألم تجد شيئاً من المرارة ؟

القسيس إننا نحرق ــ قليلا قليلا ــ كثيراً من الأشياء بالبخور فى كل صلاة للخلاص .

الأم أليست حياتك فارغة خالية من المعنى ؟

القسيس فارغة ؟ لا ياسيدتى . إنى أخذت نفسى بأن أحب كتدرائيتى الجميلة كثيراً ، وأن أحترم مهمتى اليومية وأُدَبِّر عيش الكفاف

للآخرين . وقد بثثت أحيانا فى الآخرين هـذا اليقين التام الـكامل الذى لم أوهبه ، وأخذت أبحث عن الله وهذا مما جعلنى أفـكر قليلا فى نفسى ولعله يقربنى إليه قليلا .

الأم (بلطف) أبانا . . .

القسيس إن هو إلا تاريخ ياسيدتى . . وقدقصصته عليك حتى تلمسى أباطيل بعض أطماع الشباب التى لاتنبعث من نفس صغيرة بل يدخل فيها كثير من الـكبرياء .

الأم ياصديقى المسكين .

(تبدي حركة وديه وتسرع فى أن تمسك يده ، ولـكنه يسبق هده الحركة ويقدم لها حاجه . وتسمع أصوات في الحديقه)

الأم اسمع أصوات الشباب .

القسيس نعم .

الأم سأذهب لألاحظ ماريا قليلا . وأنت تعال إلى غرفة الاستقبال

القسيس كما تريدين ، حيث نـكون بها أطيب حالا .

(يخرجان — يسمع ضحكا ويتبين من الحديقة عدو شابين أحدهما خلف الآخر ثم يدخل جان و نيللى مسرعين)

جان هاهم الأولاد الأعزاء ، زينة الدنيا و بهجتها — آه ! لاأرى أحـداً

نيللى كنت أظن أننى أرى . . .

جان لم ترىْ جيداً .

نيللى لقد جعلتنى أعدو .

چان		وأنا عدوت أيضاً.

نيللى		ولكن أنت !

چان		إنك خفيفة كبهيمة صغيرة مطاردة .

نيللى		(تتظاهر بأنها ستسقط أرضاً منرحلقة)
		إنى لا أستطيع أبداً .

چان		(يسندها بين دراعيه)
		كبهيمة صغيرة ، قد أدركت .
		(يقبلها ولا تمانعه)

نيللى		حان

چان		هل سببت لك كدراً ؟

نيللى		أظن أنهم آتون .

حان		لا — إنهم تاركونا وحدنا

نيللى		نعم

چان		إنهم على صواب . فنحن كفاء نفسينا وحسبهما من الدنيا.
		(يقبلها ثانية)

نيللى		(تتراجع)
		چان . . .

چان		إنى أقبلك لأنك جميلة . . . نعم ما أجمل صديقتى الصغيرة !
		(يقول بلطف كثير وعلامات السعادة مرتسمة على أسارير وجهه) :
		إنك الآن فى شكل بهى ، و يظهر أن العدو قد أفادك .
		(ينظر كلاهما للآخر وهما متبسمان وجهاً لوجه)

نيللى .

نيللى	ابيك .

چان	اصغى إلىّ وأجيبينى بصراحة : هل قضيت الآن يوماً بديعا؟

نيللى	نعم .

چان	ألم ينغصك شئ اليوم ؟

نيللى	لا .

چان	أتعودين إلى مثل هذا اليوم إذا شاءت المصادفات أن تجمعنا مرة أخرى ، أو سمح لك الزمن بأن تعودى إلى مثله ؟

نيللى	أعود إليه

چان	منذ صباحه ؟

نيللى	نعم

چان	كما كان يومنا هذا ؟ وكما أمضيته ؟ وفى صحبتى وحدى ؟

نيللى	إنى ماجئت هنا إلا من أجلك .

چان	دون حساب للقبلتين اللتين أخذتهما من الشابة الحسناء (لاترد عليه ولكنها تنظر إليه كثيراً) حسن . ألا تعودين إلى مثل هذا اليوم ؟

نيللى	نعم

چان	إذن يجب أن تبقى هنا.

نيللى	نعم ـ سأبقى زمنا

چان	طويلا ؟

نيللى	هذا يكون من الصعب.

جان لماذا ؟

نيللى لأننى لست ابنة عمك الصغيرة حتى من بعيد.

جان (بالهام) لقد فكرت فى ذلك

نيللى وماذا رأيت ؟

جان لماذا لا نتزوج ؟ إنى أحب أن أتزوج منك

نيللى إنك مجنون .

جان نعم — ولكنها مسألة وقتية و بعد قليل يزول الجنون . فهو عارض لايدوم .

نيللى (تنظر إليه) تريد أن نتزوج ؟

جان إن هذا مما يسر وستبتهج أمى بذهابها إلى حفلة زواج إذ هى قلما تظفر بشئ من ترويح النفس .

نيللى إنك تهزأ ياجان .

جان أقسم لك إننى جادٌّ غير هازل . فماذاتقولين ؟ وماذا ترين ؟ أجيبى دون تردد ، فإنى أشعر بأن هده فكرة حسنة وعمل صالح لك . فإذا لم يرق فى عينك هذا فتكلمى لنبحث عن شئ آخر .

نيللى (بكثير من الاضطراب)

جان

جان إن فى وسعك إذا شئت أن تتزوجى أسعد زواج أو أسوأ زواج . وأنا أنصح لك بأن تتزوجينى ، لأنك لن تجدى أحداً أكثر منى استعداداً لأن يكون سعيداً .

نيللى — وأنا أريد أن أكون سعيدة أيضا ، ولم أكن من قبل بمستطيعة أن أظفر بسعادتى

چان — حسن . إذاً فلا تترددى (يبسط لها يده) أنتزوج ؟

نيللى — (تبسم) أيجب أن أسلم لك دائما بما تريد ؟

چان — هذا عين الصواب والحزم ، أتقبلين إذن ؟

نيللى — نعم

چان — إنى مسرور وسأكون غاية فى السعادة ، سيكون بيننا اتفاق جميل ويكون الزواج بعد تمام الشفاء .

نيللى — حسن . . بعد تمام الشفاء .

چان — ومن الآن إلى أن يأتى ذلك الوقت تعيشين فى منزلى كما تعيشين الآن ، و بعد أن نتزوج ننتقل إلى بيتنا الجديد .

نيللى — نعم ، بعد زواجنا .

چان — شد مايغمر السرور قلبى يانيللى

نيللى — نعم

چان — (يخرج من جيبه ورقه)
لقد وثقت من أنك ستقبلين ، وقد كنت مستيقنا من ذلك فنظمت لك أشعاراً أصور فيها أحلامى وسعادتى الوشيكة

نيللى — نظمت أشعاراً !

چان — نعم هاك ماقلته فاقرئيه .

نيللى — وهل استطعت ياچان أن تنظم أشعاراً ؟

چان — نعم ، فقد كنت أعانى نظمها كثيراً ، ولدى نُسَخ منها فى

جيوبى كلها،وأظنّ أنك تحبين الأشعار ، فهى بديعة .وأنت تعـلمين أننى لست فخوراً معجباً بنفسى ، ولـكننى أقول إن أحدا ليس فى وسعه أن يجئ بمثلها، إذ لايوجد إنسان يعرف قلبه كما أعرفه ، وكثيراً مايخلط المرء ويهذى حـين يتصدى للـكلام عن نفسه . اقرئى هذه الأشعار .

نيللى (تقابل من الخجل) : نعم : (ثم تقرأ :)

لأرى مغنى جميلا وهو بيتى سـيكون
وأرى الخضرة تعلو ها زهور وغصون
ورفيقى أنت والدّ يا بها السحر فنون
فى ثياب جد بيضا ء على حسن مصون
صوره قد مثلت لى كل ماسوف يكون

شدّ ماتبهج نفسى لجمـال أجتليـه
فيه من سحرك مافيـ ـه مكان كنت فيـه
صورة الحُسْنِ أرى فى ضوئهـا ما أرتجيـه

جان هل تحبينها ؟

نيللى سأحتفظ بها

جان أوه ! إنى أرانى قادراً على نظم غيرها مثلها . الآن وأنا معك (أرى منزلا) أى منزلنا ـ يانيللى . . . نيللى ما أروع جمالك أيتها الفتاة الشابة . . . إنك خطيبتى يانيللى .

نيللى نعم ياجان.

(يأخذ بذراعها ويتصاحبان ويتحدثان كما لو كانا أمام مرآة)

جان　　هاهما الاثنان . أما هو فطويل قليـلا . وأما هى فجميلة للغاية ، ولا يبدو عليها مظهر الحمق .

نيللى　　لسنا بأحمقين

جان　　إنها تتكئ عليه كثيراً

نيللى　　لأنه أقوى منها .

جان　　إنهما لايشغلان معا مكانا كبيراً

نيللى　　(تنضم إليه)
وهما الآن يشغلان مكانا أقل منه .

جان　　وهما ليسا فى حاجة إلى بيت كبير — قولى يانيللى . قولى . . إنهما غداً سيذهبان إلى مغناهما .

(تشير برأسها علامة الايجاب أى نعم ، وتقول بلهجة تسعر فيها الكلمات)

لأرى مغنى جميلا　　وهو بيتى سيكون
وأرى الخضرة تعـلو　　ها زهور فى الغصون
ورفيقى أنت والدنيا　　بهـا السحر فنون
فى ثياب جـد بيضا　　ء على حسن مصون
صورة قد مثلت لى　　كل ماسوف يكون

. . .

شد ماتبهج نفسى　　لجمال　　أجتليـه
فيه من سحراء مافيه　　مكان كنت فيـه
صورة الحُسْن أرى فى　　ضوئهـا ما أرتجيـه

نيللى (متأثرة للغاية)
عزيزى چان المسكين

چان مسكين ؟ لماذا ؟ إنى لسعيد ! إنى لسعيد ! إنى لسعيد
أو لست سعيدة أيضاً ؟

نيللى نعم

چان لقد كنت أعرف ذلك جيداً فما على الذين نقموا على الحياة
إلا أن يلجئوا إلىَّ يلتمسون النصح منى، وإنى مسرور لأن
أعمالى قد انتظمت .

نيللى (بحياء) لقد حدثتنى ياچان عن زواجنا . ولكنك لم تحدثنى
عن حبك إياى لأنك لم يذكر شيئاً عن ذلك الحب ، فخبرنى
بربك أحق أنك تحبنى ؟

چان (صرخة بسيطة)
أوه !

نيللى ماذا ؟

چان أوه ! لقد حسبتنى اكتشفت ذلك المعنى الغامض ، لقد حللت
اللغز وعرفت ماتشبهين ! لا . بل هى فكرة اخترقت رأسى
كسهم . لا إنى لا أرى شيئا أبدا ! !

نيللى أتريد حتما أن أكون شبيهة لأحد بعينه ؟

چان لا . لا . فأنا أحبك كما أنت

نيللى أتحبنى ؟

چان بالطبع أحبك .

(تنظر إليه ثم تتهالك نفسها على ذراعه وتعانقه طويلا ثم يظهر

رينيه ، وتعتدل نيللى بسرعة)

رينيه (على الرغم منه) ما أقسى هذا اللعب!

جان ماذا تقول يار ينيه ؟

رينيه (يمالك نفسه ، ويكبح عواطفه الثائره)
لاشئ ياصغيرى .

جان (بابتهاج) رينيه .

رينيه ماذا ؟

جان هذه خطيبتى ، وسنتزوج

رينيه آه !

جان قريبا .

رينيه (بجهد) حسن جداً ، و إنى أقدم لك تهانئى .

جان سأبلغ هـذا النبأ إلى الأم المسكينه ، و إلى حضرة الأب أيضا . أوه ـ نيللى لقـد ذكرت أنه سيعقد إكليل زواجنا وهو يقوم بهذا بسرور لأنه صديق حميم ـ للأسرة ـ إننى سأعود حالا.

نيللى عد كما تشاء .

جان (لرينيه) ـ ألا ترى أنها جميلة ؟ لقد قلت فيها شعراً . وستريكه يار ينيه .

رينيه (يلتقط من الأرض ورقة كراسة ممزقة)
وماذا تصنع بهذه الورقة الملقاة على الأرض ؟ أتمزق الآن كراساتك ؟

جان (تلقى بنظرة على الورقة وهو خارج)

هذا ! هذا لامعنى له .

(تمر وقت طويل)

ريديه أنى أنوب عنه فى شكرك يا آنسة .

نيللى أوه !

ريديه لقد أحسنت كل الإحسان حين تفضلت بلطفك فى الدخول فى هذه اللعبة .

نيللى ليس فى هذا مايضايقنى .

ريديه فإن المسألة فى الحقيقة لم تكن إلا لعبة .

نيللى . . . . . .

ريديه لعبة نحاول أن نرفه بها عن نفس مريض

نيللى نعم لعبة

(تطأطئ رأسها)

ريديه أظننى ضايقتك ؟

نيللى (بحزن) لا

ريديه أشعر أننى ضايقتك.

(بوقار ، وهمس فى خفية)

لو أنك تعلمين . . .

(لاتصغى إليه وإذا رأى أنها لم تفطن إلى مناجاته سكت)

تنزل الستار

الفصل الثالث

(فى اليوم التالى الساعة الخامسة مساء ـ النهار قاتم بسبب العاصفة ، المطر يتساقط فى الحديقة)

(يعزف جان على البيان دوراً غير مفهوم ، وهو يغنيه بصوت مرتفع ـ يدخل رينيه حزيناً مهموماً مهتاجاً . وينظر إلى أخيه نظرة شزراء ـ ويروح ويجيء مضطربا خلال الغرفة ـ ويلاحظ جان وهو لا ينقطع عن الغناء أو عن الدق على البيان)

جان هل فقدت شيئاً ؟

رينيه فقدت ؟ لاشئ .

جان يبدو عليك أنك تبحث عن شئ

رينيه كلا ، لا شئ .

جان (بصوت مرتفع)

فا صول لا . . . فامى رى دو دو لا . . . فا صول لا دو لا لا صول فالا . . .

رينيه (غاضباً)

آه .

جان ماذا ؟

رينيه إنك تحدث غوغاء .

چان — إنى أعزف على البيان .

رينيه — إنك تجعجع ياصغيرى ـ إنك تجعجع .

چان — إنى فرح .

(مسروراً مبتهجاً)

رينيه — إن فرحك هذا مزعج . ـ ـ ـ ـ جيجا وصخبا .

(منزعجا)

چان — هل تضجرك الموسيقى ؟

رينيه — لا . لا . دق إذا شئت .

چان — يالهـا من أمطار غزيرة ـ أليس كذلك ـ إن الإنسان لايكاد يجرؤ على أن يضع قدمه فى الخارج .

رينيه — لا

چان — (يدق البيان)

فاصول لا . . . فا مى رى دو دو لا . . .

رينيه — (وقد نفد صبره)

آه ! ألا تريد أن تسكت خمس دقائق ؟ إن من المزعج أن يُسمع دق مزعج يتواصل فى حماسة وشدة ، على بيان بالقرب من إنسان حينما . . .

چان — حينما ؟

رينيه — حينما لا يكون الإنسان راغبا فى سماع الموسيقى .

چان — حسن . . . ولكن لماذا تحرمنى تسليتى و إرضاء مزاجى ؟

رينيه — ليس من تسليتك أن تدق على الدساتين . وليتك كنت

تعرف كيف تعزف على البيان ـ ولكنك لاتعرف شيئا من أصول الفن فلا تعبث إذن .

چان — بل أعزف على مايبدو لى من أصول الفن تماما

رينيه — انتظر حتى تعود إليك ذاكرتك

چان — ليكن ما أردت ـ فإنى أراك متكدر المزاج ، هذه هى العاصفة،ولكنها ستنقضى ـ ولستأريد أنأغنى ـ ولكن الأمر الجوهرى هو أنلى رغبة فى ذلك .

رينيه — دع رغبتك لنفسك وارحمنا من تحقيقها ما دامت تؤذى غيرك ممن لايشركونك فى هذا الميل .

چان — ألا تشركنى فى حب الموسيقى ؟ إذن فأنت غير مسرور ؟ لا يذهبن فكرك إلى المطر فما هو إلا ماء ينهمر ، وليس لهذا أى خطر ، وما أجدرك أن تفكر فى البلاد التى لامطر فيها . فكر ياعزيزى فى البلاد التى حرمت المطر .

رينيه — نعم . . . نعم . . .

چان — (بمرح)

انظر معى مجموعات الصور هذه .

رينيه — أية مجموعات ؟

چان — مجموعات الصور الصغيرة التى بعث بها إلىّ الكولونل فى العام الماضى ليسلينى بها ، لقد أفادتنى كثيراً هذه السنة ... لأننى مشغول بالبحث عن بلد أذهب إليه مع نيللى لنقضى فيه شهر العسل .

رينيه آه !

جان وأنا متردد بين الذهاب إلى مراكش أو اليابان ، على أن اليابان تروقنى كثيراً . وسأطلعك على صورة مدهشة تمثل لك حديقة شمالى البحر فى المساء وتريك المصابيح المعلقة ى الأشجار . ولكن أخوف ما أخافه أن تكون الألوان عير دقيقة ، أى ليست كما هى هنا .

(يفتح إحدى مجموعات الصور ويبحث)

انطر ، هاهنا صورة لاستراليا أيضا . . . ولنيللى أن تختار وحدها ما تريد من هذه البلاد . ولكننى أرى أن ليست لهذه الصغيرة إرادة ، هذا ما ألمحه فيها لأول وهلة . على أننى أرانى مضطرًّا — على كل حال — أن أفكر لى ولها ، أى أفكر لاثنين ، أى أفكر بعقلين .

(رينيه يضحك بدون حق)

وإنى لا أذكر قط ما كانت عليه من قبل . وأنا لم أسألها ذلك . ولكن ذاكرتى عنها غير قويّة . وإن كان يبدو لى — على كل حال — أنها تعرف ما كانت تريده أو ما نريده معا وَفْقَ ماشتهيه .

(يفكر لحظة)

لا أعرف هذا معرفة اليقين ... ثم إنها هى كما كانت هى . . فتعال ، نبحث عن بلد معا . . تعال لنرى إلى أين يبحر العروسان على ظهر السفينة .

رينيه (بسرعة)

ليس عندى وقت . فقَرِّرْ ذلك أنت وحدك ، إذ لست فى حاجة إلىّ . . . وليس من أحد فى حاجة إلىّ .

چان ولماذا يار ينيه ؟

رينيه إنى أعرف ما أقول

چان لو كنت فى مكانك لاشتغلت أكثر .

رينيه آه ! حقيقة ؟

چان إنك من وقت مضى لاتعمل شيئا يذكر .

رينيه وهل أنت على يقين من ذلك ؟

چان لو اننى أنت لاشتغلت أكثر من ذلك .

رينيه هذا الكلام ينطوى على زهو منك .

چان صبراً . وأنت مدرك فى النهاية ماينقصك . أما أنا فلا يعوزنى شىء . . . اذهب واشتغل

رينيه (لايزال غاضبا)

أنت مصيب ، وهذا خير لى أن أعمله . أين محفظتى ؟

چان محفظتك ؟ على المنضدة . انتظر فإنى وضعت مجموعات الصور فوقها . . احترس فإنها سهلة العطب لخفتها . . . احترس فإن أستراليا جميعها فى يديك .

.. (رينيه لايتمالك نفسه من الغيظ فيسقط مجموعة الصور على أرض الغرفة ويبعثر ما فيها) .

رينيه (بعصبية وحنق)

لا تزعجنى بلعبك. وعليك أن تحترم أدوات عملى . . فما معنى هذا ؟

(يلقى بقوة مجموعة الصور وغيرها من المجموعات وجان يحدق النظر فيه ويمحى دون أن ينبس ببنت شفة ويلتقط المجموعة ويصرخ رينيه)

ألا ترى أننى تعس ؟

چان لو أن الجو صحو لطلبت إليك أن نمضى معا للتنزه فى الخارج .

رينيه نعم — إنى أذهب .

(يذهب نحو الباب ويفتحه فى حماسة وعنف كما لو كان يريد أن يهجم برغم انهمار المطر)

جان مالى أراك تعسا يارينيه ؟

رينيه (يلتفت إلى أخيه وينظر إليه متسائلا)

هل أستطيع ياچان أن أسألك شيئا ؟

چان سل ماشئت . . . فما هو ؟

رينيه أتريد ياچان أن تصنع معى جميلا ؟ أتريد أن تفتح لى الطريق التى تقودنى إلى حظى ؟

چان نعم . ولكن كيف ؟

رينيه هل لك فى أن تعدل . . . ؟

چان عن أى شىء . . . ؟

رينيه أترضى أن تعدل ؟

صوت نيللى (تنادى)

چان

جان　ايه ! أوه ! لبيك . أنا هنا (لرينيه) ماذا كنت تقول ؟

رينيه　صه . . .

جان　هاهى ذى صغيرتى نيللى . لقد تأخرتِ كثيرا فى النزول ياعزيزتى ، وأنا أنتظر وجودك بلهفة وسرور وابتهاج .

(يضع ذراعه فى ذراعها ويقول لرينيه)

ماذا تقول ؟

رينيه　لاشىء

جان　بلى . بلى . . يظهر لى أنك تعلق عليها كثيراً من الاهتمام .

رينيه　على أن وجودها ليس بذى خطر ، فلا تقطع علىّ حديثك

جان　. . . لقد طلبت إلىّ أن أعدل عن . .

رينيه　(بسرعة)

عن أى شىء ؟

جان　لا أدرى .

رينيه　وهل ترى هذا ؟

جان　كنت على وشك أن تقوله لى .

رينيه　لا إنك لم تدرك غرضى .

جان　فى استطاعتك أن تتحدث أمامها . فإذا كان فيما تريد الإفضاء به إلىّ سر فهى خير من يكتمه .

رينيه　(بدون أن يجيب)

أسعد الله مساءكما .

جان　إذا كان عندك شىء تريد أن تفضى به إلىّ . . .

رينيه لو كان عندى ما أقوله لك لقلته

چان (لنيللى)

إنه متكدر المزاج . هاهى العاصفة تعصف .

نيللى (رينيه وهو متأهب للخروج)

أتخرج فى مثل هذا المطر المدرار ؟

چان نعم . . ألا ترى أن المطر ينهمر .

نيللى إنك ستبتل بالماء .

رينيه نعم ــ أوه ؟ ليس لهذا أى خطر .

نيللى (فى أدب)

ابق معنا .

رينيه لا ــ إنى فى حاجة إلى استنشاق الهواء . و إنى لآنس بالمطر وأشعر حين يغمرنى كأنى فى بتى . . . إلى اللقاء .

(يبقى جان ونيللى لحظة صامتين ثم يتحدثان)

چان (بشغف) اليابان ، أم مراكش ؟

نيللى ماذا تقول ؟

چان أم أستراليا ؟ إلى أى البلاد نسافر ياعزيزتى نيللى ؟ إلى مراكش ــ إلى اليابان؟ أم إلى استراليا ؟

نيللى لا أدرى .

چان قولى وأسرعى ــ أسرعى .

نيللى ربما إلى مراكش .

چان أو إلى اليابان ــ بلاد حملة مصابيح القمر الأخضر ــ سأريك

الآن . . . اليابان

نيللى — اليابان .

چان — إنى لعلّى يقين من أنك ستشاطرينى رأيى .

نيللى — أنا موافقة على مايرضيك ياچان . ومحبذة كل ماتريده .

چان — سأجتهد فى أن يكون ما أريده حسنا إرضاء لك .

(يجلس على المكتب إلى جوار النافذة ، والمجموعة على ركبتيه ، وتجلس نيللى إلى جانبه)

أُنظرى هذه الصورة . . ماذا ترين فيها ؟

نيللى — أرى فيها هذه المساكن الصغيرة . . . . وهذه الأنوار المتلألئة . . .

(بشئ من الاكتئاب)

إنها لجميلة وبديعة !

چان — (يضمها اليه وهو يداعب شعرها)

اليابان . . . الميكادو . . . القناطر الصغيرة . . . المندرانات.

لا ! المندرانات هم حكام الصين وقواد جيشها فهم ليسوا فى اليابان كما وهمت . . إننا إذا ذهبنا الى اليابان أصبحنا فيها كالملوك ، ولكننا لن نصبح أسعد مما نحن الآن .

نيللى — (بعاية اللطف وبصوت منخفض وكأنها تهمس فى أذنه)

صدقت ياچان.

چان — إنى أهزها . وإذا هززتها مدة طويلة تنام . . هى لا تقول شيئا لأنها ابنة صغيرة . ما دمنا يا نيللى سعيدين فى

الأيام الممطرة فإنا لن نخشى شيئاً . وهذا هو أسوأ يوم في الصيف . إن ماريا تتخبط في الطين . و إني لاينقصني شيء من السعادة فلتدم الأمطار أشهراً . . . ولست براغب في صيد السمك ، لا في غديري الصغير ـ الذي ألفت الصيد فيه من قبل ـ ولا في غدران اليابان التي لم أرها بعد . تُرى في أي شيء تفكر فتاتي العزيزة ؟ وما بالها قد وضعت يدها على خدها ؟

نيللي — إني مصغية إليك .

چان — إن حنانك يدفعك إلى مجاملتي .

نيللي — حناني ؟ كلا بل أنا أفكر في شيء آخر .

چان — هل طافت بذهنك فكرة حزينة ؟

(تهز كتفيها)

ما الذي لا يرضيك . الزواج ؟ أم السياحة ؟

نيللي — الارتياب في هذا وفي تلك . والشك في تحقيق كليهما أو أحدهما .

چان — الشك والارتياب ؟ لماذا ؟ إني أرى كل شيء وفق ما نريد ، وأراه حقيقة راهنة لا سبيل إلى الشك فيها

نيللي — لا أستطيع أن أقول لك شيئاً .

چان — ما الذي يحول دون تحقيق هذه الأماني الحلوة ؟

(لا تجيب)

(ثم يقول وقد خطرت له فكرة .)

هل اقترفت في حياتك زلة تؤاخذين عليها ؟

نيللي — وأية زلة ؟

چان — إنك تعلمين حق العلم ما ذا أعنى بهذا السؤال .

نيللى — چان !

چان — لقد سمعت أن مثل هـذا يكفى لفسخ كل زواج . ولـكنه لن يفسخ زواجنا كما تعلمين . فإذا كان فى حيـاتك شئ تؤلمك ذِكراه ، فلا تعذبى نفسك ولا تفضى به إلىّ ، فإنى لن أطلب منك شيئاً من هذا .

نيللى — ليس فى حياتى شئ يؤخذ علىّ .

چان — هذا حسن . إذن فتأكدى أنى إن أغفلت ذكر سقطاتى فإنما أفعل ذلك لأنى لا استطيع أن أذكرها .

نيللى — ألا تستطيع ياچان أن تذكر قليلا منها ؟

چان — سقطاتى ؟

نيللى — لا ، فإنى أغتفرها لك كائنة ما كانت ، و إنى لأود من كل قلبى أن أراك معافى ، موفور الصحة ، ومتى تم ذلك تأهبنا للسياحة علَى عَجَل .

چان — أتريدين ذلك ؟

نيللى — نعم

چان — و إذا عز شفائى ؟

نيللى — أظل هنا إلى جانبك كما اتفقنا .

چان — (تسقط دمعة من عينيه)

هل أنت متألمة من أجلى ؟

نيللى — لم أكن سعيدة كثيراً .

چان ما العمل يا رباه ؟ إنها ذاكرتى . إنها ذاكرتى هذه السيئة التى لا ترضيها

نيللى أتريد أن نحاول أن نتذكر ، أتريد أن نجرب ذاكرتينا معاً ؟

چان ذلك ما أتمناه .

نيللى (تريه كناشة صغيرة)
انظر — أتعرف هذه ؟

چان لا

نيللى هى كناشة صغيرة كانت لك من قبل .

چان آه

نيللى وقد سقطت منك ذات يوم على رمال إحدى الحدائق العامّة ولم تسنح لى الفرصة بأن أردها لك .

چان وهل فيها كتابة ؟

نيللى إنك تذكر فيها أوقاتك اليومية وما صنعته فيها .

چان أيامى القديمة ؟ أوه . أتسمحين لى بأن أراها ؟
(يأخذها منها ويقلب صفحاتها ، ويقف مصادفة عند صفحة)
« الساعة العاشرة — مارسل . . . تروكاديرو » « التحدث بالتليفون مع ا . س » من ا . س . ؟ « الغداء ظهراً عند الكونتس . . . » أية كونتس ؟ « الساعة الثالثة رواق شرفة الأوديون ما هو الأوديون ؟ »

نيللى دار تمثيل .

چان	« الساعة الرابعة » مارسل . . . تافرن دو بانتيون » « ن »
« الساعة الثامنــة ـ العشاء مع مارسل » « السهرة مع مارسل » من هو مارسل هذا ؟

نيللى	لا أدرى

جان	وأنا أيضا .

نيللى	على كل حال كانت لك مواعيد كثيرة فى بعض أيامك على الأقل .

چان	ياله من خبال ! ولكن من هى « ن » أو من هو ؟ .

نيللى	ألا تعرفها ياجان ؟

جان	لا ــ من ؟ آه ! « ن » هى نيللى ؟ أهى أنت ؟

نيللى	نعم .

جان	إنه ليسرنى أن أجدك مكتوبة فى هذه الكناشة فى مذكراتى.
(يقلب الصفحة ويقرأ)
« الحلاق . . . المرور بالفيجارو . . . الساعة الخامسة »
(يقلب صفحة أخرى)
« ن » إذن فقد كنت أظفر بلقياك فى كل يوم ؟

نيللى	(تلقى نظرة على الكناشة وتقول بضيق)
لا ــ فقد كنا لا نكاد نلتقى فى ذلك العهد إلاّ نادراً .

چان	هذا دليل على أننى كنتُ أبحث عنك فى كل يوم دون أن ألقاك . « ن » أيضا لقد كنت صبوراً .
(يقلب الصفحات)

بائع الحلوى ! هذا شئ لذيذ .

نيللى نعم . ألا تعرف أننا كنا نلتقى عند بائع الحلوى بعد الظهر أحيانا حيث كنا نحتسى الشاى ومعنا أختى الصغيرة ، أو مع « سرج لوران »

چان (ممتقع لونه فجأة)

مع من ؟

نيللى « سرج لوران » أحد أصدقائنا القدماء . . . ماذا بك ؟

(لا يجيب ولكنه يرفع وجهه بغتة فإذا هو منقبض وكأنما أصابته نوبة مؤلمة من ذكرى مؤلمة .)

ماذا بك ؟

چان « سرج لوران »

نيللى (بقلق)

وماذا ؟

چان (يجتهد أن يبتسم ابتسامة خفيفة ضعيفة)

مثل ضربة كرباج و . . .

نيللى وكيف ؟

چان (يشير إليها بأن تسكت)

شعره ملَبَّد ـ أليس كذلك ؟ وشاربه قصير أليس كذلك ؟

نيللى نعم . هو كما وصفت .

چان أوه ـ لكأنى أراه ـ أليس طويل الجسم ؟ أليس طويل

نيللى (متأثرة كل التأثر ومسرورة)
نعم . نعم — أتذكره ؟ أتذكر سرج لوران ؟
چان نعم — إنه يشبه جواد ضابط .
نيللى (تضحك)
إذن فهو يشبه الروج الذى زعمته لى ؟
چان مثل ال . . . ولكن . . . كان هو . . . كان هو الذى علمت أنك قد تزوجت منه . . . اسمعى . . . ماذا ؟ كيف ؟
نيللى نعم — كيف ؟ وأى شبه ألصقته به ؟ مسكين أنت يا سرج لوران .
چان آه !
نيللى ماذا ؟
چان أشعر بألم فجائى .
نيللى ولماذا ؟
چان لا أدرى . . . لا أد . . . .
(يسكت فجأة ويبدو كأنه مرسل نظره إلى صور بعينها)
نيللى فيم تفكر ؟
چان كان يحبك ! أليس كذلك ؟
نيللى إنك تمزح .
چان كلا
نيللى أنا لا أعرف أنه أحبنى قط .
چان أما أنا فأعرف ذلك حق المعرفة .

نيللى — وكيف عرفته ؟

چان — لا أذكر .

نيللى — ياعزيزى چان .

چان — اسكتى اسكتى – إننى أشعر كأنّ فى رأسى مثل أمواج البَحْر المصطخبة يطفو بعضها فوق بعض . أوه .

(يترنح كما يترنح المخمور ويسقط جالسا)

اسكتى ! اسكتى ! . . . إننى مريض . . . ماهى الموجة التى ستطفو فوق الأخرى ؟

نيللى — ألاأدعو لك والدتك ياچان ؟

چان — لا ، لا .

(تتنبه ذاكرته)

آه . أنا أعرف أن سرج لوران كان يحبك

(يقول بسرعة وفى نفس واحد)

و إنى لأتمثل عينيه يوم رأينا كما فى عُرْض الطريق ، فوقفتما لتحيتنا قائلَيْن لنا . « نهاركم سعيد . . . » لقد كان يحبك يانيللى !

نيللى — أىخيال تخترعه ؟ وما هذه الأُسطورة التى تطيف برأسك ، ويخلقها وهمك ؟

چان — (فى لهجة أقرب إلى الغضب)

أنا أخترع ؟ أتظنين ذلك ؟ أمتحققة أنت ؟

نيللى — [illegible] متحققة

چان إن من المدهش أن يذكر الإنسان شيئا بعينه،ثم لايستطيع أن يجزم أنه يذكر . تبا لها من ذاكرة ضعيفة .

نيللى ياچان ـ إن سرج لوران من خيرة أصدقائنا ، وقد قضيت أنت معه أوقاتا لذيذة مؤنسة ، ولطالما أعجبتَ به . اصغ إلىّ ـ ألا تذكر أنكما دعوتمانى ذات مساء إلى العشاء فى مطعم ليلىّ فى غابة بولونيا ؟

ألا تذكر أنكما ـ حينئذ ـ كنتما على أتم وفاق ، وأن الفرح قد طغى عليكما فى تلك الليلة وأثملتكما الراح حتى أصبحتما إلى المجانين أقرب منكما إلى العقلاء .

چان فى أى مساء ؟

نيللى فى مَساء يوم من أيام الصيف . وقدتناولنا العشاء فى العراء ، و إننا لكذلك إذ جاءت فراشة فغرقت فى قدحك .

چان آه ! نعم كان ذلك . . آه ! ولكن . . كان ذلك على ما أرى . . آه ! نعم . . . وهل كنت أحتسى كأسى حينئذ

نيللى كما كان يحتسيها صاحبك

چان ولكن شتان بين الطريقتين : طريقتى وطريقته ، وشتان بين القلبين: قلبى وقلبه ، لقد كان غارقا فى اللهو حينما كنت أتظاهر باللهو أمامكما، وفى قلبى من الأشجان مافيه . و إنى لأتمثل ثلاثتنا الآن

نيللى أحق ماتقول ياچان ؟

چان أما كنت جالسة إلى المائدة بينى و بينه ؟

نيللى		بلى

چان		وكنا عائدين من دار التمثيل

نيللى		نعم ـ ثم سرنا فى شارع طويل ـ ذلك الشارع الذى لن أنسى ذكراه . . . . قَبُحَتْ ليلةً ما كان أسوأها .

نيللى		لقد كانت ـ على العكس من ذلك ـ ليلة أنس وسرور .

چان		لغيرى وليس لى ، نعم ـ ليس لى ! بل لسرج لوران ـ فقد كان ممسكا بيدك حينئذ حتى قطعنا ذلك الشارع الطويل ، وكنت خلفكما لأنى لم أجد لى أى محل بينكما ، ولكننى لبثت صابراً . . . وتظاهرت بالفرح والسرور . . . ولو لم أفعل ذلك لرجوتمانى أن أنصرف .

نيللى		لقد كان ممسكا باحدى يدىّ كما كنت أنت ممسكا بالأخرى ، لا شك فى هذا .

چان		أتظنين ذلك ؟

نيللى		نعم .

چان		(بحدة)

لا ـ إنك ما كنت تودين حينئذ أن أمسك بيدك أو ألمس ذراعك .

نيللى		أوه !

چان		لقد قلت لى ذلك . . . قلت لى يوما إن . . . أوه ! ماذا أصابنى ؟

نيللى ماذا ؟

جان رأسى . . إنه يدور كما تدور بكرة الخيط .

(تغمض عينيه)

ليس لدىّ وقت لأنظر كل شئ مادمت على هذه الحال . . .
إنى أراك . . وأرى نفسى .

(ينظر إلى الكاسة الصغيرة ويظهر أنه يذكر على التحقيق أشخاصاً وأماكن ثم يقول .)

نعم . . . نعم . . . إنى أذكر ذلك جيداً .

نيللى هذه ذكرى يا جان وهى . . .

جان (بألم وتعاسة)

نعم هى . . .

نيللى لماذا يبدو الحزن والاكتئاب على وجهك ؟

(يطيل النظر فيها طويلا)

ابتسم . . . فإن شفاءك وشيك . . . ابتسم لى . . .

جان أسألك الصفح الجميل يانيللى .

نيللى عن أى شئ ؟

جان عن الأشياء الجنونية التى حدثتك عنها منذ حللت هنا .

نيللى ولكن ياجان . . .

جان على أنها غلطتك إلى حد ما ، فأنت التى شجعتنى على هذيانى وجنونى .

نيللى إنك لم تقل لى شيئا جنونيا بعد .

جان لقد حدثتك عن زواجنا يانيللى . . . فاصفحى عنى ولا تحقدى علىّ . .

نيللى أنا أحقد عليك ! ولماذا ؟

جان أنت التى ماأحببتنى، لاتقولى شيئا فإنى ذاكر ، والأمر كما قلت: هذه هى الذكرى .

نيللى نعم وإننى جد سعيده بها .

جان أما أنا فلا .

نيللى ابتسم لى جزاء عنايتى بك .

(ينظر إليها من غير أن يتكلم)

جان آه ـ سنرجع إلى ماكنا فيه .

نيللى ماذا ؟

جان منذ لحظة . وسأظل مفكرا فيك من الصباح إلى المساء . وسألقى عليك أسئلة لتجيبى عنها ، ثم تلقين على مثلها مرة أخرى .

نيللى إنك لتعلم حق العلم أنى قد أحببتك .

جان كما تُحبين مريضا لايزال طريح الفراش . أو طفلا مشرفا على الموت . ولكننى لمّا أزلْ على قَيْد الحياة .

نيللى وستعيش إلى ماشاء الله .

جان نعم ـ وسنعيد الكَرة ! وسأعمل أيضا على أن أتبعك عن بعد فى متنزهاتك ، وأقف فى شرفات القهاوى والمنتديات لأنعم برؤيتكْ وأنت سائرة فى الطريق، ثم ألحق بك

وأقابلك فجأة فى الطريق متظاهراً بأننى ألقاك مصادفة ، حسبي ماكان وكفى ما لقيته فقد طال الأمد . ولا سبيل إلى احتمال هذه الآلام . فأنت تصغين إلى مايقول غيرى وأنا أقضى حياتى وليس لى أمل أكبر من أن أحاول إقناعك بأنى أحبك، من غير أن أوفق إلى دليل طاهر أتوصل به إلى الحصول على إجازتى كعاشق . . . هذا إلى كل ما أراه . . . ويجب أن تعلمى أنى أرى كل شئ . . . آه ! كلا . . . كلا . . . حسبي هذا وكفى .

نيللى اصغ إلىّ ياجان .

چان خبرينى لماذا جئت هنا ؟ لقد كنت نسيتك ـ ولم أعد أفكّر فيك . لقد كنت لاشئ ، ولم تحتلى من ذاكرتى غير ذرة ضئيلة من تفكيرى ، ثم ماذا ؟ ثم عدت إلىّ ـ بعد هجرانك ـ فإذا بك تملئين حياتى وتفكيرى ، وإذا بك الآن كل شئ بعد أن كنت فى خلَدى لاشئ .

نيللى جان .

چان اذهبى .

نيللى انظر إلىّ .

چان أعرفُك ـ نعم ـ ولا تزال عيناك كما كانتا من قبل .

نيللى تأملهما جيداً .

چان اذهبى من حيث أتيت .

نيللى لا أريد أن أذهب .

چان ادهبي فاني سأتبعك برغمي وأسير في أثرك .

نيللي كلا .

جان بل أسير خلفك وأنا أصفر أدوارا قصيرة لأظهر نفسي بمظهر اللاهي أو السالي .

نيللي إنك لتذكر جيداً ياجان، ولكنك لا تحسن الفهم ـ فاصغ إليّ دون أن ترمقني بنظراتك . . . إنني لا أستطيع أن أثبت أمام هذه النظرات النافذة . (تمسك بيده وتقول له دون أن تنظر إليه أيضا)

إني أحبك .

جان ماذا ؟

نيللي إن تلك الفتاة الصغيرة السابقة كانت مخدوعة .

جان إنك إذن لم تفهمي . إنني لست في حاجة إلى عنايتك اللطيفة ، فما أنا بمجنون ، بل أنا من كنت تعهدينه من قبل . أنا .... أنا تعس .

نيللي وأنا نفسي لست أنا نفسي ـ فما كنت من قبل أحبك . . ولكنني الآن قد فتنت بحبك .

چان نيللي !

نيللي نعم ياجان ، إن الإنسان ليتغير .

چان (متهجاً كثيراً يشير بإصبعه إلى نفسه)

هأنذا يا نيللي أنا ـ فهل تتحققين جيدا ؟ وهل أنا الآن نفس جان الذي كنت تعهدين من قبل ؟

نيللى نعم ياچان .

چان ثم ماذا ؟

نيللى كان خليقا بى أن أحبك .

چان نيللى !

(تمد له دراعيها ويلبثان متصامين مدة طويلة ، وهما يبكيان ويضحكان

هذه لحظة سعيدة ما أجملها .

نيللى هل أنت مسرور ؟

چان خبرينى ياعزيزتى الصغيرة . كيف جئت هنا ؟

نيللى سأحدثك عن ذلك .

چان حسن — وهل أنت على يقين من أنك تحبينى .

(تبدى إشارة تدل على الموافقة)

آه — إننى جد سعيد . ولكن لماذا كنت لاتحبيننى من قبل ، ثم كيف أصبحت تحبيننى الآن ؟

نيللى هذا ماأجهله ، وسأبحث عن السبب فى ذلك .

چان وهل تقبلين أن تكونى زوجتى ؟

نيللى متى قبلت ذلك فإنى راضية بما تريد .

چان لقد انتظرتك مدة طويلة .

نيللى ها أنت ذا ترى أن لكل شئ ميقاتا .

(قبلة أخرى ، وتشير إلى الحديقة من خلال النافذة)

هذا أخوك .

(تفر هاربة إلى السلم)

چان إلى أين أنت ذاهبة

نيللى	ساعود توًّا

چان	يانيللى الصغيرة .

نيللى	اسكت.

چان	اليابان . . .

نيللى	المصابيح . . .

(ترسل إليه قبلة من فوق السلم ، وتختفى ويدخل رينيه)

چان	يارينيه ـ يا أخى الكبير

رينيه	ماذا تريد ؟

چان	لقد شفيت من مرضى .

رينيه	لم تكن مريضاً حقاً ياچان .

چان	كلا يارينيه . إنك لاتدرى ـ لقد عرفت نفسى فى غضون السنين الماضية ـ ولقد كان أمامى ستار من الدخان . . . وكانت سُحُب الضباب الكثيفة تكتنفنى دائما ، ثم انقشعت والحمد لله .

رينيه	(غير مصدق)

بعضَ هذه الحماسة ياچان ، ولا تتماد فى تفاؤلك.

چان	آه ! ألا تصدقنى . أأنت مرتاب فى صحة ما أقول ياشقيقى رينيه الكبير ؟ ستتبين صدق ما حدثتك به ، وتراه حقيقة راهنة لاتقبل الشك .

رينيه	أنت محموم ، أنت تهذى .

چان	نعم ـ أهذى قليلا . وهذا راجع فيما أظن إلى أنى أستيقظ

مبكراً،وأشعر فى التبكير بسعادة عظيمة لايشعر بمثلها من ألف الرقاد .

رينيه وكيف ؟

چان (يرتعش من التأثر والفرح ، وتصطك ركبتاه ويعوزه النطق) ستعرف ذلك ، فاصغ إلىّ : إن الفتاة الصغيرة . . نيللى الصغيرة . .

رينيه نعم

چان لقد أصبحنا خطيبين وستصبح لى زوجة فى القريب العاجل.

رينيه نعم . وعلى هذا . . .

چان لاتقاطعنى،وقدأصبحت لاأحفل بشئ يار ينيه بعدأن أحبتنى، فقد كنت أهيم بحب هذه الفتاة من قبل .

رينيه أعرف هذا .

چان آه ! وكنت تعرف ذلك ؟ حسن ــ لقد أحببتها من قبل وهى ما كانت تحبنى ، ثم أصبحت الآن تحبنى . أفهمت ؟ وكنت أحبها قبل مرضى ، وها أنت ذا ترى كيف أننى أصبحت أذكر الماضى بكل دقة . وعندما أصابنى مرضى حسبت أننى فقدتها إلى الأبد ، ولكننى عندما شفيت ظفرت بها ــ فهى لى وأنا لها ، وحسبى هذا سعادة يار ينيه يا شقيقى الكبير . نعم أنا جد سعيد وإن كان يخامرنى قليل من الشك طبعا . . . . فلا زالت أمامى سحب قليلة من الظلمات ، وغداً يجىء الضوء الساطع فيبددها ، وحسبى

اليوم هذا الظَّفَر . آه ! لقد شعرت الآن بلذة الفوز ، ورأيت بعيني كيف كسبت النصر . فعزيزتي الصغيرة تحبني.

رينيه — وهل قالت لك ذلك ؟

جان — نعم .

رينيه — (يعض بريقه)
آه .

جان — ياشقيق رينيه الكبير .
(عد له دراعه)

رينيه — هل قالت لك إنها تحبك ؟

جان — نعم .

رينيه — أكانت جادة غير مترددة فى تصريحها لك ؟

جان — وأين الجد إلاّ فى قولها .

رينيه — هذا لعب طوّح بكما إلى آفاق بعيدة .

جان — وكيف ؟

رينيه — . . . .

جان — ماذا تريد أن تقول ؟

رينيه — لاشئ .

جان — لقد قلتَ إنه لعب ـ فأى لعب تعنى ؟

رينيه — لاتعذب نفسك ياصغيرى حتى لايعاودك المرض .

جان — ليس هذا هو الجواب الذى أريد .

رينيه — ليس عندى من جواب غيره .

چان إنك تقابل سفائى بغير ابتهاج ، إنك تقابله بفتور غامض لا أستطيع أن أفهم له معنى .

رينيه لاتقل مثل هذا أيها الأبله .

چان رينيه

رينيه (فى حال عصبية شديدة)
ألا تريد أن تهدأ . تكلم . سنتحدث فى ذلك عندما تركن إلى الهدوء .

چان أنا هادئ ولكنك أنت — على العكس منى — ثائر .

رينيه يجوز . إنى لأراك متحمسا ثائر الأعصاب لأمور تافهة تفاهة اللُّعَب التى يلهى بها الأطفال ، وهذا صار بصحتك .

چان أى ألعاب الأطفال تعنى ؟ ولماذا تذكر كلمة لعب ؟ بينما أنا أحدثك عن سعادتى . وأقول لك إنى سأتزوج من . . .

رينيه تتزوج ! إنك لن تتزوج غداً — أليس كذلك ؟

چان بل فى أقرب وقت .

رينيه سنتحدث فى هذا الصدد بعد أن تشفى من مرضك .

چان لقد عوفيت الآن وتم لى الشفاء.

رينيه من كان فى مثل مرضك فلا أمل فى شفائه مرة واحدة .

چان لقد قلت لى إننى لم أكن مريضا حقا فى أى يوم من الأيام.

رينيه يحسن أن نريك وجها من أوجه الحقيقة مادمت غير متمالك عقلك .

چان غير متمالك عقلى ؟ من أظرف الأشياء أنك تقول لى ذلك فى

الوقت الذى أجدنى فيه كامل العقل موفور الإدراك .

رينيه وستجدك أكمل عقلا وأوفر إدراكا بعدأن تنال قسطا وافرا من العناية بأمرك .

چان لقد عاد إلى عقلى وظفرت به بعد أن فقدته ، وأنا أعرف ذلك ، وهذا نفس ماقالته لى نيللى .

رينيه لكى تدخل السرور على قلبك .

چان ولكننى أذكر الآن ، وأرى الأشياء القديمة السابقة بوضوح كأنى أراها اليوم ، وأرى أشياء متلاصقة وأشياء تتم نفسها . فما دمت أرى ذلك يا رينيه وأذكر . . . . .

رينيه ترى وتذكر من غير ترتيب أو إدراك .

چان كفانى مانلته من حظ فى التذكر فقد أصبحت متحققا من أنى أذكر تماما .

(سكوت قليل يجيل خلاله نظره فى أخيه)

اصغ إلى يا رينيه .

رينيه ألا تريد أن تسكت ؟ كن ساكناً هادئا وتحاش التفكير .

چان (وهو لايزال ينظر إليه)

فى أى شئ ؟

رينيه فى مرضك

چان (يتظاهر بالهدوء التام)

لعلك تريد أن تقول إننى جدير بأن أتحاشى التفكير فى أمر شفائى . أليس كذلك ؟ إن ذلك يشغلنى الآن ، لأنه يتوقف عليه زواجى . ولأن مرضى وحده يحول دون تحقيق

هذا الأمل.

رينيه زواجك !

چان أترانى أحسن صنعا إذا كففت عن التفكير فى الزواج أيضا ؟

رينيه بالطبع .

جان (تهديد حى)
ولماذا تريد أن تمنعنى من التفكير فيما يرضينى ؟

رينيه أوه ! شدّ ماتضايقنى .

جان كيف ـ ولماذا أضايقك ؟

رينيه لأنى مغيظ محنق عليك ، حين أجدك تأبى إلا أن تنافسنى فى حلبة واحدة ، وأنا معتقد أن سيجىء يوم تخرج منها مدحورا . ولا شك فى أن هذا من الحمق والبلاهة . لقد كانت صحتك سائرة فى طريق التحسن ، ولا شك أنك مفسدها بهذا اللجاج. لقد جاءوك بصديقة شابة فكأنما أتوك بتصاوير لتلهو بتمزيقها، وكأنما طويت من عمرك خمسة عشر عاما على الأقل ورجعت غلاماً، فأنت وهذا ، وما بالك تعرض نفسك للحمّى . أليس حقا ما أقول ؟

چان أَتِمَّ حديثك .

رينيه انتهى الحديث .

جان (وقد أنعم فيه النظر فى رينيه بانتباه وتفرس شديدين)
ألا تجد فى نفسك أى استعداد يارينيه لأن تظن أننى قد شُفيت ؟

رينيه ولماذا ؟

چان لأنك لاتريد أن تصدق أننى فى أتم صحّة ، وأننى قد أدركت غاية الشفاء.

رينيه ماذا تقول ؟

چان إنك لتؤثر يارينيه أن ترانى ميتا على أن ترانى صحيحا معافًى.

رينيه تريد أن . . . .

چان اسمع ، إنك لتؤثر أن ترانى فى مستشفى المجاذيب على أن ترانى فى البيت الذى أحلم بالذهاب إليه .

رينيه ألا تريد أن تسكت ؟

چان إنى أحب فتاة شابة حينما أنت تحب هذه الفتاة نفسها كما أحبها.

رينيه ما أراك تقول حقا. .

چان أوه ! !

رينيه (باصفرار وشحوب وجه)
ماذا يقول ؟

چان ماتقول أنت نفسك . فمنذ ربع ساعة يأبى صوتك إلا أن يُكَذِّبَ كلماتِك ، وتأبى عيناك إلا أن تكذبا حركاتك .

رينيه أرجوك

چان أأنت لاتحبها ؟

رينيه لا أريد أن أرد عليك ، فأنت تلقى القول جزافا .

چان أأنت لاتحبها ؟ أجب . . . هأنذا أنظر إلى عينيك اليمنى واليسرى . ألا تحبها ؟

رينيه لا .

جان (يصرخ)
آه

رينيه (يصرخ)
نعم أحبها – أيعجبك هذا الجواب ؟

جان أوه ! يالك من جبان !

رينيه ماذا تقول ؟

جان جبان ! أقول إنك جبان ! وأقَرِّرُ لك أنك جبان. وأكرر عليك أنك جبان .

رينيه ألا تريد أن تسكت أيها الشقى .

جان (بهدوء واحتقار)
أى شقيق أنت ؟ أى شقيق لى !

رينيه يالك من مجنون !

جان لا. إن هذا الولد الكبير لمَطمعا محرما، فقد آلى على نفسه ليختطفنَّ هذه الفتاة الجميلة منى ، وليغرينَّها بالزواج منه ما استطاع إلى إغرائها سبيلا . وهو يؤثر بالطبع ألا أشفى قبل هذا اليوم السعيد الذى يتم فيه هذا الزواج الأثيم. آه !! أى شقيق هو ! قل لى أى شقيق أنت ! على أننى قد ضايقته وأنا مريض ، نعم لقد كنت أضايقه، ما أتعس حظى وما أشد جنونى حين لم يدر بخلدى أننى جدير أن أخلى له الجو وأكون بمعزل عن منافسته فى حبه ، ولا غرو إذا نفد صبر هذا الصبى الكبير . فما أعظمه جرما ارتكبته !! وما كان

أحمقنى وأبعدنى عن واجبات الأدب والكياسة واللطف والمجاملة.
فهل أنت غافر لى هذه الخطيئة بعدما أحسب عفوك يضيق بها
فأنت طيب غفور ، وإنى لشديد الطمع فى غفرانك .

(يضحك ضحكة مؤلمة ثم يقطعها فجأة)

رينيه — إنك لاتفقه ماتقول بل تخترع من عندك ما يحلولك من الأوهام ، وإن لك لخيالا خصبا أىّ خصبٍ .

جان — غاية فى الخصوبة . حتى لأستطيع أن أرتجل أمامك نهاية الجملة التى بدأت بها الآن .

رينيه — أتممها إن استطعت .

جان — أتريد أن تعدل عنها ؟
إنك لم تقل « عنها » ـ ولكنها هى المقصودة من جملتك أليس كذلك ؟

رينيه — نعم ياصغيرى هو ماتقول .

جان — يالك من جبان !

رينيه — مَه . مَه .

(يمسك جان من كمّيه بوحشية وغلظة ويلقيه بقوة على المقعد)

ألا تريد أن تصغى إلىّ دقيقة واحدة ؟ إصغ إلى وانتبه واجتهد فى أن تفهم ما أقول .

جان — قل مايحلو لك .

رينيه — اعترفْ بأننى أردت أن أراك تكف عن شغفك الشديد بهذه التسلية الحمقاء التى لم نقدمها إليك إلا لتكون لك نوعا من العلاج والتسلية .

جان   العلاج والتسلية . . . .

رينيه   (بثبات)
و إذا كنت أنت لاترى ذلك فهى به عليمة حق العلم . وهكذا دفعتنا العناية بك إلى احضارها . وها أنت ذا ـ فيما يبدو لى ـ على وشك الشفاء ، ولكننى لا أجزم بذلك .

جان   لقد شفيت .

رينيه   لا ـ وأنا ألح فى تقرير ذلك . وأصرح لك أننى أحب هذه الفتاة .

جان   آه .

رينيه   صه . . . فما أظنها تفكر حتى فى أن تنظر إلىّ أو تلقى علىّ بنظرة وهى منصرفة، لأنها مشغولة بهذا اللعب الظريف عندها . لا تلعب .
(يقول بالحاح ثابت ولطيف)
إنى أبلغ من العمر الخامسة والثلاثين وأنا أدرى بما يمضى . فأفسح لى الطريق يا صغيرى حان وأتح لى أن أفتش على حظى ، فأنا أخوك الكبير ، وأرانى فى حاجة إلى ما أنا طالب ، ولقد سببت لنفسى ضرراً من أجلكم جميعاً ، على أنها قضية مشتركة متشعبة قليلا ـ فلا تلعب . إنك أجمل منى كثيراً وأنت عشيق جدُّ محبوب ، فكلما عبثت معها فإن عينيها تشخصان إليك . و بعد أن ينتهى من اللعب ترى أنه لا يملأ الحياة لنفسه وحده ، وعلى هذا أستطيع أن أقول كلمتى .

هذه هى المسألة ياجان ، أفهمت ؟ لقد أعطوك بضع دريهمات لتلهو بها فوق سطح الماء . وكنت أنا هناك أرقب ماتصنع ولم يكن عندى ما أشترى به الخبز الضرورى ، فطلبت إليك أن تعطينى مامعك من الدراهم مؤكداً لك أنهم سيعطونك غيرها . فهل تريد أن تنزل لى عن هذه الدراهم القليلة التى تلهو بها ؟

جان (يهز كتفيه)
لا يا رينيه — فإذا أردت أن تحل محلى ، فاسمح لى إذن أن أحل محلك ، ولِمَ لا ؟

رينيه إنك ذو دالّة ، فأنت تتكلم بلسان ولد سعيد مُدَلل . أما أنا فأرى الحياة خلوًا — فياله من فراغ .

جان وأنا أراها أيضا كذلك ، فياله من انتظار !

رينيه هو انتظار كل ما كان ينقصنى .

جان إن الشئ الوحيد الذى أردته قد حصلت عليه وهو فى يدى .

رينيه فى يدك ؟

جان نعم

رينيه يالك من مسكين أيها الصغير !

جان لماذا ؟ لماذا تقول : «مسكين أيها الصغير» . ليس عندى ما يدعو إلى الشكوى والاشفاق . فنحن سنتزوج .

(يهز رينيه رأسه بشفقة وسخرية)

نعم هذا أمر مبرم . ونيللى راغبة فى تحقيقه أكثر منى .

رينيه (نفس الحركة السابقة)
آه ! آه !

چان لعلك تحسبها وعوداً فى الهواء ، ليعلل بها طفل ؟ — كلا — فنحن سنتزوج ، وقد قبلتنى نيللى زوجاً لها متى تم شفائى من مرضى واستكملتُ عقلى .

رينيه (نفس الحركة)
نعم فقد أُعجبتْ بحسن إدراكك وقوة ذاكرتك !

چان نعم — سنتزوج لأنى أحبها وهى تحبنى .

رينيه مسكين أيها الصغير !

چان ولماذا ؟

رينيه لأنها لم تكن تحبك من قبل .

چان نعم .

رينيه وهاهى ذى تحبك الآن ؟

چان نعم

رينيه عجيب . . .

چان ولكن . . .

رينيه لقد كنتَ شابا جميلا غنيا بالوعود ، ولم تكن هذه الفتاة رغم ذلك تحبك ، أما اليوم فامرك أدهى من ذلك . أليس هذا صحيحاً ؟

چان قلت لك الواقع يارينيه .

رينيه وما الذى جرى إذنْ ؟ لقد كفى أن تراك مريضا ضعيفا

قليلا مشرد العقل حتى يدور رأسها .

(سطر إليه جان بدون أن يجيبه) إن كل شئ مهما بلغت غرابته محتمل الوقوع . ولو كنت فى مكانك لدهشت .

(سكوت قصير)

جان لقد سألت نفسى هذا السؤال يارينيه ، وعلى غير إرادتى دار دورته فى رأسى هو وغيره من الأسئلة ، وهأنذا لمّا أخرجْ من الضباب . وأنا أبحث قليلا لأعرف نفسى . انظر إنك قلت .

(يفكر بجهد)

انظر إنك قلت إنى كنت من قبلُ . . . .

رينيه لاتجهد نفسك ولا تبحث عن شئ .

جان لا . لا . فإنى أريد أن أعرف . و إنى لسعيد إذْ أراها قد تغيرت ، ولكن ما أريد أن أقف عليه هو أن أتعرف لماذا وكيف تغيرت ؟

رينيه (بمحاولة)

كل شئ يتغير ، ومن ذا الذى لا يتغير ؟

جان لا فإننى أحببتها منذ أربع سنوات ولا زلت أحبها الآن . فهأنذا لم أتغير قط . أضف إلى ذلك أننى كنت مجنونا فى بعض الأحايين .

رينيه لاتشغل نفسك بما فات . واحصر كل همك فى أن تقنع نفسك أنك قد عرفت هذه الفتاة من قبل، ثم عرفت الآن واحدةأخرى تشبهها ، وأن اسمهما ـ لحسن الحظ ـ واحد .

وهذه وسيلة تحل لك كل مشكلاتك .

چان إذا كانت نيللى هذه غير نيللى تلك فإنى لن أحبها

رينيه (ينظر إليه)

آه .

چان ولو أنها يارينيه واحده أخرى غير التى هام بها فؤادى من قبل لأخليت لك المكان من فورى . ولكنها نيللى . . . وأنا إنما أحبها لأنها « نيللى » . أحبها لأنها هى نفسها . ترى هل هى جميلة ؟ لا أعرف . والذى أعرفه أنها كانت من قبل جميلة حين وقعت فى هواها . . وما ذلك إلا لأنى تألمت كثيراً وانتظرت طويلا وأصررت على حبها ، ثم لأنى أجدنى إذا ظفرت بها قد ظفرت بأمنيتى التى اشتريتها بأعلى ثمن وأنى قد عوضت عن آلامى ومتاعبى وتغلبت على دهرى وانتهت أيام شقائى ، هذا كل ما أريد أن أقول . وبدون ذلك ما كنت لِأُعْنى بها أو أحس لوجودها أى خطر ، فماذا ترى ؟

(يشرع رينيه فى الكلام ثم يسكت)

ماذا تريد أن تقول ؟

رينيه لاشىء .

چان بل كنت تريد أن تتكلم .

رينيه قلت : لا

چان بل إنك لتستطيع أن تقول ، فهل خطرت لك فكرة ؟

رينيه (مبهجا تبدو عليه حيرة ظاهرة)

قلت لا . لا . إلى الملتقى . سأدعك مع عرائس أحلامك لتسرى بها عن نفسك ، فاستمتع بالأمانى بكل ماتستطيع وأدخل البهجة على نفسك أطول وقت تستطيع .

جان لماذا ؟ لماذا تقول . . .

رينيه احرص على إيمانك ينفدك .

جان (مرخما)

لاتقصدْ عامداً إلى تشريد فكرى ، فأنت جدير أن تساعدنى على أن أتعرف نفسى أعطنى شيئاً لأصطاد به .

(يقول بحأة)

لا تنظر إلى هذه النظرة ــ آه ! إنك جبان على التحقيق . لأنك تريد أن تجعلنى أشك فى شفائى . . . فادهب ، إننى غير مجنون ، اذهب ، فقد رأيتك مدة طويلة . . . أنت جبان بكل مايحوبه الجبن من مخزيات ونقائص .

رينيه (مهددا)

جان

جان تحاول أن تؤذينى ؟ إنك أخذت على نفسك أن تغرق رأسى فى الماء بعد أن رأيتنى سلمت من الغرق و بلغت الشاطئ .

(غاضباً)

قلت لك إنك جبان . ولم أقلها لك كما يجب أن تقال . فيا أيها الجبان بدلا من أن تأخذ بيدى وتساعدنى . . آه

يا لك من جبان ! !

رينيه (باصفرار وصوت متهدج)
أتريد مساعدتى ؟ ستصيبها منى ، وسأرى هل تستطيع أن تقدر هذه المساعدة فيما بعد .

چان (برنحف وحأة)
نعم

رينيه سأقول لك الحقيقة مرة أخرى . ثم لنفعل بعد دلك مايحلو لك أن تفعله .

چان قل .

رينيه هل تذكر جيداً صديقتك ديللى؟ وهل تذكر ما كان عليه من قبل من الطباع ؟

چان نعم .

رينيه وهل أنعمت فيها فكرك الآن ؟

چان نعم .
(يحدحه رينيه سطره وبداه مرتعشتان)
وماذا تريد أن تقول؟

رينيه أريد أن أقول ياصغيرى إنها ليست هى نفسها ، إذا دققت النظر وأنعمت الفكر .
(يضرب جبينه بيده)
لايزال ينقصك شئ قليل .

چان (فى دهشة)

ماهو ؟

رينيه . . . .

چان تقول إنها ليست هى نيللى نفسها .

(رنيه يبدى إشارة معناها لا)

إذن — فمن تكون ؟

رينيه هى فتاة تشبهها ، وقد جاءت بها أمك وقَدَّمَتْ إليك بدلا منها . . . هى فتاة يعرفها القسيس .

(جان لا يصغى إليه تماما — سكوت طويل)

چان ثم أنا أسائل نفسى أيضا — لماذا تحبى ؟ هنا شئ يدهشنى قليلا .

رينيه (يحدث نفسه وحركته لا تزال مضطربة .)

إنه لم يطلب حتى ولا تفسير ما زعمت ، يا لهذا الصغير المسكين . وهو كذلك لم يحفل بالأمر ، فهو مريض تماما . . . وليس من العدل أن يضحى الإنسان بكل شيء من أجل المرضى .

چان إنها تغيرت قليلا . . . كما تغيرتُ أنا الآن ، على أن هذا التغير يبدو لى حسنا مقبولا .

(سكوت ثم يرى رينيه متضايقا غير ناظر إليه)

لا تحول نظرك يا رينيه — هل أنت متكدر لأننى وصفتك بالجبن ؟ عذرا فما كنت أعرف ماذا تريد ؟ ولقد أحسست كثيراً ... إذ قلت لى ذلك .

(يبقى الشقيقان متقابلين ويقبل الليل وتظهر نيللى فى أعلى السلم)

نيللى هاهما — إنى لم أسمع حديثهما تماما وكنت أحسبهما قد خرجا

رينيه　(بحماقة ولؤم)

بل نحن هنا .

نيللى　انقطع المطر

رينيه　ألا تمطر السماء الآن ؟

نيللى　لا . ولكن رذاذا من الماء يساقط من الأشجار. أما الطرق فمغمورة بالماء ، على أن المطر قد انقطع . ألا ترى هذا الوقت ملائما للصيد ياچان ؟

چان　(بحزن وعدم انتباه)

نعم .

نيللى　ماذا بك ؟

چان　نعم إنه وقت حسن للصيد .

نيللى　إنى لأراك غارقا فى الحزن .

چان　لا .

نيللى　بل أنت حزين ـ فلماذا ؟

چان　لست حزينا .

رينيه　(بجهد)

متألم من مواصلة هطول الأمطار ، وتغير حالة الطقس .

نيللى　(تقول لچان باطمئنان)

أتريد أن أعزف على البيان ؟

چان　نعم

نيللى　سأعزف الدور الذى تحبه ولا تحسن عزفه

(تذهب إلى البيان وتعزف)

جان　أنت مصيب تماما يارينيه — إنها ليست هى .

رينيه　. . . .

جان　أوه ! لا — إننى أرى جملة أشياء الآن . أليس من البله أننى كنت سأقع فى هذا الشرك ؟ ليس لهذه حتى لون شعرها ، وتلك كانت أطول من هذه قامة ثم كل شىء آخر يماثلها ويكفى النظر إليها . . .

رينيه　نعم .

جان　توجد ملامح مشتركة طبيعية ، ثم إن شبهها هو الذى يحيرنى فمن تشبه ؟ قل . آه لقد أدركت فى هذه المرة حقيقة الشبه ، فقد كنت أخلط بين امرأتين وأحسبهما امرأة واحدة ، إنها تشبه نيللى . الآن عرفت كل شىء .

رينيه　اصغ إلى .

جان　أشكرك يارينيه . ويجب أن أنهج السبيل القويم . وهاأنت ذا قد رأيت الآن أننى عندما نبهتنى عنيت بالأمر ، وسأشفى عاجلا .

(يفكر بالكتاب وقد تملكه الضيق ، ويبتعد رينيه شيئا فشيئا عن شقيقه ، ويدنو من الفتاة ، وهى تدق البيان . ويبقى جان جالسا مطأطئ الرأس وتترقرق دمعه فى عينيه . ويخرج من جيبه بدون انتباه ورقة فيها نسخة مطبوعة بالأمس ويقرؤها :

« لأرى مغنى جميلا »

(ويمزقها)

هذا كلام فارغ لامعنى له .

ننزل الستار

الفصل الرابع

(فى الساعة العاشرة من صباح الغد)

(الأم واقفة أمام البيان تعزف بعض أدوار وتدخل ماريا تحمل صحفة بها سمكتان .)

ماريا سيدتى ؟

الأم ماذا تريدين ؟

ماريا أتريدين أن أقلى سمك جان ؟

الأم نعم فإنه هكذا يعجبه كما ظهر لنا فى المرّة السابقة ،

ماريا ألا تعلمين كيف جاء به ؟

الأم (تلقى نظرة على الصحفة)

أوه ! ماهذا السمك ؟

ماريا إنه ممزق وكأنما أغارت عليه قطة فَمَزَّقته .

الأم لا أدرى هل يصلح هذا السمك للشواء .

(يظهر جان وبيده بندقية من طراز قديم)

من أين اصطدت هاتين السمكتين ؟

جان من الغدير يا أمى .

الأم إن شكلهما لفظيع .

جان نعم .

الأم — وما الذى أصابهما هكذا ؟

چان — لقد اصطدتهما ببندقيتى .

الأم — ببندقيتك ؟

چان — وماذا تريدين ؟ إننى لا أستطيع أن أصيدهما بالشص . وها أنت ذى ترين أمامك سمكتين . إنه ليسرنى أننى سددت إليهما البندقية وأطلقتها عليهما فقفزتا فى الهواء ، ثم سبحتا مع النيار .

مارى — وهل تريد أن نقلبهما ؟

چان — لا . فإن شكلهما مشوه .

ماربا — إذن ـ فلا داعى للصيد مادمت لاتصطاد السمك إلا بعد أن تشوهه .

(تخرج)

الأم — ومن أين لك البندقية ؟

چان — هى بندقية وجدتها عرضا .

الأم — لا أظنها تصلح بناتا للاستعمال .

چان — بل تصلح لتحقيق ما أريد .

الأم — ألا تخشى أن تجرحك على الأقل ؟

چان — انظرى يا أمى .

الأم — إن لك دائما لأفكارا غريبة

چان — نعم .

الأم — (تنظر إليه بحب شديد .)

يبدو عليك ياولدى جان أنك غير مسرور .

جان صدقت يا أمى .

الأم ماذا ؟ أمتألم أنت ؟ أتشعر بشىء من الضيق ؟

جان قليلا .

الأم ألا تريد أن تكف عن الضجر حتى بعد أن استعدت ذاكرتك وابتهجت أمك المسكينة بهذه النتيجة السارّة السعيدة ؟ إن تَحَسُّنَ صحتك كان يبشرنى بتحقيق آمالى كلها فيك، وقد كنت أظنك ستجىء لتحدثنى عن أبيك .

(لا يجيب)

أتذكر الزمن الذى كنت فيه أعزف على البيان بعد أن تنتهى من واجباتك المدرسيه ؟

جان نعم .

الأم كانت أصابعى — حينئذ — أكثر خفة ورشاقة . آه حقيقة أن الإنسان لايجنى شيئا فى الشيخوخة .

جان كما أنه لايجنى شيئا إذا استرد شبابه .

الأم هل تذكر السيدة بروفست ؟

جان هى سيدة عجوز لطيفة .

الأم وهل تعلم أن ابنها تزوجت ؟

جان أعلم ذلك ، وقد كنا معا فى عُرسها .

الأم نعم كنا معا أنت وأنا ، وكان ذلك أول عهدك بلبس البنطلونات الطويلة.

جان أذكر أنها تزوجتْ فى السنة التى وقعت فيها على ركبتى .

الأم نعم . . . ها أنت دا تذكر من التفاصيل أكثر مما أذكر .

جان وبعد وقت قليل سافر ابويل الصغير إلى المصحة فى الجنوب .

الأم وهل تذكر أخاك الصغير . ؟

جان نعم يا أمى . . . وإنى لأراه ماثلا أمامى وكأنه جالس إلى جانبى الآن . (تنظر إليه الأم متأثرة)

الأم إنى مصغية إليك ياولدى . . إن شفاءك هذا لمعجزة .

جان لقد حدث لى بالأمس . . .

الأم ولكنك لم تحدثنى عن ذلك . ويبدو عليك الآن أنك غير سعيد .

جان عندما أسترد ذاكرتى تماما وتصبح ـ كما تريدين ـ قوية وأرى ذكرياتى ماثلة فى رأسى فإنى أكون مسروراً مادام فى ذلك سرورك يا أمى . أما أنا شخصيا فلا أرى فى هذا خيراً كثيراً .

الأم أنت الآن تقول أحيانا شيئا من السخف والهذر ولكن ليس لهذا أى خطر ، فواصِ جهدك بالسكون والراحة ، ولا تتعب نفسك كثيراً . وحذار أن تجهد فكرك بنوع خاص ، ولتكن على ثقة أن كل شيء سيعود إلى أصله شيئاً فشيئاً ، وإنى لسعيدة بهذا التقدم المطّرد .

جان أنا مسرور لسرورك يا أمى .

الأم ها هى ذى صديقتك الصغيرة فى الحديقة . وأنت تدرى أنها تحبك من أعماق قلبها .

چان . . . . إنها غاية فى اللطف .

الأم (تنظر إليه بتأثر يمازجه شىء من السرور)
ياولدى الـكبير المسكين .

چان مسكين لماذا ؟

الأم لقد كنت مهموما من أجل فتاة صغيرة ، وطالمْت تكتم سرك فى أعماق نفسك ، فهل أنت ذاكر هذا ؟

چان نعم .

الأم يالك من صغير أحمق ! لقد كنت تظن أنها صعبة المراس وها أنت ذا قد رأيت أنها لبت دعوتنا سريعا عند أول إشاره . هيه ـ أيها الأحمق الصغير .
(ينظر جان إليها متبسما)
لماذا تبتسم من هذا الـكلام ؟ ألا تراه حقا ؟

چان إنك ترين ياأمى أننى فى تحسن مطرّد .

الأم وماذا تريد أن تقول ؟

چان أريد أن أقول إننى أصبحت الآن فى غير حاجة إلى هـذا العناء الذى تبذلونه من أجلى . فقـد دفعكم حبكم إياى إلى خداعى والـكذب علىّ . هذه حقيقة المسألة ، أليس كذلك ؟

الأم لست أفهم شيئا مما تقول .

چان بل أنت تفهمينه حق الفهم .

الأم ماذا ؟

چان لاشىء ـ لقد عنيتِ بأمرى أكبر عناية .

الأم	إنك تقلقني ياصغيرى ـ ويخيل إلى من كلامك أن شفاءك من مرضك لم يتمّ بعد .

چان	إن حالتى حسنة على كل حال . وأنت ترينى اليوم أقل انشراحاً مما كنت بالأمس .

الأم	آه ! شَدّ ماتؤلمني وتحزنني بهذا الاعتراف ـ ها إنني أتركك لأنني لا أعرف شيئا مما تقول . ما أشد ارتباككما يا ولدىّ ؛ فكلا كما مضطرب النفس مُشَرّد الفكر ، فمن لى بإرضائكما . ياالله . كم أرى من الصعب أن تسعدا ، فتى أراكما سعيدين فأسعد لسعادتكما .

ماريا	(تدخل)
جاء أبونا يا سيدتى وجلس تحت الكرم .

الأم	إنه جاء ليودعنا .

ماريا	سيعود إلى كنيسته .

الأم	وهاهو ذا يغادر بيتنا أيضا .

ماريا	أيضا ؟ إنه سيسافر وحده ـ فلماذا تقولين كذلك ياسيدتى؟

الأم	لماذا ؟ نعم ـ إنه سيسافر وحده ـ ولست أدرى ماقلته الآن يا ماريا .
(تخرج ويبقى جان جالسا وتظهر نيللى آتية من الحديقة)

نيللى	عِم صباحا ياچان .

چان	عِمى صباحا يا آنسة .

نيللى	آنسة ؟

چان	نعم آنسة .

نيللى ماذا بك ؟

چان لا شىء .

نيللى كلا .

چان لنتكلم بأوجز ما يمكن . هل نمت جيداً ؟ وهل بكرْتِ بالخروج فى هذا الصباح ؟

نيللى إنى أراك من مساء أمس تتحنى علىّ وتعضى عنى ، ولم تلق على نظرة واحدة فى أثناء العشاء ، ثم ذهبت إلى غرفتك ثم مضت هذا الصباح إلى الحقول دون أن تنتظرنى ، وقد زاد ألمى لذلك .

چان إنى سأدهشك إذ أقول لك إنى متألم كما تتألمين .

نيللى ولماذا — وقد ظهر لى بعد أمس . . . .

چان نعم ... بعد أمس ... كانت اليقظة الحقيقية وسأكون دائم اليقظة .

نيللى اننى لا أفهم شيئا .

چان بلى — فقد حسبتِ أنك قد أحسنت صنعا . كما حسبت أمى ذلك ولكنك ترين أن العلاج الذى لجأتما إليه كان خطراً وكان أشبه بنصل ذى حدين .

نيللى ألا تحبنى ؟

چان آنسة . . . .

نيللى كنت تدعونى نيللى منذ ساعات مضت .

چان (محموماً وثائراً)

نعم فقد قلت لك إن مصيبة حلت بى حين ظفرت بعقلى المفقود . ومنذ هـذه الساعة لا أرى داعياً للعب ، ما دمت قد عرفت الحقيقة .

(تبدو ضحكة لا ينتبه إليها)

ولماذا أدعوك نيللى وأنت لست بنيللى ؟

نيللى . . . .

چان نعم . . . أنت لست نيللى ، ونيللى ليست إياك ، نيللى شخص آخر .

نيللى (لا تدرك غرضه)

أترى أننى تغيرت كثيراً ؟

چان ليس إلى هذا قصدت . . . فأنت لست نيللى وكفى . . إن واحدة لن تكون أخرى .

نيللى ما ذا تقول ؟

چان لا ـ لا نريد أن نلعب . وإنى أشكر لك صنيعك بكل إخلاص ، فقد رضيت أن تُحلى محل واحدة أخرى لتشفى مخبولا ، وقد نال الشفاء على يديك ونجحت فى محاولتك كل النجاح وانتهى الأمر . فخبرينى ما هو اسمك الحقيقى يا آنستى العزيزة ؟

نيللى لقد صرت الآن مجنوناً ياچان .

چان نعم صرت مجنونا ـ أفلا تريدين أن تذكرى لى اسمك ؟

نيللى (بلهجة الرجاء)

« م — ٩ »

انظر إلىّ

چان — أوه ! إنك تشبهينها ـ لقد كانت يد والدتى سعيدة مباركة، وكانت حيلتها موفقة فأوقعتنى سريعاً فى الشرك . أما الآن فانى أرى التباين واضحا.

نيللى — أى تباين تعنى ؟

چان — بينها و بينك . . إنه تباين جوهرى ، وقد تكشفت سرّه اليوم ، وتبينت كنهه ، وعرفت حقيقته . وعلى كل حال فأنت لا تقلين عنها جمالا بالتحقيق .

نيللى — (بتوسل)
ياعزيزى چان .

چان — اسمعى ـ إنها لم تكن تقول لى هكذا ، ولم يكن من أخلاقها هذا الحنو الطبيعى .

نيللى — لم أكن أعرفك .

چان — بل كان من عادتها أن تتظاهر بأنها لم تعرفنى من قبل .

نيللى — لقد خدعتُ فيك كما خدعت فى نفسى .

چان — ثم هى ما كانت تعترف بخطئها . لأنها كانت ـ فيما أعلم ـ فتاة مزهوة بشبابها ، فخورة بنفسها فى شىء من النزق ، ولكنها ذات عزم وثبات .

نيللى — إذا كنت قد أسأت إليك فانى ألتمس الصفح .

چان — ولم تكن هكذا متواضعة ، ولم يكن من عادتها أن تعتذر عن أخطائها .

نيللى — لقد كنت متعجرفة شديدة الكبرياء .

چان فكيف ألائم بين كبريائها وتواضعك .

نيللي أرجوك ياچان أن تنظر إليَّ ، فإن كل إرادتي الحسنة تهيب بك اليوم أن ترفق بي ، فهل تريد أن تصدقني ؟

چان لماذا جئت هنا ؟

نيللي للعناية بأمرك . . .

چان إنها ما كانت لتُحَمِّلَ نفسها مثل هذا العناء . .

نيللي ولكنها فعلت .

چان لا ! فهل قرأتِ رسائلي ؟

نيللي إنها بديعة . فقد كتبتها وأنت تفكر فيَّ .

چان إنها كانت تصمم على إغفالها وعدم قراءتها . فإذا قبلَتْ أن تتصفحها زعمت أنها تافهة وغامضة وصرحت بأنها لم تفقه منها شيئاً .

نيللي (بألم)

إنك تسيء الحكم عليَّ .

چان أكذلك تعتقدين ؟ وهل أنت آسفة لهذا ؟

نيللي نعم ، إنه لشيء مزعج .

چان وكان من دأبها أن تتظاهر باحتقار غيرها وقلة الاكتراث برأي الناس ، ولم تكن تعنى بتاتاً بما يجول بخاطري من الأفكار . .

نيللي أحببني ياچان .

چان ولم يكن من عادتها أن تكون هي البادئة بمثل هذا الطلب ؟ إنك لا تحاكينها قط .

نيللى لم أ كن أحبك من قبل . أما الآن فأنا أحبك .

چان ليس دخول القلب بمثل هذه السهولة ، لا سيما إذا كان محكم الأغلاق ! واست أدرى لماذا كانت القلوب مغلقة الى هذا الحد !

نيللى لقد غلبتنى الحيرة فلا أجد ما أقوله لك بعد . وأشعر أننى غاية فى الغباء .

چان (بانتصار)

بقى شئ آخر فاسمعى . إنها كانت غاية فى النباهة . وكان من عادتها أن تعدنى بمثابة الدّرع للفارس ليدرأ بها عن قلبه الدامى. ولما كنت أخشى أن أسئ إليها ، وكانت هى سريعة اليد كانت تصوب ضرباتها دائماً إلى ذلك القلب الدامى فلا تخطئه .

(لم تقل الصغيرة شيئاً بل هى جالسة تبكى بحمة)

نعم إنك لا تشبهينها، فأنت تنظرين بعينين حزينتين مخضلتين بالدمع وما عهدتها تبكى من قبل . وهذه القسوة كانت تشوه محاسنها على كل حال .

نيللى أنا صغيرتك النادمة على ما أسلفت من جفاء .

چان أرجوك ألا تصرى على عنادك ، وألا تكونى قاسية يا آنسة ، فإن رأسى ضعيف وليس من القوة بحيث يقوى على المناقشة ، فلا تضطرينى إلى التخبط والخلط . وما أدرى لماذا تحاولين أن تُدخلى فى رُوعى أنك هى فى حين أنك لست إياها ؟

نيللى (تعتدل)

بلى أنا هى بعينها

چان (يصرخ)

آه! إنك لست إياها — فلماذا العناد والاصرار والمكابرة والخبث! تباً لهذا اللعب، وما أحمق لاعبيه.

(بشدة)

أنت لست إياها. لست إياها — لست إياها — فلا تقولى شيئاً، أنت لست إياها، لست إياها. فاعترفى بأنك لست إياها..

(يقف أمامها وقد ضم قبضتيه مهدداً)

نيللى (عيناها غاصتان بالدمع)

نعم — أنا لست إياها.

چان آه! وما اسمك إذن؟

نيللى ليس من حاجة الى ذكره.

چان فهو أمر غير جوهرى وما أُراك فى حاجة إلى ذكره، فهو لا يعنينى.

نيللى وهل كنت تحبها إلى هذا الحد؟

چان نعم يا آنسة لقد كنت أهيم بحبها

نيللى والآن، ألا تحبها؟

چان بلى — فإنى أهيم بها وجداً.

(تبدى نيللى إشارة لا)

وقد عهدت إليك بأن تحملى اليها ذكراى، وقد رأيت ما فعلت معى!

نيللى ألا يعنيك أن تبحث عنها لتراها .

چان أوه ـ لا .

نيللى إنها لتحسن مقابلتك .

چان بأدب ـ نعم بأدب . إنها غاية فى الأدب .

نيللى وهل تظن أنها لا تستطيع أن تحب ؟

چان بلى ـ إنها تحب أول من تصادفه .

نيللى آه ـ إنك تحكم عليها بأنها تخدع نفسها .

چان نعم ـ وأنا أحكم على نفسى بأن تتالم لكل زلة من زلاتها
آه إننى منصرف .

نيللى (تستوقفه)
چان

چان ماذا تريدين ؟

نيللى إنى أحبك

چان أنت لست إياها .

نيللى لا عليك من هذا ـ فلأكن « غيرها » وأنا أحبك . فهل
تستطيع أن تحب غيرها ؟

چان أما الآن فلا .

نيللى أحبنى . فآه لو كنت تدرى أننى فى حاجة إلى حبك .

چان بودى يا آنسة أن ألبى طلبك ، ولكن الإنسان لا يحب على
سبيل الاشفاق والعطف . لقد كنت طيبة إلى أقصى حدود
الطيبة . وإننى لأشكر لك مرة أخرى أنك اشتركت فى

شفائى . و إذا أنا لم أستطع أن أعترف بهذا الجميل من أعماق قلبى فانما أكون عاقا ومسيئاً إلى من أحسن إلىّ .

نيللى   چان !

چان   أنا ذاهب للصيد

(يهم بالخروج)

نيللى   چان

چان   ماذا تريدين ؟

نيللى   اليابان . . .

چان   نعم اليابان . . ! زيبانجو . . ماركو پولو ! إن العلم قد عاد إلى عقلى أيضاً فيالها من ذاكرة .

نيللى   چان ! ! اليابان . . .

چان   نعم هى جزيرة ، ولن أذهب إليها

(رينيه يدخل)

رينيه   إلى أين أنت ذاهب . ؟

چان   إلى الغدير لأصيد سمكة أو سمكتين

رينيه   أتريد أن أعيرك كراسة ؟

چان   لا .

رينيه   أتريد ؟

چان   لا ـ فانى أفضل أن أصيد ، وأرى سلوتى فى الصيد وحده كما أرى فيه عزائى وابتهاجى كما تعلمين

نيللى   أتود أن أصاحبك يا چان ؟

چان   لا ـ فإنى أفضل أن أكون وحدى مع أسماكى .

نيللى وستعلمني الصيد

چان قلما يتاح الحصول على شئ منها .

نيللى يظهر أنك مهموم ياچان .

چان لا ـ و إلا لعرفت ذلك . . . إلى الملتقى .

(يخطو خطوتين ثم يقف ويشير إلى نقطة أمامه)

آه ! ! هأنذا .

نيللى ماذا تقول ؟

چان هأنذا .

نيللى أين ؟

چان هناك فى المرآة .

رينيه (فى هم وقلق)

أية مرآة ؟

چان التى هناك . . يبدو على أننى غبى . . ما كنت أدرى أننى تعس إلى هذا الحد .

(سريع من التصور)

هيا ابتسم . . . أتريد أن تبتسم . . لا إننى كلما أجهدت نفسى تجلى غبائى . . . آه . . . إن هذا لكثير . . . اعزُب عنى . . . اختف من أمامى . . . ألا تريد أن تذهب ! ! ألا تريد .

(يطلق البندقية أمام نفسه)

لقد أحدثت ثقباً صغيراً فى المرآة . . . ولكن يبدو لى أننى أقل تعقلا مما كنت من قبل . . . نعم يجب أن أبحث

عن لون آخر من المرايا لعلى أهتدى إلى مرآة ترد الرصاص . . .

نيللى (تصغى إلى كلامه بألم)

ماذا تقول ياچان ؟

رينيه عد إلى غرفتك واسترح قليلا

چان لا . فإن فى غرفتى مرآة أخرى . . بل مرآتين إذا حسبنا المرآة التى فوق المُوقَد . . . لا . . لا .

(تائهاً قليلا)

أريد أن أستنشق الهواء .

نيللى أنا ذاهبة معك

چان اتركينى وشأنى ، دعينى هادئاً . ستجيئين معى يوما آخر .

رينيه اتركيه وشأنه ما دام يصر على ذلك

(تنظر إليه نيللى متألمة)

چان نعم أنا أريد ذلك . . . أشكرك يارينيه .

(يذهب إلى الباب وفى اللحظة التي يريد الخروج فيها يقول :)

أشكر لك ما بذلته لى أمس ، فقد أحسنت كثيراً . إذ أفضيت إلى بجلية الأمر .

(يخرج)

نيللى ما كان يحسن بك أن تتركه يخرج منفرداً ، فأنت ترى أنه مهموم .

رينيه ولماذا لا تذهبين أنت للحاق به ؟

نيللى إنه لا يريدنى

رينيه	إن هذا المسكين لا يعرف ما ذا يريد

نيللى	أما أنا فمسافرة غد

رينيه	أتسافرين ؟

نيللى	لم أعد ذات فائدة له بعد الآن .

رينيه	(على الرغم منه تقريباً)
لا . . . لا تسافرى

نيللى	ليس فى وسعى أن أعمل شيئاً فى سبيل شفائه . . . فلماذا البقاء الطويل هنا ؟

رينيه	(وهو خلفها)
وفى سبيل شفائى أنا ألا تعملين شيئاً ؟

نيللى	(عصبية)
ما ذا عساى أن أعمل من أجلك يا إلهى

رينيه	(بصوت خفى)
من المحال أنك لا تفهمين . . . قولى إنك لا تريدين أن تفهمى . . إننى أحبك وأنت تعلمين ذلك حق العلم . . . والإنسان يهديه قلبه إلى الحقيقة ويعلم بطبيعته قسوة الحب . ولا بد أنك قد أدركت ما أُجنّه لك من احترام وإجلال .
(تبدى حركة صغيرة تدل على ضيق الصدر)
ولقد أردت أحوطك بحب قوى متواصل حتى تشعرى فى النهاية بارتياح إلىّ . . . ولكنك ـ فيما أرى ـ غير مرتاحة .. أليس كذلك ؟

نعم وهذا لأننى تعجلت الأمر وطويت المراحل بعد أن رأيت أيام ضيافتك معدودة ، فقد جئت سائحة وستعودين من حيث أتيت ، ومن حق الإنسان أن ينظر لسعادة حياته ويغتفر له سعيه إلى اقتناصها . ولكن السعادة تمر كطيف على صفحة الماء فيفقد الإنسان صوابه . أفهمت ؟

هذه هى حال شقيقى الذى يطلق البندقية على الأسماك ولبس عنده الوقت الذى يحب فيه كما يجب أن يحب . وقد كنتُ قاسيا معه بعض الشئ ولطيفا معك للغاية.

نيللى — لماذا تقول لى ذلك ؟

رينيه — أمصممة أنت على احتقار ماأقول ؟

(نيللى تبدى حركة)

ربما كنتِ مخطئة .

نيللى — إن العقل والسداد قلما يهديان صاحبهما إلى السعادة .

رينيه — بالله . ليس هذا مما يحقق الأمل .. إنى أشعر بقلبى .. وأنتظر مايطلبه ، ولا أستطيع أن أقوم بعمل يرضيه . لو كنت تعلمين كيف أحبك . .

نيللى — (بدون اكتراث)

نعم .

رينيه — أنا أعلم أن هذه الأمور لاتهم إلا من يحب

(يجفف دموعه)

إننى سأكون غاية فى التعاسة والشقاء .

نيللى أتظن ذلك ؟

رينيه إننى لست شابا صغير السن ، بل أنا سائر فى طريق إلى الشيخوخة بخطى سريعة .

..ح لعلك حاقد على ياسيدى ؟

رينيه كلا يا آنسة . . . بل أنا أنظر إليك فأراك جميلة ، ولكنك لاترحمين .

نيللى ليس يحب الإنسان على سبيل الرحمة .

رينيه حقيقة . . وماذا جئت تعملين هنا ؟

نيللى لأرى شقيقك كما تعلم .

رينيه آه — لكم الله أيها المرضى — وآه لكم أيها المحبون الذين يتألمون. والذين يصهرهم الألم ويحوكهم كما يحاك القماش ، ويبقى وخزه فى قلوبهم داميا ، إن النساء لايعطفن دائما إلا على المرضى .

نيللى إننى جئت من أجل شقيقك .

رينيه وأنا أعلم أنك بذلت كل جهدك فى شفائه .

نيللى (بثبات)
نعم .

رينيه وقد رأيتكما تلعبان معا ، وقد كنت أقدر منه على الإقناع

نيللى . . . .

رينيه أنت خبيرة بما أعانيه من ألم مبرّح ، فكيف تسافرين ؟ أما كنت جديرة أن تبقى لو طلب جان منك البقاء ؟

نيللى نعم

رينيه (بغضب مؤلم)

إننى متحقق من أنك قبلت الخطوبة لكى تبهجيه.. قبلت الخطوبة لمريض .

نيللى نعم .

رينيه وكنت على كل حال تتزوجينه . . قولى أكنت تتزوجين من أخى ؟

نيللى نعم

رينيه آه لحظ المستشفى ! ثم تقولين إن الإنسان لايحب من باب الرحمة !

نيللى لم يكن ذلك من باب الرحمة والشفقة .

رينيه كيف ؟

نيللى لم تكن الشفقة سبب هذا الحب .

رينيه وهل كنت تحبينه ؟

نيللى نعم

رينيه (باصرار)

أليس من شك فيما تقولين ؟

نيللى (تترقرق دمعتان فى عينيها) كلا . . . بل كنت أحبه

رينيه آه ! ماذا صنعت ؟

نيللى ماذا ؟ ماذا تقول ؟

رينيه لا شئ . . لا شئ . . إنى لم أفهم

(على الرغم منه)

ويلى ـ أىّ خطأ ارتكبت .

نيللى — أى خطأ ؟

رينيه — آه — سأصلح الأمر . . سأحاول إصلاحه فى الحال

نيللى — ما ذا تريد ؟

رينيه — ابقىْ هنا . . . لا تسافرى .. ابقى بضعة أيام . . . سأذهب لمقابلة چان

نيللى — ماالذى تخشاه ؟

رينيه — (بصوت مختنق وهو يجتهد أن يهدئ نفسه)
ما الذى أخشاه ؛ ولماذا أخشى ؟ ليس من شىء أخشاه . . إنه يصيد هناك ، وسأكون معه ، وهذا كل ما فى الأمر ، وإنى لألتمس منك الصفح يا آنسة عن هـذا الحديث الطويل .

(قبل أن يخرج تدخل الأم والقسيس)

الأم — أذاهب أنت يارينيه ؟

رينيه — (بدون أن يلتفت اليها)
سأعود .

(يخرج بسرعة)

الأم — ما الذى جرى يا آنسة؟ولما ذا تبكين ؟ هل عاود المرض چان؟

نيللى — إنه أنكرنى ولم يعرفنى قط

(تخرج بسرعة)

الأم — إلى أين يذهبون ؟ ما الذى جرى ؟ إنه لم يعرفهـا الآن . يالله،أليس من الممكن أن أطمئن إلى الأمل ثمانية أيام متوالية؟ ألا سبيل إلى أن أرى ولدىَّ سعيدين ؟

القسيس إنهما فى سن الشباب .

الأم وهذا ما يبدو لى ، وأحسبهما لا يعرفان ذلك ،وكم كنت،ود أن أتحدث إليهما فى هذا الصدد ،ولكن الكلام يستعصى علىّ ، ولعل ما أريد أن أقوله ليس مما يجب أن يقال . لقد كنت أود أن أطمئن على حالهما ، فكان جوابهما جافّاً مقتضبا وكأنما يخاطبان امرأة غريبة عنهما .وكنت أود أن أهيئ لهما طعامهما فلا أوفق إلى ذلك ، وتأبى يدى إلا أن تخوننى . . . نعم إننى سيئة الحظ .

القسيس هونى عليك ياسيدتى .

الأم يبدو لى وقد درجت الى الشيخوخة أنهم مازالوا يمثلون دورى طوال الأيام حتى لأشعر أننى قد أدركت الزمن الذى أضايق فيه كل الناس .

(تجفف دموعهاويظهر رينيه)

إلى أين أنت ذاهب يارينيه ؟

رينيه (مضطربا)

ألم تَرَىْ جان ؟

الأم كلا ـ وهل أنت فى حاجة إليه ؟

رينيه لا . . لا . . فربما كان فى غرفته .

الأم لقد رأيته مارًّا منذ قليل.

رينيه ربما كان تحت الكرْم ، فلأذهب إليه هناك

الأم ولكن يارينيه !

رينيه لاتقلقى ـ لاتقلقى .

الأم (كأنما أصيبت بالحوف فجاءة)
ماذا أرى ؟ ماذا أرى ؟
(تنادى)
چان چان ؟

القسيس هوّنى عليك ياسيدة .

الأم إن هـذين الولدين ليبعثان الرّوْع فى قلبى ، ولست أدرى ماذا يجرى ـ ولما كنت أحب كليهما ، فإنى أشعر بخوف دائم عليهما جميعاً . (تبكى)

القسيس سيدتى.

الأم نعم؛

القسيس إنك لتبكين بكاء طفل صغير.

الأم نعم . أنا عجوز الآن فأنا مثل طفل صغير ، ولهذا ارانى فى حاجة إلى من يواسينى دائما ، وأجدُنى وأستوحش متى فقدت الأنيس وتركت وحدى .

القسيس ومن الذى تركك وحدك ؟

الأم أرى حولى أناسا على كل حال . ولكنهم لم ينصحونى .

القسيس إنى صديقك القديم ياسيدتى .

الأم ولقد خدعت فى أمرك أيضا

القسيس خدعت ؟

الأم لقد كان خيراً لى لو أننى أصغيت إليك من قبل .

القسيس

الأم آه ! لو كان فى مقدورنا أن نرجع الزمن بعد فواته

القسيس يقولون إن لكل شئ ميقاتا .

الأم آه يا أبانا .

القسيس وتسميننى أباك .

الأم فى أى شئ تفكر؟ هل سببت لك — بهذه الشكاية — حزناً مثلنا؟

القسيس بل تسببين لى سروراً . ولكننى شاعر بشىء من الحسرة على أيام الشباب .

ماريا (تدخل)

سيدتى !

آه يا أبانا ! آه ! يالها من مصيبة ! يالها من داهية دهياء .

الأم مادا جرى ؟

ماريا أصيب سيدى حان بجرح من بندقيته على أثر انفجارها .

الأم (صارخه)

وهل مات ؟

ماريا آه ! لا أعلم .

الأم وأين هو ؟

ماريا عند السكة الحديدية . وقد كنت مارّه عليها الآن

القسيس إبقَىْ هنا . . . مكانك حتى أعود

(يخرج)

ماريا (باكية)

وقد أبلغنى الخبر أحد العمال

(يظهر رينيه)

الأم سيموت أخوك ياريبيه .

ريبيه ماذا تقولين ؟

الأم انفجرت بندقيته .

ريبيه (يحدق النظر)

الأم إنه هناك .

(تشير إلى الحديقة)

إذهب إليه . . . إلى شقيقك الصغير .

ريبيه نعم ـ أذهبُ إليه .

(يقف جامداً)

ماريا كان أحد العمال مارّاً فأخبرني بذلك .

(بيللى تسمع الحديث وهى فى أعلى السلم)

الأم (تراها)

يا ابنتي الصغيرة ! يالكما من مسكينين ـ لقد تركتما معه البندقية، وكان يجب عليك أن تراقبيه . . وما كان أجدرني . . .

ماريا هاهودا .

الأم آه ياولدى . . . ما أشد خوفى على . . .

(يدخل القسيس حاملا جان بين ذراعيه وخامه عامل فى يده البندقية)

الأم لم يمت ؟

القسيس لا ـ هاهوذا ـ وقد أصيب بجرح .

(يضعون جان ممددا فوق الأريكة ، وهو ممتقع اللون وجرحه غير ظاهر)

الأم ماذا فعلت ياولدى الصغير ياجان ؟ أسامعى أنت ؟

چان   نعم .

الأم   هل أنت متألم ؟

چان   نعم .

الأم   كيف وقع هذا الحادث لك ؟

القسيس   انفجرت البندقية وهى فى يده .

چان   (باصعاء)
انفجرت .

العامل   (يرهم الندقية)
كلا ، إنها لم تنفجر .

ريديه   (يأتى مسرعا ويظل من غير أن يلتفت .)
ماذا ؟

چان   (بإصعاء وطاعه)
إنها لم تنفجر .

الأم   إنى لا أدرك شيئا . . ماذا جرى ؟ هل أصيب بجرح خطير ؟
ماذا أصابه ؟ ماذا صنع ؟

نيللى   (صارخة)
كان يريد أن ينتحر .

چان   أتدرى يا رينيه أننى لم أخطئ سمكة واحدة ، لقد اصطدتها
جميعا .

نيللى   اُدعوا الطبيب

العامل   ذهب زميلى لاستدعائه على عجل .

الأم　انظر فتاتك الجميلة هاهى ذى إلى جانبك . . . إن فى يدها شفاءك

نيللى　كل عنايتى لك ياجان

جان　(يطيل إليها النظر ثم يقول)
اذكر لى الحقيقة يارينيه ـ أهى نعيمها ؟

رينيه　نعم هى بعينها .

جان　(بابتسام)
آه ! إنكم جميعا ظرفاء . لقد كان مرضى خيراً لى من شفائى لأنه كان يحجب عنى تلك الحقيقة المؤلمة .

نيللى　(تجثو على ركبتيها)
هاأنذى ياجان . . . إنك تعرفنى . . . ؟

جان　لو كنت إياها لما جئت هنا . . . لاضير علىّ من ذلك ، فإنها ستبحث عنى يوما من الأيام ، وإن كانت لم تفكر فى ذلك قط . (يضحك وقد برح به الألم) أشعر بألم . . . أوه ! لقد ألحّ علىّ السقم .
(يظهر أنه ينام)
لاتحدثوا غوغاء ، ولا تحركوا الغصون ، صبراً فإنها تسمع كل شىء .

رينيه　ماذا تقول ؟

جان　ما أصعب صيد الأسماك . . . وكنا فى هذا اليوم . . . وسأعود غداً . . لقد أصبحت هذه البندقية . . لاتساوى شيئا .

رينيه ستصيد بها .

چان أوه ! لا أدرى . . وما أظن ذلك يكون .

(تسقط رأسه وتبق بدون حراك)

الأم ياصغيرى العزيز ... هل أصبت بإغماء . إنك بخير ياولدى ...
ماذا تقول ؟

القسيس لقد قال كل شىء .

نيللى (على جسمه)
جان !

تنزل الستار

وتنتهى القصة

فرانسوا كوپيه

١ — النَّافِذَةُ المُنَوَّرَةُ

النافذة المنورة

فى ليلة عاصفة شديده الظلام غاب قمرها وغارت كواكبها ، كان الناس يسيرون فى تلك الطريق المعبدة التى تكتنفها الأشجار ، ولم تكن لترى فى ذلك الوقت المتأخر من الليل إلا قليلا من المارة ــ الذين تأخروا عن الذهاب إلى منازلهم ــ يسيرون بخطوات وئيدة متثاقلة بين صفين من المصابيح المؤتلقة التى تجوس أضواؤها خلال الفضاء الخانق ، ثم لايلبثون أن يغيبوا عن الأنظار ولا يبقى فى تلك الضاحية إلا السكون المخيم . وقد كان الوقت حينئذ آخر أغسطس ، حيث تشتد الحرارة ويتكاثف البعوض ، ويشتد طنينه وهو يتهافت حول مصباح صاحبنا «لوديفيك» بطل هذه القصة الذى بلغ به الضيق فى تلك الليلة كل مبلغ ، واشتد به السأم والملل فحرك كرسيه وألقى نظرة ثائرة على الصفحة التى كان ينمقها ، وهى قطعة من النثر لم يكن قد أتمها بعد ، وكان يدبجها من غير أن يشعر فى أثناء كتابتها بارتياح لما يكتب ، وقد كد ذهنه فى إنشائها بلا طائل ، وأكثر فيها من المحو والتهذيب بلا جدوى ، ثم ونى عزمه وغلبه السآمة والملل فاطفأ مصباح غرفته ونزل طبقات المنزل الأربع ، ثم اجتاز تلك الطريق المقفرة ، وجلس إلى مائدة خارجة ، فى مشرب أمام البيت الذى يقطنه . ولشد ماتملكه الضيق والحرج فى تلك الليلة ، فقد سئم كل شىء حتى قدح الجعة الذى جاء به خادم المشرب ، فإنه لم يستسغ له طعما وقد

كاد يتقايؤه ، و وجد الهواء فى ذلك المشرب لايقل ركوداً وحرارة عن الهواء الخانق الذى كان يتنسمه وهو جالس إلى نافذة غرفته ، وكان يرى فى كل نسمة حارة تهب عليه مايشبه تنفس المريض ، فندم على ترك الغرفة وآثر لو أنه بقى فيها وانطرح على سريره . ولقد صدق « بسكال » وأصاب فى قوله : « خير مايفعله الانسان أن يبقى فى غرفته » ولم يخطىء المثل العربى القائل : « رقاد المرء خير من جلوسه ، وموته خير من رقاده » ولقد آثر « لوديفيك » أن يموت ، وفضل الموت على حياته التعسة ، وكأنما كان يشعر بقول المعرى :

« العيش أفقر منا كل ذات غنى والموت أغنى بحق كل محتاج
إذا حياة علينا للأذى فتحت بابا من الشر لاقاه بإرتاج »

أو قوله :

« كأس المنية أولى بى وأرفق بى من أن أكابد إثراء و إحواجا »

وقد كفى « لوديفيك » مالقى من قسوة الحياة وعنتها ، وهو أديب لم يرزق حظاً من النجاح ، ولم يظفر بما كان يطمح إليه من الشهرة ، ولعل ذلك كان جزاءه الحق ـ من يدرى ؟ فلعله لم يكن من ذوى المواهب الممتازة ، ذلك مانجهله .

* * *

لقد كانت الحياة تسير أمامه على نسق واحد لايتغير ، كأنها أوقات الترام الذى يمر أمامه بعد كل دقائق عشر ، فيسير فى تلك الطريق المقفرة ببطء ثقيل ، وكان « لوديفيك » كالجواد المشدود إلى عربة لايستطيع عنها فكاكا ، فقد اتصل بصحيفة من الصحف ، وليس أشق على الإنسان من أن يظل مرتهنا برقعة يدبجها قلمه ، وهو لايدرى ماذا

يقول ، ولا أى شيء يكتب ويظل كأنه يصيد بالشص ، لايعلم إن كان سيوفق فى صيده أو يخرج منه صفر اليدين ، يالها من مهنة شاقة ! وسوق غير رابحة لايجد فيها الانسان مايبيعه إلا الأفعال والصفات والجمل.

* * *

وكان « لوديفيك » قد أربت سنه على الثامنة والثلاثين ، وكان يعنى بلحيته فى كل صباح ، ثم يرى وجهه فى المرآة ، فيرى فيها شبحا من أشباح الموتى وساكنى القبور ، ويرى شبابه قد ضاع ، ويحاول أن يعثر فى ذاكرته على شيء ظفر به من نعيم أو لذة ، فلا يظفر بطائل ، ولا يرى فى كل ماوعته ذكرياته إلا شتى ألوان الغرام الحزين المؤلم المخجل الذى لايظفر الأعزب الفقير بغيره ، وإذا كان فى صفحة قلبه سماء لنساء أحبهن ، فانه لايتخيل هذه الصفحة إلا مرآة فى مطعم مكتوبة عليها أسماؤهن ، وكان إذا جد به الحزن واشتدت به اللوعة ، فاضت عبراته حين يذكر إحدى لياليه السالفة المفجعة ، قبيل موعد المبارزة الوشيك ، حين كان إلى جانب خليلة رمته المصادفة بها ، وقد أراد أن يوقظها من سباتها ليطبع على جبينها قبلة قبل أن يمضى إلى مبارزته ، ولكنه أحس أن تلك المرأة التى يحتضنها ليست إلا فتاة غريبة عنه لاتمت إليه بصلة ، ولا يعنيها من أمره شيء .

وكان « لوديفيك » وهو مستسلم لتفكيره العميق وذكرياته المؤلمة ، لايزال يرسل نظره إلى الأمام على غير قصد منه ، ولم يكد يرفع رأسه ويتحفز لشرب ثمالة القدح الذى أمامه ، ولم يكد القدح يمس شفتيه حتى استرعت نظره ـ فجأة ـ نافذة منورة فى الطابق الخامس من المنزل الذى يقطنه ، وكانت الغرفة المضيئة فوق غرفته تماما ، ولم يكن ينبعث من

غير هذه النافذة أى ضوء فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، لا فى مسكنه ولا فى كل المنازل التى تجاوره فى تلك الضاحية التى ألف ساكنوها أن يناموا مبكرين ، وكان ضوء النافـذة متألقا فى وسط ذلك الظلام الحالك ، وكان نورها الثابت الهادىء أشبه بضوء المنارة التى تهتدى بها السفن ، وكانت تلك النافذه المنورة مفتوحة لايحجبها إلا ستار أبيض رقيق يزحزحه النسيم إذا مر به ، فراح « لوديفيك » يسائل نفسه متعجباً : « ترى من يقطن هـذه الغرفة المنوّرة ؟ » ، وثمة شعر بالحزن والألم لانفراده وعزلته ، وكانت النافذة المنوّرة ترسل شعاعها فى الظلام فى هدوء ولطف ، فجال بخاطره أن فى تلك الغرفة ـ بلا شك ـ حياة ناعمة سعيدة . هى على الأقل أهنأ من حياته الشقية وأسعد . وهـذا شعور طبيعى يخالج كل من غلب عليهم اليأس والحزن وأمضتهم الذكريات المؤلمـة ، وأقضّت عليهم مضاجعهم وأخرجتهم هاربين من بيوتهم ، فحاولوا أن يجدوا فى الرياضة الليلية سلوى ، فأخفقوا ، فإذا رأى أحدهم نوراً متلألئاً من نافذة فى ظلام الليل البهيم ، حسب أن السعادة كلها جاثمة فى هـذا المكان .

وإن من يطيل النظر فى جوف الظلام المخيم ،وهو يائس من الحياة ناقم على كل من فى الأرض ، ليجد شيئاً من العزاء الممض ، إذا لمح كوكباً متألقا فى السماء ، يبعث فى نفسه المظلمة الأمل والرجاء ، فى تلك الدجنة الحالكة ،وتملأ نفسه الأحلام بقرب الوصول إلى حياة سعيدة.

* * *

وعاد « لوديفيك » يسائل نفسه متألماً : « ترى ، من يقطن هـذه

الغرفة المنوّرة ، ومن ذا الذى يسهر فيها حتى هذه الساعة المتأخرة ؟ أهو رجل عمل وجدّ مثله ؟ أم هو كاتب ! أم لعله شاعر ! »

لقد ذكر «لوديفيك» أنه رأى ذات مرة ـ وهو صاعد إلى غرفته شابا نحيل الجسم شاحب اللون زرى الملبس يحمل كتاباً فى يده ، وقد باداه التحية باسماً ، فلعل هذا الشاب هو ساكن هذه الغرفة ، ولعله مشتغل الآن بنظم قصيدة من الشعر بعد أن قضى يومه يلقن بعض التلاميذ شيئاً من العلوم ، و يتجر فى الدروس اللاتينية ، فيربح منها بعض دريهمات ، ثم يتفرغ إلى القريض والفن ، فهو على فقره أبىّ النفس نقىّ القلب ، وهو فى مثل طهارة السوسن ، وقد حفظ كنز شبابه سليماً موفوراً ، ولم يدنسه عبث ، أو تخالطه أوهام ، وإذا نظرت إليه غادة حسناء ، فإنه — رغم ثيابه المرقعه — يغض من بصره و يسدل على عينيه أهدابها الناعمة ، مدخراً حياته كلها موفورد لخطيبته ومعبودته القادمة .

لاريب أن هذا الشاب شديد الطموح الى المجد ، ولكنه لن يظفر منه بغير قسط ضئيل . يشتريه بأغلى ثمن ، إذ يعصر فى سبيله سلافة روحه وإخلاصه للفن . وهو يحترم ريشته كما يحترم الجندى سيفه ، ويؤثر أن يبيت على الطوى وأن يموت جوعاً من أن يتناول أجرا على آثاره الفنية . ولا ريب أن ذلك دليل على طهارته وعدم خبرته بالعالم وقلة تجاربه . وأى فائدة من حياة الشعراء إلا بعد أن يصحوا من غفلات الحياة ، وتنقضى أوهامهم . هاهوذا الآن يكتب أشعاره الأولى ، وينظم قصيدة الشباب المقدس ، تلك القصيدة التى لاينظمها

الشاعر إلامرة واحدة فى حياته ، فيخلق فيها فردوساً ساحراً . و يسق روضة من رياض الخلود ، لاوجود له فى غير عالم الأحلام، روضا مسجاوب الأطيار ، صداح البلابل ، عطر الأزاهير ، بنتظر بنات الحور ، ذوات الطهر والعفاف،وهن فى مثل الكواكب الدرية نقاء ،حينما الشاعر فى جو بهيج من الأحلام والأمانى العذاب، فإذا قرأها القارىء،رثى لقائلها وتألم لحسن ظنه بالحياة ، ودهش لغرارته،وأشفق عليه كل الإشفاق ، فى حين يرى ذلك الشاعر إن منظومته هى كل مايملكه من السحر والروعة ، و يتخيل أنه سيفتن بها الناس ، و يسحر ألبابهم بحسن خيالها ، وروعة فنها ، ولكن ماذا يعمل هذا الشاعر الفتى فى مثل هذه الساعة ؟ أهو مضطجع على فراشه يقرأ فى تلك الساعة المتأخرة من الليل فى كتاب يؤثره و يصطفيه ، ولعله قرأه مائة مرة قبل هذه المرة ، فانفتحت له ـ بين تضاعيف سطوره ـ فى كل قراءة أجواء من الحسن لانهاية لها ـ من يدرى ؟ فلعله اشتغل طول ليله فى التفكير،وهو الآن يكتب ماوصل إليه وجادت به قريحته ثم أنهكه الجهد فارتمى على مقعد ، واعتمد كفه وألقى عليها رأسه وأغمض عينيه وسقطت الريشة من بين أصابعه ، فظل يحلم ـ وهو راقد ـ بما ستتركه طرفته الفنية من الروعة والسحر . ولعله يرى فى منامه الآن أن الجنية التى تلهمه الشعر والفن قد جاءت إليه فى صورة ملاك ، وأمرّت يدها البضة الناعمة على شعره المسترسل ثم طبعت على جبينه قبلة طويلة فيها كل معانى الحنو والعطف .

* * *

ولكن ترى من يقطن هذه الغرفة المنورة ؟ لقد انتقل «لوديفيك»

إلى هذا السؤال مرة أخرى ، وقد سحره السر الخفى الذى يجتذبه إلى تلك النافذة ، وظلت أفكاره تتموّج وتسير فى غير اتجاه ، ثم تعود إلى هذا السؤال :

«ترى من يقطن هذه الغرفة المنوّرة ؟ لعلهما عاشقان، نعم هما عاشقان لا يشعران أن فى الدنيا غيرهما ، ولا يحسان شيئاً غير حبهما و إخلاصهما المتبادلين اللذين لا حدّ لهما ، ولا ينظران إلى أبعد من ظلهما ، وهما يسيران معاً فى ضوء القمر ، فما أسعد حياتهما ، وما أهنأ عيش هذين الخليلين اللذين بدأت قصيدة حياتهما الشعرية فى مساء ليلة ، فى أقصى هذه الضاحية ، وقد جمعتهما مصادفة سعيدة ، وكانا يتأملان فى ملعب الحيوان فى تلك الغابة، فحانت من الفتاة التفاتة ، فرأت ذلك الشاب وهو أصفر الشعر أبيض الوجه عنابى الشفتين ، ورأى أمامه غادة فاحمة الشعر فرحة العينين ، فشغف بها وهام ، وكان ذلك بدء الحب ، وأصبحا معاً وكأنهما أنشودة لذيذة. وكانا — فى بدء الاختلاط — فى العشرين من عمرهما ، و بدأ حبهما فى أول الربيع وقد أبدلا غرفتهما بسفينة من القبل ، فإذا صح هذا الظن فحاجتهما إلى النور فى هذه الليلة. إن الحب يتطلب أن يطول الليل ، ليبكر العاشقان فى رقادهما ، ثم يستيقظا فى وقت متأخر ، فلعل العاشق قد ذهب إلى أهله ليتعشى عندهم ، فوضعت معشوقته فى عنقه أثراً من آثارها ، ليذكره رائحة معشوقته فلا ينساها ، وقد جلست معشوقته تنتظره فى هذه الغرفة حتى يعود ، وقد شغلت كل وقتها بالتفكير فيه . ولعلها تكتب وهى شاردة الفكر — على غير عمد — اسم حبيبها على غطاء المائدة بطرف السكين التى تعبث بها ثم تمثل فى مخيلتها

مشيته اللطيفة المتئدة . ثم يمـلأ السرور والفرح قلبها نشوة وطربا ، وتظل تفـكر طويلا ، ثم تهب فتخلع عنها ثيابها ، وتطرح نفسها على فراشها ، ولعلها الآن راقدة على مقربة من شمعة مضيئة ، وقد ألقت وجهها الصبوح ، الذى يظلله شعرها المسترسل المتهدل ، بين يديها المضمومتين ، وقد انزلق رِدْنا قميصها المرسـلين ، فـكشفا عن كتفيها البضتين المستديرتين الناصعتى البياض ، فإذا عاد صاحبها سار إلى فراشها بخفة ورشاقة ، حتى لايزعجها فوجـد حبيبته على أسعد حال ، وامتلأ قلبه سروراً إذ يراها نائمـة كالزهرة ، فيجلس إلى جانب سريرها ويجيل فيها بصره طويلا ، ثم تراه معشوقته — وهى فى حلمها اللذيذ — فتفتح عينيها فتلفيه أمامها .

كم يكون لذيذاً رفيف هذه الأهداب حين تستيقظ من سباتها ، وكأنما هى خفقات نجم يتلألأ فيبهر النفس ويملؤها بهجة ، وكأنى بحبيبها — وقد أذهله الحب — يطوى هذه الحبيبة بين ذراعيه ، ويضمها إلى صدره بشغف ، ويخفى وجهه فى صدرها العطر .

* * *

ثم عاد « لوديفيك » يفـكر مرة أخرى ، وهو شاخص ببصره إلى تلك النافذة المنورة ، ويسأل نفسه من جديد : « ترى من يقطن هذه الغرفة المنورة ؟ » لمَ لايكون فيها زوجان سعيدان بحياتهما الزوجية ، معتبطان بمن أنجباه من بنين وبنات؟ ولمَ لاتـكون هذه الحياة البهيجة كالخريف اليانع الثمار ، هى أقصى مايطمح إليـه الانسان ؟ إنها حياة سعيدة بلاشك تمثل الإخلاص والحب وتمثل القلوب المتواضعة الراضية

بالحياة. تلك القلوب التى ترى سعادتها فى أداء الواجب، ولعل هذين الزوجين هما اللذان ألقاهما أحياناً يوم الأحد فى هذه الضاحية، وهما على أكمل خلق وأكرم طبع. لقد رأيت تلك الأم الشقراء الشعر وهى مرتدية ثوباً رخيصاً، وشهدتها تسوق عربة صغيرة وضعت فيها طفلها، ورأيت الأب وفى يده ابنه يذهب به إلى المدرسة. ولعل هذين الزوجين السعيدين هما اللذان يقطنان هذه الغرفة المسوّرة.

إن مرتب الزوج أربعمائة فرنك أو يزيد قليلا، وقد رزقا طفلين. فكيف تعيش هذه الأسرة؟ إنها تعيش عيش الكفاف. وقد جاءها مولود جديد ما كانا يترقبانه. ولكنهما بعد أن جاء رحبا به، وإن أخل بميزانيتهما الضئيلة، وقد كان من حسن حظ الأب أن اشتغل كاتباً فى صيدلية بمرتب ستمائة فرنك فى السنة، فهو يبرح منزله فى الساعة الثامنة صباحاً مزوداً بفطوره الذى يضعه فى قطعة من القماش ليأكله فى محل عمله، على أن هذه الاسرة لا يكدرها — رغم فقرها — أى مكدر، فهى فى أتم صحة، وأكبر أبنائها طالب فى السنة الخامسة، وقد نال ثلاث جوائز فى العام الماضى، وهو يلتفت إلى أمه، وهى مكبة على الخياطة، فيلفى على عينيها آثار التعب، فيقول لها — من فرط حبه! «اذهبى ياوالدتى لتنامى، وكفاك ماعانيت من جهد مضن فى هذا اليوم»

وعلى الرغم من جميع الشدائد التى تلقاها الأسرة، فإن «لوديفيك» كان يغبطها، لأنها تملك مالا يملكه من الشعور بالسعادة، والفضيلة تكتنفها، والقناعة تملأ قلوب أفرادها رضى وانشراحاً.

***



« فترك كرسيه وألقى نظرة ثائرة على الصفحة التي كان ينمقها » (انظر ص ١٥٢)

ثم أمطرت السماء رذاذاً على الإفريز وعلى المائدة التي كان يجلس إلى جانبها « لوديفيك » ويتكيء عليها ؛ وكان ذلك نذيراً بهبوب العاصفة. فرأى « لوديفيك » أن الوقت قد حان للعودة إلى مسكنه ، فرجع أدراجه وعجب حين رأى حارسة البيت لا تزال مستيقظة ـ وهي ترقع جورباً في غرفتها الصغيرة ـ فقال في نفسه : « لاشك أن هذه الحارسة تعرف الخبر اليقين عن سكان هـذه الغرفة السعيدة التي يستر نافذتها هذا الستار الأبيض، الذي ظل مبعث تفكيري وأحلامي في هذا المساء مدة طويلة. » وكان يذكر في نفسه السعادة التي تحيط بأفراد هذه الأسرة الفقيرة التي تسكن الغرفة المضيئة وهي « العمل، والحب، والأسرة . » وقد سأل الحارسة متلهفا : « ترى من يقطن الغرفة المضيئة التي فوق غرفتي ، فليس في



« لعلهما عاشقان لايشعران أن فى الدنيا غيرهما » (انظر ص ١٥٨)

البيت كله غرفة مضيئة سواها ؟؟ » فقالت له الحارسة :

« ليس يقطنها أحد ياسيدى بكل أسف . فقد كان فيها شيخ مسن

آربى على السبعين من عمره ، وقد عجز عن دفع الأجرة منذ شهرين ؛ ولم يطالبه بها صاحب البيت لفقره وعجزه ، وقد مات فى الساعة الرابعة من مساء هذا اليوم ، وتفضلت السيدة التى تقطن الدور الأول ، عليه



بقطعة قديمة من القماش جعلتها كفناً له ، وليس له قريب ولا صديق يعرفه، وقد أوقدت شمعة إلى جانب سريره طول هذه الليلة ، وسأصعد إليه بعد قليل لأصلى عليه وأدعو الله له بالرحمة والغفران .

فرانسوا كوپيه

٢ — كِسْرة الْخُبْز

كسرة الخبز



كان الدوق الفـتى « دى هـاردمون » مقيما فى مدينـة « اكس » حيث يعالج فرسه الشـهير ممـا أصابه من الرطوبة فى « دربى » ولم يكد ينتهى من طعام الغـداء حتى ألقى بنظرة عاجـلة على إحـدى الصحف التى معه ، فاسترعى بصره فيها نبأ كارثة « ريشهوفن » . فاحتسى الدوق قدحه — فى عجلة وسرعة — وألقى بالمنشفة على مائدة المطعم ، وأمر خادمه أن يُعِدّ له حقائب السفر . وما كادت تمر عليه ساعتان حتى استقل قطار باريس السريع . ولما وصل إلى باريس أسرع ، مِنْ فوره ، إلى دار التجنيد

وانخرط متطوعاً فى سلك الجنود المتطوعين الذاهبين إلى ميدان القتال.
وكان هـذا الدوق الشاب قد قضى شطراً من حياته وهو يحيي حيـاة مضطربة صاخبة ، وقد أولع حينئذ بسباق الخيل وغشيان مغانى اللهو واصطحاب المغنيات ، فـكانت تذكره بعض الظروف والمناسبات بانجران دى هاردموند الذى قضى نحبه فى تونس صريع الطاعون فى نفس اليوم الذى تولى فيه ذلك الصريع قيادة الفصائل الـكبرى، وقد قتل فى نفس اليوم الذى حمل فيه الى البيت الأحمر فى فولانتينو .

وبالرغم من أن هذا الدوق الشاب كان منهمكا فى حب «لوسى فيوليت» الممثلة الأولى فى ملهى « نودتييه بارنيرين » حتى افتضح أمره ، اشتد تأثره وفار الدم فى عروقه حـين قرأ ما حدث فى المعركة التى خسرها الفرنسيون ، ووقع عليه هذا النبأ وقوع الصاعقة. فلما عاد جيش «ڤنوى» كان صاحبنا قد عُهد اليه بالحراسة أمام حصن «هوت برو ببر» وهو حصن تعجلوا فى إنشائه، يحميه مدفع من حصن « بيستر » .وكان هذا المـكان يشير إلى وقوع تلك الـكارثة، وقد غرست طريقه بمقابض المـكانس ، وامتلأت بكثير من الفجوات المـكتظة بالوحول، وعلى حافة الطريق حانة كان يرتادها الجنود ويجعلونهـا منتداهم ، وقد نشبت فى ذلك المـكان معركة منذ أيام ، وتركت طلقات المدافع فى أشجارها آثاراً واضحة ، وحطمت أكثرها ، وخلفت بهـا آثاراً تشبه الجروح ، أما المنزل فـكان منظره مروّعا فقد اخترقت سطحه قنبلة ، واصطبغت حوائطه بالنبيذ الذى سال عليها فترك فيها آثاراً كآثار الدماء ، وانقلبت البراميل ، واخترق

الليلة من ليالى الشتاء القاسية ، وقد تكاثفت فيها الغيوم القاتمة ، وأظهرت الطبيعة ما لديها من ضروب النقمة والغضب .

* * *

ووقف الدوق الشاب أمام الحانة ساكنا لا يبدى حراكا ، ورفع طوق معطفه، وأرخى قبعته العسكرية على عينيه ، وأدخل يديه فى جيبى بنطلونه الأحمر ، وقد كادتا تجمدان من شدة الزمهرير ، فظل جسمه كله يرتجف ارتجافا شديداً ، وشرد ذهن هذا الجندى المنهزم كل مشرد ، فتخيل كثيراً من الأحلام السوداء ، وظل يلقى عينيه الحائرتين على مختلف الجهات التى تكتنفه وقد غمرتها الغيوم ، وأرخت عليها ثوبا ضافيا من الظلام والحلك ، ولم يكن يرى فيها قبسا من نور إلا فى فترات من الزمن متقطعة يبدو فيها ضوء القذائف التى تنطلق ــ الفينة بعد الفينة ــ من مدفع « كروب » . وشعر الدوق الجندى شعوراً فجائياً بألم الجوع فجثا على إحدى ركبتيه، وفتح جعبته وأخرج منها قطعة كبيرة من الخبز الذى أعطوه إياه فى الجيش، ولم يجد سكيناً يقطعها بها ، فلجأ إلى قضمها بأسنانه ، وأخذ يأكلها ببطء شديد وقد اكتفى بلقيمات قليلة تبلغ بها، فقد كان الخبز ــ الى يبوسته ــ مر المذاق، ولن يوزع الخبز الطازج على الجند إلا فى صباح الغد كما أمرت لجنة التموين بذلك . فما أبعد الفرق بين المعيشتين ! وقد ظل يفكر فى البون الشاسع بين هذه الحياة وحياته الأولى الرغد الناعمة حين كانت تقدم اليه أفخر ألوان الطعام والشراب ، فهاهو الآن يقاسى من شظف العيش مالم يتعوده، وقد اشتد به الألم حينئذ فألقى مشمئزاً بقطعة الخبز فى الوحول .

* * *

وخرج من الخان ـ فى هذه اللحظة ـ جندى من جنود فصيلته فالتقط كسرة الخبز وسار بها بضع خطوات ومسحها بِرِدْنِهِ ، ثم أقبل على أكلها فى شراهة ونهم عجيبين ، وثمة خجل هنرى دى هاردموند من فعله ، ونظر إلى هذا الجندى نظرة إشفاق وعطف ، فرآه طويل القامة نحيف الجسم محمر العينين ، أشعث اللحية ، يبدو على سيماه أنه خارج من المستشفى وقد كادت تبرز عظامه من ثيابه .

فدنا منه الدوق وقال له :

« أجائع أنت أيها الرفيق ؟ »

فأجابه الجندى وهو يمضغ الخبز بأسنانه :

«حسبك دليلا على ذلك ما تراه . »

فقال له الدوق :

« عذراً ياصديقى ، فلو علمت أنك شديد الجوع إلى هـذا الحد لما ألقيت بكسرة الخبز فى الأوحال . »

فقال له الجندى :

« لا عليك من ذلك ، فقد تعودت مثل هذا ، وليس يضيرها أن ألقيت فى الوحل ، فهى لا تزال طعاماً صالحاً لا أشعر بأى اشمئزاز من أكله »

فقال له الدوق الفتىّ :

« كيفما كان الأمر ، فقد أخطأتُ وشعرت بأن ضميرى يؤنبنى على ما فعلت ، ورجائى إليك ألا تسىء بى الظن ، وأن تتفضل عـلى فى أن تشْرَكنى فى احتساء قليل من الـكونياك المعتق »

وكان الجندى قد التهم كسرة الخبز كلها ، فشاركه فى شرابه مبتهجاً مسروراً ثم سأله :

« ما اسمك أيها الرفيق ؟ »

فقال له ولم يشا أن يعرفه بلقبه ؟

« اسمى هاردموند ، فما اسمك أنت ؟ »

فقال له الجندى :

« اسمى چان ڤيكتور ، وقد ألحقونى بهذه الفصيلة بعد آن خرجت من المستشفى المتنقل ، وكنت قد أصبت فى شانلون ، آه ! كم كنت مرتاحاً ياصاحبى فى المستشفى ، وكم كنت مسرورا بما يقدمه لى الممرض من حساء شهى ولحم خيل لذيذ . وقد كانت إصابتى بسيطة فشفيت منها سريعاً ، وأمر الممرض بإخراجى ، لهالله فقدحرمنى تلك المآكل الطيبة اللذيذة وهأنذا أبدأ حياة الجوع من جديد . صدقنى يا خى أننى قضيت حياتى كلها جائعا . »

* * *

وقد كانت تلك الكلمة قاسية شديدة الوقع فى نفس صاحبنا اللوق الشاب المترف المنعم ، فشخص إلى الجندى ، وقد استولت عليه دهشة شديدة و بدت على وجهه أمارات الألم والحزن ، فابتسم الجندى له ابتسامة المتألم، وظهرت ـ فى انفراج شفتيه ـ أسنان بيضاء فى وجه معبس قاتم تدل على أن صاحبه يريد أن يفضى إليه بدخلته ومكنون أمره ، وقد عرف الجندى أن محدثه من السراة المترفين، فقال له :

« هيا بنا يا صديق نمش فى الطريق لندفئ أقدامنا وسأقص عليك مالم تألف أذنك سماعه طول عمرك. قلت لك إن اسمى « چان ڤكتور » ولم أزد ، فليس لى لقب آخر لأننى لقيط ، ولعل أشهى ذكرى تهش إليها نفسى هى أيام طفولتى الأولى التى قضيتها بملجأ اللقطاء ، وأذكر أن

ربطة سريرى التى تغطيه كانت بيضاء، كما أذكر أنه كان فى غرفة معدة لنومنا، وكنا نلعب فى الحديقة تحت الأشجار الباسقة وكانت تتعهدنا أخت صالحة فى مقتبل شبابها، وهى نحيلة الجسم ممتقعة اللون ، ولكنها طيبة النفس، وكانت تفردنى ــ دون غيرى ــ بحب وعطف شديدين ، وكنت أوثر أن أصطحبها فى نزهتها على أن ألعب مع رفقائى اللقطاء ، وكانت تُمْسِكُنى بطرف ثوبها لأمضى معها، وتضع على جبينى يدها النحيفة الحارة، فلما وصلت إلى الثانية عشرة من عمرى بدأت أشعر بشقاء الحياة ومرارتها، فقد رأت إدارة المستشفى أن تعلمنى صناعة ، فأسلمتنى إلى صانع كراسى يملأ وراع مقاعدها بالقش ، وكان هذا الصانع فى ضاحية «سان چان» وكان من المستحيل على أن أكسب عيشى عنده .

وكان هذا الصانع يؤثر مكفوفى البصر من الأطفال لقلة مؤونتهم عليه، وعند هذا الرجل، بدأت أشعر بالجوع للمرة الأولى فى حياتى، وقد رأيت الرجل وزوجه طاعنين فى السن وكانا مثالا عجيبا من أمثلة الشح والتقتير . وأذكر أنهما قد ماتا قتيلين، وكانا ــ فى كل مرة ــ يقدمان لنا كسرة من الخبز لا تسمن ولا تغنى من جوع، ثم يودعان الرغيف فى صندوقهما بعد أن يحكما إرتاجه ، وكانا ــ إلى ذلك ــ شديدى العبوسة حين يقدمان لنا قليلا من الحساء ، ويكاد لسانهما ينطق بأنهما يمنان علينا بما يقدمانه إلينا من طعام قليل. وكان رفيقاى الضريران أسعد حالا منى، لأنهما لم يريا ذلك الامتعاض وتلك العبوسة التى ترتسم دائماً على أسارير تلك المرأة الحمقاء وهى تقدم الصحفة الينا لنأكل. وظللت فى هذا العمل ثلاث سنوات لم أطعم فيها غذاء كاملا، ولم أشعر ــ فى أثنائها ــ بلذة الشبع مرة واحدة، ولا

شك أن من اليسير على من يزاول هـذه الصناعة البسـيطة أن يتقنها فى مَدَى شهر واحد. ولـكن إدارة الملجأ لا تستطيع أن تتعرف كل شىء، وإن كانت لا تشك فى أن هؤلاء الأطفال المساكين مظلومون يكابدون من استغلالهم ما يكابدون.

آه ياسيدى، لقد أدهشك أننى تناولت كسرة الخبز من بين الأوحال !! إذن فاعلم أننى طالما تعودت ذلك. فـكم التقطت فتات الخبز الذى آكله من صندوق القمامات، ولـكم ظفرت بكسرة يابسة من الخـبز فوضعتها فى وعاء مملوء بالماء — طول الليل — ليسهل على أن آكلها! ولا أكذبك ياسيدى أننى كنت أشعر — فى بعض الأحايين — بسعادة لا توصف حين أملأ بطنى طعاما أيام كنت أظفر ببعض الرغفان التى يلقى بها الطلبة من سلاتهم وهم عائدون من المدرسة بعد أن يأكلوا منها لقيمات قليلة. وكنت أتعمد السير فى تلك الطرقات لأظفر بما يلقونه من أرعفه الخبز على أفاريز الشوارع.

* * *

ولما انتهت مدة الدراسة ولم تـكن صناعتى كافية لجلب القوت الضرورى، تركتها إلى غيرها لشغفى بالعمل، وقد عملت مع البنائين، ثم عملت فى حانوت مساح أحذية، ثم انقطعت عن العمل أحيانا، وأنا فى طوال هذه الأعوام لا أكاد أظفر بما يكفينى من القوت. فياله من شقاء! وكم مرة أحسست أن نفسى تمتلئ غيظاً وحنقاً كلما مررت على دكان خباز ورأيت الأرغفة الـكثيرة المتراصة عنده! ثم لا ألبث أن أذكر حينئذ تلك الأخت الصالحة التى كانت تعطف على فى الملجأ، وتنصحنى بأن أكون دائماً شريفا، وكنت أحس فى كل لحظة أن يدها النحيفة الحـارة تمر على جبينى على عادتها فى أيام طفولتى. وما كدت أصل إلى الثامنة عشرة من عمرى حتى سلـكونى

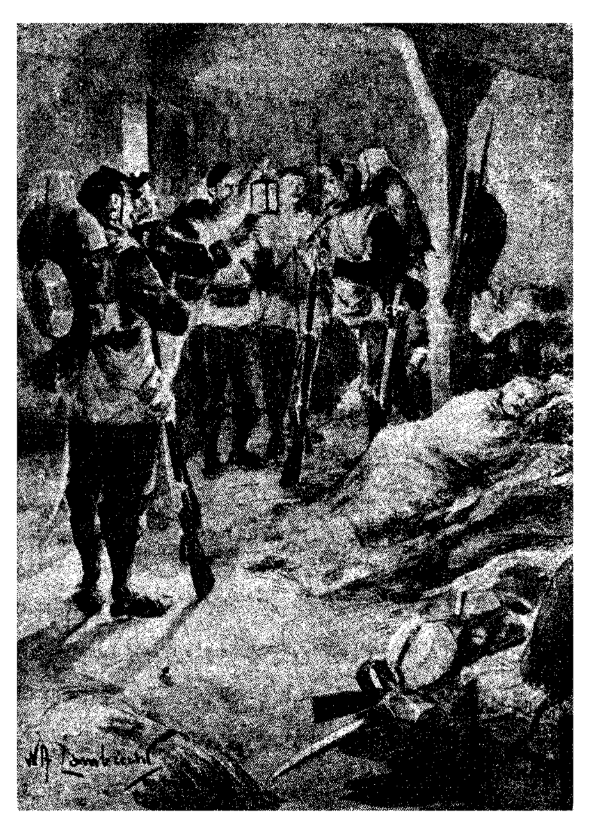
فى عداد الجند ، وقد كانت هذه فرصة لى . فقد أتيح لى أن أشبع ، وليس هذا بالشىء القليل ،وأنت أعلم منى بأن الجندى يظفر بما يكفيه من القوت، ولكن سوء حظى أبى على أن تدوم هذه النعمة الطويلة ، فقد حوصر الجيش كما ترى ، و حلت بنا المجاعة واضطررت إلى التقاط الخبز من الوحل مرة أخرى . ولعلك ترى فيما قصصته عليك أننى كنت صادقا حين قررت لك أننى قضيت حياتى جائعا .

* * *

وكان الدوق الشاب رقيق القلب دقيق شديد الاحساس فاشتد تأثره من حديث رفيقه الجندى ، وترقرقت فى عينيه دمعتان جففهما هواء الليل، ثم قال لمحدثه اللطيف :

« استمع إلى ياجان، كن على ثقة، أننا إذا عدنا من الحرب سالمين ولم يخترمنا الموت فسنلتقى معاً وسأغنيك بقية حياتك ، على أننى أستطيع الآن أن أقاسمك ــ من اليوم ــ نصيبى من الخبز ، فإنهم يعطوننى منه ضعف ما أنا فى حاجة إليه، وسنعيش معاً صديقين متعاهدين على الوفاء »

ثم صافحه بقوة وحرارة. وما كاد يجن الليل حتى أعياهما الجهد فى القتال فذهبا إلى القاعة الكبيرة التى فى الحانة وكان بها اثناعشر من الجند. فرقدا إلى جانبهم على كومة من القش ، واستسلما لنوم عميق . ولما انتصف الليل استيقظ« جان فكتور» وحده وأغلب الظن أنه شعر بالجوع، وكان الهواء قد بدد الغيوم وأرسل من الأفق شعاع القمر الذى اخترق ثغرة كانت فى سطح الحانة فأضاء وجه الدوق الفتى الجميل ، فظل جان فيكتور ينظر إلى رفيقه الكريم نظرات إعجاب وتقدير. و إنه لكذلك



إذ فتح الضابط الباب ليدعو الخمسة الذين حقت عليهم نوبة الحراسة في تلك الليلة . وكان الدوق أحد هؤلاء الخمسة ، فلم يستيقظ عند

ما نطق الضابط باسمه ، فقال چان للضابط :

« اسمح لى يا سيدى أن أحل مكانه وأن أقوم بواجبه فى هذه الليلة ، فأنا صديقه و يسرنى أن ينال قسطاً وافراً من النوم »

فلم ير الضابط بأساً فى ذلك وسلكه مع الجنود الخمسة المخصصين للحراسة فى تلك الليلة . ثم نام الباقون ومرت نصف ساعة فدوت طلقات النار دوياً شديداً — على مسافة قريبة — فاستيقظ الجنود من الحانة وساروا حذرين متأهبين للنضال ، وقد وضعوا أصابعهم على محركات بنادقهم، وجالوا بأبصارهم فى كل ناحية من الطريق التى ضوأها القمر ، وسأل الدوق رفاقه :

« كم الساعة الآن ؟ لقد كانت نوبة الحراسة علىّ فى هذه الليلة . »

فقال له أحدهم :

« لقد تطوع چان فكتور بالنيابة عنك »

وما كاد يتم كلامه حتى جاء جندى يعدو عدواً شديداً ووقف أمامهم — وهو يلهث من التعب — فسألوه ماذا حدث ، فقال لهم :

« أسرعوا بالفرار ، فقد هجم علينا العدوّ ، وليس أمامنا إلا أن نتقهقر بسرعة. »

فسألوه عما حل بزملائهم ، فقال لهم :

« لقد نجوا جميعا إلا ڤكتور »

فصرخ الدوق مذعورا وقال لهم : «وما ذا حدث لڤكتور ؟ »

فقال له الجندى: « اخترقت رصاصة العدو رأسه فخر صريعا فى الحال»

***

فى الساعة الثانية من صباح ليلة من ليالى الشتاء الماضى كان الدوق

« دى هاردمون » خارجا مع جاره الكونت « دى سولن » من نادى ميسر ، وكان ذلك الكونت قد خسر بضع مئات من الجنيهات، فأحس أثر خسارته صداعا شديداً ، فقال لجاره :



« هل لك يا صديق فى أن نعود إلى منزلينا سائرين على الأقدام ، فإننى أشعر بحاجة الى استنشاق الهواء »

فقال له :

« كما تريد ياعزيزى ، فالطريق معبّدة سهلة . »

* * *

وصمما على السير فأذنا لسيارتيهما بالعودة ، ورفعا طَوْقَىْ معطفيهما وسارا إلى شارع «لامادلين» . وبينما هما سائران انحنى الدوق فجأة والتقط شيئاً من الطريق كان قد عثر به حذاؤه . ولم يكن ذلك الشىء إلا كسرة من الخبز مغمورة فى الأوحال . ولشد ما كانت دهشة الكونت «دى سولن» حين رأى الدوق « دى هاردمون » ينظف كسرة الخبز بمنديله الثمين الذى عليه شعار أسرته — بعناية فائقة — ثم يضعها على مقعد صخرى فى الطريق تحت مصباح الشارع لتكون ظاهرة للعِيان . وقد أغرق الكونت « دى سولن » فى الضحك ، وقال لصاحبه ساخراً :

«هل جننتَ ياصاحبى ؟ ماذا تصنع ؟ »

فأجابه الدوق بصوت متهدج وقد ظهرت عليه رنة الانفعال والتأثر :

« لقد ثارت بنفسى ذكرى رجل ضحى بنفسه من أجلى . فحذار — ياصديق — أن تضحك من فعلى ، لأنك بهذا تسىء إلى تلك الذكرى المقدسة . »

كتب المؤلف

على وشك الظهور

ملوك الطوائف

ونظرات في تاريخ الإسلام

ألف يوم ويوم

رسالة الغفران

الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة وقد أضيفت إليها بحوث وتعليقات جديدة.

تصدر قريبا فى أربعة أجزاء

بوكاتشو

قصص بوكاتشو

قصص بوكاتشو

لاتكاد ترى كاتبا من كتاب الشرق وأدبائه قرأ أساطير « ألف ليلة » ولم يتأثر بها فى فجر حياته ، كما أنك لاتكاد ترى كاتبا من كتاب الغرب ومفكريه قرأ «قصص بوكاتشو» ولم يستمد منها قبسا من خياله العالى وأسلوبه القصصى الرائع . وحسبك بشوسر وشكسپير ولافونتين وموليير وغيرهم من أساطين الكتاب والشعراء .

فلا غرو إذا حاولنا أن نضع لقراء الشرق وأدبائه نفس الأساس الذى بنى عليه كثير من رجال الفكر فى أوروبا ، لعله يترك فى نفوسهم ماتركه من الأثر فى نفوس الغربيين .

وقد نشرنا نخبة من هذه القصص المعجبة فى كتابنا « مختار القصص[1] » ووعدنا القراء بنشر نخبة أخرى فى أول كتاب قصصى

---

(١) وقد كتب الأستاذ محمد فريد وجدى بك ، عقب ظهوره كلمة طويلة نقتبس منها ما يلى :

« والكتاب القيم الذى بين يدينا هو كتاب « مختار القصص » اشتمل على اثنتين وعشرين قصة اعتامها من مصادر ثلاثة :

أولها : « قصص مصرية » ، وثانيها : « قصص السينما » : ، وثالثها : « قصص بوكاتشو »

وفى هذه المصادر ينابيع فياضة بحكمة وأدب وثقافة ، مجتمعنا فى أشد الحاجة إليها

نصدره ، وها نحن أولاء نبر بوعدنا ، آملين أن نجمعها ـ بعد تمامها ـ فى كتاب . على أن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، وإذا لم يكن ما نريد ، فَلْنُرِدْ ما يكون .

« المترجم »

. . . . إن القصص البريئة التي يتخيل الكتاب وقائعها ، ثم يصعونها فى قوالب أدبية تعالج من أمراض الصدور ، وتكشف عما استكن فى أحناء الضمائر وزوايا القلوب ـ من العوامل الخفية التى لو أميط عنها الستار أفادت فى إصلاح الأخلاق وتقويم الطباع وتهذيب العادات ـ لهى من أفعل الآلات في رفع مستوي الآداب في المجتمعات ، ومن أمضى الذرائع إلى محاربة الرذائل ومكافحة الرعونات . . . .

مقدمة بوكاتشو

عند مايمر بخاطرى ، أيها الجنس المحبوب ، أن قلبك حساس مشفق، لا يداخلنى ريب فى أن هـذه المقـدمة سوف تسبب لك ضجراً وألما ، بالذكرى المُرَوِّعة التى سترسمها لك عن ذلك الطاعون المُفَزِّع الذى أحدث خراباً قاسياً فى الأماكن التى تطرق اليها . وليس غرضى بالطبع أن أحولك ، بهذه الصورة ، عن تلاوة هذا الـكتاب ، بل أريد أن أجعل لك الوقائع أكثر لذة وقبولا ، أعنى هذه الوقائع المعجبة التى ستلى هذه البداية المحزنة.

* * *

إن سائحاً يتسلق بجهد وعناء جبلاً متعرجاً سوف يتذوق سروراً عظما عند ماينتهى إلى قمته حيث يتكشف أمامه سهلاً فسيحا بديعاً .

وكذلك ـ أيها الجنس الجميل ـ أستطيع أن أعدك بأن مايلى هذه الفواجع سيزيل عنك كثيراً من الضجر الذى سببته لك هذه البداية المؤلمة . وليس معنى هذا أننى لم أرغب فى أن أتمشى معك فى مسلك أقل وعورة ، قبل أن أصل بك إلى تلك الأماكن البديعة التى أبديها لك، ولكن هذه المقدمة المحزنة جديرة بأن تسبقها ، لتعلم منها أسبابها ومن هم الأشخاص الذين سيقصونها .

* * *

تفشى وبأ الطاعون سنة ١٣٤٨ فى مدينة « فلورنسا » أجمل بلاد « إيطاليا » وقبل ذلك بقليل ظهر هذا الوبأ فى بعض بلاد الشرق فاختطف منها عدداً كبيراً من الناس وانتقل ضرره الجسيم إلى قسم من الغرب، ثم قذفت به إلينا مظالمنا لحل بمدينتنا .

وقد تقـدم سير الوبا سريعاً فى وقت وجيز على الرغم من يقظة ولاة الأمور الذين لم يغفـلوا شيئاً من حماية السكان ووقايتهم من شر العدوى . فإن العناية التى اتخذوها بتنظيف المدينة مما فيها من الأقذار ،



وما بذلوه من الحيطة لمنع دخول أى مريض ، والصـلوات والدعاء العام والأوامر الحـكيمة الأخرى ، كل هـذه لم تـكن كافية لتضمن سلامة الأهالى من الوبأ .

وفى صباح يوم من أيام الثلاثاء ـ فى زمن هذه النـكبة ـ اجتمعت سبع سيدات ـ كن يلبسن ثياب الحداد ـ فى كنيسة سانت مارى الجديدة ، وكانت أكبرهن سـناً قد أوفت على الثامنة والعشرين من عمرها ، وصغراهن لا تقل عن الثامنة عشرة .

وكانت تجمع بينهن لحمة الدم أو عرى الصداقة ، ولـكنهن جميعا من بيوت كريمة . وهن وسيمات الطلعة عاقلات شريفات . وإنى لأتحامى أن

أطلق عليهن أسماءهن الحقيقية لأن القصص التى أنشرها إنما هى من أثرهن ، وقوانين البهجة والمسرة أشد قسوة اليوم مما كانت عليه من قبل . و إنى لأخشى من هذه الا ذاعة أن أجرح عزة بعضهن أو أثلم شرف البعض الآخر ممن هن على قَيد الحياة ، كما أننى لا أود أن أقدم لذوى القلوب الحاسدة الخبيثة سلاحا يتلهون به تشفيا وانتقاما منهن .

على أننى مضطر إلى تسميتهن ليسهل على القارئ أن يتفهم حوارهن ، ولهذا أطلق على كل واحدة منهن اسما مطابقاً — فى مجموعه أو فى جزء منه — لأخلاقهن وصفاتهن .

فأدعو الأولى وهى أكبرهن سناً : بمبينيه ، والثانية فلاميت والثالثة فيلومين ، والرابعة إيميلى ، والخامسة لوريت والسادسة نيفيل وَأُسَمّى السابعة إيليز .

* * *

اجتمعت هؤلاء السيدات — مصادفة — فى ناحية من الكنيسة ، وأخذن يقرُبن من بعض إلى بعض — بعد انتهاء الصلاة — فتألفت منهن رفقة متجانسة ، وأرسلن أول الأمر بتنهدات عميقة — وهن يتبادلن النظرات — ثم بدأن الحديث عن الوبأ الذى أصاب وطنهن وأوقع الأسى فيه — ثم بدأت السيدة بمبينيه الحديث قبلهن ، فقالت :

« سيداتى العزيزات ، لقد سمعتن — كما سمعتُ — دون ريب ، مايقال من أن من يستعمل حقه — فى شرف ونبل — يجب ألا يتردد فى إنفاذ عزمه. وهذا لامحالة أمر طبيعى لكل من يرغب فى الدفاع عن نفسه والاحتفاظ بحياته قدر مايستطيع .

وإن هـذا الشعور ـ فيما أرى ـ طبيعي ومشروع ، حتى لقد وقع من جرائه أن قتل رجال دون أن يحكم عليهم بأنهم مجرمون ، أو يحكم بأنهم على الأقل يستحقون القصاص .

فإذا أباحت القوانين مثل هـذا الإغضاء فى بعض الحالات التى قصر موضوعها على نظام وسعادة الهيئة الاجتماعية ، فما أجدرنا ألا ننسى أن نرى فى مقدورنا أن نبحث عن الوسائل اللازمة للاحتفاظ بحياتنا دون الاساءة إلى أحد.

و إنى كلما أنعمت النظر ـ فيما قمنا بعمله هذا الصباح ـ وقارنته بما عملنا فى الأيام الأخرى السابقـة ، وفى الأقوال التى نتبادلها الآن ، رأيت ـ كما ترين ـ أن كل واحـدة منا تخشى على نفسها ، وليس فى هذا مايدعو إلى العجب ، ولـكن الذى يدهشنى كثيراً هو أننا ونحن متمتعات بموهبة حكم النساء وتقديرهن ، لا نحاول أن نلجأ إلى علاج ناجع نواجه به هذه المخاوف الحقيقية التى تكتنفنا .

ويبدو لى أننا مقيمات هنا لنسجل عدد الموتى الذين يقبرون . ونسمع رجال الدين يرتلون صلواتهـم على الموتى ، ونظهر بملابسنا ، لـكل من جاء هنا ، دلائل تعاستنا وحزننا العميق .

فإذا ماخرجنا من هذه الـكنيسة فلن تقع عيوننا إلا على خراب أو على موتى ينقلون من هنا إلى هناك . وكم نقابل أشراراً سبق أن أبعدوا عن المدينة لجرائمهم وآثامهم ، وهم اليوم يتنهزون رقدة القوانين لينقضوها من جديد . ثم نرى أشرار فلورنسا ـ بعد أن سمنوا من دمائنا ـ قد أصبحوا لَحّادين يقطعون الطرق وهم على جيادهم ، ويأخـذون علينا ـ بألفاظهم البذيئة ـ كل سبيل ، برغم حزننا على من فقدنا من الأعزاء،

وأخيراً فإنا لانسمع فى كل مكان الاقول من يقول :

« قد مات من نعزهم وأنتم فى إثرهم »



* * *

وإذا كان لا يزال بين مواطنينا من بقى فى نفوسهم شىء من الإحساس والشعور، فما أكثر ماتقرع آذاننا شكاواهم وتألمهم ونشيجهم . ولا أدرى هل تشعرن بذلك مثلى. ولكننى أدرى أننى عند ماأعود إلى مسكنى فلاأجد فيه غير خادمى ، يتولانى خوف شديد حتى ليقف شعر رأسى .

وإنى ـ حيثما توليت ـ لاأرى أمامى سوى أشباح الموتى، ولاأرى وجوههم التى كانوا يبدون بها فى الحياة . بل أراهم يبدون لى بنظرات رهيبة ومعارف كريهة لا عهد لى بها من قبل ، فلا أجد فى أى مكان لحظة هدوء واطمئنان . »

فقاطعتها رفيقاتها قائلات : «إن حظهن كذلك أسوأ من حظها .» فاستأنفت كلامها قائلة : « إن كل من يملك بيتا يؤويه خارج المدينة ، قلما يستفيد منه، إذ يوجد نوع من الفحش فى فلورنسا منذ تطرق إليها الفساد ، وهو ثمرة الاضطراب العام ، وقد كان هذا الفساد أعظم أثراً إلى حد أن الناسكات قد برحن أديرتهن ونسين قَدَاسَتَهن وطلّقْنَ عِفّتهن وأسلمن أنفسهن -بدون حذر- إلى اللذات الجثمانية محتجات بأن مايجوز لغيرهن يجب أن يكون مباحا لهن» ثم أردفت قولها بصوت حاد :

« وعلى هذا ياسيداتى فماذا نفعل هنا ؟ وما الذى ننتظره ؟ وماالذى نفكر فيه ؟ ولماذا لا نكون أكثر آلاما وتوجعا بتمسكنا بالاحتفاظ بحياتنا و بشرفنا أكثر من باقى المواطنين الآخرين ؟

فهل نرانا دونهم خطرا ؟ وهل نحسبنا من طبيعة مختلفة تستطيع أن تقاوم العدوى ؟

إذا كان ذلك ظننا، فما أعظم ماوقعنا فيه من خطأ . ولكى نهتدى إلى محجة الصواب ، ليس علينا إلا أن نذكر ما رأينا وما لا يزال يقع أمام عيوننا .

فنحن نرى النساء الشابات مثلنا، والشبان الذين فى نضرة الصبا وشرخ الفتوة ممن اجتمعت لهم أسباب الرقة ، كل هؤلاء كانوا الضحايا الحزينة للوبأ . ولكى نتحامى مثل هذه الخاتمة التى ربما لا يتسنى لنا تحاشيها بعد يومين ، أرى -إذا رأيتن حسناً ماأذهب إليه- أن نقتفى أثر من خرجوا ومن يخرجون من المدينة فارين من الموت، هاربين من الفواجع التى تقع هنا ، فنذهب إلى أحد منازلنا فى الخلاء وننقطع فيه إلى المسرات والمباهج دون أن نتجاوز - دون ريب و بأية حال من

الأحوال ـ حدود العقل والشرف . فهنالك نسمع أغاريد الطيور الصغيرة العذبة ، ونشهد الخضرة اليانعة فى السهول والربوات وتتملى بالنظر إلى جمال الأشجار المحملة بأطيب الزهور والثمرات ، وتُبدى لنا السنابل المتماوجة صورة بحر مضطرب فى لطف ودعة .

وهنالك تنكشف لنا السماء، التى مهما تكن غاضبة، فهى لا تحجب عنا محاسنها ، وهى أروع ـ فى النظر ـ من كل ما تحويه أسوار مدينتنا المقفرة الموحشة . والهواء بليل فى الخلاء وهو أكثر نقاء ، حيث نجد كل شتى أفانين الحياة .

وإن تتعب عيوننا بمواصلتها النظر دواماً إلى الموتى أو المرضى ، فإن القرى ، وإن لم تكن ناجية من الطاعون ، يقل فيها عدد الموبوئين . ثم لاحظن أننا لن نهجر أحداً هنا بل نستطيع أن نقول العكس ، فإننا فقدنا من يعز علينا فقده ، وفصل الموت بيننا وبينهم حتى أصبحنا غير متصلات بهم بأية رابطة ، وليس يستطيع أحد أن ينحى علينا باللائمة إذا حققنا هذا الاقتراح الذى أفضيت به إليكن . ثم اعلمن أننا إذا لم نأخذ به ، فمن الممكن أن يصيبنا شئ مفجع أو مؤلم . فإذا أخذتن برأيى وأخذنا معنا خادماتنا ، وماهو ضرورى لنا ، فإننا نذهب اليوم لنجول فى أطيب الأماكن فى الخلاء ونغنم لهو هذا الفصل وننعم بجماله حتى نرى إلى أية وجهة تتجه تلك المصائب العامة .

ثم لاحظن ـ فوق هذا ـ أن الشرف يدعونا إلى هجر المدينة التى يسودها الاضطراب العام والتى لا يتسنى لنا البقاء فيها دون أن نتعرض لفقدان الحياة والسمعة الطيبة . »

* * *

وقد لقى خطاب مدام بمبينيه هذا ارتياحا ، وأعجبت رفيقاتها بمشروعها وبحثن فى وسائل تنفيذه ووددن لو حققنه على الفور . وقد رأت مدام فيلومين — وهى سيدة حصيفة ذكية — أن تبدى لهن ملاحظاتها فقالت :

« إن ما اقترحته مدام بمبينيه — على وجاهته ورجحانه — ليس من الحكمة فى شئ أن نعجل بإنفاذه على الفور . فإننا نساء ، وليس من واحدة منا تجهل أننا — بدون أن نصطحب معنا رجالنا — لن نستطيع أن نحكم أنفسنا ونتولى أمرنا. إننا ضعيفات مهمومات يساورنا الفزع والقلق . ولهذا أخشى ألا يطول زمن اجتماعنا مالم يكن لنا مرشد ودليل وعضد . فعلينا إذن أن ننظر فى هذا الأمر أولا إذا مارغبنا رغبة شريفة فى توطيد أساس العمل الذى نريد الإقدام عليه . »

* * *

وقالت ايليز :

« حقيقة إن الرجال قوامون على النساء . ولكن أين السبيل إلى إيجاد رجال معنا ؟ لقد مات بعولة أكثرنا ، والذين بقوا على قيد الحياة يجوبون العالم دون أن نعلم أين هم الآن . وإذا جئنا برجال غرباء مجهولين، فلن يكون هذا من الاحتشام فى شئ . وعلى كل حال فواجبنا أن ننصرف إلى العناية بصحتنا، وأن نقى أنفسنا شر الملل والكدر والسآمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . »

* * *

وبينا هن فى هذا الحديث إذ بصرن بثلاثة شبان دخلوا الكنيسة .

وكان أصغرهم سناً لايقل عن الخامسة والعشرين . وكان مصائب الزمن وفقدهم صفوة أصدقائهم وأهليهم والأخطار التى تتهددهم لم تؤثر فيهم تأثيرا ينسيهم الحب .

وكان أحد هؤلاء الثلاثة بمفيل ، والثانى فيلوسترات،والثالث دينيو ، وكلهم مؤدبالنفس بشوش حسن المنظر . وقد جاءوا هذا المكان على أمل أن يجدوا فيه خليلاتهم اللواتى كن بين هؤلاء السيدات وكان بعضهن من ذوات القربى .

ولم تكن مدام بمبينيه قد شهدتهم عند دخولهم ، ولكنها ما كادت تراهم ـ بعد قليل ـ حتى قالت باسمة :

« انظرن كيف أن الحظ ساعد على تحقيق رغباتنا ، وهيأ لنا فى الوقت المناسب ثلاثة شبان ظرفاء يسرهم ويبهج نفوسهم أن يكونوا لنا رفقاء متى طلبنا إليهم ذلك ؟ »

فقالت نيفيل :

« ياللسماء! تنبهى جيداً ياسيدتى لما تقولين. إنى أقر بأننا لا نستطيع أن نتكلم مع هؤلاء السادة قط . وما أجهل أنهم شرفاء وأنهم مجيبون لأمانينا ، بل أنا أعرف أنهم سوف يتجاوزون أمانينا ورغباتنا. ولكنى أعرف أن لهم هوى فى فئة منا ، أفلا نخشى إذا حملناهم على أن يتبعونا ،ما قد يوجهه إلينا الناس من سوء ظن وانتقاد ، وماقد يصيب سمعتنا من دنس وتلويث ؟

فقالت مدام فيلومين مقاطعة :

« هذا لا يهم فى شئ و إنى لساخرة بكل ما يقال ما دمت سائرة فى طريق الشرف ، وما دمت لا أجد من ضميرى وخزا وتأنيبا . فإن السماء

والحقيقة، تتوليان الدفاع عنى عند الحاجة . وعلى هذا فإنى لا أخشى أن أعلن موافقتى للسيدة بمبينيه كل الموافقة. على أن هؤلاء السادة اذا أخذوا برأينا فلن يكون لنا إلا أن نحمد الحظ السعيد الذى قادهم إلينا . »

* * *

ووافقت الأخريات على هذا الرأى وأجمعن على ضرورة مفاتحة الفتيان بهذا الاقتراح . فوقفت مدام بمبينيه وكانت ذات صلة بأحدهم وذهبت إلى الشبان – فى سرور وانشراح – وأفضت إليهم بمشروعهن باسم رفيقاتها ، ليكونوا شركاء لهن فى السفر . خيل للشبان ، أول الأمر، أنها مازحة ، ولكنهم بعد أن رأوها جادة فى كلامها ، أجابوها مبتهجين بأنهم يجدون كل السرور فى مرافقتهن إلى أى مكان يطيب لهن الذهاب إليه. وتقدم الفتية صوب السيدات الأخريات – وقلوبهم تفيض سرورا – واتفقوا معهن على إعداد معدات السفر الذى تحدد الغد موعده .

* * *

وتأهب الجميع فى بكور الغد وجاء كل منهم فى المكان المعين للاجتماع وسافروا وقد غمر قلوبهم الفرح والابتهاج، وكان مع السيدات خادماتهن، ومع الشبان خدمهم . وكان المكان الذى اتفقوا عليه – أول الأمر – يبعد ميلا عن المدينة، وهو جبل صغير بعيد – من جميع نواحيه – عن الطريق الكبرى، وهو مغطى بكثير من الشجيرات اليانعة، وكان على قمة هذا الجبل قصر فخم فولجوا بابه من فناء فسيح تحف به أروقة رحبة. وكانت غرفه بديعة ضاحكة مزدانة بالنقوش الجميلة ، ويكتنف القصر شرفة رائعة يمتد منها البصر إلى رحب الخلاء . وتروى حدائق هذا القصر بالماء النمير ، وقد جمعت أجمل منظر متجدد الروعة يحوى كل نوع من الزهور . ومغاوره ملأى بالنبيذ الفاخر .

* * *

ولم يكد أصحا بنا يطرقون القصر ، حتى اجتمعوا فى بهو فسيح من أبهائه، مزين بالزهور والأعشاب ذات الأريج العطرى ، وبدأ ديينيو ، أصغر الشبان سنا، وأكثرهم بشاشة، حديثه قائلا :

« إن رأيكن أيتها السيدات، فى دعوتنا إلى الحضور، قد خدمنا أكبر خدمة، وأنا لا أدرى ما ذا اعتزمتن عمله لتبديد همومنا وأحزاننا . وما عَلَىَّ أن أصارحكن بأننى قد خلعت همومى عند باب المدينة؟ وإذن فلتكنّ على استعداد للضحك والغناء والتلهى والتسلية ، وإلا فاسمحن لى أن أعود أدراجى إلى فلورنسا، حيث أخلو إلى نفسى وأرجع إلى آلامى وأحزانى . »

فأجابته مدام بمبنيه :

« إنك تترجم عن ضمائرنا ، وإنى لأرى فيك ملاكا طاهرا ، فما أجدرنا أن نسر ونفرح ونبتهج فإننا ما نزحنا من المدينة إلى هنا إلا لننفض عنا الأحزان ، ولكنك تعلم أن الجماعة لا تقوم إلا على لائحة ونظم ، ولما كنت أنا التى وضعت مشروع هذه الجماعة ، فأرى أن أقترح وسيلة لتدعيمها ، وضمان بقائها ، وإطالة مسراتنا . وليس بيننا وبين تحقيق الغاية إلا أن نخول لأحدنا حق الاشراف على أمرنا، فلا نتردد فى أن نمنحه هذه سلطة غير محدودة ، وأن ننظر إليه جميعنا ـ بعد انتخابه ـ كأنه رئيسنا وسيدنا الأعلى. ولكى يتحمل كل منا نصيبه من عبء العزلة، ثم يتذوق لذة التمتع بالحكم والسيطرة ، أرى أن مدة إشراف حاكمنا يجب ألا تتجاوز يوما واحدا. فلننتخب رئيسنا الآن ، بحيث يكون له وحده حق انتخاب خلفه ، وهذا ينتخب من يخلفه أيضاً وهكذا .

* * *

فصفق الجميع لهذا الرأى واتفقت كلمتهم على انتخاب السيدة بمبينيه ملكة فى هذا اليوم الأول . وذهبت حينئذ إلى السيدة فيلوميه ، وجاءت بغصن من شجر الغار صنعت منه تاجا وضعته على رأسها رمزا للملكية .

و بعد أن انتخبت مدام بمبينيه ملكة، واعترفوا لها بالسلطان، أمرتهم أن يعتصموا بالصمت ، واستدعت خدم الشبان الثلاثة ، والخادمات الأربع ، وقالت لهم :

« لكى نبدأ الآن فى إقرار النظام والسرور ، ولكى أحملكم ـ أيها السادة والسيدات ـ على اقتفاء أثرى ، و إن تفوقتم على فى اختيار الوسائل التى ترونها، أمرت بأن يكون برمينو خادم المسيو دينينيو رئيسا للخدم ، وعليه ـ فوق هذا ـ أن يتيقظ لكل ما هو خاص بمعدات المائدة، و يكون سيريسكو ـ خادم بمفيل ـ رئيس المخزن، و ينفذ بكل دقة أوامر برمينو. وعلى تندار ـ خادم فيلوسترات ـ إلى قيامه بخدمة سيده ، أن يقوم بخدمة السيدين الآخرين أيضا .

وعلى خادمتى وخادمة مدام فيلومين، القيام بأعمال المطبخ والعناية بتهيئة اللحوم التى يقدمها لها رئيس الخدم . وعلى خادمتى مدام لوريت ومدام فلاميت ، القيام بتنظيم غرفة كل سيدة والعناية بنظافة غرفة المائدة وقاعة الاجتماع وجميع الأماكن المطروقة بوجه عام. ولتعلموا جميعا أن واجب كل فرد منكم أن يبادر بإبلاغنا أى نبأ مهما كان محزنا مؤلما

متى وصل إلى علمه فى غدوّه أو رواحه ، وسواء أرآه بعينيه أم سمعه بأذنيه . »

* * *

و بعد أن أصدرت هذه الأوامر جملة ،أمرت الشبان والسيدات بالذهاب للتنزه فى الحدائق حتى الساعة التاسعة المحددة للغداء . فتفرق الجمع وذهب بعضهم فبقى تحت الخمائل اللطيفة وظلوا يتبادلون مختلف الأحاديث ، وانصرف الآخرون إلى قطف الزهور يصنعون منها طاقات يقدمونها إلى من يحبونه، ثم أخذوا يعدون ويمرحون فى خفة وطيش و ينشدون الأغانى الغرامية المطربة .

وفى الساعة المحددة عادوا جميعهم إلى القصر حيث ألفوا بارمينو ، قد أحسن القيام بما عهد إليه ، ثم دخلوا قاعة تضوع فيها الروائح الزكية من الزهور ، وقد بسطت فى هذه القاعة المائدة ، وقدمت لهم ألوان شهية من الأطعمة والأنبذة اللذيذة التى صبت فى أقداح شفافة من البلور ، وكان السرور فائضا على قلوب الجميع فى أثناء الأكل .

و بعد الانتهاء من الطعام صدع ديينيو بأوامر بمبينيه فتناول عودا وتناولت فلاميت كمانا ، وأخذت الملكة ورفاقها الآخرين فى الرقص على النغمات الموسيقية ثم أعقبوا الرقص بالغناء، الى أن رأت بمبينيه أن يستريحوا. فذهب كل منهم إلى غرفته واستلقى على سريره المفروش بالورد . وحوالى الساعة الأولى بعد الظهر استيقظت الملكة وأمرت الشبان والسيدات أن يهبوا من رقادهم متذرعة بأن إطالة النوم ضارة بالصحة. وساروا إلى مكان جميل فى الحديقة ، فرشت أرضه ببساط سندسى أخضر ،

وحالت أشجاره الوريفة دون أن تنفذ إليهم أشعة الشمس ، فاستنشقوا هواء عليلا بليلا . وجلس الجميع على شكل دائرة — كما أمرت الملكة — وقالت لهم :

«إن الشمس فى منتصف دورتها ، والحرارة ليست شديدة فليس ثم مكان أكثر راحة لنا من هذا المكان . وها هى ذى الموائد والشطرنج أمامكم لمن يود أن يلعب . ولكن إذا أخذتم برأيى فلا داعى للعب ، فإن السرور ليس متبادلا فيه . إذ يقع دائماً أن أحد اللاعبين يضجر ويتكدر ، وهذا مما ينغص سرور من يلاعبه ، كما ينغص سرور رفاقه . أفلا يحسن — بعد ذلك — أن نروى بعض روايات وقصص لذيذة ، يلقيها كل منا من خياله ، أو مما سمعه من الناس ؟

«إن هذا خير أنواع التسلية — فيما أرى — لأن القاص والسامع ، يشعران بسرور وارتياح . فإذا وافقتم على هذا الرأى فمن الممكن أن يقص كل واحد علينا قصة قبل أن تدركنا حرارة الشمس . وبعدئذ نذهب إلى حيث نشاء . وإننى أقرر لكم أننى مستعدة للنزول على رأيكم ، فإذا كنتم تخالفون رأيى فإنى تاركة لكم اختيار نوع التسلية التى تحلو لكم والتى تستحسنونها . »

فأجاب السادة والسيدات بأنهم لا يجدون خيراً من هذا الاقتراح .

وقال ريميو :

« إنى أحب القصص وأفتن بها ياسيدتى ، ويجب علينا أن نروى قصصاً نروّح بها عن نفوسنا فليس أشهى من سماع القصص . »

فقالت مدام بمبينيه :

« مادمتم متفقين معى جميعاً ، فإنى أبيح لكم الحديث فى أى لون ترونه أكثر إمتناعا للقلب وترويحا للنفس . »

ثم التفتت إلى بمفيل الذى كان جالساً إلى يمينها ، وطلبت منه ـ متلطفة ـ أن يكون هو البادئ بالحديث ، فأجابها إلى طلبها وقص الحكاية الآتية[1] :

---

(١) نشرنا طائفة من هذه القصص فى كتابنا « مختار القصص » وهى : الفاجر — كيف أصبح قديسا ، إور فلورسا ، العجوز وتقويمه السوى ، تعقل مزدوج ، قسوة زوج غيور ، الحوام الثلاثة ، أكلة الفراريج ، إصلاح الغيور ، نكبات الغيرة ، كيف برأت نفسها .

وننشر فى هذا الكتاب طائفة أخرى من هذه القصص .

تتغفله وهو لا يدرى[1]

كان فى مدينة « فلورنسا » ـ التى اشتهرت بين المدن بما كان يمثل على مسرحها من الحوادث الغرامية ، والتى كانت سوقا للعشاق يسود فيها الحب ويقل الوفاء ـ سيدة عاشت منذ زمن قريب وقد حبتها الطبيعة أبهى حلل الجمال .

وكانت حسناء خفيفة الروح ، صبوحة مشرقة الوجه ، تمرح فى ميعة الشباب ، وقد جمعت كل ماتحلت به فتاة من جمال وحسن .

ولست أسمح لنفسى بذكر اسمها لكم ولا أسماء الأشخاص الذين مثلوا أدوار هذه القصة فإن أقاربهم لايزالون إلى اليوم أحياء فى «فلورنسا»،وهم من أعيانها، وليس من اللائق أن أذكر لكم أسماءهم .

* * *

حسبى أن أقول لكم إن هذه السيدة هى من أسرة سرية عريقة فى الشرف، وإن كان أفراد هذه الأسرة قليلى الثروة،وقد دفعهم ذلك إلى تزويجها من تاجر غنى صاحب مصنع للطنافس .

---

(١) نشرت بمجلة الحديث الغراء وقد قدمتها بما يلى .
الحب ، المرأة ، الرجل ، الخيانة ، الخديعة ، اقتناص الفرص ، خلق المناسبات ، وتقديس الجمال هى العناصر التى تقوم عليها روايات القصصى الايطالى « بوكاتشو » ـ وهى على طلاونها ـ ترسم لنا أدق صورة من نفسية المرأة التى يخفق قلبها للحب . وقد أخذ صديقنا الأديب الكبير الأستاذ كامل كيلانى ينقل أروع قصص بوكاتشو إلى العربية بأسلوب متين وترجمة دقيقة . وقد نشرنا له بعض هذه القصص ، ويسرنا أن نقدم الآن هذه القصة الطريفة التى تفضل صديقنا الكيلانى بإرسالها للعدد الممتاز

كانت هذه السيدة عنيدة مستبدة شديدة الغرور بحسبها ورفعة أصلها، وقد بلغ بها الغرور حداً جعلها تعتقد أن فى زواجها من هـذا التاجر عاراً عليها و إزراء بمقامها العالى ، فاحتقرته ولم تستطع أن تقنع نفسها بحب هـذا الزوج . ويجب أن نقرر أن هذا الزوج لم يكن فيه شئ من الميزات التى تحبب فيـه النساء إلا وفرة الغـنى وحسن السمعة التجارية

وقد طوّح بها الاحتقار إلى أبعد غايته ، فأصبحت لا تسمح لزوجها من العطف الزوجى إلا بمقدار ما يمكنها من العشرة دون أن تلجئه إلى القضاء .

وقد اعتزمت السيدة ـ احتقاراً لزوجها ـ أن تبحث لهـا عن عشيق جدير بها لتبادله الحب . ومالبثت أن اهتدت إلى ضالتها المنشودة ، فقد رأت ذات يوم ـ وهى ذاهبة إلى الـكنيسة ـ شاباً من سراة المدينـة أعجبها منه قسامة وجهه إعجاباً شديداً ، فعشقته لأول نظرة ، ولج بها الشوق وزاد بها الهيام فلم تنم ليلها بعد أن أمضت نهارها دون أن تراه .

* * *

أما هو فقد نام وادعا هادئ البال خلى القلب من كل ماتعانيه من لوعة العشق . وكانت الحسناء أحزم من أن تفضى إليه بنجوى غرامها بكتاب أو رسول ، فقـد خشيت عاقبة ذلك لأنها ليست على ثقة من أن من تتخذها وسيطاً من النساء لن تفشى هذا السر . وكانت صاحبتنا خبيثة ماكرة، فلجأت إلى حيلة تمـكنها من الإفضاء إلى عشيقها بحبها دون أن تعرض نفسها لمكروه أو أذى.

ذكرت أنها كثيراً مارأت هذا الشاب يتردد على راهب بدين الجسم

ملفوفه ، وكان هذا الراهب مشهوراً بالصلاح والتقوى ، بل بالقداسة إن شئت ، و بعد أن فكرت طويلا فى الخطة التى تنتهجها ،ذهبت إلى الدير ثم دعت هذا الراهب لتفضى إليه باعترافها ، فلبى الأب طلبها بارتياح شديد لما رآه عليها من دلائل النبل والشرف .

* * *

اعترفت له السيدة بخطاياها، ثمأخبرته أنها تثق به ثقة لا حد لها،وأنها تطلب إليه ـ لذلك ـ أن يسدى إليها معروفاً تشكره عليه،ثمقالتله :

« إنى فى حاجة إلى نصائحك الثمينة ياأبانا المحترم و إلى معونتك أيضا فيما أستشيرك فيه . لقد علمتَ الآن من هم أهلى وعشيرتى ، كما عرفتَ من هو زوجى . ويجدر بى أن أقول لك: إنه يحبنى أكثر مما يحب نفسه ، و إننى لم أطلب منه شيئاً من النفائس، إلا أسرع بتلبيةرغباتى مختاراً راضياً . فهو غنى عظيم الثروة ، وقد وقف كل ثروته وماله على إرضائى و إسعادى، ولتثق ياأبانا أننى أبادله هذا الوفاء العظيم بمثله، كماأبادله حبا بحب ، وانى لأشعر أننى أكون أجحد الجاحدات وأجدرهن باللعنة والاحتقار ،إذا سمحت لفكرة تدنس شرفزوجى أن تدور برأسى لحظة واحدة . وقد آن لك أن تعلم ـياأبانا المحترمـ أن فتى ـ أعرفه،ولاأعرف اسمه ـ يحسبنى كبعض هؤلاءالفتيات اللاتىألفهن ،ولعلهقدظنأنالنساء جميعاً على غرارهن ـخلاعة وقلة وفاء ـ فهو لا يفتأ يضايقنى بمغازلته ومعاكسته ـ حيثما ذهبت ـ حتى لا أكاد أمر من طريق دون أن أراهماثلاأمامى، بلإنهليفعلأ كثر منذلك. فأنا لاأ كاد أخرج منالباب، أو أطل من النافذة ، أو أسير فى الطريق، حتى يبدو لناظرى فى الحال. و إنى لأعجب منه الآن ، كيف تركنى فى هذه المرة ـ فىأثناء مجيئى

إليك ـ دون أن يقتفى أثرى كما هى عادته دائماً .!!

«إنه ـ ياأبانا ـ فتى طويل متناسق الجسم جميل الطلعة . وهو يلبس عادة كساء أسود اللون ، ويبدو عليه أنه من سراة القوم وأعيانهم ، ولا أحسبنى مخطئة إذا قلت لك إننى أذكر أننى كثيراً ما رأيته معك .

ولما كان سلوكه هذا مدعاة للشكوك والريب حول سيدة شريفة مثلى ، وجالباً كثيرا من الأقاويل السيئة عنى ـ وإن لم يكن لى يد فى شئ منها ـ خطر لى بادئ الأمر أن أفضى بذلك إلى إخوتى ليكفوه عنى ، ولكنى خشيت أن تسوء العاقبة وأن تدفعهم حرارة الشباب وسورة الصبا إلى الاحتداد عليه والاشتباك معه فى عراك دموى وخيم العاقبة ، فقد يعنفونه فيرد عليهم بغلظة ، فيجيبونه بلهجة أعنف من لهجته وهكذا حتى تقع الجريمة .

لهذا فضلت أن أبتعد جهدى عن هذه الفضيحة وأن ألجأ اليك ـ فى هذه المرة ـ لتحسم هذا المشكل الخطير ، بما أوتيت من حكمة وسداد رأى ، وماعرف عنك من صلاح وتقى ، ولما أعرفه من صلتك به . هذا إلى أن من دأبك إرشاد الناس وإسداءهم النصح ، سواء أكانوا من أصدقائك وعارفيك أم غرباء عنك .

وإنى لعلى ثقة من أنك ستكيل له ـ من اللوم والتعنيف ـ ماهو جدير به حتى يكف عن مضايقتى .

ليذهبْ إلى أية امرأة سواى إن كان لا مندوحة له عن أن يترك الغزل ، فالنساء ـ بحمد الله ـ كثيرات ، ولن يستعصى عليه أن يغرى منهن من تخضع لسلطان هواه ، وتهيم بحبه ، وتبادله الهوى والغرام .

«أما أنا ، فجد غاضبة من مثل هذا السلوك الذى أمقته ـ من صميم قلبى ـ كل

المقت ـ وإنى لأحمد الله على أننى لم أرم ببصرى مرة واحـدة إلى هذه الناحية ، فإننى عارفة حق المعرفة مايجب علىّ لزوجى ومايجب علىّ لنفسى أيضا . »

* * *

ثم خفضت من رأسها ـ بعد أن فاهت بهذه الكلمات ـ وبدا عليها ميل إلى البكاء . ولقد فهم الراهب الصالح من أول الأمر من هو الشاب الذى عنته بقولها ـ بعد أن وصفته له وصفاً دقيقاً ـ وعرف أنه هو صديقه وجليسه بعينه .

ثم شكر لها الأب فضلها وحزمها ـ وأثنى على عفافها وصدق إخلاصها ـ بعد أن اقتنع بصحة ماقالته له ـ ووعدها بتلبية كل ماطلبته منه.

ولما كان الراهب قد علم أنها غنية عرض عليها أن تدفع شيئاً فى صندوق الإحسان ـ وهى خارجة ـ فلبت طلبه راضية مسرورة ، ثم قالت له وهى خارجة :

« أستحلفك بالله ـ ياأبانا ـ ألا تنسى ماحدثتك به ، فاذا أنكر أنه قد فعل ذلك معى فخبره أننى قد جئت إليك بنفسى لأحدثك بأمره وسلوكه الشائن معى »

* * *

انتهى اعتراف السيدة ومنحها الأب غفرانه ، ووضعت فى صندوق الإحسان ماجادت به ، ثم أخرجت من كيس نقودها قبضة من المال فأعطتها للأب خاصة ، ليدعو لأسلافها الميتين بالرحمة والمغفرة . ثم خرجت من عنده وعادت إلى بيتها .

ثم جاء الفتى الذى هامت السيدة بحبه ودلها عشقه ، بعد أن مرت عدة

أيام ليزور الأب الصالح كعادته، وتحدث معه فيما يعنيهما من الشؤون.
ولما انتهيا من ذلك انتحى به الراهب ناحية ، ثم أخذ يلومه على مضايقته
تلك السيدة الفاضلة التى اعترفت له بذلك منذ أيام .

ولم يكن يعرفها الفتى قبل ذلك ، ولم يذكر أنه رآها مرة فى حياته .
هذا إلى أنه كان لا يكاد يمر على بيتها إلا نادراً .

فأجاب الراهب ـ جواباً طبيعياً لا تكلف فيه ولا غموض، بأنه يجهل
ماتعنيه تلك السيدة بهذا القول .

ولكن الراهب الذى لم يصدق ما يقول ، لم يترك له الفرصة للتنصل
من هذه التهمة فقال له :

« لن يجديك شيئاً أن تتجاهل هذا الأمر ، فإننى مستيقن من
حدوثه ، ومن العبث أن تتظاهر أمامى بإنكاره . إننى لم أسمع هذا الخبر
من أصدقائها ولا جيرانها ، بل سمعته منها نفسها ، وقد أظهرت لى
استنكارها منك هذا العمل . واعلم أن هذه الحماقات التى لا ترضيك لن
تعود عليك بثمرة أو جدوى . فان هذه السيدة لا أقول فاضلة أو حكيمة ؛
بل أقول إنها هى الفضيلة والحكمة معاً . وإنى لأرجوك أن تدعها آمنة
وادعة لتحفظ بذلك شرفك وشرفها . »

* * *

وأراد الشاب أن يتنصل من هذه التهمة ويدافع عن نفسه بأنها
ـ بلا ريب ـ واهمة، وأنها تعنى بكلامها شخصا غيره .

ولكن الراهب قال له :

«أؤكد لك أن كل ما تحاول أن تدفع به تهمتك لن يجديك أى
جدوى . لقد عرفتك حق المعرفة ، ووصفتك دون أن تخطىء فى شىء
من وصافك . »

* * *

عجب الفتى من هذا الإصرار وأدرك أن وراء هذا الأمر سراً خفيا لايعرفه، فلم ير إلا مجاراة الراهب فى ذلك وتظاهر أمامه بالخجل مما فعل ، ووعده بالإقلاع فى المستقبل عن هذا الأمر بتاتا .

ولم يكد يغادر الأب المحترم، حتى ذهب إلى بيت السيدة ومر أمامه فرآها واقفة تطل من النافذة مرتقبة مروره على بيتها . ولم تكد تراه آتياً حتى أدركت أنه قد فهم ما أرادته من اعترافها للراهب ، فبدا السرور على وجهها ، وأشرقت أساريرها وتطلقت بيشرا لحدق الشاب ببصره فى وجهها وهو سائر فى طريقه فرأى على أساريره دلائل الحب والاغتباط برؤيته ، فعرف حقيقة ما ترمى اليه وتخذ هذه الجهة طريقاً له يسلكها ــ منذ ذلك اليوم ــ جيئة وذهاباً مرة اخرى وهو لايرى منها إلا اغتباطاً برؤيته وفرحاً بالنظر إليه ، حتى اقتنع بصحة ما ذهب اليه من الرأى .

وأرادت السيدة أن تتوغل فى هذه الطريق فقد رأت أنها أفلحت فى الافضاء إليه بحبها ، ولكنها وقفت عند هذا الحد ، وهى فى حاجة إلى توثيق روابط الحب بينهما وتأكيدها مع هذا الفتى الجيل .

وثمة ذهبت إلى الراهب نفسه لتعترف اليه مرة أخرى . وبدأت اعترافها إليه بالبكاء ، فكفكف الأب من دموعها وسألها سبب هذا الحزن وماذا جد عليها من الآلام ، فقالت له :

« يا لشقائى يا سيدى المحترم ، لقد جدت بى من الاحزان والمصائب ما لا قبل لى باحتماله بسبب صديقك ــ لعنة الله عليه ــ نعم بسبب ذلك الرجل الذى حدثتك عنه فى المرة الأولى . وليس يخالجنى أقل شك فى أن هذا الرجل لم يخلق إلا لتعذيبى ، وليس لى حيلة فى إقصائه عنى

وكفه عن مطاردتى التى لا يفتر عنها دائباً ، مؤملا أن يحملنى على أمور تأباها نفسى وشرفى . وإنى لأتوسل إليك مرتمية تحت قدميك أن تصده عن هذا السبيل . »

* * *

ـ « ماذا ألا يزال يلازم قبالة بيتك ؟ »

ـ :« أكثر من ذى قبل ، وقد علمت أنه يريد أن ينتقم منى لأننى شكوته إليك ! فعنفته على ما أتاه ، فأصبح يمشى من طريق بيتى سبع مرات فى اليوم ـ أحياناً ـ فى حين أنه كان لا يمر على بيتى إلا مرة واحدة فى اليوم .

أيرضى الله أن هذا الشاب لا يكتفى بالمرور على بيتى وتحديق النظر فى وجهى ، بل يزيد على ذلك شراً آخر ، فيرسل مع امرأة كيسا من المال وحزاماً ؟ والله يعلم أننى لست بحاجة إلى مثل هذه الهدايا . ولقد بلغ بى الغيظ من هذا العمل كل مبلغ حتى هممت ـ لولا خشية الله واحترامك ـ أن أندفع فى طريق الشر والإضرار به ، ولكننى لم ألبث أن رجعت إلى حلمى حين ذكرت أنه صديقك ، ولم أشأ أن أخبر أحدا قبلك بهذا الأمر .

ولقد أردت أن أرجع الكيس والحزام الى تلك المرأة ، ولكننى خشيت أن تأخذهما لنفسها ، شأن هؤلاء النسوة اللاتى لا يتعففن عن أخذ كل ما تصل إليه أيديهن من مال ومتاع ، وربما عادت إليه فأخبرته أننى قبلت هديته ـ متحببة إليه بذلك ـ ولتتخذ منه وسيلة لنفعها . وقد رأيت ـ من الحزامة والحكمة ـ أن أحمل إليك هذه الحلى لترجعها إليه بنفسك ، ثم تقنعه بأننى لست ممن يقبل هداياه ولا ممن يود رؤيته .

«هاك ما بعث به إلى ، ارجعه اليه وقل له إننى سأشكوه إلى زوجى واخوتى إذا لم يكف عن إلحافه فى مضايقتى . وأرجو أن تعنفه بشدة فى هذه المرة وأن تلعنه على هذا السلوك الشائن ، فإننى مضطرة إلى إيذائه بعد ذلك

ألا ترانى محقة يا أبانا المحترم إذا أنا سلكت معه طريق العنف بعد هذا التحذير ؟ ألست على حق فى شكواى منه ؟ »

فقال لها الراهب — :

« إنك محقة فى كل ما تقولين وما أجدرك بهذا الغضب »

ثم أخذ الكيس منها وكان فيه من النفائس ما يساوى مالا كثيراً، وقال لها — :

« إن ما فعلته هو خير ما تفعله امرأة فاضلة حازمة مثلك . لقد عنفته فى المرة السابقة ووعدنى أن يكف عن مطاردتك . والآن وقد حنث بعهده، ولم يكف عن المرور على بيتك، ودفعته جرأته إلى إرسال هدية ليستغويك بها، فأنى سالك معه طريقاً أخرى ، من طرق الزجر والتعنيف لأردعه عن هذا الحق . اسمعى نصحى ولا تخبرى بسرك أحداً من أقاربك . فقد يدفعهم تحمسهم لك إلى إتيان ما لا تحمد عقباه .

لا تخشى شيئاً فسأعرف كيف أذود عن شرفك وأحمى عفافك وأرضى ضميرك أمام الله والناس . »

* * *

أظهرت المرأة رضاءها عن كلامه وارتياحها إلى هذه الخطابة التى فاه بها ، ثم حولت كلامها إلى طريق أخرى لعلمها ببخل الكاهن وحرصه على المال — هو وأمثاله من رجال هذه الطائفة — فقالت له :

« لقد رأيت فى الليالى الأخيرة كثيراً من أقاربى المتوفين فى عالم الأحلام وعلى وجوههم مسحة من الكآبة والحزن، فعلمت أنهم متألمون وأنهم لم ينعموا بعد برضوان الله ومغفرته ، وقد أتيتك لتتصدق بهذا المال على الفقراء والمساكين ليغفر الله لهم بذلك. وإنى لأرجوك أن تتلو من أجلهم شيئاً من الكتاب المقدس والأدعية. »

ثم أعطته قبضة من المال، فأخذها منها ومنحها الغفران، ثم شيعها إلى الباب بكل احترام واجلال .

* * *

ولم تكد تذهب إلى سبيلها حتى أرسل فى طلب صديقه . ولما حضر ورأى عبوسة وجهه عرف سر الأمر وأدرك أن القسيس لا بد منبئه بأحاديث هامة عن عشيقته ، فأصغى إلى أقواله دون أن يقاطعه ليقف منه على جلية الأمر ويعرف ما استجد من الأنباء . ولم يدع الراهب لفظاً من ألفاظ التقريع إلا كاله له جزافا ، ثم تجاوز التعنيف إلى السباب والإهانة وقال له :

ـ : « ألم تعاهدنى على احترام هذه المرأة ؟ فكيف حنثت بعهدك ولم تبر بقسمك ؟ وكيف تصل بك القحة إلى حد أن ترسل إليها هدايا تستغويها بها ؟ أتعرف ما ذا صنعت بهداياك ؟ لقد احتقرتها احتقاراً وأهملتها إهمالا ! »

فقال له الشاب وهو جد مشوق إلى الاستفسار منه عن جلية الخبر

« أأنا أرسلت إليها بهدية ؟ »

فاجابه الكاهن — :

« نعم أرسلت إليها بهدية . ومن العبث أن تنكر ذلك ، فقد أرسلت لى ما بعثت به اليها لأرده اليك . يا لك من شيطان ! هاك ما أرسلته لها من الهدايا . أعرفته الآن ؟ »

فقال له الشاب متظاهراً بالارتباك وشدة الخجل والتأثر :

« ليس عندى ما أقوله بعد هذا الدليل . لقد أدركت خطئى يا سيدى الآن ، ولقد عرفت من هذه السيدة مالم أكن أعرف . و بما أنها على هذا الصلف والجفوة ، فانى أقسم لك بشرفى فى هذه المرة ، إننى تاركها و إننى لن أعود إلى معاكستها بعد هذا ما حييت . ومن ثم ناوله الاب — فى جفاء وغلظة — ، كيس النقود والحزام ، بعد أن عنفه أشد تعنيف .

* * *

خرج الشاب من عنده — بعد أن وعده بالاستقامة — وامتلأ قلبه غبطة وفرحا بعد ما رآه من الدلائل الجديدة على محبة عشيقته له . وقد فرح بحبها إياه أكثر من فرحه بهذه الهدية الثمينة ، وأصبح — منذ ذلك اليوم — يذهب إلى كل مكان تذهب إليه السيدة ليمتع نفسه برؤيتها . وفرحت السيدة برؤيته أشد الفرح ، وأصبحت تتحين لقاءه فى كل فرصة ، مرتقبة أن يتيح لها الزمن فسحة من الوقت فى غياب زوجها أو سفره .

ولم يطل بها الانتظار فقد أتيحت تلك الفرصة — بعد بضعة أيام — واضطر زوجها إلى السفر إلى « جنوا » لقضاء أعمال تجارية له . ولم يكد يسافر حتى أسرعت السيدة إلى الراهب وقالت له بعد رجاه وتوسل — .

« لقد جئت إليك — يا أبانا المحترم — لأقول لك إننى لن أحتمل بعد ذلك أكثر مما احتملت ، فقد نفد صبرى وأصبحت مضطرة رغم ما وعدتك

به من التجلد والصبر إلى سلوك طريق أخرى. اعلم يا سيدى أن صاحبك هذا شيطان خبيث ، ولن تستطيع أن تمثل لنفسك ما فعله معى فى هذا الصباح قبيل الفجر، فقد عرف ـ وما أدرى كيف عرف ـ أن زوجى قد سافر أمس إلى « جنوا » وما كان يدور بخلدى قط أن تبلغ به القحة إلى حد أن يدخل حديقتنا أمس ، ثم يتسلق الشجرة المواجهة لغرفة نومى ويفتح النافذة . وقد أوشك أن يدخل غرفتى منها ، لولم أستيقظ على جلبته هذه . وقد نهضت لأرى ماذا حدث ، وكدت أصرخ حاسبة أنه لص ، ولو لم يقل لى هذا الشيطان اسمه ويقسم على بالله وبحق صلته بك أن أكف عن فضيحته وأن أتريث عليه حتى يتسلل من حيث أتى »

* * *

«وقد اكتفيت بإغلاق النافذة فى وجهه ، ولست أشك فى أنه أسرع إلى الهروب . فأنى لم أر وجهه بعد ذلك . وإنى أسألك الآن: ألست محقة فى الغيظ على هذا الوقح؟ لقد صبرت إلى الآن وحسبى ذلك فإذا ردعتَه وإلا فإنى عارفة أى مسلك أنهجه لأقفه عند حده! »

فقال لها الاب متأثراً مرتبكا ـ :

« ولكن ، أواثقة انت ياسيدتى أنه هو بعينه الذى فعل ذلك ؟ أليس من المحتمل أن يكون شخصاً آخر؟ »

فقالت له :

« بارك الله فيك يا أبانا ، وهل بلغ بى البله وقلة التمييز إلى حد أننى لاأعرفه حتى ولو لم يسم لى نفسه ؟ »

فقال لها ـ :

« إن عمله هـذا إجرامى ، ولقد أحسنت صنعاً إذ أغلقت النافذة دونه ، وما أنت بحاجة – بعـد هذا العمل المملوء رزانة وتعقلاً – إلى مديح مثلى وثنائه على عفتك وفضيلتك . ولـكنك –وقد أصغيت إلى نصحى مرتين – جديرة أن تصغى إلىّ فى هذه المرة وستـكون الأخيرة ، ولعلنى أوفق إلى قتل هذه الروح الخبيثة فى نفسه، فإذا أخفقت – هذه المرة – فى إرشاده إلى طريق السعادة و إبعاد هذه النزوات الخبيثة عنه ، فافعلى به ماشئت بعد ذلك »



فقالت له : –

«إنى أقبل ذلك مرة أخرى –ياأبانا– طوعاً لأمرك واتباعاً لنصيحتك، ولـكننى أقول لك : إنها ستـكون آخر مرة أشـكوه فيها إليك . »

ولم تكد تتم قولها حتى خرجت من عنده فجأة متظاهرة بالغضب الشديد.

* * *

وما كادت تخرج من عنده حتى جاء عشيقها إلى الراهب ـ مصادفة ـ ليستفسر عما استجد من الأنباء، فانتحى بهالراهب ناحية قريبة وطفق يغمره بسيل منهمر من الإهانات والشتائم القاسية .

وكان الفتى الشاب قد تعود من الأب هذا التحمس الشديد ، فاحتمل منه كل ما رماه به من النقائص ، وقبل منه كل ماوجهه إليه من الشتائم والإهانات بدون مبالاة .

وتركه يهرف مرتقباً منه بفارغ الصبر أن يوضح له جلية الأمر وكان ماهراً فى تعرف مايريد ، فاحتال عليه ليستدرجه من غير أن يقاطعه ، فلما رآه أوشك أن ينتهى من شتائمه قال له :

« وماذا فعلتُ ياأبانا حتى تغمرنى بهذا السيل الجارف من الشتائم والسباب ؟

وأى ذنب جنيتُ فاستحققتُ به كل هذه اللعنات التى تصبها علىّ صباً ؟ هل حدثوك عنى أننى صلبت عيسى المسيح ؟ »

فقال له الراهب :

« نعم أيها الشقى . لقد فعلت ذلك بسلوكك هذه الطريق الخاطئة المدنسة، وقد استحققت غضب المسيح ولعنته بما أتيت ، و إنى ليدهشنى منك هذا البرود العجيب كأنك لم تقترف إثماً !

أنسيت أيها الشيطان الجهنمى ، تلك الإهانة التى وجهتها إلى أطهر امرأة فى العالم ؟ تلك المرأة التى ذهبت إليها فى هذا اليوم قبل أن ينبلج ضوء الصباح ؟ تكلم أيها الشيطان ؟ »

ـ: « ماذا ؟ لقد كنت فى سريرى هذا الصباح ! »

-: « فى سريرك ؟ ألم تدخل بيت غيرك أيها الشقى ؟ »

* * *

فقال له الشاب :

« يظهر أن أحداً قد بكر فى هذا اليوم وأخبرك بهذا الأمر ! »

فقال له الراهب :

« هـذا صحيح ، ويظهر أن سفر زوجها قد غرّر بك وأدخل فى روعك أنها ستستقبلك هاشة باشة مفتوحة الذراعين ؟

« يالله ! أفى حدود الامكان أن أتصور صاحبى ـ الذى كنت أحسبه بالأمس طاهراً عفيفاً ـ قد أصبح من الغاوين الذين يدبون فى الليل !

أتصـل بك الجرأة إلى حد أن تدخل حـديقة بيتها وتتسلق الشجرة المواجهة لغرفة نومها طمعاً فى إغراء هذه السيدة الفاضلة ؟

هل جننت فحسبت أن مثل هذه السيدة يمكنك أن تُغريها بمثل هذه الأعمال ؟ ثق أنها لم تنظر إليك إلا بعـين الاحتقار . وإذا كانت لم تظهر لك اشمئزازها منك ، واحتقارها إياك ، أفما كنت جديراً أن ترعوى عن ذلك ، وأن تثوب إلى رشدك ، بعد ماعنفتك وأظهرت لك الطريق القويمة؟

على أننى قد تركت لها الحرية ـ إذا لم تـكف عن مطاردتها ـ فى أن تمثل بك أقبح تمثيل .

لقد تعبت وأعيتنى الحيل وعجزت عن تقويمك،فإذا لم تستقم،كنت أنا أول من يفضى إلى إخوتها وأهلها بسرك

ثق أننى لن أحجم عن ذلك إذا دفعك الطيش وعمى القلب إلى محاولة إغرائها مرة أخرى. »

* * *

هنالك أدرك الشاب ـ بجلاء ـ كل ماتعنيه السيدة بهذه الرسالة، وشرع يخفف من حدة الراهب ـ باذلا كل مافى وسعه فى سبيل استرضائه ـ ثم قال له :

« أعترف لك أننى كنت أحمق فى سلوكى هذه الطريق ، ولن تسمع عنى من هذه السيده شيئاً من هذه الحماقات بعد هذه المرة . و إنى أشكر لك ما تفضلت به على من خدمات جليلة ، وسأكون أول من ينتفع بنصائحك الثمينة ، فلا يقلقن بالك بعد اليوم ، فقد اعتزمت التوبة الصادقة . »

* * *

وكان الشاب قد أدرك نيّات السيدة الحقيقية ، فلم يتوان لحظة عن تنفيذ رسالتها بدقة تامة . ولم يكد يجن الليل حتى دخل الشاب الحديقة وتسلق الشجرة التى ذكرتها السيدة للراهب . وكانت السيدة ساهرة ـ فى تلك الليلة ـ ترقب حضوره بفارغ الصبر وهى متحرقة شوقاً إليه، ولم تكد تراه حتى تلقته بذراعيها المفتوحتين ، وأفضت إليه بما فى نفسها من وجد به وهيام .

* * *

ثم ضحكا ما شاءا أن يضحكا من سذاجة الراهب ، وسخرا ماشاءا أن يسخرا من تغفلهما إياه وانتفاعهما به فى تبادل الرسائل، وقضيا ليلة طالما تحرقا شوقاً إليها من قبل .

ورتبا معا نظاما للقاء وتحديد مواعيده دون أن يحتاجا ـ بعد هذه المرة ـ إلى مقابلة الراهب والاعتراف له .

سخرية القدر(1)

كان فى «سالرن» جراح مشهور ، اسمه السيد « متسيودى لانتانى» لايرى فى الزواج إلا تسلية ودُعابة ، على الرغم من أنه كان طاعناً فى السن، وقد تزوج من آنسة صغيرة، هى إحدى آنسات المدينة التى كان يقطن فيها .

وكانت تلك الآنسة صبوحة الوجه تمرح فى نضارة الشباب ، وهى — إلى ذلك — من أرقى نساء المدينة وألطفهن ، ولم تكن تصلح للزواج إلا من شاب فى مثل سنها أو أكبر منها بقليل .

على أن زوجها الشيخ لم يدخر وسيلة من وسائل إرضائها إلا سلكها مغتبطاً ، وقد اشترى لها — من الخواتم والحلى والملابس الغالية — أحسن مايروق فتاة وأجمل مايحبب فيه امرأة جميلة كزوجته .

ولكن الشىء الذى عجز عنه هو القيام بما يجب على الزوج نحو زوجه من فروض الزواج ، فكان يتركها نائمة فى سريرها دون أن يدنو منها ، ويتظاهر أمامها بالورع والتقشف والزهد فى القيام بهذه الفروض الزوجية .

وقد حاول أن يقنعها برأيه ويترضاها بحجج واهية ولكنها لم تقتنع بها ، ولم تفهم منها إلا معنى واحداً ، هو أن زوجها ضعيف لاقدرة له على إرضاء زوج شابة فى مثل سنها .

وأخيراً اعتزمت الزوج أن تتخذ لها عشيقاً يغازلها وتغازله دون أن يعلم زوجها من أمرها شيئاً

(1) نشرت بمجلى « الدهور » و « الإخاء »

وظلت الزوج تبحث جادّة عن هـذا العشيق عدة أيام حتى ظفرت بفتى جميـل الطلعة ، اسمه « روجيه دي جير ولى » . وكان الفتى ـ على جماله وقسامة وجهه ـ أسوأ الشبان سمعة فى تلك المدينة، وهو ـ و إن كان من أسرة شريفة ـ إلا أنه ارتـكب من الحماقات واقترف من المخازى والدنايا مالوث به شرفه ودنس سمعته، حتى جعل أهله لا يطيقون رؤيته أمامهم .

* * *

ولم تـكن الفتاة لتجهل ذلك ، وما كان يعنيها سوء سمعته لأنها كانت تبحث عن شاب جميل الطلعة قوى الجسم، ولم تـكن لتعبأ بحسن سمعته ونقاء صفحاته .

لهذا صممت على اتخاذ هـذا الفتى عشيقاً لها ، وهزأت بكل مايذاع عنـه من النقائص والمخازى ، وتملـكت نفسها تلك الفـكرة فأخـذت تبحث عنه متحينة الفرص للقائه ، وكانت لا تـكاد تراه حتى تحدق فيه مبتسمة له حيثما وجدته . ولم يكد يلمح « روجيه » ذلك منها حتى قوّى صلاته بها ولم يدخر وسعاً فى تأكيد حبه لها .

* * *

بدأها « روجيه » بالـكلام ، فلم تضع الفتاة هذه الفرصة ولم تسوّف فى انتهازها ، بل عينت له موعداً فى الحال ، وطلبت إليه أن يوافيها فى بيتها ، حيث تـكون معه لا ثالث لهما إلا خادمها الأمينة . ثم طلبت إليه الفتاة أن يُقلع عن مغازلة النساء الأخريات ، وأن يكف عن إتيان تلك المخازى التى شوهت سمعته بين الناس ، وأن يقتصر على حبها وحدها لتنقطع عن التشهير به ألسنة السوء .

فوعدها الفتى باتباع نصيحتها ، وأصبحت ـ منذ ذلك اليوم ـ تمنحه

ما يحتاج إليه من النقود دون أن يفطن لسرهما أحد من الناس .

* * *

وحدث ـ ذات يوم ـ أن رأى زوجها الطبيب مريضاً قد أشرف على التلف ، وكان هذا الطبيب من أمهر أطباء عصره ، فعرف علته ، ورأى أن ساقه قد نخر فى عظامها السوس ، فأشار على أهله ببترها حتى يشفى مريضهم و ينجو من هلاك محقق .

فرأى أهل المريض أن خير وسيلة يتبعونها ، هى الإذعان لإشارته ، مفضلين بتر ساقه على فقدان حياته .

وعلم الطبيب أن المريض لن يحتمل بتر ساقه ـ وهو متيقظ ـ فأعد له دواء منوّماً ، لا يعرف سر تركيبه أحد سواه. ولما أتم إعداد الدواء، وضعه فى زجاجة على النافذة ، دون أن يخبر أحداً بذلك الدواء وفائدته .

* * *

ولما حان وقت العصر تأهب الطبيب للذهاب إلى مريضه ليبتر ساقه ، ولكن كتاباً جاءه من صديق حميم يحثه على الإسراع ـ بأقصى ما فى قدرته ـ لإنقاذ بعض أقارب له أصيبوا باصابات خطرة فأشرفوا على الهلاك .

فأرجأ الطبيب الذهاب إلى مريضه إلى اليوم التالى ، وأسرع بالسفر إلى صاحبه فى بلدة « مالفى » .

ولم تكد زوجه تعلم أنه لن يعود إلى بيته فى تلك الليلة حتى أسرعت إلى إخبار عشيقها « روجيبه » بذلك . فلما جاءها أدخلته غرفتها الخاصة ، ثم أغلقت بابها عليه حتى ينام كل من فى البيت .

* * *

وأحس الفتى ظمأ شديداً ـ لم يعرف له سبباً ـ ولعله ناشئ من انه أجهد نفسه فى عمله نهاراً ، أو لأنه أكل طعاماً كثير الأملاح أو غير ذلك . فبحث العشيق عن الماء طويلا فى أنحاء الغرفة فلم يجد أمامه غير زجاجة الدواء على النافذة، فشربها كلها دون أن يبقى منها قطرة واحدة . ولم يكد يشربها حتى سرى الدواء فى جسمه وظهر عليه أثره فى الحال فنام نوماً عميقاً .

* * *

وبعد قليل ، رأت الفتاة الفرصة سانحة ، ففتحت باب الغرفة ودخلت ، فرأت عشيقها على ماوصفنا . فشرعت فى إيقاظه ـ هامسة فى أذنه أن يستيقظ ـ فلم تظفر منه بجواب ولا رأت منه أية حركة .

وخشيت الفتاة أن يضيع الوقت سدى فحركته بعنف ، وقالت له :

« أفق من سباتك أيها النؤوم . أفق أيها الكسلان . رباه ، ماذا أتى بك إلى هنا مادمت مغرماً بالنوم إلى هذا الحد ؟ »

وعنفت به الفتاة ـ وهى تحركه ـ فهوى من السرير الذى كان نائماً عليه ، إلى الصندوق الذى كان بجواره ، وكان الصندوق مفتوحاً ، فسقط العشيق فى داخله دون أن يستيقظ من نومه .

ولما رأت السيدة أن عشيقها لم تؤثر فيه تلك السقطة العنيفة أقل أثر ، حدقت ببصرها فيه ، فلم تر عليه أى من أدلة الحياة ، ولم تره يبدى حراكا . فدهشت لذلك ، ووخزته بدبوس فى جسمه مرة ، وفى أنفه أخرى، ثم شرعت تنتف شعرات من لحيته ، فلم تبد منه أية حركة.

وثمة دب الخوف فى قلبها وساورها القلق على حبيبها ، فقد خشيت أن يكون عشيقها قدمات، ودفعها الرعب إلى الهياج والثورة ، فاشتد عنفها به ، فوخزته بشدة وأدنت شمعة موقدة من أصابعه لحرقتها دون أن يبدى الفتى أقل حركة ، فأيقنت حينئذ أنه قد فارق الحياة .

* * *

وحل الأسى والحزن محل التعنيف واللوم ، ففاضت الدموع من مآقيها ، وجعلت تندبه بصوت خافت حتى لايسمعها أحد ، ثم تبينت خطورة الموقف ، وخشيت أن تجمع — إلى مضاضة الحزن — عار الفضيحة متى ظهرت للناس حقيقة أمرها ، فبدأت تفكر فى الطريقة التى تسلكها لتنقذ نفسها من هذا الموقف الحرج وتخلص شرفها مما تعرض له من الدس والامتهان وسوء القالة

فذهبت السيدة إلى خادمها الوفية ، وقصت عليها ما يجاز كل ماحدث لها ، طالبة إليها أن تشير عليها بما تفعله .

فدهشت الخادم من هذا الحادث الفذ ، ولم تصدق أن « روجيه » قد مات حقا ، فوخزته بدبوس ، وسلكت معه كل الوسائل لتوقظه فلم تظفر بأية نتيجة ، ولم تره يبدى حَراكا يدل على الحياة ، فأيقنت — كما أيقنت سيدتها من قبل — أنه قد مات ، وفكرت فى طريقة تتوصل بها لإخراجه من البيت .

وقالت لها سيدتها :

« ماذا نحن صانعتان بهذا الميت ؟ وكيف نخرجه من بيتنا حتى لايفطن أحد إلى أنه قد مات عندنا ؟ »

فقالت لها الخادم :

« لاعليك من ذلك ياسيدتى . فقد رأيت فى منعطف هـذا الشارع صندوق نجار أمام دكانه ، وقد تركه مفتوحاً دون أن يغلقه ، وليس لنا سبيـل إلى الخروج من هذا المأزق إلاأن نضع الفتى فى الصـندوق . وسنحتال على وضعه فيه ــ وإن كان الصندوق صغير الحجم ــ فإذا تم لنا وضعه وخزناه بمدية وألقينا بها فوق جسمه ليدخل فى روع الناس أنه قتل غيلة .

ومتى أصبح الصباح ورآه الناس فى الصنـدوق قتيلاً ، اعتقدوا أن بعض أعدائه ــ وهم كثيرون ــ كانوا يتربصون به السوء، فلما ظفروا به قتلوه . وبذلك تبعد عنك كل شبهة ، ولن يخطر ببال كائن من كان أن ذلك الفتى قد مات فى بيتك على كل حال . »

* * *

رضيت السيدة بهـذا الرأى، ولم يكـن لها مندوحة عن الرضى به ، وأرسلت الخادم لتتأكد من خلو الطريق وبقاء الصندوق على حاله . ولما عادت الخادم إلى سيدتها أخبرتها أن كل شئ على مايرام . ثم أعانتها السيدة فى حمل عشيقها حتى وضعته على كتفيها ، وأسرعت السيدة أمام خادمها لتتعرف لها هـل كان الطريق خالياً ، حـتى إذا وصـلتا إلى الصندوق فتحته السيدة ووضعت فيه الخادم جثة العشيق ، ثم دب إلى نفسيهما الخوف ، فأغلقتا الصندوق توًّا، وأسرعتا بالعودة إلى البيت دون أن يراهما أحد .

* * *

وكان قد مر بهذا الصندوق ــ فى ذلك اليوم نفسه ــ شابان يحترفان

مهنة الربا ، ويقرضان المال بالفوائد ، وكان بيتهما لايبعد عن دكان ذلك النجار أكثر من بيتين أو ثلاثة . فلما رأيا الصندوق فى ذلك اليوم ، عنّ لهما أن يحملاه إلى بيتهما ـ وكان مقفراً من الأثاث ـ وصمما على سرقته فى نفس تلك الليلة، ليدخرا ثمن صندوق آخر يضعان فيه متاعهما .

* * *

ولما انتصف الليل خرجا من بيتهما ، فوجدا الصندوق لايزال فى مكانه ، فحملاه إلى البيت دون أن يتعرفا مايحتويه ، ثم وضعاه فى الغرفة إلى جانب امرأتيهما ، ولم يكن فى بيتهما مصباح يوقدانه ، فتركا الصندوق وذهبا ليناما إلى الصباح .

ولم يمض على « روجيه » زمن قليل حتى استيقظ ، وكان ذلك قبيل طلوع الصبح . وأحس « روجيه » أن جسمه مفكك الأوصال، وشعر كأنما عظامه قد دقت دقاً ، وضعضع الدواء حواسه فلم يكد يعى أو يتثبت مما حدث له .

* * *

وفتح « روجيه » عينيه فلم يبصر أمامه شيئاً ـ من شدة الظلام ـ فبدأ يتحسس ما حوله . وأراد أن يمد ذراعه فلم يستطع ذلك لضيق الصندوق ، فلم يعرف أهو فى يقظة أم هو حالم .

وقال « روجيه » فى نفسه :

« ترى أين أكون ؟ وما معنى هذه الأحاجى ؟ إنى لأذكر الآن ـ مستيقناً متثبتاً مما أذكر ـ أننى كنت فى غرفة عشيقتى أمس ، وأننى

كنت نائما على سريرها ، وكان بجوار السرير صندوق ، فكيف إذن أصبحت داخل ذلك الصندوق إذا لم أكن واهما فى ظنى ؟ ومامعنى هذا اللغز ؟ ترى هل جد حادث لم يكن فى الحسبان ؟ ترى هل عاد الجراح من سفره بغتة ، فاضطرت زوجه إلى إخفائى فى هذا الصندوق خوفا من أن يرانى الجراح ؟ »

* * *

وطلت هذه الفكرة شاغله فنعته عن إبداء أية حركة ، وظل قابعاً يرهف أذنيه ليتسمع ماحوله ، فلم يسمع أية نأمة .

وقد كاد يهلكه الضجر والسأم ، فقد كان كل شئ لا يلائمه ، فالصندوق غاية فى الضيق ، وقد لبث فيه مدة طويلة تكسرت فى أثنائها عظامه وأنهك جسمه . فأراد أن يخفف من ألمه قليلا ، فتحرك إلى الجانب الآخر حركة خفيفة جداً ، فانقلب به الصندوق ، وأحدث انقلابه صوتاً عالياً مزعجاً ، فاستيقظت المرأتان ، وعقد الذعر لسانيهما فلم تنبسا بكلمة واحدة .

ورأى « روجيه » أن الصندوق قد فتح حين هوى على جانبه ، وأن صوته المزعج أيقظ من فى البيت ، فأيقن أن أمره قد افتضح ، فآثر الهرب ، وفضل أن يواجه المصائب طليقاً غير مقيد فى ذلك السجن الضيق .

وكان «روجيه» يجهل المكان الذى هو فيه ، فذهب مسرعا يتخبط هنا وهناك فى ذلك الظلام ، وهو جاهد يتلمس بابا ينفذ منه إلى السلم .

وسمعت المرأتان وقع أقدامه — فى الظلام — فولولتا بأصوات متهدجة من الفزع والرعب ، وصاحتا بأعلى صوتيهما :

« من هذا الطارق ؟ »

ورأى « روجيـه » أن صوتيهما لاعهد له بهما ، فلم يجبهما بحرف واحد . وظلت المرأتان تناديان الروجين فلم يستيقظا،فلما رأتا أن أحداً لم يخف إلى نجدتهما ، زاد رعبهما فنهضتا مسرتين من فراشهما إلى



النافـذة ، ونادتا الناس ، فأسرع الجيران إلى نجـدتهما ، وأيقظت الزوجين تلك الجلبة الصاخبة فأسرعا إلى « روجيه » وقبضا عليه .

وجاء إليه جند الحاكم مسرعين ، ولما كان« روجيه» يرى نفسه بريئا ،ظل يؤكد لهم براءته ولكنهم لم يصدقوا قوله،وحسبوا أنه دخل بيت المرابيين ليسرقهما، وعلى هذا قرر الحاكم أن يصلبه

* * *

وفى الصباح ذاع فى جميع أنحاء « سالرن » أن قد ألقى القبض على «روجيه» فى محل المرابين ، إذ كان فى نيته سرقتهما المحل. ولما تطرق النبأ الى آذان السيدة والخادم عرتهما دهشة حتى لقد خيل إليهما أن ماوقع فى الليلة السابقة لم يكن إلا حلما . وقد تملك الخليلة الحسناء حزن عميق وألم زائد حتى كادت تفقد صوابها ، فعولت على أن تفتديه بحياتها إن استطاعت ، ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟

* * *

وجاء الطبيب الجراح فى الساعة التاسعة صباحا ليجرى العملية الجراحية لمريضه وأسرع إلى النافذة التى وضع عليها إناء الماء ، فوجد الإناء فارغا فاضطرب وعلا صخبه حتى لم يستطع أحد أن يدنو منه . فقالت له زوجته بامتعاض — وكانت فى شغل شاغل عن هذا الماء — : « إن إناء يلقى مابه على غير انتباه لا يستحق مثل هذه الضجة . أتحسب أن الماء نادر ؟ » فأجابها الجراح بأنها على خطأ إذا حسبت هذا الماء عاديا فإنه ماء مركب تركيبا بعينه لتنويم المرضى . ولما أدركت زوجه أن « روچيه » ربما كان قد شرب مافى تلك الزجاجة قالت له : « هذا مالاعلم لى به وليس خطره كبيراً — على أى حال — ومن السهل عليك أن تركب مثله »

* * *

وفى هذه الأثناء عادت الخادم التى غادرت المنزل تلبية لأمر سيدتها لتقف على جلية الأمر، وقالت: «إن أقوال السوء تدور حوله، وإن أصدقاءه قد تخلوا عنه وإن أحداً من ذوى قرباه لم يشأ أن يبذل أى مسعى لإنقاذه.

وأكدت لها أن الوالى سيصلبه فى الغد بلا شك. ثم قالت :

«ولقدصادفت النجار يجادل بشدة رجلا لاأعرفه ، فى أمر الصندوق الذى القينا فيه«روجيه»المسكين،وهو يزعم أنهصندوقه و يطلب من النجار أن يرده إليه.وقد زعم النجار ، أن صندوقه قد سرق، والرجل يتهمه بأنه باعه للرابيين،وأنه قد رآه فى الوقت الذى القى فيه القبض على زوجته. فقال النجار : إن هؤلاء رجال من الأدنياء الأسافل إن زعموا أننى بعتهم الصندوق،والحقيقة أنهم سرقوه الليلة ، من أمام منزلى فقد كنت نسيته ، وعلى هذا فإنى سأطالبهم بأن يدفعوا لك الثمن أو يردوا لك الصندوق فى الحال .وعلى هذا فإن الذى أستطيع إدراكه من ذلك كما تتبينين أنت نفسك،أن «روجيه» قد حمل فى الصندوق إلى المكان الذى ألقى عليه القبض فيه ، أما كيف خرج منه، فهذا ماأجهله.»

* * *

وهنا أدركت السيدة جلية الأمر وعرفت سر ماوقع ،وأبلغت الخليلة ماأفضى به إليها زوجتها وطلبت اليها أن تبذل كل مافى وسعها لإنقاذ خليلها على أن لاتتهمها بشئ . ثم قالت للخادم :« أرشدينى إلى مايجب على أن أتبعه ،وأنا أعدك بأن أمثل دورى بمهارة وذكاء .» ولما كانت الزوج أكثر اهتماماً بهذه المسألة فقد عملت على أن تجد سبيلا لحل هذه العقدة فكاشفت خادمتها بالأمر فألفتها عند ظنها بها ، و رضيت بارتياح أن تطيعها فى كل ماتريد.ولما كانت هذه الخادمة طيعةطيبةالنفس وذات حيلة ودهاء،بدأت بأن ذهبت إلى سيدها«بازيو »وانطرحت على قدميه وسألته الصفح عن الغلطة التى ارتكبتها . ولما لم يدرك سيدها

ماتقول ، سأ لها قائلا : « عن أية غلطة تتحدثين ؟ » فأجابته باكية : « إنك تعرف روجيه دى جيرونى ؟ فهو يحبنى ياسيدى منذ سنة تقريبا، وقد اضطرنى — بالرضا وبالإكراه — إلى أن أحبه أيضا . وقد علم ليلة أمس أنك ذهبت إلى « مالفى » وأنك لن تقضى الليلة بالمنزل وقد تقدم إلىّ بالتوسل والوعيد أن أستضيفه عندى . وقد اشتد به الظمأ إلى حد بعيد . ولما كنت لاأدرى كيف أروى ظمأه، وكنت أخشى أن أذهب إلى الغرفة التى بها سيدتى فأجيئه بماء أو نبيذ ، حذراً من أن تشك فى الأمر ، ذهبت وأعطيته زجاجة ملأى بالماء دكرت أننى رأيتها على النافذة وقدمتها اليه . ولما أن جرع مافيها رددتها فارغة إلى مكانها من النافذة ، وهى الزجاجة التى دعت إلى الضجة التى أثرتها . وها نذا قد اعترفت لك بخطئى ياسيدى وأسألك الصفح . ومن ذاالذى لايخطئ يا سيدى ؟ ولا أكذبك أنى نادمة ومتألمة لغلطتى ، لامن أجل زجاجتك فحسب — ولك حق فى أن تغضب لها — ولكن من جراء ماأعقب دلك لأن «روجيه» المسكين على وشك أن يعدم صلبا . فاسمح لى ياسيدى إذاً أن أذهب وأعمل على إنقاذه لأننى موقنة من أنه برئ »

* * *

ومع أن الجراح كان ساخطا غاضباً على خادمته ، فإنه لم يسعه إلا أن يبتسم لهده الحادثة وقال لها ساخراً :

« ها أنت ذى قد عوقبت على خطئك . فقد حسبت أن بالزجاجة شرابا لذيذ الطعم ولكنه كان — على الحقيقة — شراباً منوّماً . وإنى أسمح لك بأن تذهبى لإنقاذه من الخطر الذى يتهدده إذا استطعت إلى ذلك سبيلا . وإنى أصفح عنك فى هذه المرة ، ولكن احذرى أن

تضرب له موعدا للقاء بمنزلى مرة أخرى . وثق أنه إذا وقع ذلك منك مرة أخرى فإنى معاقبك عقابا صارما.

وكانت هذه بداية بعثت فى قلبها الأمل، فذهبت مسرعة فى الحال إلى السجن الذى به «روجيه» وعرفت كيف تخدع سجانه وتبلغ «روجيه» ما تريد أن تقوله، ليدفع عن نفسه دون أن يسىء إلى سيدتها . ثم عمدت إلى الوالى وطلبت أن تقابله مقابلة خاصة . وقد طابت نفس الوالى لها وأراد أن يداعبها ، قبل أن يصغى إلى حديثها، فلم تقاوم كثيراً بل تمنعت إلى الحد الذى تستفيد منه أكبر استفادة ممكنة . وبعد أن قضى الأمر ، قالت له إن «روجيه دى جيرولى» الذى ألقى القبض عليه وحوكم بتهمة السرقة لم يكن لصاً . وبعد أن قصت عليه ما قصته على الجراح ، زادت على ذلك أن الماء الذى تجرعه أوقعه فى سبات عميق حتى لقد خيل إليها أنه قضى نحبه، وأنها — لكى تنقذ نفسها من هذه الورطة — وضعته فى صندوق . ثم قصت عليه ماسمعته من النجار والرجل الآخر من حديث ذكر فيه الثانى أن الصندوق بيع لمحل رهنيات ، وأفهمته أن الصندوق الذى به عشيقها المزعوم ربما كان قد نقله المرابيان إلى بيتهما خُلْسَةً .

* * *

وأراد الوالى أن يرضى هذه الفتاة التى أرضته ، ورأى أن الأمر فى حاجة إلى إيضاح فأرسل فى استدعاء الجراح وسأله هل كان فى الزجاجة ماء مخدر؟ فذكر له الجراح الحقيقة . ثم استدعى النجار صاحب الصندوق والمرابيين وبعد بحث وأسئلة دقيقة تبين له أن الصندوق كان قد سرق ثم استدعى روجيه وسأله عن المكان الذى رقد فيه بالأمس

فاجابه : « لاأدرى . كل ماأعلمه أننى ذهبت إلى منزل السيد مازير معتزما أن أرقد مع خادمته ثم نمت بعد أن شربت ماء قدمته إلى « لارندى » ولما استيقظت ، ألفيتنى داخل صندوق فى نفس المكان الذى عدونى فيه لصاً . »

* * *

ولما رأى الوالى غرابة هذه القصة المضحكة طلب إلى الجميع أن يعيدوا تمثيل أدوارهم مرة أخرى . ثم أمر بإطلاق سراح « روجيه » الذى ظهرت له براءته، وقضى على كل واحد من المرابيين أن يدفع عشر أوقيات من الفضة.

ولا حاجة بنا للقول بأن « روجيه » وخليلته والخادم قد أرضاهم الحكم، فقد كان سرورهم يعدل ما كان بنفوسهم من خوف .

ومضى الحب فى سبيله ، وكانت طعنات المدى تسليهم وترفّه عن نفوسهم كلما ذكروها ، وكانت الخليلة ترى أن أجدر الناس بالتعرض للاخطار هو العاشق الطريف.

اللقاء السعيد [١]

كان يعيش فى قديم الزمان — فى جزيرة « اسكيا » المجاورة لنابولى — سيد سرى اسمه « مارين دى بولجاملى » ، وكان له فتاة جميلة غاية فى الحسن والجاذبية اسمها « ريستتوى » وقد أغرم بحبها فتى من سكان جزيرة « بروشيدا » وهى تكاد تكون ملاصقة لتلك الجزيرة التى تقطنها الفتاة .

وقدعرف هذا الفتى — وكان اسمه « جان » — كيف يصل إلى سر قلبها ويظفر منها بكثير من مواعيد اللقاء ، فكان يلتقى بها نهاراً وليلا ، وإن لم يظفر منها بعد ذلك بأكثر من قُبَل معدودة.

وكان كلما أعوزه أن يجد قارباً يعبر به — من جزيرته إلى جزيرتها — لم يعقه ذلك عن الوفاء بموعدها ، فقد كان يعبر تلك المسافة سباحة .

فإذا خانه الحظ،وأدركه نكد الطالع فلم يجد حبيبته،لم يفته أن يتملى برؤية أسوار المنزل، وتسريح طرفه فى ذلك المنزل الذى احتوى حبيبته بين جدرانه .

وكان يبدو له ذلك البيت هيكلا ، وكان لايرى فى حبيبته إلا معبودة تقطن ذلك الهيكل جديرة بكل إجلال وتقديس من القلوب الحساسة الهائمة بالفضيلة المفتونة بالجمال والحسن.

واستوثقت العلاقات الحبية بينهما — وإن كانت علاقات عفيفة طاهرة — فطلب الفتى إلى حبيبته — ذات مرة — أن تتنزه معه فى سفح الجبل ، وكان ذلك فى يوم من آيام الصيف . ولما ذهبت الحسناء إلى ذلك المكان ووجدت نفسها منفردة فيه،ظلت تعدو متنقلة من صخرة

---

(١) نشرت بمجلتى العصور والإخاء

إلى أخرى وفى يدها مدية تقطع بها بعض المحار لتأكله ـ وكان ثمة نافورة بين تلك الصخور تكتنفها بعض شجيرات فتلقى من الظلال مايروع ويفتن إلى أبعد حد الروعة والفتنة .

وقد أغرى حسن هذه الجهة وطيب هوائها بعض أهالى « صقلية » بالاستراحة فيها ، وكانوا آتين من « نابولى » فجلسوا يستريحون . وما كادوا يبصرون تلك الفتاة الصغيرة ـ ولم تكن قد لمحتهم بعد ـ حتى عقدوا عزمهم على أخذها معهم .

وعبثاً حاولت الفتاة أن تستصرخ لعل أحداً ينجدها ، فقد تمكنوا من اختطافها وحملها معهم فى سفينتهم .وقد بدأوها بالحسنى وخاطبوها بعبارات الاحترام متوددين إليها ليزيلوا عنها الوحشة التى شعرت بها ، ولكن الفتاة « ريستتوى » لم تكف عن البكاء قط .

* * *

ولما وصلوا إلى « كالابرى » بدأوا يتشاورون فى أمرها متسائلين أيهم الذى سينفرد بها دون الباقين ، فإذا كل واحد منهم ، يريد أن يستأثر بها وحده لجمالها الفاتن وحسنها الجذاب .

وبدأ اللجاج والخصام ، وأخذ كل منهم ينازع الآخر أمرها نزاعا عنيفاً ودبت الغيرة فى نفوسهم ، فلم يشأ أحد منهم أن ينفرد بها الآخر دونه ، واستحال الوفاق بينهم

وخشوا أن يتفرقوا بدداً ويتطاحنوا ، فأرادوا أن يحسموا الشر ويتداركوا ماقد يجره عليهم الخلاف من نكبات ومصائب ، فاتفقوا على ألا تكون الفتاة من نصيبهم جميعاً ـ بلا استثناء ـ ورضوا أن

يقدموها هدية إلى « فريدريك » ملك« صقلية » ،وقد كانوايعرفون فيه أميراً يقدر مثل هذه التحفة خير تقدير ويعرف قيمة هذه الطرفة معرفة خبير . وما كادوا يصلون إلى « بالرم » حتى أنفذوا عزمهم هذا .

ولما رآها الملك، وجدها جميلة كأحسن مايشتهى ويحب، فقبل منهم الهدية مبتهجا مسروراً ، ولكنه رأى على وجهها أمارات الحزن العميق، وأمر أن ينزلوها مغنى من مغانى الأنس والمرح فى كوبا وكان قد أعده لذلك خاصه ، وأمر أن تعامل أحسن معاملة وأن يعنى بأمرها وتلبيه رغباتها حتى تعود إليها صحتها وأنسها .

* * *

على أن نبأ احتطاف«ريستنوى» كان قد ملأ جزيرة «اسكيا» كلها وإن لم يستطع أحد من سكانها أن يهتدى إلى مقرها أو يتعرف السر فى احتفائها . أما عشيقها « جان » الذى كان يهمه ــ قبل كل إنسان ــ أن يهتدى إلى مكانها ، فقد بذل كل مافى وسعه فى البحث عنها فى كل مكان جاهــدا أن يتعرف مصيرها الذى آلت اليــه ، ومن هم الذين اختطفوها وثمة لم يتوان فى إعداد مركب حربى مزود بالسلاح ، وظل يطوف به البحار المجاورة ــ من منــيرفا إلى صقلية ــ ولما وصــل إلى « كالابرى » علم أنها قد أهديت إلى الملك وأنه أنزلها فى « كــوبا » فأحزنه هذا النبأ وملأ نفسه غماً وأسى ويئس من الحصول عليها إلى الأبد ، بل ويئس من رؤيتها أيضاً .

على أنه اعتزم ــ رغم ذلك ــ أن يترقب مايأتى به القدر من الفرص لعله يرى لتلك العقدة حلا . فأعاد المركب الحربية التى أتى فيها وصمم

على البقاء فى « بالرم » لعل الأمور تتيسر بعد تعقيد ، أولعل الظروف تبيح له ماليس فى حسبانه .

ولم يكن يعرفه أحد فى هـذا المكان ، فظل يتنزه هناك ويسير أمام بيتها ـ بخطى متثاقلة وئيدة ـ وظل يكرر ذلك ذاهباً ثم عائداً حتى لمحته الفتاة ـ ذات يوم ـ من نافذة البيت الذى كانت فيه .

فاقترب منها رويداً رويداً حتى وازاها ليمكنها من التحقق من رؤيته . ولقد رأته حبيبته حقاً وأظهرت لدى رؤيته كثيراً من الابتهاج والفرح .

وكانت تلك الجهة قليلة الرواد، فاقتربت الفتاة منه أقصى اقتراب تستطيعه حتى أصبحا على مسافة تمكنهما من استماع كل لصاحبه، وثمة لم تضع الفتاة وقتها فى كلام لاطائل تحته ، بل أفضت إليه بالطريقة التى يسلكها إذا شاء أن يصل إليها دون أن يراه أحد.

* * *

فظل يفحص ذلك المكان الذى وصفته له الفتاة حتى إذا جن الليل ومضى جزء كبير منه ، ذهب الفتى إلى ذلك المكان وتسلق الحائط حيث دخل إلى الحديقة ، واستعان بحبل كان قد أحضره معه من المركب فألقاه على النافذة حتى تمكن من الصعود عليه ـ بعد أن ثبته فيها ـ ثم دخل إلى حجرة عشيقته التى أوحت إليه بهذه الطريقة ـ وفكرت له فى ذلك السلم ليصعد عليه إلى حيث كانت تنتظره .

ولما كانت الفتاة قد أصبحت على ثقة من أن احتفاظها بعفافها وطهرها ليس فى مقدورها ـ وهى فى مثل هـذه الظروف التى تتهدد عفتها بالأخطار الجسيمة ـ فكرت فى إنتهاز هـذه الفرصة السانحة والاستفادة من ذلك الظرف المتاح لتضحى بعفافها على يد حبيبها مؤثرة

إياه على غيره ، معتقدة أنه أجدر الناس بذلك وأولاهم بهذه المنة، فلعل ذلك يدفعه إلى التفكير فى تخليصها من هذا السجن الذى كانت محبوسة فيه والذى كاد يميتها من الضجر .

ولم يكد يدخل عشيقها غرفتها حتى أفضت إليه بعزمها الذى انتوته — بكل سذاجة — فوعدها حبيبها وقد امتلأت نفسه بذلك فرحا وحبوراً أن يخلصها من هذا السجن ويهرب بها من تلك الجهة كلها كما وعدها بأن يدبر خططه ويحكم أمره لتنفيذ ذلك العزم فى الزيارة التالية.

وبينما كانا منهمكين فى مثل هذه الأحاديث، كان «جان دى بروشيدا» يتحرق شوقا إلى تذوق لذات الحب مع الفتاة التى يهيم بحبها ، فخلع ملابسه، وإنى أدع لك أن تتمثل مادار بينهما من تقبيل وضم وعناق .

ولقد غمرهما السرور وغلبهما الإيناس على كل شئ حتى أنساهما أحزانهما وأذهلهما عن حقيقة موقفهما وخطورته . ومازالا مستغرقين فى نعيم الحب ولذّات الهوى، حتى غلبهما النعاس فناما وقد اشتد التصاقهما أيما اشتداد .

* * *

وبينما كانا نائمين كذلك ، عنّ للملك الذى كان جد مفتون بجمال « ريستتوى »، أن يزورها بعد أن عرف أن صحتها قد تحسنت وعوفيت من المرض ، وقد شعر بشوق شديد إليها ورغبة فى اجتلائها، فقصد إليها — وكان الصبح قد أوشك أن يتبلج — وصحب معه بعض حاشيته .

ولما بلغ غرفتها فتح بابها مترفقاً جداً ، ثم سار إلى سريرها حتى إذا داناه أراد أن يمتع نفسه بالتملى من حسنها — وهى نائمة — وكان فى يده قبس من النور ليرى — على ضوئه — وجه معشوقته الفاتنة. ولا يعلم إلا

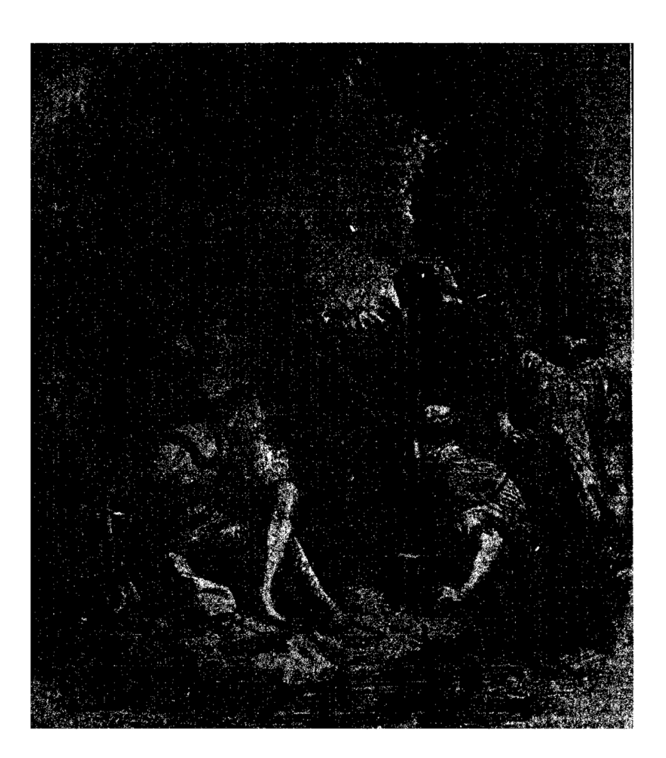
الله كيف كانت دهشته عند هـذه المباغتة حين رآها وهى نائمة بين ذراعى رجل !



و بلغ اهتياج الملك وغضبه كل مبلغ حتى فقد النطق فلم ينبس بكلمة واحدة. ولقد سولت له نفسه أن يقتلهما جميعاً لولا أنه رأى أن مثل هذا العمل لا يليق بمثله لا لأنه ملك فحسب ، بل لأن الشرف يردعه كذلك عن اقتراف مثل هذه الفعلة و يأبى عليـه أن يقتـل شخصين فى حال لا يستطيعان معها أن يدفعا عن نفسيهما أى شر . وثمـة خفض من غـلوائه وقلل من موجـدته الشديدة عليهـما ، وصمم على معاقبتهما بالقتل حرقاً واحداً بعد الآخر.

و بهذه الطوية ابتعد من سريرهما مقترباً من الباب ثم نادى أحـد

الأشراف الذين رافقوه وطلب إليه أن يبدى له رأيه فى هـذه الا نسانة



التعسة التى ناط بها حبه وعطفه ، وسأله هل يعرف هـذا الفاجر الوقح الذى جرؤ على اقتراف مثل هذا الدنس فى قصره .

فلم يقل الشريف كلمة عن الحسناء ولـكنه أجابه بأنه لايذكر أنه رأى ذلك الرجل قط .

* * *

خرج الملك من الغرفة وأمر أن يربط كلاهما جد عاريين — كما هما — ثم ينقلا توا إلى « بالرم » ليصلبا معاً على جـذع سامق وهما موثقان ظهراً لظهر — فى الميدان العام وعلى مرأى من جمهرة الناس ، ثم يقاسيا جميعاً عذاب الحريق .

ثم سافر الملك إلى « بالرم » بعد أن أصدر ذلك الأمر ولما وصل إليها انتحى غرفة فى قصره فأغلقها عليه وخـلا لأحزانه وآلامه التى أفعم بها قلبه .

ومن اليسير أن يتمثل القارئ مقـدار الألم والحـيرة والذهول التى استولت على « ريستوى » وحبيبها معا .

ولقد قادوهما — حسب أمر المليك — إلى مدينة « بالرم » وربطوهما إلى جـذع طويل ثم جمعوا حولهما أكواماً عظيمة من الحطب ليحرقوهما بها وهما على قيد الحياة.

ومن السهل أن يتمثل الانسان ماامتـلأت به نفساهما من الرعب والهلع حين رأيا هذه المقدمات المروعة التى أعدوها لإهلاكهما .

وهرع شعب « بالرم » كله إلى رؤية هـذا المشهد المفجع ، وكان جمال الفتاة وشبابها اللذان افتتن بهما الرجال وقسامة وجه الفتى ورقته اللتان استرعيا أبصار النساء مما يثير العطف والشفقة فى قلوب الناس جميعاء . فلم يرهما شخص إلا اعتقد أن مثلهما جـدير بالسعادة خليق بابتسام الأيام، لأنهما لم يخلقا لمثل هـذه الخاتمة التعسة المحزنة . وود كل من رآهما ، لوكان فى مقدوره أن ينقذهما لوكان إلى ذلك سبيل .

على أن عطف الجمهور وشفقته، لم يخففا من فداحة الخطب، ولم يلطفا من قسوة هذه الخاتمة التى آل اليها أمر هـذين العشيقين اللذين ذهبا

ضحية الحب ، وقد ظلا يسكبان الدموع وهما يترقبان اللحظة الرهيبة التى يلقيان فيها حينهما الوشيك .

وحدث ـ فى هذه الأثناء ـ أن « روجردوريا » ـ وقد كان رُبانا مشهوراً بغزواته البحرية المظفرة وكان ـ حينئذ ـ ربان صقلية ـ علم بهذا الحادث الذى وقع لهذين الحبيبين التعسين ، فتاقت نفسه إلى رؤيتهما . فذهب إلى مكانهما حيث أعدت لهما وسائل العذاب والهلاك ، وحدق ببصره فى الفتاة أولا فرآها ـ كما وصفوها له ـ جميلة فاتنة ، ثم تأمل فى الفتى ، فتملكته الدهشة ـ عند رؤيته ـ إذ تبين له أنه يعرفه واقترب منه ثم سأله :

« ألست جان بروتشيدا ؟ »

وما كاد الفتى المعذب يسمع هـذا السؤال حتى رفع رأسه وحينئذ عرف الربان كذلك ، وقال له :

« لقد كنته إلى الآن ، ولكن الدلائل قوية على أننى لن أكونه بعد قليل من الزمان . لأن حينى وشيك . » وحينئذ سأله القبطان : أى حادث ارتكبه فأوصله إلى هذه النتيجة ؟ فقال له الفتى :

« ساقنى إلى هذه الخاتمة حب الملك وغضبه علىّ » وأراد « روجردوريا » أن يتعرف منـه كل التفاصيل عن حادثه ، فلما أخبره بها ، وسمع تفاصيلها من فم ذلك المعذب ، تركه وهو شديد التأثر ، بادى الحزن على ماأصاب هذين التعسين .

فناداه « جان دى بروتشيدا » وتوسل إليـه وأقسم عليه بالله أن يطلب له الصفح من الملك .

ومهما كان من أمر ، فقد كان الرّبان يعتزم مساعدته وإسداء

مايستطيع إسداءه من صنيع . ثم قال الفتى :

« إنى أرى مصرعى وشيكا وأرى أننى سأحرم الى الأبد هذه الفتاة المحبوبة التى ستلقى حينها مثلما ألقاه ، و إنى لأحبها أكثر مما أحب نفسى ، و إنى ليبدو لى أننى سأموت وأنا أقل أسفا على الحياة إذا سمح لى الملك بأن أموت و وجهى قبالة وجهها . »

فقال له الربّان وهو يتبسم :

« سأذهب إلى الملك وألقاه ، وربما استطعت أن أظفر منه بالصفح عنكما و إطلاق حريتكما ، لظفر بحبيبتك وقتا طويلا حتى تشبع منها »

ثم التفت إلى الجلادين والبابلين فقال لهم :

« يجب عليكم ألا تنفذوا أمر القتل حتى يصدر إليكم أمر جديد من الملك بذلك » ثم أسرع ذلك الجندى الباسل إلى لقاء الملك ، ومع علمه بأنه كان جد مهتاج محنق قال له :

« مولاى . هل لى أن أجرؤ فأسألكم عن جريمة هذين الشابين اللذين أمرت جلالتكم بإعدامهما حرقا وهما على قيد الحياة ؟ »

فقص عليه الملك كل ماحدث . وثمة قال له الربّان :

« إنى مقتنع بأن الخطأ الذى اقترفاه جدير بأعظم العقاب ، ولست أستكثر عليهما أى جزاء حتى الموت حرقا .

ولكننى أرى أن الجريمة إذا استوجبت العقاب فإن الخدمات تستوجب المكافأة والعفو أيضا . — أتعرفون حقا هذين المجرمين ؟ »

فقال الملك :

« إننى لأجهل من هما »

فقال له الربان :

« إذن فاسمحوا لى أن أعرف جلالتكم بهما . لتحكموا نفسكم بأنكم قد استسلمتم لعاطفة الغضب فسارت بكم إلى أبعد مدى .

اغفروا لى هذه الحرية التى سمحت بها لنفسى، فإننى أعتقد أن كبار الأمراء جديرون أن لايستسلموا قط إلى عواطفهم بسهولة ، وأن لاتسوقهم تلك العواطف إلى القسوة والعنف .

إن جلالتكم ستقرنى — بلاشك — على هذا القول حين تعلم أن هذا الفتى الذى أردت أن تحرقه حيا ، هو ابن « لاندولف دى بروتشيدا » وشقيق السيد « جان بروتشيدا » الذى تدين بتاجك له .

وإن هذه الفتاة سليلة « مارين دى بلجار » وهو أيضا الرجل الذى دافع عن عرشك وحماه من أن يزلزل . وهو الذى ثَبَّتَ اسمك ونادى لك فى « اسكيا » مؤيدا وناصرا.

هذا إلى أن هذين الشابين يحب كل منهما الآخر منذ زمن طويل ، وقد ارتبطا بأسباب هذا الحب الذى جشمهما هذا المركب الوعر ، فأنت ترى أنهما لم يقصدا إلى تحدى جلالتكم .

ومن ثم فإننى أرى أن جلالتكم — أبعد من أن تأمر بقتلهما — بل إننى لأرى يامولاى أنكم جديرون أن تغمروهما بإحسانكم وتفضلكم . »

* * *

لم ير الملك أية غضاضة فى هذه الحرية التى استباحها الرُّبان لنفسه بل رأى — على العكس — أنه جدير بالشكر . ولم يغضب الملك مما سمع، وإنما غضب مما فعل،وندم على استسلامه إلى شهوة الغضب والانتقام .

ثم أمر فى الحال أن يحضروا العشيقين أمامه. ولما اقتنع نفسه منهما بصحة ماأخبره به الربان صمم على أن يستدرك مافات وأن يعوض عليهما ماألحقه بهما من الآلام بمايغمرهما به من التكريم والهدايا الفاخرة التى تتناسب مع كرمه العظيم.

وكان أول ما فعله أن أمر بالباسهما أفخر الحلل التى تلائم مقامهما ، ولم يشأ أن يقف فى تفضله عند منتصف الطريق فزوج كلاهما من الآخر وغمرهما بهداياه الفاخرة وأعادهما إلى وطنهما حيث احتفى بلقياهما أهلهما أيما احتفاء وفرحوا بوصولهما فرحا لايوصف.

* * *

وعاش الحبيبان فى وطنهما موموقين من جميع الناس والكل يلاطفونهما، وقد تبادلا الهوى والحب معا ، وما كانا ليفكرا فى تلك المصائب التى حاقت بهما، إلا ليفيسا إليها سعادتهما الحالية و يشعرا بقيمة هذه السعادة الحقة .

عقوبة لم توقع[1]

كان فى بلدة « لونجانى » — وهى ليست بعيدة عن مدينتنا[2] — دير كانت شهرته فيما مضى من الزمان — مثالا للتقوى والقداسة ، ولكن الزمن لا يبقى شيئا على حاله ، فقد بدأ يتسرب إلى ذلك الدير شىء من الفساد ، فاندس بين سكانه راهب شاب ، لم يخفف الزهد والتقشف وتهجد الليل من شرته ولم يلطف من طبعه وحدة شهوته .

خرج ذلك الراهب الشاب ذات يوم وقت الظهيرة — أى فى الوقت الذى يهجع فيه بقية الرهبان هجعة القيلولة ، وطفق يتنزه وحده على مقربة من الكنيسة ، وكانت واقعة فى جهة منعزلة ، فلمح — بطريق المصادفة — فتاة من بنات زارعى القطن ، وكانت مشغولة بجمع القطن فى ذلك الحقل . فكانت رؤيته مثل هذه الفتاة — التى جمعت بين ملاحة الوجه ورشاقة القد — كافية لإثارة عواطف الشاب الملتهبة إلى أقصى حد .

فداناها وبدأ يحادثها ويقص عليها أشهى الأخبار حتى ملك عليها كل قلبها ، وما لبثا أن أصبحا على وفاق تام . وثمة قادها إلى الدير معه وأدخلها غرفته الصغيرة دون أن يراهما أحد . وهنا أدع لك تمثل ماتذوقاه معاً من أفاويق السعادة ، ولا أسمح لنفسى أن أصف شيئا من تفاصيل ماحدث . وحسبى أن أقول إن حماستهما قد فاقت كل حد معقول حتى

---

(١) نشرت بمجلة العصور

(٢) يعنى مدينة فلورنسا

أنستهما ما كان يجدر بهما من الحزم وضبط النفس .

وكان رئيس الدير قد استيقظ من غفوته وأحد يجول فى فناء الدير بخطى خفيفة ، فاسترعى انتباهته — وهو يقترب من حجرة الراهب — ماسمعه من الهرج الذى أحدثاه ، فاقترب من الباب — بكل خفة — وأرهف أذنيه إرهافا ، فميز بجلاء ووضوح صوت المرأة ، وعنّ له — بادئ الأمر — أن يفتح الباب ولكنه عدل عن ذلك ، فقد رأى — بعد أن قلب المسألة على كل وجوهها — أن خير وسيلة يسلكها هى أن يعود إلى غرفته دون أن يفوه بكلمة واحدة ، معتزما أن يراقب خروج راهبه الفتى .

* * *

كان الراهب مشغولا بما هو فيه من سعادة أنسته كل شيء حتى نفسه ، بيد أن هاجساً خفياً ساور نفسه ، فقد خيل إليه أنه سمع فى بعض فترات الهدوء التى كانت تتخلل وقتهما الحافل بالعمل — وقع أقدام خفيفة. وما كاد يطيف بذهنه هذا الخاطر، حتى أسرع الى ثقب ضيق فى الحجرة ونظر منه فرأى رئيس الدير مرهفاً أذنيه متسمعا مايهمسان به . فلم يخامره شك فى أنه قد سمع كل شئ، وأيقن صاحبنا أنه هالك لامحالة ، وكانت فكرة الفضيحة ومايعقبها من التعنيف والعقاب ، كافية وحدها أن تملأ نفسه رعباً وخوفاً ، ولكنه — على الرغم من ذلك — لم يبد شيئا مما يساوره من القلق والحزن لعشيقته ، وأخذ يفكر متلمسا وسيلة يخلص بها من ذلك المأزق الحرج ، فاهتدى بعد قليل من التفكير إلى طريقة ناجحة كلها دهاء وخبث . ولكنها تنجيه بأعجوبة على

كل حال . وثمة تظاهر لعشيقته بأنه لايستطيع أن يبقيها عنده طويلا وقال لها :

« سأذهب للبحث عن وسيلة تمكنك من الخروج من هنا دون أن يراك أحد فلا تحدثى أى صوت ولا تخشى – بعد ذلك – شيئافإنى عائد إليك بعد قليل » .

* * *

خرج الراهب – بعد أن أغلق الباب وأحكم رتاجه – ثم ذهب إلى غرفة رئيس الدير فأعطاه مفتاح غرفته – وكانت هذه عادة من فى الدير كلما أرادوا الخروج منه – وقال له أهدأ مايكون نفساً :

« لم أستطع أن أنقل – فى هذا الصباح – كل ماقطع من خشب الأشجار فى الغابة، وسأذهب الآن – يا أبانا المحترم – لأحضر الباقى إذا أذنت لى بذلك ! »

* * *

لم يكد يرى الأب منه ذلك الاطمئنان حتى أيقن أنه جاهل بكل ماحدث ، ولم يخامره الشك فى أن ذلك الشاب لم يعلم بعد أن سره ذائع . وقد فرح الأب بهذا الخطأ الذى حسب الشاب قد وقع فيه ، فهيأ له بذلك الأسباب التى توصله إلى تعرف الحقيقة وجهاً لوجه . فتظاهر أمامه بأنه يجهل كل شئ ، وأخذ منه المفتاح ثم أذن له بالذهاب إلى الغابة ، ولم يكد يغيب عن ناظره حتى شرع يفكر فى الطريق التى يسلكها معه . وكانت أول فكرة عنت له هى أن يفتح باب الغرفة التى يقطنها الفتى

المجرم، وأن يكون ذلك بمشهد من رهبان الدير جميعاً حتى لا يشفع له ـ بعد ذلك ـ أحد منهم إذا نكل به تنكيلا وأنزل به أقسى عقاب .

ولكنه ذكر أن الفتاة قد تكون من أسرة شريفة، وأنها ربما كانت متزوجة أيضاً من رجل جدير بالاحترام ، وثمة رأى من الواجب عليه أن يذهب إليها أولا و يسألها عن أمرها ثم يقرر ـ بعد ذلك ـ خير الطرق التى يسلكها معها .

وذهب إلى تلك السجينة الحسناء، وفتح باب الغرفة بحذر، ثم دخل الغرفة بعد أن أرتج الباب .

* * *

كانت السيدة ـ فى هذه الأثناء ـ ملتزمة الصمت العميق فلم تكد تراه داخلا حتى عراها الذهول و بلغ بها الخجل كل مبلغ ، وقد شعرت بخطورة الأمر فغلبها البكاء .

أما الأب فقد كان ينظر إليها بمؤخر عينه فأدهشه جمالها الفاتن ورثى لدموعها ، ولم يلبث أن انقلبت رحمته لها إعجاباً بجمالها وافتتاناً بحسنها، وخانته قواه فلم يستطع أن يوجه إليها أقل لوم . وما زال الشيطان يوسوس للرهبان دائماً .

ووسوس له الشيطان فى هذه اللحظة التى تجلى فيها ضعفه ، وأيقظ فيه غرائزه البشرية فدبت عقاربها فيه .

ومثل له الشيطان صورة مشرقة من السعادة التى نعم بها الراهب

الفتى والتى تذوق من أفاويقها أحلاها ، فصبا إليها الأب ـ رغم تقدمه فى السن ـ ومال إلى التنعم بمثل مانعم به ذلك الشاب ، وقال فى نفسه :

« ما بالى أحرم نفسى متعة عرضت لى بلا تعب ؟ حسبى ما أضعت من فرص وحرمت من لذات ! ولعمرى إنها لآية من آيات الفتنة والسحر ! فماذا على إذا حاولت اغتنام هذه الفرصة ، ومن ذا يشعر بى إذا فعلت ذلك أو يعلم بما أتيت ؟

إن الخطيئة المستورة هى نصف خطيئة ، وهى ـ بلا شك ـ أدنى إلى مغفرة الله وعفوه ! فلأتمتع إذن بهذه الفرصة التى قد لاتتاح لى ـ إذا أضعتها ـ مرة أخرى ، وقد لا أظفر بمثلها إلى الأبد ، وما أجدرنى أن لا أرفض خيراً ساقته السماء إلى . »

* * *

ثم دنا من الفتاة المحزونة ـ وهو مشبع بهذا الروح ـ وغير من تقطيبه الذى كان يبديه إليها ـ وقت دخوله ـ وتطلقت أسارير وجهه ، فشرع يهدئ من روعها و يسألها مستعطفا أن تكف عن حزنها ، و يقول لها :

« كفكفى من عبراتك يابنيتى ! إنى لأعرف حق المعرفة أنك قد أغريت إغراء ، فلا تخشى شيئاً ، واعلمى أننى لن ألحق بك أى أذى ، بل إنى لأفديك بنفسى من كل سوء . »

ثم أخذ يطرى جمالها و يمتدح رشاقة قوامها و يتغزل فى حسن وجهها وسحر عينيها ، بلهجة و إشارات أفهمت الفتاة كل مايرمى إليه .

* * *

ومن اليسير أن يدرك القارئ أن مثل هذه الفتاة فى مثل هذا

الموقف الحرج ـ وهى مركبة من لحم ودم وليست من حديد وماس ـ لم تستطع أن تقاوم إرادة الأب . وقد انتهز صاحبنا هذه الفرصة التى اتيحت له ورأى من سهولة الفتاة ومطاوعتها ماشجعه على تقبيلها ألف قبلة حارة مستعرة بنار الشوق ، وما زال يتدرج معها حتى بلغ كل مايرجوه ، بعد أن تقدمها إلى السرير ليشجعها ويكون نموذجا لها تحتذيه .

* * *

أما الراهب الشاب فلم يذهب إلى العابة ، وإنما تظاهر بالذهاب إليها ، فقط ، ثم راقب الشيخ حتى دخل الغرفة ، فزالت عنه مخاوفه كلها حينئذ ، وأدرك أن الحيلة التى دبرها قد نجحت ، ووقع الشيخ فى الفخ الذى نصبه له ، وقد كانت حيلة موفقة بارعة كلها خبث ودهاء .

على أنه أراد أن يستيقن من نجاح حيلته ، فاقترب من الغرفة ووصوص ـ من خلال خرق صغير لا يعرفه سواه ـ ورأى كل مادار بين الفتاة والأب الجدير بكل احترام .

ولما بلغ الشيخ غايته من الفلاحـة الشابة تركها ، ثم أرتج الباب وعاد إلى غرفته ، ورجع الراهب بعـد قليل إلى الدير ، وحسب الشيخ ـ عن طيبة قلب وحسن نية ـ أنه إنما عاد من العابة كما أخبره ، فأرسل يستدعيه إليه ليعنفه على فعلته تعنيفاً شديداً ثم يزج به فى السجن ليخلص من منافسته وينعم وحده بذلك الفوز الباهر .

ولم يكد يحضر الفتى حتى عبس فى وجهه الشيخ .

فانحنى الفتى أمامه انحناءة الاحترام ثم رفع رأسـه ، فقال له الأب عابساً :

« إنك لجدير بالعقاب الصارم على فعلتك هذه . »

فأجابه الشاب على الفور – ولم يكن ليخفى عليه أمره :

« أى أبانا الجدير بكل احترام :

لستُ قديم العهد بنظام الأديرة، ولست أعرف – من نظمها وقوانينها – ماتعرف، فإنك أقدم منى عهداً وأدرى منى بكل ذلك ، وقد تلقيت عنك الآن مثلا عملياً فى طريقة إجلال المرأة والخضوع لها ، وما أنا إلا مقتد بك ، فإذا شئت أن تغفر لى خطيئتى فلن أنسى لك هذا الصنيع ما حييت »

* * *

لم يكن الأب من الحماقة بحيث يتمادى فيما اعتزمه من الشر ، فقد أدرك – فى الحال – أن الفتى قد علم من أمره كل شىء وأنه رأى كل ما دار بينه وبين الفتاة ، فشعر بأشد الخجل وندم على خطئه الذى وقع فيه ، وعجز الشيخ عن معاقبة الفتى على أمر وقع هو فى مثله .

* * *

وهنا أظهر له الشيخ – عن طيبة خاطر – أنه قد غفر له كل ما فعل ، وكتم سره فلم يخبر به أحداً . وتعاونا معاً على إخراج الفتاة من الدير سراً ، كما تعاونا – بعد ذلك – على دعوتها إلى الدير كلما سنحت لهما الفرصة .

الشجرة المسحورة (١)

« نيكستراس » عين من أعيان مدينة « أرجوس » إحدى المدن التى أحرزت ـ فيما مضى ـ مكانة تاريخية واشتهرت بملوكها العظام و إن كانت فى هذه الأيام قليلة الغنى محدودة الموارد .

كان هذا السيد فى سن متقدمة جداً ، فرأى أن يقترن من زوج تُعنى بأمره وتقضى معه زمن شيخوخته ، فتزوج من الآنسة « ليدى » وهى فتاة كريمة المحتد شجاعة القلب بقدر ماهى جذابة وجميلة .

وكان عظيم الغنى وافر الثروة إلى أبعد حدّ فأنفق عن سعة غير حاسب للمال حسابا . وكان أكبر همه الصيد ، فاقتنى أقوى الكلاب والطيور الجارحة وكان عنده عدد وافر من الخدم من بينهم فتى جميل اسمه « پيروس » مشرق الطلعة وضاح الجبين مستقيم حازم فى كل مايوكل إليه من عمل ، فأفرده سيده من بينهم جميعا بأعظم حبه ورعايته وأخلد إليه بكل ثقته.

* * *

وقعت السيدة «ليدى» فى حب هذا الغلام وشفها الوجد وبرّح بها الهوى تبريحا فلم تعد تطيق البعد عن رؤيته، وأصبحت لاترى السعادة إلا فى قربه ومحادثته .

على أن الفتى لم يلاحظ ـ أو لم يشأ أن يلاحظ ـ عليهاشيئا من ذلك

---

(١) نشرت بمجلة الحديث .

فلم يتغير سلوكه معها عن ذى قبل، أى أنه لم يعرها أقل اهتمام.

حزنت السيدة لهذا أشد الحزن وغلبها الوجد فلم تعد تقوى على احتمال الهوى وضبط عواطفها فصممت على الإفضاء إليه بحقيقة أمرها.

نادت وصيفتها الأمينة التى تحبها حباً شديداً وتخلد إليها بكل ثقتها وأسرت إليها ذات يوم قائلة : «أى فتاتى : إن ماخصصتك به من الحب والتعطف الدائمين، يؤكد لى أنك لن تتأخرى لحظة عن إجابة أى رجاء ألتمسه منك ، وهذا مايدعونى إلى الإفضاء إليك بأمر خطير أرجو ألا تسمحى لأىّ كان أن يعرفه منك .

إنك تعلمين — يا عزيزتى — أننى مازلت فتاة مكتملة الشباب والصحة ، متفردة بالجمال والغنى — كما ترينى — ولم أكن ليعوزنى شىء لو أن زوجى كان فى مثل سنى وطبعى، أى لو أنه استطاع قليلا أن يشبع فى نفسى تلك الرغبة التى هى أبهج مايطمح إليه النساء . وإنى لأعترف لك أننى أكون أعدى أعداء نفسى إذا لم أبحث عن تحقيق هذه الرغبة .

إنما يتزوج الناس ليتذوقوا لذات الحب . وهذه اللذات التى هى ثمرة الزواج ، أرانى محرومة منها كل الحرمان — ولكى أرضى فى نفسى هذه الرغبة الشديدة التى لاينقصنى من نعيم الدنيا ومبتهجاتها سوى تحقيقها، وطدت العزم على أن يكون الفتى « بيروس » محققها ، فأستعيض به عن زوجى فى إشباع هذه النهمة ، فهو غلام أمين وهو غاية فى خفة الروح. وقد رأيته أجدر من كل من عداه بهذا الصنيع، فأفردته من بينهم بحبى . ولا أخفى عنك أن هيامى به قد بلغ أقصاه ، وأن حبه قد تملك كل قلبى، فأصبح شغلى الشاغل وهمى الدائب، وصرت لا أنقطع عن التفكير فيه ليلاً ونهاراً

ماسرت إلا وطيف منك يصحبنى سُرًى أمامى وتأويبا على أثرى
لو حط رحلى فوق النجم رافعه ألفيت ثَمَّ خيالا منك منتظرى

لقد أصبحت ياعزيزتى أسيرة هواه فإذا لم يلب ندائى ، ويحقق أملى فيه ، قتلنى الهم قتلا . فإن شئت أن تسدى إلىّ جميلا لا أنساه لك أبد الدهر،فاذهبى إليه وأخبريه بأمرى-بالطريقة التى ترين فى سلوكها الخير- و بثيه ما أجنه له من الوجد والهيام ، واطلبى منه ألايتأخر عن رؤيتى كلما أتاحت له الفرصة ذلك . »

* * *

لم تتوان الخادم فى إجابة الطلب واعدة سيدتها بإنجازه ، وقد ذهبت إليه فى نفس اليوم حتى إذا أمكنتها الفرصة من لقائه أفضت إليه بكل ماقالته السيدة « ليدى » . دهش الفتى من هـذه المباغتة التى لم يكن ليتوقعها من قبل ، فما كان يدور بخلده قط أن سيدته تحبه،وأن حبها إياه يصل بها إلى هذا الحد ، ولكنه خشى أيضاً أن تكون هذه أحبولة ينصبونها له ليتعرفوا بها مدى أمانته و إخلاصه لسيده، فأسرع بمقاطعة الخادم قائلا: «إنى لا أصدق مطلقاً أن ماتقولينه لى حق.فالسيدةلايمكن أن تكل إليك الافضاء إلىّ بمثل هذا الأمر الخطير . ولكن بما أنك تقولين لى إنك تتكامين معى تنفيذا لأمرها،فإنى أؤكد لك كل التأكيد أنهالاتريد بمثل هذا القول إلا الدعابة.على أنها لوكانت تحبنى حباً صادقا، فأنا خليق ألا أجاريها فيه ، لأن على دينا عظيما لسيدى- الذى غمرنى بفضله وصنائعه - يحتم على أن أقابله بالشكر والحمد ، لا بمثل هذه الإهانة والجحود . و إذ كان ذلك كذلك ، فإنى أطلب اليك ألا تعودى لمثل هذا الحديث مرة أخرى . »

فأجابته « ليسكو » جد مدهوشة من تلك الصلابة التى أظهرها وذلك الرفض الذى أبداه : « أؤكد لك أنك مخطئ فى إصرارك، وأننى لم أقم بغير الواجب علىّ، وأننى لبيت وسألبى ما تأمرنى به سيدتى. وها ندى أدعك الآن تاركة لك فرصة طويلة للتفكير – بروية وأناة – فى تحقيق ما طلبته إليك، ولكنى لا أكتمك أننى كنت أحسبك أكثر لباقة وأخف روحا مما أنت »

* * *

حزنت السيدة «ليدى» حين عرفت ما أجاب به الفتى وصيفتها ، وزاد حزنها فلم تلبث أن شفها الوجد وبرح بها الألم، فآثرت الموت على هذه الحياة المريرة .

خشيت أن تخفق فى إقناعه والتأثير عليه، ولكنها لم تيئس من الوصول إلى تحقيق إرادتها. وبعد بضعة أيام، أعادت شكواها إلى خادمتها وطلت تبثها الجوى قائلة :

« تعلمين ياليسكو حق العلم أن الشجرة لا تسقط من الضربة الأولى فلا تيأسى أن تعيدى الكرة على « پيروس » وتستغويه بكل ما أوتيت من قوة، دون أن تدعى له فرصة ينتهزها للظهور بها أمام سيده بمظهر الرجل الشريف المخلص على حسابى .

تحيّنى الفرصة المناسبة فإذا ظفرت بها فافتنّى فى شرح حبى ووجدى وآلامى، فليس من الخير – لى ولا لك – أن ندعه يفلت من حبالتنا ، فإن الفشل معناه الدمار ، فسوف تفقدينى إذا أخفقتِ، وربما عنّ له أننا نسخر منه فدفعه ذلك إلى الانتقام منا . وثم لا يتردد فى إلصاق تهمة

شنيعة تؤدى بنا إلى الهلاك . إذهبي إليه تواً ولا تدخرى وسعا فى استمالة قلبه إلى . »

* * *

أذعنت الوصيفة لطلب سيدتها وواستها مؤكدة لها أنها لن تألو جهداً فى التأثير عليه متغلبة على كل مايعترضها من العقبات .

* * *

ولم تتوان فى البحث عن « بيروس » حتى إذا ظفرت بلقياه وجدته ضاحك السن متهللا،فانتهزت هذه الفرصة لمفاتحته -مرة ثانية- فى أمر سيدتها،فقالت له بعد أن انتحيا جانباً : «لعلك تذكر أنى حدثتك منذ أيام قلائل عن تلك النار التى شبت لهيبها فى قلب مولاتى،وإنى أزيدك اليوم من جديد تأكيداً لما قلته من قبل - مقررة لك- أنك إذا أبيت إلا إصراراً على عدم اكتراثك بأمرها متمادياً فى هذا الازدراء السخيف، فإنك تسبب لها بذلك أشدالعناء،وتحرمها راحةالسلوان،وتضنى جسمها وربما انتهى عبثك بإهلاكها .

فأقلع عن عنادك أيها الصديق وعد إلى رشدك وقدّر ماتعانيه سيدّتك من أجلك من الآلام المبرحة والأسقام المضنية .

صدقنى- فيما أقرره لك- فإنى لم أكذبك كلمة واحدة. أقسم لك بما أضمره لمولاتى من حب،وبما أجنه لك من احترام، إننى صادقة فى كل ما أقول. فكرّ مليا فيما أقرّره لك .

ثب إلى نفسك وتذكر أى امرأة تحتقر !

تذكر أى فخر وأى شرف تنال إذ تهيم بحبك سيدة لها مثل هذه المكانة والرفعة .

اذكر ذلك جيداً وأنعم الفكر فيه، فإنك لن تتردد قط فى الاقلاع عن رأيك الخاطىء .

ومهما يكن من أمر، فإنك إذا تركت هذه الفرصة السانحة تمر من غير أن تنتفع بها، كنت أبله معتوها . ولا تنس أن حظك السعيد قد قاد إليك ـ فى هـذه المرة ـ مغنمين معا : إسعادك من تحبك ، و إسعاد نفسك بها .

نعم، فإنك إذا لبيت رغبات سيدتك أمنت طول حياتك شر الفقر والعوز .

مَثّل لنفسك كل مايجول بخاطرك من طموح فإنك مدركه من هذه الطريق ، المجد والجياد والحلى والحلل والمال، كل هذا تدركه وفيراً فلا يعوزك شىء منه .

فكر فيما أقوله لك، ومثل لعينيك تلك الحكمة الصادقة التى تقول: « إن الفرصة إذا مرت قد لاتعود إلى الأبد . »

لاترفض نعمة ساقتها المقادير السعيدة إليك .

وانتهز الفرصة إن الفرصه تصير إن لم تنتهزها غصه.

ها هى ذى تمد يدها إليك فلا تن عن مد يدك إليها إذا لم تشأ أن تتخذ منها عدواً . فاحذر ماقد يجر عليك غضبها من الويل والشقاء ، وما قد تنصب على رأسك بسببه من النكبات التى لاقبل لك بدفعها ، فتتألم حيث لايصغى إلى آلامك أحد .

الحق أنك تدهشنى بهذا التزمت الذى لا أفكر فيه إلا أغرقت فى الضحك ساخرة هازئة . ومن نكون ـ معشر الخدم ـ حتى نتعالى عن سادتنا ونزدرى مايقدمونه إلينا متواضعين من إحسان وظرف ؟

ومن نحن حتى نتعالى عن موالينا ونحاول أن نسمو بأخلاقنا عن مستواهم الرفيع ؟ إن ماتتيحه لك هذه الفرصة النادرة، خليق أن تفخر به، فهو يرفعك إلى مستوى عال لم تكن لتحلم به من قبل، فيسمو بك عن وسط أهلك وأصحابك وأندادك إلى حيث سادتك ومواليك حين تصبح مولاتك خليلتك ؟

يجب أن نقابل صنيعها بالشكر وأن نقدر لها هذا الفضل العميم الذى غمرتنا به .

أفتظن ـ لو أتاحت لك الفرصة زوجا أو فتاة أو سيدة يروقك منظرها ـ أنك تدعها تفلت من يدك دون أن تقضى منها أربك .

إنك لتكون غاية فى السذاجة إذا فكرت فى ذلك. ولكنك كنت ـ بلا شك ـ محاولا أن تنال إربتك منها بالاستعطاف والملاينة والوعد والترغيب، فإذ أبت فلن تردد فى سلوك طريق العنف والشدة لتلجئها إلى الاذعان لرغبتك .

أما هنا فالأمر على العكس من دلك تماماً .

فهاهى تلك الفتاة تبدؤك بالحب مسلمة لك فى نفسها ، مبيحة لك أن تنال منها كل ماتصبو إليه .

هذا وأنت لم تُعَنِّ نفسك بالتفكير فى الوسائل التى تسلكها للتأثير عليها والتغلب على عنادها أو الوصول إلى إستغوائها .

بل هى التى جاءت راضية طالبة إليك ما كنت تعجز عن إدراكه والوصول إليه ـ مهما بذلت من جهد ـ على أنك بعد كل ذلك ستنقذ ـ بإقبالك عليها ـ نفساً مشفية على التلف ، فإن هيامها بك قد برح بها تبريحاً لادواء له إلا وصلك .

حذار أن ترفض فإنك بذلك تطرد عنك النعمة والسعادة . »

* * *

كان « پروس » قد فكر فى الأمر ملياً منذ المقابلة الأولى واقتنع به بعد أن قلبه على كل وجوهه. وإنما منعه عن قبول دعوتها — فى الحال — خوفه أن تكون هذه أحبولة يراد بها الكيد له. فاحتاط للأمر، وأسرع بالرفض تلافياً لما عساه يحدث .

لذلك أقبل عليها مظهراً ارتياحه إلى تلبيته رغبة مولاته، ولكن على شرط واحد : هو أن يتأكد من صدق حبها ويثق من أن هذا الطلب لا يراد به اختباره ومعرفة إخلاصه لسيده أو الكيد له .

ثم ختم كلامه بقوله لها :

« لست أرتاب ياعزيزتى « ليسكو » فى صدقك وولائك ولكن خبرتى بأخلاق « نيكستراس » تدعونى إلى الحيطة والحذر خوفاً من الوقوع فى شرك الخيانة والإثم وقلة الوفاء له. فأنت تعلمين أنه أخلد إلىّ بكل ثقته ووكل بى القيام بكل أعماله تقريباً. هـذا إلى ما تعرفينه فيه من الشك والظنّة . ومن يدرى، فقد يكون دبر مع السيدة هذه الخطة للوثوق من إخلاصى ؟

على أن هناك طريقة أتثبت بها من حبها إياى، فإذا أنجزتها، انقدت لها انقياداً أعمى. ولن أتردد فى تلبية كل ماتأمرنى به، وهى :

أن تقتل النسر الذى عند سيدى، على أن يكون ذلك فى حضرته وعلى مرأى منى

وأن تنتزع من لحيته خصلة من الشعر

وأن تخلع من أسنانه سناً سليمة

فإذا أنجزت هذه الأشياء ، ارتبطت بها أوثق ارتباط . »

* * *

ظهرت هـذه المطالب مستحيلة التحقق عند « ليسكو » وسيدتها « ليدى » ، ولـكن الحب لم يلبث أن تغلب على كل عقبة وسهل كل صعب، فألهمها من الجرأة ماشجعها على إنجاز هذه المطالب كلها .

بل لقد أضافت عليها مطلباً آخر من عند نفسها فقالت: « وما دام يعتقد أن سيده غاية فى الحـكمة والفطنة ، فإنى سأتغفله أمام عينيه ، ثم أضطره إلى الاعتقاد ــ بعد ذلك ــ أنه كان واهماً فيما رآه بعينى رأسه. »

* * *

انتظر « پيروس » تحقيق وعدها ــ بفارغ الصبر ــ ولبث يترقب ماتعمله متشوقاً إلى ذلك حائراً كيف تهتدى إلى إنجاز هـذه المطالب الثلاثة. ولـكنها لم تلبث أن حققتها بعـد زمن قليل .

فى ذات يوم أدب « نيكستراس » مأدبة دعا إليها كثيراً من أصـدقائه ، فارتدت السيدة « ليدى » أفخم حللها وانتظرت حتى فرغ المدعوون من تناول الطعام فـدخلت حجرة الأكل وذهبت ميممة النسر الذى يحبه زوجها أشدالحب ، فأمسكت برأسه متظاهرة بالغضب والانفعال، ودقت ــ فى الحال ــ عنقه فى حضرة « پيروس » ، وعلى مشهد من جميع المدعوين ، فصرخ فيها زوجها مغضباً :

« ماذا تعملين أيتها الزوج ؟ . »

فلم تجبه بكلمة واحدة بل التفتت إلى المدعوين قائلة :

« سادتى إنما أنتقم ممن جرح عزتى وقتل نفسى، فهل ألام إذا ثأرت من منافس خطر ؟ إن هـذا النسر قد ألحق بى من الأذى ما يفوق

حسبانكم ويربو على ماتتخيلون. فكثيراً ـ بل هو فى أغلب الأحيان ـ يشغل عنى زوجى سارقاً منى وقته الذى كان جديراً أن يخصنى به ويقضيه معى. ولا يكاد يمر بزوجى يوم دون أن ينهض من نومه مبكراً قبل شروق الشمس مصطحباً معه هذا النسر إلى الصيد، تاركى وحيدة فى فراشى. ولكم تربصت به الدوائر مفكرة فى الانتقام منه متى عنّت لى الفرصة الملائمة حتى ظفرت بها الآن فلم أتردد فى انتهازها للتخلص من مزاحمته إلى الأبد.

وهأنذى أتقدم إليكم طالبة أن تحكموا بينى وبين زوجى. أترونني أخطأت فى قتل هذا الطائر الذى بلغ حقدى عليه أقصى مداه. »

* * *

حسبها المدعوون صادقة فى دعواها، ولم يخطر ببالهم إلا أن حبها وإخلاصها لزوجها قد دفعاها إلى قتل النسر. فضحكوا معجبين بغيرتها، والتفتوا إلى زوجها الساخط المعبس وقالوا له:

«أفأنت إذن تفضل طائراً على زوج؟ فكر فى ذلك ملياً فإنك جدير أن تعذرها بل وتشكرها على هذا الإخلاص والحب اللذين دفعاها إلى التخلص من مثل هذا المنافس الخطر.»

وبعد أن خرجت، ظل الحاضرون فى غبطة وأنس حتى انتهى مجلسهم. ولم يلبث « نيكستراس » أن نسى أحزانه وشاركهم فى سرورهم، ولما عاد، أخذ يفكر متعجباً من تلك الغيرة الشديدة التى دفعت زوجه إلى الانتقام من نسره.

أما « بيروس » الذى حضر هذا المشهد ورآه بعينى رأسه، فقد أفعم السرور قلبه إذ رأى تحقيق أولى رغباته فزاد أمله فى تحقيق ما بقى منها،

وقال في نفسه : « ستتم أمانينا إن شاء الله على هذه الوتيرة » .

* * *

وبعد أيام انتهزت فرصة سرورها وتبسطها مع زوجها ومزاحهما معاً ففكرت في إنجاز الطلبة الثانية ، فأكثرت من ملاطفته ومداعبته، ثم غافلته وانتزعت خصلة من شعر لحيته بقوة شديدة حتى لا تخفق في سعيها، فآلمت زوجها أشد إيلام، فصاح فيها مغضباً :

« ألا تفكرين فيما تفعلين من الشر ؟ »

فأجابته « يا إلهي ماذا حدث أيها السيد؟ أيغضبك مزاحي معك إلى هذا الحد ؟ لماذا تعبس لي مغضباً ؟ »

وحاولت أن تتظاهر بأنها لم تأت أمراً غير مألوف ، فاندفعت في ضحكها كالبلهاء وقالت له : «لست جديراً أن تغضب أن انتزعت من لحيتك خمس شعرات أو ستاً ، ولو أنك تشعر بما شعرت به من الفرح والزهو ـ في هذه اللحظة ـ حين انتزعت تلك الشعرات منك، لما وجدت علي أي موجدة .» وما زالت به حتى خدعته وأرضته . ولما حان اليوم التالي أرسلت بتلك الشعرات إلى « بيروس » .

أما المطلب الثالث فكان أصعب من سابقيه ، ولكن لامستحيل أمام عاشق يملي عليه الغرام والهوى خطته ويوحيان إليه أفكاره. فقد دأبت باحثة عن وسيلة تمكنها من تحقيق رغبة عشيقها الباقية حتى اهتدت إليها بعد افتكار طويل .

* * *

كان عند زوجها قدحان من أثمن الأقداح التي لا تستعمل في غير بلاط الملوك، وكان قد خصصهما للشرب في أوقات أنسه واغتباطه فعملت

زوجه على إتلافهما جهدها، وبعد قليل أفلحت فى إفساد رائحتهما فأصبح لهما رائحة كريهة، وصارت كلما قدمت أحدهما إلى زوجها اشمأز من رائحته. وفى ذات يوم قالت له وهى تقدم له إحدى الكأسين :

ـ « ألا تلاحظ هذه الرائحة الكريهة المنبعثة من كأسيك ؟ »

ـ « نعم ولقد طالما هممت أن أبحث عن سبب ذلك . »

ـ « لقد عزّ لى ـ منذ زمن ـ أن أفاتحك فى هذا الأمر، ولكنى خفت أن أولمك وأجرح شعورك، وهذا وحده هو الذى دعانى إلى الإحجام عن مكاشفتك بهذا الأمر . أما الآن فقد خفت أن تلاحظ رائحتهما ، ولم تعد لى مندوحة عن تنبيهك إلى السر فى ذلك .

وإذ كان لابد لك من مواجهة الحقيقة، فاعلم أن فاك تنبعث منه رائحة كريهة جداً لا أدرى لها سبباً ، ولكنى أصارحك أن هذا غير لائق بمثلك على كل حال ، لاسيما وأنت تخالط أرقى طبقات الناس ولا تعاشر إلا أشراف الناس وساداتهم . وإذن فنحن جديران أن نبحث عن وسيلة تتخلص بها من هذه الرائحة الكريهة . »

فأجابها « نيكستراس » : « لعلها ناشئة من سن معطوبة فى فىّ . »

فقالت له زوجه : « هذا يحتمل جداً ومعقول، على أن تلافيه ميسور . »

* * *

وبهذه الطريقة تمكنت من أن تنتحى به أمام النافذة وتفتح فاه كأنما تفحص أسنانه ، ثم صاحت قائلة : « يالله ! إنها سن واحدة ولكنها ليست معطوبة فحسب بل منتنة. لشد ما يدهشنى أن تصبر عليها هذا الزمن الطويل حتى تصل إلى هذه الحال من الفساد. إنك إذا لم تسرع فى الحال

بنزعها من فيك ، سرت عدواها إلى بقية أسنانك الأخرى فأتلفتها جميعاً . »فأجابها « نيكستراس » :

«لاشك عندى فيما تقولين.وسأرسل فى الحال إلى جراح ليخلعها نوا» فقالت له زوجه : «لاحاجة بك إلى هذا فسأخلعها بنفسى دون أن تشعر بكثير من الألم، لأن تلك الفئة من المشتغلين بالجراحة قساة غلاظ الأكباد لايبالون بما يتركونه فى نفوس من يعالجونه من الآلام ، ولا يعبئون بما يقاسونه من المتاعب. وليس فى مكنتى أن أراك تتلوّى أمامى صارخاً والطبيب لا يصيخ إليك ولا يلوى على صيحاتك المؤلمة .

إذن فلأخلعها لك بنفسى فإذا بدأت تشعر باشتداد الألم أمرتنى فكففت عن ذلك . »

ثم أمرت بإحضار مقبض صغير وأخرجت كل من فى الحجرة من الخدم إلا وصيفتها « ليسكو » التى عهدت اليها بإحكام رتاج الباب .

ولكى تتم هذه العملية بنجاح أضجعت زوجها على الخوان وأمرت وصيفتها أن تمسك به أثناءها ، ولما فتح فاه تخيرت سِنًّا من أحسن أسنانه فخلعتها بعنف غير مبالية بما سمعته من صراخه وصيحاته العالية المنبعثة من الألم .

* * *

ذهل الزوج من شدة ما احتمله، فوضع يده على خده وكاد يغمى عليه، فانتفعت الزوج بهذه الفرصة فأخفت سنه وأبدلتها بأخرى معطوبة منتنة كانت قد أعدتها لهذا الغرض نفسه فأرتها له قائلة :

« انظر إلى هذه السن القذرة التى كانت فى فيك . فهى لاجرم تتلف بقية أسنانك إذا لم تسرع بانتزاعها من بينها » .

تعزّى الزوج عن آلامه حين رأى أمامه سناً عاية فى القذارة . و بعد أن قدمت لزوجها الإسعاف الضرورى، خرجت من الحجرة فألقت السن على السرير ،ولم تضع الوقت عبثاً ، بل أسرعت إلى خادمها « ليسكو » لتخبر « بيروس » . فلم يرتب ـ بعد ذلك ـ فى صدق ولاء مولاته وشدة حبها إياه وأظهر للخادم أنه على أتم استعداد لإنفاذ كل ماتأمر به .

أما الحسناء التى كانت تتحرق شوقا لإثبات حبها له بكل وسيلة ولا تحجم عن سلوك أى سبيل يوصلها إلى تلك الغاية، فقد رأت كل دقيقة تمر كأنها عام ، فلم يبق لديها إلا البحث عن وسيلة تمكنها من التمتع بحبيبها فى حضرة زوجها وعلى مرأى من عينيه ليكون ذلك أدعى إلى سرورها وأنسها ، فتظاهرت أمامه أنها منحرفة المزاج قليلا بعد أن أرسلت وصيفتها إلى « بيروس » لتنبئه بحقيقة الدور الذى سيقوم بتمثيله مع سيدته أمام مولاه .

ذهب « بيروس » لرؤية السيدة ـ بعد أن تغدى وزوجها ـ ولم يكد يصل، حتى تظاهرت بأنهـا فى أشد الحاجة إلى استنشاق الهواء راجية كليهما أن يرافقها فى نزهتها لعجزها عن السير وحـدها مستمسكة. فأمسك كل منهما بإحدى يديها حتى لاتقع على الأرض من ضعفها . وما زالوا سائرين حتى بلغوا شجرة كمثرى جميلة فجلسوا تحتها جميعا فوق بساط سندسى من الخضرة .

* * *

و بعد بضع دقائق اشتهت نفس « الحسناء » أن تأكل كمثرى من تلك الشجرة، فسألت « بيروس » أن يصعد إليها وأن يختار لها عددا وافراً من أنضج ثمارها فأطاع أمرها راضياً . ولم يكد يعتلى الشجرة حتى

تصنَّع أنه يرى سيده يداعب سيدته فصاح به ، قائلا :

«ماهذا ياسيدى ؟ ماذا تفعلان؟ أهكذا أمامى ؟ ولكن لعلكما نسيتما . يالله ،ماهذا ؟

وأنت ياسيدتى ألا تخجلين من مثل هذا العمل المزرى ؟ لاشك أنك شفيت من آلامك الآن . ولكن ألا تكفين عن هذا العمل الفاضح الذى لايليق بك ولا بسيدى عمله أمام الناس ؟

أليس أمامكما متسع من الوقت فى لياليكما الطويلة ؟ أضاقت بكما الدنيا فلم تجدا غير الحديقة مكاناً لأداء هذا العمل ؟ »

* * *

فالتفتت الزوج إلى زوجها وقالت :

« ماذا يعنى بهذا القول ؟ أتراه قد ذهب عقله ؟ »

ـ «كلا ياسيدتى بل أنا لاأزال بعدمحتفظاً بكل حواسى،وهأنذا لا أزال أرى إلى الآن ـ بعينى رأسى ـ كل ما تفعلان » .

فقال له « نيكستراس » ساخراً من قوله :

« بل أنت حالم بلا شك. »

«كلاّ يا سيدى كلا . ما أنا بحالم قط، و يظهر لى أنك مثلى أيضاً صاح غير حالم ،ولكن إذا كنت لاتعبأ بوجودى،ولا تحسب له أى حساب،أفلا تغار إذن على زوجك وعلى نفسك من أن يرا كما غريب مثلى وأنتما على مثل هذه الحال المزرية .

ابتعد عنها قليلا يا سيدى ، حسبك حسبك. ألا تريد أن تكف عن هذا الفعل ؟ يا للداهية ألا تزال تعانقها وتجذبها إليك بعد ؟

شد ما خاب ظنى فيك ، فقد كنت أتخيل كل شىء إلا هذا الخلق الذى كنت أحسبك أبعد الناس عنه . »

فالتفتت الزوج إلى زوجها وقالت :

« إذن فماذا يمكن أن يكون هناك ؟ وهل من المحتمل أن يكون صادقا فى زعمه وأن يخال حقيقة أننا نفعل ما يصفه ؟

الحق أن هذا أغرب ما رأيت ولو أن صحتى تساعدنى على الصعود إلى الشجرة لصعدت لأرى مايعتقد أنه يراه ، ولكن مرضى وحده هو الذى يحول بينى و بين ذلك . »

فقال لها « بيروس » : « كونى على ثقة ياسيدتى أن بصرى حديد وأننى لا أرى إلا مايقع أمامى ولا أصف إلا الحقيقة . »

فقال له الزوج : « حسناً حسناً انزل انزل إذن وانظر إلى الحقيقة بعينيك » .

فلما نزل (بيروس) قال له :

« أقرر لك أنك لا تفعل الآن شيئاً مع زوجك ، ولكنى أعترف أيضاً أنك لم تكف عن العمل إلا بعد أن تم نزولى عن الشجرة . لقد رأيتك بعينى رأسى حين كنت فوقها فلما نزلت ابتعدت عن زوجك وانتحيت هذه الناحية التى تجلس فيها الآن . »

فقال له « نيكستراس » : « بل أنت حالم أيها المسكين فإننى لم أتحرك قط من مكانى هذا منذ أن صعدت إلى الشجرة إلى الآن . »

فأجابه « بيروس » قائلا : « إذا كان ذلك كذلك فهذه الشجرة ـ بلاشك ـ مسحورة ! أقسم لك لقد رأيتك ـ متثبتاً من رؤيتى ـ تأتى مع زوجك كل ما أخبرتك به . »

اشتدت دهشة « نيكستراس » و بلغت أقصاها حين رأى علامات الجد بادية على وجه خادمه الأمين فى أثناء كلامه واقتنع ، بصدق روايته ولكنه

أراد أن يصعد إلى الشجرة ليرى بنفسه مدى صدقه و يتعرف أثر سحرها فى خداع من يعتليها وهل يمكن أن يؤثر ذلك فى نفسه أيضاً كما أثر فى نفس خادمه . فقال :

« لابد لى من الصعود إليها بنفسى »

ولكن لم يكد يفعل وتطأ قدماه أغصانها حتى بدأ « بيروس » وسيدته دعابتهما فصاح فيهما الزوج صارخاً :

«ماذا تفعلين أيتها المرأة؟ وأنت يا« بيروس »؟ أهكذا يكون احترامك سادتك ؟ »

وعبثاً حاول العشيقان أن يقنعاه بأنهما لايزالان جالسين مكانهما وأنهما لم يتحركا منه قط . أسرع الزوج بالنزول ليفاجئ العشيقين متعانقين ولكنه لم يصل بالسرعة التى تمكنه من ضبطهما فقد وجدا فسحة قليلة من الوقت ـ تمكنا فى أثنائها ـ من الرجوع إلى حيث كانا جالسين من قبل . فصرخ الزوج قائلا :

« ماهذا أيتها المرأة ، وماذا تفعلين أمامى ؟ أهكذا تتغفليننى أمام عينى ؟ وأنت أيها الخاسر الفاجر . . . . »

فقاطعه « بيروس» قائلا :

«آه ياللداهية الآن اقرر لك أنك وزوجك بريئان من كل مانسبته إليكما حين كنت على الشجرة، فلست أشك ـ بعد هذا ـ أن ما رأيته لم يكن إلا تحت تأثير سحر هذه الشجرة . إن ما اتهمنى به سيدى هو نفس ما اتهمته به من قبل. فقد خيلت إليه تلك الشجرة مثل ما خيلت إلى تماما»

فقال له الزوج :

«عبثاً تحاول اقناعى فإن مارأيته لا يمكن أن يكون سحر ساحر . »
فأجابته زوجه :

« الحق أنك لاتقل فى جنونك عن « بيروس »،ولو أنك تعتقد حقا أن مثلى يمكن أن تقترف مثل هذا الإثم ، لكان لى معك شأن آخر »
وقال له « بيروس » :

« ماهذا ياسيدى ؟ لماذا تغضب مولاتى وهى أعف وأشرف وأطهر مخلوقة على وجه الأرض بل هى الفضيلة نفسها؟ أما أنا فلا أحاول التبرؤ مما تنسبه إلى فالله شهيد أننى أفضل أن أموت ألف مرة على أن يهجس فى نفسى أن أقترف مثل هذا العمل الشائن فى غيبك فضلا عن إتيانه فى حضورك .

إننى لأرى أن السر فى هـذا الخطأ محصور فى تلك الشجرة المسحورة ، لقـد أبيت إلا أن تصعـد إليها لترى بنفسك أننى لم أكن كاذباً فيما ادعيته . ولـكنك لم تـكد ترى ما رأيت حتى اشتعلت غضباً وحنقت علىّ وعـلى سيدتى بلا جريرة . إنى أقسم لك إننى قد رأيتكما ـ من قبل ـ متعانقين وفى حالة مزرية شائنة

* * *

فصعّدت الزوج نظرها فيه قليلا ، فى زوجها الطيب القلب متظاهرة بشىء من الغضب ـ لتصل بذلك إلى اقناعه ـ ثم قالت له :

«أفى حدود الامكان أن ترتاب فى طهارتى بعد أن عاشرتنى وخبرتنى كل هذا الزمن الطويل متناسياً فى لحظة واحدة فضلى وعفتى ؟ أيصل بك الخبـل أيها الرجل إلى حـد أن تحسب أننى أجرؤ على تغفلك فى حضرتك وعلى مرأى منك ؟

ألا فلتثق اذن أن لدى من الفرص العديدة ما لا مزيد عليـه ، ولو

كنت ممن يهجس فى نفوسهن اقتراف مثل هـذه الخيانة لما أعوزتنى الفرص ولأتيتها دون أن يصل إلى علمك شىء من خيانتى أو يخامرك ريب فى أمرى . »

* * *

اقتنع « نيـكستراس » بحجج زوجه وتيقن من براءتها حاسبا أن زوجه وخادمه لا يمكن أن تبلغ بهما الوقاحة إلى حـد أن يجرؤا على إتيان مثل هذه الفعلة النـكراء فى حضرته ، فاعتذر إليهما من سوء ظنه ، ثم أخذ يبدى تعجبه مما وقع لهم جميعاً مدهوشاً من غرابة هذا الحادث الفذ وكيف أن سحر الشجرة قد أثر فى عينيه فأراه شيئاً وهمياً مناقضاً للحقيقة كل المناقضة .

* * *

أما السيدة فلبثت متظاهرة بالغضب من سوء ظن زوجها بها واتهامه إياها بعـدم الوفاء ، ثم قالت له :

« مادامت هذه الشجرة الملعونة ترى من يصعد إليها أشياء ممعنة فى النُّـكر والقحة ، فإنى لا أريد أن تسىء إلى مرة أخرى ولا أن تسىء إلى امرأة سواى . »

ثم إلتفتت إلى « پيروس » قائلة :

« اذهب فأحضر فأسا ثم حطم هذه الشجرة وألق بها إلى الأرض لتحرق ــ بعد أن تضربها ــ بفأسك وإن كان زوجى هو الجدير بهذا العقاب ليتعلم ــ فيما بعد ــ أن يحسن ظنه بزوجه ويثق بعفافها ، وأن يحسن ظنه بك فلا يرميك بتهمة أنت أبعد الناس عن اقترافها .

نعم ياسيدى إنك لتستحق أن تعاقب أشد العقاب لما ألحقته بى من

الظلم ، ثق أنني أغتفر لك هذا الاتهام الجريء الذى اتهمتنى به بلا روية ولا تبصر

حينما يفكر الرجل فى اتهام زوجه أو إساءة الظن بها يجب عليه ألا يصدق ما يراه بعينيه »

أمسك (بيروس) بالفأس فى يده وظل يضرب بها الشجرة حتى ألقاها على الأرض وهنا التفتت الحسناء إلى زوجها وقالت :

« الآن أعفو عنك ناسية كل موجدتى عليك بعد أن زال عدوى اللدود الذى خدشنى فى عفتى وثلمنى شرفى. »

ثم أسرت إليه متلطفة فى القول :

« إنى أوصيك دائماً أن يكون رأيك فى زوجك أحسن رأى وألا تفكر فى اتهامها مرة أخرى . ولتكن على ثقة من أننى أحبك حبا لا تستطيع أن تتصوره، فإنى أحبك أكثر مما تتمثل ألف مرة. »

شعر الزوج بغبطة وسعادة عظيمين حين رأى زوجه قد عطفت عليه متناسية حدته وغضبه عليها. ثم قدم اعتذاره إلى « بيروس » طالبا منه الصفح عما تبادر إلى نفسه من سوء الظن فيه مؤكدا له أنه لا يرتاب قط فى صدق ولائه ونزاهته .

وعاد الثلاثة أدراجهم راضين حتى بلغوا القصر .

* * *

وهكذا أساءت تلك الزوج إلى زوجها الطيب القلب، وخانته وأبهجته رغم ذلك. وعاشت منذ ذلك اليوم مع « بيروس » مؤتنسة به ناعمة بقربه منها ، وظلا يتذوقان معا أفاويق الحب ولذاته سعيدين بما واتاهما من الحظ والوفاق وما تمتعا به من الحرية الواسعة التى لم يتمتعا بمثلها تحت الشجرة

فكرة حاضرة
أو
كيف تخلصتْ من المأزق

كان – منذ زمن غير بعيد ، فى مدينة « نابلى » بنّاء أقل مايقال فيه أنه خالى القلب مستريح الفكر. وقد زوّج من فتاة صغيرة حسناء ، اسمها « پيرونل » .

وكان الزوجان يعانيان – على حداثة عهدهما بالزواج – شظف العيش وخشونته ، ولا يحصلان على القوت إلا بمشقة وصعوبة ، هذا يحترف البناء وتلك تحترف الغزل .

وفى ذات يوم – بينما كانت الحسناء سائرة فى طريقها – اعترضها شاب فتىّ ، أعجبه حسنها ورأى فيها المثال الذى يتمناه وتصبو إليه نفسه ، فاحبها – بعد أول نظرة – وداناها مقترباً ، ثم بدأها بالكلام ، وأقبل عليها إقبالا ، فلم يدخر وسعا فى استمالتها إليه وإغرائها بألف وسيلة حتى أقنعها بحبه. وأصبحا – منذ ذلك اليوم – عشيقين لا يطيقان البعاد يوماً واحداً .

* * *

كان العشيق يراقب خروج الزوج – متربصاً كل يوم – فى الساعة المبكرة التى تعود الزوج أن يذهب فيها إلى محل عمله وكان يخرج من بيته فى فجر كل صباح ، فلا يكاد يبصره العشيق خارجاً حتى يسرع إلى الدخول .

وقد سهل لهما أسباب اللقاء ، وقوع المنزل فى ناحية منعزلة قاصية من

شارع « أفوريو » فأمنه ذلك من مراقبة الناس ، واهتدائهم إلى حقيقة أمره . وظلا ـ على ذلك ـ زمناً طويلا لا يعكر صفوهما كدر ، ولا يجدان إلا أنسا وبهجة بقربهما معا .

ولكن حدث ـ في ذات صباح ـ مالم يكن في الحسبان ، فقد خرج صاحبنا الزوج الطيب القلب من بيته ـ على عادته ـ وحل مكانه «جانيت» ـ وهذا هو اسم العشيق ـ وكان من عادة الزوج أن يغادر منزله في الصباح فلا يعود إليه إلا بعد غروب الشمس ، ولأمر ما رجع الزوج في هذا اليوم ولم يكد يستقر بالعاشقين المقام . فلما رأى باب البيت مغلقاً ، قرعه مغتبطاً ، وهو يقول في نفسه :

« شكراً لله على فضله وإحسانه ، فقد شاءت حكمته أن يعوضني عن فقري ، بالزواج من سيدة طاهرة عفيفة . تَفِرُّ حتى من الشكوك ، وتتحامى الظنون والريب ، وتغلق عليها باب منزلها هربا من قالة السوء ودرءا للشبه . »

* * *

عرفت « پيرونل » قدوم زوجها من أسلوبه الذي ألفته منه ـ في دق الباب ـ فالتفتت إلى « جانيت » قائلة :

«آه ياصديقي ! إنني هالكة لامحالة ، فقد عاد زوجي ، ولست أعلم لعودته سبباً . فهو لم يعد في مثل هذا الوقت من قبل ، ولم يرجع ـ بعد خروجه ـ في مثل هذه الساعة قط .

فما معنى عودته بمثل هذه السرعة ؟

إني لأخشى أن يكون قد لمحك وأنت داخل عندي .

فلتسرع إذن إلى الاختباء فى الخابية التى أمامك[1] وسأذهب لأفتح له الباب وأرى ماذا يريد منى ، ثم أبذل جهدى فى أقصائه عن المنزل .

* * *

أسرع « جانيت » بالدخول فى الخابية ، وذهبت الحسناء إلى لقاء زوجها . ولم تكد تفتح له الباب حتى استقبلته بوجه عابس ، وجبين مقطب الأسارير ، وابتدرته قائلة بلهجة الغيظ :

« كيف تعود إلى بيتك بهذه السرعة ؟ ومامعنى ذلك ؟ وماذا تحمل معك ؟ عدتك ؟ يالله ! إذن فقد اعتزمت البَطالة هذا اليوم ؟ ولكن خبرنى ـ بربك ـ على أى شئ تعتمد ؟ قل لى : كيف نعيش؟ وكيف نحصل على القوت إذن ؟ لعل نفسك تحدثك أننى أرتضى رهن ملابسى ومابقى عندى من أثاث ، فى سبيل راحتك وكسلك ؟

أنسيت ماأبذله من جهد مضن فى سبيل معاونتك على تحصيل الرزق من طريق الغزل ؟ إذن فاعلم أن أناملى قد انبرت ، ولم يبق فيها إلا أظفار بلا لحم ؟ ياللداهية !

ألا تثوب إلى رشدك أيها الرجل ؟

ألاتعلم أنه ليس من بين جاراتى من لم تهزأ بى ساخرة من سلوكى معك مبدية دهشتها من هذا البلاء الذى اخترته لنفسى ، بينما أنت ـ نعم أنت ـ ترجع إلى منزلك مكتوف الذراعين ، فى الوقت الذى يجب أن تعمل فيه ؟ »

ولم تكد تنتهى من قولها حتى استعبرت باكية ، واندفعت تقول :

---

(١) الخابية أو الحب (بضم الحاء وكسرها) جرة ضخمة تشبه مايسمونه « الزير » وتزيد عنه فى الحجم .

« يالشقاوتى وسوء بختى !

آه ! كم أنا تعسة !

ترى تحت أى نجم من نجوم النحس ولدتنى أمى ؟

لقد كان فى قدرتى أن أتزوج من شاب فتى حلو المعاشرة جذاب الحديث . من أجمل الناس وأخفهم روحاً؟

ولكنى رفضت ذلك .

أتعرف فى سبيل من رفضته ؟

فى سبيل رجل جاحد مثلك . كافر بالنعمة. لايأبه لى ولايعنى براحتى.

إن غيرى من النساء ليخترن لأنفسهن من يروقهن من الرجال . ثم يقضين مع عشاقهن أسعد الأوقات ، وليس من بينهن واحدة بلاعشيق ولبعضهن عشيقان ! ما ذا ؟ بل إن إحداهن لتصطفى لها ثلاثة عشاق ! كذلك يقضين أوقاتهن فرحات ظافرات باديات للناس فى جمال الملائكة ووضاءة الكواكب .

أما أنا فأرانى على العكس من ذلك ـ أقاسى شظف العيش . وأعانى ماأعانى من آلام الحياة متجرعة مرارة الفاقة.

ولما ذا ؟

لأننى عفيفة طيبة القلب لاأفكر فى إتيان هذه الحماقات .

ترى ماذا يمنعنى عن الاقتداء بغيرى من النساء ؟

ألا فلتعلم موقناً أيها الرجل ـ إذا كان لابد أن أصارحك القول ـ أن نفسى لونزعت إلى الشر . أو تحركت إلى الإثم ، لما أعوزتنى الفرص لتحقيق ماأصبو إليه . فإن من الشبان من يحبنى ويفتن بجمالى وهو على أتم استعداد لبذل المال والحلى والحلل فى سبيل مرضاتى، ولكن

الله قد حفظني فربأت بشرفي عن قبول هذه الهدايا .

نعم أنا فقيرة. ولكني - على رغم فقري - لم أقارف دنسا في حياتي كلها. وهذا من فضل الله . فقد كانت أمي كذلك . وقد عاشت طول حياتها عفيفة طاهرة .

والآن . ألا تخبرني كيف رجعت إلى بيتك بهذه السرعة . ولماذا فضلت البطالة على العمل في هذا اليوم ؟ »

فقال لها الزوج :

« عفواً أيتها الزوج المحبوبة . ولا يحزنك ذلك .

أما عفتك وشرفك فليس فيهما محل للنزاع . و إني لأعرف ماتشتمل عليه نفسك من طهر و إخلاص . وأرى أن ذلك أمر واضح لايحتاج إلى تقرير وليس يسعني إلا شكرك عليه . على أنك جديرة أن تعرفي الحقيقة بعد .

فقد غادرت المنزل هذا الصباح مبكراً كعادتي . منتوياً الذهاب إلى عملي . ولكني كنت أجهل - مثلما تجهلين - أن هذا اليوم عيد من الأعياد التي ألف الناس أن يعطلوا أعمالهم فيها. أما الخبز فلا يحزنك أمره . فقد فتح لي باب يمكنني من الحصول على مانحتاج إليه من القوت أكثر من شهر، لأنني بعت هذا الرجل - الذي ترينه معي - تلك الخابية الكبيرة التي لافائدة لنا منها غير ازدحام البيت بها وقد قبل أن يشتريها بخمسة ريالات.

* * *

هنا صرخ « بيرونل » في وجهه صائحة :

« ماذا تقول أيها الرجل ؟ أهكذا تطالعنا ـ كل يوم ـ بحماقة جديدة ؟ كيف تبيعها بهذا الثمن ؟

أتكون مدربا على المساومة ، لا أكاد أعرف مكاناً لم تطأه قدماك ، عارفا بقيم الأشياء ، ثم لا تستطيع أن تبيع الخابية بأكثر من خمسة ريالات ؟

إذن فقد كنت أمهر منك وأقدر على المساومة ، مع أنني امرأة . أليس عجيباً أنني لم أخط من باب منزلي خطوة واحدة ، وقد بعتها ـ مع ذلك ـ بسبعة ريالات ؟

لقد صعد الرجل ـ منذ لحظة واحدة ـ ليفحصها ويتأكد سلامتها من صدع أو كسر .

* * *

وثمة ابتهج الزوج ابتهاجاً عظيما ، حين سمع هذا الثمن الذي وفقت زوجه إلى بيع الخابية به . فالتفت إلى الشاري الذي جاء معه ، وقال له :

« لك أن تعود إدراجك ، فقد سبقتني زوجي إلى بيع الخابية ـ في أثناء غيبتي ـ بأكثر مما قدرته لها بريالين »

فعاد الرجل من حيث أتى دون أن يبدي أقل اعتراض .

أما « بيرونل » فقد إلتفتت إلى زوجها قائلة :

« لقد حضرت الآن في الوقت المناسب فاصعد إلى الشاري لتتم المساومة التي بدأتها معه . »

* * *

كان « جانيت » مرهفاً أذنيه ، وقد وعى كل حديثهما ، فأسرع إلى الخروج من الخابية ، وطفق ينادي المرأة ـ وكأنه لا يعلم عن مجيء زوجها شيئاً :

« تعالى أيتها السيدة ؟ أين أنت يا تُرى ؟ »

فأجابه الزوج :

« لبيك ، ماذا تريد ؟ »

فقال له العشيق :

« كلا ، لست أناديك ، بل أنا أنادى السيدة التى كانت تساومنى فى هذه الخابية منذ لحظة . »

فقال له البنّاء :

« لك أن تساومنى بدلا منها ، فأنا زوجها . »

فقال له العشيق :

«أرى أن هذه الخابية ملائمة ونافعة ، ولا عيب فيها إلا تلك الأقذار اللاصقة بداخلها،ولست أقبل شراءها إلا بعد أن يتم تنظيفها . أما الآن فماذا أصنع بها ؟ إن الانسان ليحار إذا شاء أن يهتدى إلى جزء من أجزائها خال من الأوساخ المتراكمة عليه . »

فقالت له « پيرونل » :

« لا تشغل بالك بهذا الأمر التافه ، فإن زوجى وحده كفيل بتنظيفها لك توا . »

وقال له البنّاء :

« سأنجز لك ذلك بكل سرور . »

* * *

ولم يكد يتم الزوج هذه الجملة ، حتى خلع عنه عباءته وأمسك بمجرفته . ودخل فى الخابية . بعد أن أمسكت له زوجه بشمعة مضيئة لتنير له داخلها ، وتمكنه من رؤية مافى بطنها من الجهات التى تتطلب اهتماما .

وطفق يزيل ماتلبد عـلى سطحها الداخلى من الأقذار اللاصقة .

وارتمت الزوج عـلى ظهر الخابية ـ فى أثناءذلك ـ لترى الطريقة التى يتبعها زوجها فى تنظيفها . وأطلت برأسها من فوهة الخابية . وأنشأت تقول لزوجها :

« أصلح هذا الصدْع . أزل هذه القذارة . لقد نسيت هذه الجهة . »

* * *

و بينما كانت الحسناء مشغولة بارشاد زوجها إلى ماأغفـله ، عنّ لعشيقها ألا يقف ـ هو الآخر ـ مكتوف اليـدين ، وأراد أن يتم ما جاء لأجـله . وقد انتهى الزوج والعشيق من عملهما فى وقت واحد تقريباً .

ثم رفعت الزوج رأسها التى كانت تسد بها فوهة الخابية ، وأفسحت لزوجها طريق الخروج منها بعد أن أسلمت الشمعة لعشيقها « جانيت » .

ولما خرج الزوج التفتت المرأة إلى عشيقها قائلة :

« انظر الخابية الآن . ألا تراها جد نظيفة ؟ »

وحينئذ أطل العشيق . متظاهراً بالاهتمام بفحص داخلها ، مظهراً إعجابه بها لأنه وجدها وَفق مايشتهى .

ثم نقد الزوج ثمنها . وطلب إليـه أن يحملها له إلى منزله . ففعل .

البلبل (١)

منذ عهد غير بعيد كان يعيش فى «رومانيا» سيد سرى اسمه السيد « ليتو دى فالبونى » وكان حميد السجايا محبوبا من النـاس . وقد رزقت منه زوجه « جاكومين » ـ فى أواخر أيامها ـ فتاة جذابة جميلة المحيا ، وكانت الفتاة تزداد حسنا على حسنها كلما كبرت ، حتى أصحت بين فتيات عصرها فتنة من الفتن.

ولم يكن لأبويها غيرها من الأبناء فأحبَّاها حباً جماً ، وظلا يكلآنها بعناية فائقة مؤملين لها زواجا سعيداً .

وكان يعيش ـ فى نفس المدينة حينئذ ـ شاب وسيم الطلعة ممشوق القد ، اسمه « ريشار » من أسرة « مينارد دى بيتونوتى » وهو على اتصال وثيق بالسيد « ليتو » وكان يكثر من زيارته فيهش للقائه والد الفتاة وأمها ، ولا يريان فيه إلا ولدا لهما وأخا لابنتهما .

وكثيراً ماداعب ابنتهما ـ وهى طفلة ـ ومازحها أمامهما ، وكان يحلو له ذلك ويرتاح له ، فقد كانت الفتاة ـ كما قلنا ـ جذابة محبوبة . وما زال الفتى يلاعبها حتى اجتازت الطفلة هذه السن ، وأصبحت فتاة رشيدة فكف عن مداعبته إياها وانقطع المزاح . ولكن حل مكانه الحب .

وما زال حب « ريشار » ينمو ويزداد حتى أصبح حبُّه كَلَفاً بالفتاة وهياما .

وقد حاول الفتى أن يخفى وجده عنها بكل ما أوتى من قوة وجلد

---

(١) نشرت بمجلة العصور

ولكن الفتاة أدركت مايخفيه من الوجد فامتلأت نفسها زهواً وغبطة، لأنها رأت أثر جمالها فى نفسه ومدى سلطانها على قلبه .

* * *

وظل « ريشار » لايظهر أمامها — منذ ذلك الحين — إلا متجملا متودداً ، وهى تقابله بالمثل ، فقد كانت تُجنُّ له من الحب مثلما يجن لها. و إن لم تصارحه بذلك مؤثرة أن تتجلد أمامه كما يتجلد أمامها .

وكان هذا الجو — المشرب بالحذر — مما لايشجع الفتى على مصارحتها بالغرام و إعلان الحب . وكان يخشى أن تقابله بالرفض إذا جرؤ على الافضاء إليها بما يجنه لها قلبه من الحب .

ثم نَفِدَ صبره أخيراً فلم يستطع البقاء على ذلك واعتزم — ذات يوم — أن يصارحها بحبه ، وانتهز فرصة خلوة أتيحت له،فأعلن كل مايشعر به من وجد وهيام .

ولشد ما أدهشه إذ عرف أن غرام « كاترين » به لايقل عن غرامه بها . و بعد أن تصارح العاشقان بكل مايلذهما من أحاديث الهوى ونعما بهذا الطرف السعيد الذى أتاحته لهما تلك الفرصة النادرة،قال لها « ريشار » :

« ليس فى هذه الحياة أمتع ولا أبهج من اجتماع قلبين يبادل كل منهما الآخر الحب والعطف . وليس أجل لنفسيهما من تبادل لذات الهوى والتنعم بأفاويق السعادة الحلوة . وهذه السعادة ميسورة سهلة تتوقف على قليل من رضاها . وهى اذا أخذت برأيه كانت — وكان معها — أسعد مخلوقين على وجه الأرض. »

فقالت له : —

« إنك ترى— ياحبيبى «ريشار» — شدة مراقبة أبوىّ لى، وليس فى

قدرتى ـ مع هذه الرقابة ـ أن ألبى رغباتك . فإذا كنت تستطيع أن تهيئ لى شيئا من وسائل اللقاء ، بحيث نكون معا آمنين من عيون الرقباء ، بعيدين عن مواطن الريبة والخطر ، فانى أعدك بتحقيق كل ماتصبو إليه نفسك ، وأنيلك كل مافى قدرتى ـ من أفانين السعادة والحب ـ وننعم بلذات الهوى جميعا .

* * *

ففكر « ريشار » قليلا ، ثم قال :

« لست أرى آمن ـ لك ولى ـ من أن يأذن لك أهلك فى أن تنامى فى ممشى الحديقة ، فإذا تم لك ذلك ، استطعت أن أتسلق إليك حائط الحديقة رغم ارتفاعها الشديد . »

فقالت له الفتاة :

« إذا كنت واثقاً من قدرتك على تسلق الحائط فإنى على يقين من قدرتى على تذليل هـذه العقبة والظفر بالإذن من أهلى فى أن أنام فى حديقة البيت »

فأظهر لها « ريشارد » وثوقه بقدرته على تسلق الحائط ، فقالت له الحسناء « لا تُعنِّ نفسك بما بقى بعد ذلك »

ثم افترقا جد مغتبطين بما ظفر به كلاهما من السعادة بعد أن أخذا ألف قبلة شهية.

* * *

وفى اليوم التالى شكت « كاترين » إلى أمها وطأة الحر الشديد الذى منعها النوم فى الليلة السابقة . وكانت حينئذ فى آخر شهر مايو ـ فقالت لها أمها :

« إنك ـ فيما أعتقد ـ هازلة ياابنتى، فإننى لاأشعر بمثل هذا الحر الذى تصفينه . »

فقالت الفتاة :

« أما أنا فأحترق احتراقا ، و إنك لتُسدين إلى فضلاً كبيراً إذا بلّغْتِ أبى ذلك ولست تبلغينه إلا الحقيقة الصريحة . وما أجدرك أن تلاحظى أن دم الشباب الفائر مملوء بالحرارة على عكس دم الشيوخ ».

فقالت لها أمها :

« هذا صحيح يابنيتى ، ولكن يجدر بنا أن نتريث فى الأمر ، لعل الجو يعتدل فى هذه الليلة فتنامى هادئة ناعمة ، ولا يكون نصيبك فيها كنصيبك فى الليلة السابقة. »

فقالت الفتاة :

« يالله ! ليس من المعقول أن يبرد الجو فى الليلة القادمة وهى أقرب إلى الصيف مما سبقها من الليالى . »

فقالت الأم :

« وماذا تريدين أن أصنع ؟ »

فقالت الفتاة :

« تستطيعين أن تصلحى ما فسد . »

وقالت الأم :

« وأنّى لى ذلك ؟ »

فقالت الفتاة :

« إذا سمحت أن تطلبى من أبى أن يعد لى سريراً فى ممشى الحديقة ـ إذا لم ير فى ذلك بأساً ـ فإنى أرى هذا المكان هادئاً طلق الهواء ،

وسأنعم فيه بسماع البلبل مغنيا ، وسأكون — بلاشك — مرتاحة البال أكثر مما أنا فى هذه الغرفة . »

فقالت لها أمها :

« سأخبر بذلك أباك ، وسأرى مايقوله بعد . »

* * *

اهتمت الأم لذلك الأمر همًّا شديداً، فذهبت إلى زوجها طالبة إليه أن يأذن للفتاة أن تنام فى ممشى الحديقة ، ولكن فى الشيوخ عناداً وليس من السهل إقناعهم . فقال لها السيد « ليتو » متهكماً :

« إذن فابنتك تريد أن تنام على صوت البلبل ؟ ألا فقولى لها إنها إذا لم ترض عن النوم فى هذه الغرفة فستنام على صوت الصراصير . »

* * *

ولما علمت « كاترين » بما أجاب به أبوها ، لم تنم فى الليلة التالية وكان أرقها فى هذه المرة حقيقياً ، ولم يكن سببه الحر ، بل الغم الذى امتلأت به نفسها . وكانت أمها تنام إلى جانبها فى نفس الغرفة، فلم تدعها الفتاة تنام كذلك ، وظلت تؤرقها طول الليل شاكية إليها الحر ، متضجرة متبرمة .

وما كادت تستقبل السيدة «جاكومين» صباحَ اليوم التالى حتى أسرعت إلى زوجها فقالت له :

« لاشك أنك لاتحب ابنتك، فهى رخيصة عندك، ولست ترى لراحتها قيمة ،وإلا فخبرنى كيف هانت عليك إلى هذا الحد ، فأبيت إلاأن تضحى بها فى سبيل عنادك ؟ ماذا يعنيك أيها الرجل، أن تنام بنتك فى الحديقة أوفى غيرها ؟ ألا فلتعلم أنها لم تغمض عينيها طول ليلها بسبب الحر ، وباتت مهتاجة ولم تهدأ ثائرتها لحظة واحدة ، ولقد أقضّت على مضجعى فلم أنم كذلك طول ليلتى السابقة . وأى عجب فى أن تميل فتاة — فى

مثل سنها — إلى سماع غناء البلبل؟أليست هذه عادةالأطفال والفتيات؟»

فأجابها السيد « ليتو » بلهجة الحزين :

« حسن ، ليكن لك ماتريدين، ولتهيِّئى لها سريراً فى ممشى الحديقة مغطى بستائر من الصوف ، لتنام فيه ناعمة قريرة بغناء البلبل ولتشبع كل جارحة من جوارحها بصوته المحبب إليها . »

* * *

لم تكد « كاترين » تسمع من أمها هذا الحديث حتى أسرعت إلى سريرها فنقلته فى ممشى الحديقة آملة أن تنام فيه الليلة التالية .

وقد انتهزت كل فرصة للقاء « ريشار ». على أن الظروف لم تمكنها من مخاطبته فأشارت إليه إشارة كانا متفقين على فهم مغزاها ، ففهم منها أنها نجحت فى سعيها .

* * *

ولما جن الليل لم تكد تذهب إلى مضجعها حتى أغلق أبوها الباب الموصل إلى الممشى ثم ذهب لينام . ولما عرف « ريشار » أن الناس قدناموا صعد على سلم إلىأعلا الحائط ثم تسلق الحائط نازلا إلى الحديقة مكابداً فى ذلك المصاعب والأهوال معرضاً نفسه لخطر الوقوع على الأحجار ، ثم ذهب إلى الممشى متئداً دون أن يحدث أقل ضوضاء.

أما الحسناء فلم تنم تلك الليلة ، وما كادت تشعر بقدومه حتى أسرعت إلى لقائه فرحة مبتهجة مظهرة له كل ما تُجنه من الحب والهيام ، وقضيا الليل على أحسن مايقضيه عاشقان وغنى بينهما البلبل عدة مرات ، وما زالا كذلك طول الليل حتىإذا قرب الصباح غلبهما الإعياء — أوالحر — فباغتهما النوم قبيل الفجر.



وكانا عاريين لايستر جسميهما شيء من اللباس فناما متعانقين، وهجع البلبل بعد أن غنّاهما ماشاء أن يغني ، حتى إذا أصبح الصباح وملأت الشمس الأرجاء نورا ، نهض السيد « ليتو » من فراشه، وذكر أن ابنته نامت ليلة أمس في ممشى الحديقة فذهب إلى الباب ففتحه مترفقا وهو يقول في نفسه :

« يجب أن أرى مدى تأثير غناء البلبل على نفس ابنتي. »

واقترب الشيخ من سريرها ـ وهو يمشي على أطراف أصابعه حذر إيقاظها ـ ثم زحزح الستائر بكل تؤدة، ورأى « ريشار » وابنته على الحال التي ذكرناها ، فلم ينطق بكلمة واحدة بل ذهب توّا إلى زوجه وقال لها :

«لامحال للشك في الحال وتعالى فانظري ابنتك ! لقد كان من رأيك أن تتركيها مستمتعة بغناء البلبل ، فهلمي فانظري إلى أي حد وصل غرامها بالبلبل . »

فقالت له الزوج :

« أحقا ماتقول ؟ ألا يخامرك في ذلك شك؟ »

فقال لها :

«لامجال للشك في حرف واحد مما أقول ، وسترين صحة ذلك بنفسك إذا أسرعت بالذهاب معي إليها . »

فقفزت السيدة « جاكومين » من سريرها وأسرعت بارتداء جلبابها ـ على عجل ـ ثم ذهبت مع زوجها بعد أن طلب إليها أن تحذر جهدها إحداث أية ضوضاء في أثناء سيرها، وقد رأت ابنتها الحريصة على غناء البلبل وهي على تلك الحال .

هاجها ذلك المنظر واغتاظت من خيانة «ريشار» ولم تكن لتتوقعها من مثله ، وهو الذى كانت تعتبره ولدها ولا يتطرق إلى نفسها أى شك فى أمانته .

وإنها لتهم بإيقاظه لتَصب عليه واِبلاً من نقمتها ولعناتها إذ أشار إليها زوجها أن تكف عن ذلك ، وقال لها :

« حذار أن تصدر منك أية حركة ، فإنك — إن فعلت ذلك — ارتكبت أشنع الحماقات . لقد اختارته ابنتنا لها حبيباً فليكن لها زوجاً . إنه شابٌّ غَنِيٌّ وهو — إلى غناه — من سَرَاة الناس ، فالصفقة — كما ترين — رابحة وليس فى قدرتنا أن نحصل لها على زوج خير منه ، فإذا أراد «ريشار» أن يخرج من هنا سالما — كما دخل — فليس له وسيلة إلى هذا غير التزوج من ابنتنا . وبذلك يرى أن البلبل الذى حسبه يغرد فى قفص غريب ، لم يغرد إلا فى قفصه وحده . »

* * *

رأت الزوج أن الحق فى جانب زوجها ، فخففت من غضبها ولم توقظ العشيقين بل تركتهما نائمين — ماشاءا أن يناما — وقد كانا مستغرقين فى سبات عميق .

على أن «ريشار» لم يلبث أن استيقظ من نومه ، ولم يكد يفعل حتى أدرك بغتة أن النهار قد أضحى ، فأيقظ «كاترين» من نومها فى الحال ، ثم قال لها :

« آه ياصاحبتى العزيزة ! أنى لى أن أعود ؟ لقد أضحى النهار فأى طريق أسلك ؟ »

وما كاد يتم قوله ، حتى اقترب السيد «ليتو» من السرير وقال له وهو يزحزح الستائر عنه :

« أنا أخبرك بالطريق التى يجدر بك أن تسلكها . »

* * *

وهنا اعتقد « رشار » أنه هالك لا محالة حين رأى هذه المباغتة التى لم يكن يقدر لها حساباً من قبل ، وصرخ منزعجاً فى الحال ضارعاً إليه يطلب الصفح ، ثم قال :

« أنا خائن ياسيدى ، أنا سافل أنا أستحق الموت جراء ما اقترفت من إثم . ولكن اذكر يا سيدى أن الدافع لى على اقتراف هذه الجريمة هو غرامى الشديد بابنتك التى أحبها من كل قلبى ، فأنزل بى ما شئت من قصاص – فإنى راض به – ولكن لا تحرمنى الحياة . »

فأجابه السيد « ليتو » :

« ما كنتَ جديراً أن تقابل إخلاصى لك وحدبى عليك بمثل هذا الجزاء ، فأما وقد نسيت هذا الحق وأقحمك الشباب هذا المركب الخشن ، فتخطيت حداً كنت أجدر الناس باحترامه ، فاعلم أن عليك وحدك تتوقف حياتك وموتك ، وفى استطاعتك أنت أن تصلح ما أفسدت ، وأن ترفع الإهانة التى ألحقتها بشرفى وعرضى ، وتزيل موجدتى عليك. يجب عليك أن تعترف – فى الحال – بابنتى زوجاً شرعيـة لك ، أو تصلى لله وتستعد للهلاك . فانظر أى الطريقين تسلك ، ثم قرر – فى الحال – أى الطريقين تختار ، فليس لدى من الصبر على فعلتك دقيقة واحدة بعد ذلك »

* * *

وبينما كان « ليتو » يكلم « ربشار » ، كانت الفتاة قد نسيت البلبل وغناء البلبل وأخفت نفسها بين طيّات الفراش – وهى تبلله بدموع غزيرة متوسلة إلى أبيها أن يصفح عن حبيبها ، ضارعة إلى حبيبها أن ينصاع لرغبة أبيها .

على أن رجاءها لم يطل ، فقد اجتمع على « ريشار » الارتباك الذى ساقه إليه اندفاعه مع رغبته فى تلافى خطئه وخوفه من الهلاك الذى يتهدده من جَرّاء حبه « لكاترين » حباً ألهب فؤاده إلهاباً ورغبته الشديدة فى أن يتمتع بحرية لامثيل لها وحده. كل ذلك جعله يقرر — فى غير تردد — استعداده للزواج منها .

* * *

وثمة أخذ « ليتو » خاتما من زوجه. وتزوج الفتى من الفتاة توًّا وأقسم لها على الوفاء الدائم .

ولمّا تم ذلك عاد الأب والأم من حيث جاءا بعد أن تركا العشيقين يرتاحان فقد رأياهما فى حاجة إلى الراحة .

وما كادا يخرجان من الحجرة حتى تعانق الحبيبان ثانية من جديد وغنى البلبل ما شاء أن يغنى ، وقد مرت الأيام وهما يستعيدان غناء البلبل — كلما طاب لهما الاستماع إلى غنائه فى الأيام التالية — ولكن ظواهر الأمور كلها تدل على أنهما لم يكونا سعيدين بغنائه سعادتهما فى الليلة الأولى ، فإن هذا الطائر يجهد صوته الغناء فيضعفه.

ومهما يكن من أمر فان « ريشارد » بعد أن استيقظ ذهب إلى حميه فحادثه طويلا ولم يفترقا إلا بعد أن أغرق كلاهما فى الضحك من هذا الحادث العجيب .

* * *

وبعد أيام قلائل أعدوا حفلة العرس العلنية وحضرها أهل الزوجين وأصحابهما ، فكان الاحتفال باهراً فخماً ، وتم ذلك فى بيت والد الفتاة التى كانت جديرة بالتهنئة على الظفر بهذا الزواج السعيد .

ويؤكدون أن البلبل الذى اختارته الفتاة قد غنى لها الأغنية التى تنشدها زمنا طويلا وَفق ما تشتهى وتريد.

نكبات الغيرة[1]

« مار سيليا » ـ كما تعلمون من أقدم مدن « بروفنس » وأشهرها ، وقد زاد خطرها موقعها من البحر ، فبلغت ـ فيما مضى ـ شأوا بعيد المدى فى التجارة ، وكانت فرضة يؤمها القاصدون ، بالرغم من أن شهرتها فى هذه الأيام قد اصبحت أقل منها فى ذلك الزمان .

وكان من بين تجار هذه المدينة تاجر قد بلغ من الغنى أقصاه ، وأحرز ثروة طائلة من العقار والمال . اسمه « نارنالد كاواد » ، أهله غاية فى الضعة ، وإن كان الرجل نزيها شريف النفس طاهر القلب .

ولدت له زوجه كثيرا من الأطفال ، من بينهم بنات ثلاث أكبر من إخوتهن الذكور ، تبلغ سن صغراهن أربعة عشر عاما ، وسن الأخريين ـ وقد كانتا توأمين ـ ستة عشر عاما . ولم يكن ليعوق أمهن عن تزويجهن ، إلا ترقبها عودة زوجها من « أسبانيا » بعد أن ينهى أعمال تجارته هناك .

كان اسم إحدى التوأمين « نينت » واسم صغراهن « برتل »

وقد هام بحب « نينت » شاب سَرِيُّ النفس اسمه « رستنيون » ولكنه فقير لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، وأغرم بها إغراما ، ولم يكن هيامها به أقل من هيامه بها .

وإذ كان خفيف الروح جذاب الحديث حلو المعاشرة ، عرف كيف يخطب ودها ويستميلها إليه ، فلم تقف أختاها فى سبيل حبهما ، بل على العكس من ذلك شجعتاهما عليه فذكت نار غرامهما ، ونما حبهما حتى بلغ أقصاه .

---

(١) نشرت بمجلتى العصور والروايات المصورة .

و بينما هو ناعم بحبه اياها، متمتع بعطفها عليه ، يتذوق لذات السعادة وأفاويقها الحلوة ، هام شابان بحب الفتاتين الأخريين ، وكان المحبان شقيقين فقدا أباهما صغيرين وورثا منه ثروة طائلة . وقد هام أحدهما بحب « كاولين » وهام الآخر بحب « برتل » وكان اسم الأول « فولك » واسم الثانى — وهو الأخ الأصغر — « ايجويت »

لم يكد عشيق « نيت » ، يعلم نبأ هذا الغرام الجديد حتى عزم على الانتفاع بهذه الفرصة، واتخاذها وسيلة للخلاص من فقره ، بمساعدتهما إياه ، وبهذه الطريقة بدأهما بالتعارف، ولم ين دائباً فى تسهيل السبل لتمكينهما من لقاء عشيقتيهما ومرافقتهم جميعا فى المواعيد التى يضربها لهم، بما يبذله فى ذلك،من سعة الحيلة والذكاء.

وجماع القول،أنه لم يكد يدع فرصة تسنح، دون أن ينتهزها ليظهر لهما إخلاصه وحماسته،و بصطنعهما . ولما وثق من استمالتهما إليه، واكتساب ودهما ، دعاهما — ذات يوم — إلى الفطور معه فى بيته ، و بعد أن خاضوا مختلف الأحاديث، التفت إليهم قائلا :

«أى صديقىّ : إن نفسى،تسول لى أننى جدير منكما بمثل ماصنعته معكما من الفضل والإحسان،حتى أرتاح لما أتيته معتقدا أنه كان فى موضعه.فإن معرفتى إياكما، وارتباطى بكما،وثيقة الأواصر متينة الأسباب أيضاً كذلك سأعمل لكما كل ماعلى، وأنفذ لكما ماتصبوان إلى تحقيقه من الرغبات غير محجم عن البرهنة لكما على صدق حبى وولائى بكل وسيلة .

على أنى لا أشك أيضاً فى ولائكما لى وتعلقكما بى ، وهذا ما يدعونى إلى الإفضاء اليكما باقتراح — إذا قبلتماه — جعل ثلاثتنا أسعد الناس .

« تعلمان أن أقل ما يقال فى هيامى بعشيقتى « نيديت » ، أنه لا يقل عن هيامكما بأختيها . وتعلمان كم نلاقى من العقبات التى تعترضنا جميعا فى سبيل رؤية من نحب ، وكم يلاقين كذلك من الصعوبات فى سبيل لقائنا ! حسن ! وهذا ما دعانى إلى التفكير فى إزالة هذه العقبات التى تكتنفنا ، والتغلب على كل ما يحول بيننا وبين هناء تام ، أو يكدر صفونا إذا اقبلتما ما أقترحه عليكما الآن .

أنتما غنيان ، أما أنا ففقير . فإذا شئتما أن نتقاسم جميعاً ثروتكما الطائلة ، وأن تصبح لنا فيها حقوق متساوية ، نتمكن بها من أن نعيش جميعا أصدقاء أوفياء . فإنى أؤكد لكما حينذاك ، أننى واثق من قدرتى على استمالة الأخوات الثلاث وإغرائهن بالسفر معنا فى أى وقت نريد . هنالك لا يكون على وجه الأرض ، أسعد منا عشاقا ولا أهنأ منا بالا وأعظم غبطة . ذلك ما يجب عليكما أن تفعلاه ، لتبلغا ما تريدان . »

* * *

كان الأخوان مدلهَيْن ، قد وصل هيامهما إلى حد الجنون ، فرأيا أن اقتراح صاحبهما ، سيمكنهما من التمتع بمن يهويان بحرية تامة لا يشوبها ضيق ولا تعترضها عقبة . فلم يترددا لحظة واحدة فى قبول اقتراحه ورحبا ، وأجاباه قائلين :

« عليك وحدك أن تختار المكان ، فنحن على استعداد للرحيل إلى أى وطن يحلو لك الإقامة فيه ، ما دمنا سنقيم مع من نهوى . »

* * *

ابتهج « رستينون » بهذا الجواب ابتهاجا لا حد له ، وهو أمر طبيعى .

وبعد بضعة ايام وجد طريقاً مكنته من الوصول إلى حبيبته الصغيرة ، « نينيت » والخلوة بها فأسر إليها بما أبرمه مع « فولك » و « إبجويت »

من خطة ، ورجاها أن تسهل لهم السبيل إلى إنفاذها .

لم تكن « نينيت » الصغيرة ، أقل منهم ابتهاجا لهذا الرأى ، ولا أقل رغبة فى إنجازه . فتحرقت شوقا إلى التغلب على كل ما يعترض طريقهم من العقبات حتى تهدأ بذلك، ثورة قلبها الهائم المشتعل بنار الحب.

أكدت له أنها ستقوم راضية بهذه المهمة متكفلة باقناع أختيها ، وسألته أن يسرع فى إعداد معدات السفر فى أقرب وقت.

وأسرع « رستنيون » بالذهاب إلى الشميقين ، ليبشرهما بهذه الخطوة الأولى التى حالفه التوفيق فيها.

وبعد أن قر رأيهم على اختيار مدينة« كاندى » وطنا لهم ، باع الأخوان، جميع ما يملكان من أرض و بيوت، محتجين برغبتهما فى الاكتساب من طريق التجارة ، واشتريا سفينة حربية زوداها بمعدات الدفاع خفية ، مترقبين الوقت الملائم للإقلاع بها جميعاً .

أما « نينيت »فلم تكن أقل من أختيها تحرقا الى اللقاء ،ولا أضعف منهما حباً . فقد عرفت حق المعرفة كيف تميل رأسيهما ، وثم طللن يترقبن ساعة الرحيل ، متحرقات إليها بفارغ الصبر .

وهاهى ذى اللحظة المحبوبة التى ارتقبها ، قد حانت . فأسرع البنات الثلاث إلى خزانة أبيهن الحديدية. فاحتلن على فتحها، وأخذن منها كل ما يستطعن حمله من المال ، ثم خرجن متخفيات فى أثناء الليل ، ميممات عشاقهن الذين كانوا ينتظرون وصولهن بفارغ الصبر.

أقلعت السفينة بالعشاق جميعا ، بعد أن أرخوا لها القلاع ، وطابت لهم الريح طول يومهم ، ولم يعكر صفوهم أى مكدر ، حتى وصلوا فى المساء إلى « البندقية »، حيث تذوق الأخوان، ومن يحبان، للمرة الأولى أعذب

لذات الحب ـ أما «رستنيون» فلم يكن أقل منهما تنعما بحبيبته وإن كان قد سبقهم فى الحب ، فقد طالما نعم بها من قبل فى المرات السابقة حتى إذا حانت هذه الساعة المرتقبة كانت أبهج مبهجات حياته .

وبعد أن قضوا ساعة من ساعات اللهو فى « البندقية » وتزودوا منها بكل ما يحتاجون من الضروريات ساروا فى طريقهم سائحين وظلوا على أسعد حال وأهنأ بال حتى بلغوا « كاندى » فى أقل من ثمانية أيام ، فرست سفينتهم عن كثب منها ونزلوا فاشتروا أخصب الأراضى وأجمل البيوت وأبدع المتنزهات ، وثم عاشوا عيشة الترف والرفاهية وقضوا أجمل أوقاتهم فيها ، فاقتنوا كلابا ضخمة للصيد وطيوراً جارحة واشتروا أسمن الجياد وأتوا بعدد وفير من الخدم ، ولم يدعوا شيئاً مما اختص به الأغنياء إلا أحضروه .

ولم يكن ليمر بهم يوم دون أن يقيموا ولائم جديدة ويستحدثوا مسرات طريفة لعشيقاتهم . وجماع القول إن السعادة والفرح قد غمراهم جميعاً .

وإذ كان لكل بداية نهاية ، وكان الإنسان قلّباً لا يلبث أن يضجر من كل شئ حتى من دوام السعادة ، وإذ كان جمال أى حسناء ـ مهما كان باهراً ـ لا يلبث أن يقل شيئاً فشيئا فى عين حبيبها مهما كان مغرما بها على مدى الأيام وطول المدة والعشرة ، بدأ « ريستنيون » ـ الذى كان مُدَلَّهاً بحب عشيقته ـ يشعر أن حرارة حبه آخذة فى طريق النقصان وأن جمالها أخذ يقل فى عينيه يوما بعد يوم ، فبدأها بالخيانة .

وكان قد رأى فى بعض المواسم آنسة كريمة الاصل سحره جمالها فوقع فى

حبها وأغرم بها إغراما وحاول جهده أن يخفى حبه الجديد عن جميع الناس لا سيما عن « نينيت » ، ولكن إدامة نظراته إليها أمام زوجه التى تنافسها، وما كان يبدو على وجهه من مظاهر الفرح برؤيتها ، وقلقه الدائم إذا لم يجدها، وإسراعه دائباً للبحث عنها فى كل مكان تحله ، كل ذلك قد ملأ نفس عشيقته « نينيت » شكوكاً وريباً ، وسبب لها قلقاً شديداً . فقد كانت تحبه — إلى اليوم — بنفس الحرارة والعنف اللذين أحبته بهما من قبل ، دون أن يعترى حبها أو ولاءها له أقل فتور .

ومنذ تلك اللحظة لم يكن ليسير خطوة واحدة دون أن تراقبه زوجه المارسيلية متجسسة ، ثم تنهال عليه تعنيفاً وعدلا . وزادت غيرتها حتى أربت على الغاية ، فأصبحت تغاضبه لأتفه الأسباب وتلحاه على أضأل الشبه التى تتحيلها .

ولكن العقبات تحبب إلى النفس اقتحامها وتعرى بتدليلها ، وكل ممنوع متبوع ، وليس أشهى للنفس من التطلع إلى ما لا تستطيع الوصول إليه لذلك كانت كلما أمعنت فى إبعاد عشيقها « رستينيون » عن منافستها، زادته هياما بها وكلفا بلقائها .

ولكن هل وصل العشيق إلى اجتذاب قلب هذه المحبوبة الجديدة التى اشتعلت نيران حبها فى قلبه ؟ وهل تمكن من استمالتها إليه ؟ ذلك ما لا نعرفه تماما ، وغاية علمنا أن « نينيت » — بعد أن رأت ما يعزز ريبتها من الدلائل والبينات — لم ترتب فى الاعتقاد بخيانته إياها ، جازمة فى غير تردد .

ولقد رأت فى هذه الخيانة مصدر غم ونكاية لا ينفد ، فامتلأ قلبها أسى وخيبة ، ولم يلبث أن انقلب حبها وإخلاصها لعشيقها قلى ومقتا ، وحل

مكان هيامها وعطفها الأولين بغض وهياج ، ودفعتها نفسها الثائرة الناقمة إلى التفكير فى الانتقام منه .

تملكت نفسها هـذه الفكرة فأرسلت إلى عجوز رومية خبيرة بأسرار السموم فاستدعتها إليها متوسلة ـ بعد أن استمالتها بالمال والرجاء ـ أن تصنع لها سما قاتلا . وفى ذات ليلة قدمته إلى عشيقها ـ وقد صهرت رأسها فكرة الإنتقام، فلم تعد تفكر فى شناعة ما تصنع، وامتلأت نفسها حقدا، فلم تتبين حقيقة ما تقدم عليه ـ ولم يكد عشيقها يتجرع ذلك السم الزعاف حتى مات فى نفس الليلة التى شربه فيها ، وكان لهذه الميتة السريعة الفجائية التى ماتها أسوأ الوقع فى نفس «فولك» وأخيه وأختى « نينيت »، فامتلأت نفوسهم غما وألما لأنهم كانوا يجهلون سبب موته الفجائى. وتظاهرت « نينيت » بأنها حزينة مثلهم حتى تبعد عن نفسها الشبهات فلا ينكشف جرمها الذى لم يلبث طويلا دون أن يظهر أمره للملأ .

* * *

مر على هذه الجريمة زمن قصير ، ثم شاء الله ـ سبحانه ـ أن تضبط الرومية العجوز متلبسة بجريمة أخرى من الجرائم التى تعودت ارتكابها. فلما سألوها أقرت لهم بكل شىء واعترفت بجرائمها التى اقترفتها دون أن تستثنى واحـدة منها ، وساقها ذلك إلى الإفضاء بالسبب فى موت « رستنيون » الذى صنعت السم لإهلاكه.

ولم يكن بعد هذا الإيضاح إلا أن قام دوق « كاندى » ـ دون أن يفاتح أحدا فيما اعتزمه ـ ثم ذهب تحت جنح الظلام على رأس فئة من جنده وفيرة العدد، فحاصر القصر ـ الذى فيه أبطال قصتنا ـ وألقى القبض على « نينيت » ولم يكد يفعل حتى اعترفت ـ قبل أن يشرع فى التحقيق معها ـ بكل

ما يريد الوصول إليه من تفاصيل الخبر دون أن تخفى عنه شيئا.

وليس من الصعب على القارئ أن يمثل لنفسه كم كانت دهشة «فولك» و«إيجويت» التي استولت عليهما حينما علما من الدوق سبب إلقاء القبض على أخت عشيقتيهما ، ولم تكن دهشة الأختين وألمهما بأقل من ذلك. والحق أن كلا من العشيقين قد بذل كل ما فى وسعه وسلك كل السبل لا نقاذها واستدرار الرحمة عليها راجيا الدوق أن يعفو عن جريمتها وألا ينزل بها ما تستحقه من نكاله العادل، ولكن توسلاتهما ذهبت أدراج الرياح وتوج الفشل سعيهما معاً ، فقد صمم الدوق على معاقبتها رافضا حتى تخفيف العقوبة عنها .

* * *

كانت «مادلين» — إلى صغرها — جميلة، وكان الدوق قد خطب ودها زمنا . دون أن يظفر — من هواها — بطائل . فبدا لها أن فى استطاعتها إنقاذ أختها إذا أظهرت للدوق موافقتها له . وبهذه النية أرسلت إليه فى منزله خفية ، تنبئه بلسان رسولها الذكى أنها تقبل تلبية رغباته إذا رجع لها أختها ، وأنها تعاهده على أن يظل أمر أختها — بعد إطلاقها — سرا لا تبوح به لأحد . أدخل هذا الإقتراح فى قلب الدوق أكبر السرور، ولقد تردد مراراً فى قبوله ولكنه استقر أخيراً — مدفوعا بعامل الحب — أن يؤثر هواه على العقل والعدل فأصدر أمره إلى رجاله ، بعد أن اتفق على هذه الخطة مع «مادلين» ، وأمر بالقبض على «فولك» و«إيجويت» بحجة أنه يريد أن يسمع قولهما فى مواجهة « نينيت » ليعلم هل كانت لهما يد فى التسميم ، وانسل فى الليلة التالية خفية إلى منزل الحسناء.

وقد عمد — قبل كل شئ — إلى نشر إشاعة إهلاكها بعد أن تظاهر أنه

وضع خفية « نينيت » المجرمة فى جعبة ألقوا بها فى اليم فى نفس الليلة التى أرسلها فيها إلى أختها فنعمت بلقائها ـ بعد اليأس من عودتها ـ وقد طلب إليها حين رجعها لها أن تخفيها حتى لا يضطر إلى معاقبتها إذا ظهر للناس أنها لا تزال على قيد الحياة .

وفى اليوم التالى أطلق سراح الأخوين فعادا إلى منزلها وليس يخامرهما ريب فى أن « نينيت » قد هلكت بعد أن أغرقها إغراقا ، فطفقا يعزيان عشيقتيهما عن موتها.

* * *

ورغم ما بذلته « مادلين » من العناية والحيطة فى إخفاء أمر أختها ، فإن « فولك » لم يلبث أن تكشف له وهمه حين لمحها فى البيت ، وعلم أنها لا تزال على قيد الحياة ، و بلغت دهشته أقصى حد ، وأدخل ذلك فى نفسه الريب والشكوك ، فلم يهدأ باله وعادت إلى ذهنه توًّا ذكرى حب الدوق و إغرامه السابق بها ، فلم يتردد فى الحكم بأن اطلاق سراح « نينيت » قد بذلت عشيقته عرضها للدوق ثمنا له .

* * *

أفضى إلى « مادلين » بما يساور نفسه من القلق مستفسرا منها عن سر نجاة أختها فاخذت تقص عليه حكاية طويلة ملفقة حاولت جهدها أن تضلله بها لتخفى عنه حقيقة ما حدث .

ولكن لم يقتنع بشئ من هذه الخطابة الطويلة قط ، بل كانت ـ على العكس من ذلك ـ سبباً فى زيادة شكوكه وشبهاته ، واشتعلت نفسه غضباً ، فلجأ إلى تخويف عشيقته وتهديدها إذا لم تفسر له هذا اللغز المعمى وتوضح له حقيقة ما وقع

خشيت الفتاة تفاقم غضبه وراعها تهديده فجبنت أمام ذلك ، ودفعها خوفها إلى الإقرار بما ساقها إليه حب أختها وحدبها عليها ، والاعتراف بما بذلته للدوق ثمن نجاتها .

وقع هذا الاعتراف على قلب حبيبها وقوع صاعقة انقضت عليه ، فلم يعد يحس إلا ضربات قلبه المضطرب من الغيظ والحنق ، وقام فى الحال هائماً ، فامتشق حسامه وأهوى به إلى صدر تلك الفتاة التعسة،وهى تهوى على ركبتيها ضارعة إليه تسأله العفو ، فخرت صريعة تتشحط فى دمائها .

ولم يكد ينتبه لنفسه حتى أدرك خطورة مافعل ، وخشى موجدة الدوق وعقابه ـ إذا ظهرت جريمته ـ فأسرع إلى « نينيت » فقال لها وقد ارتسمت على جبينه أمارات الهدوء والسكينة :

« لقد أتيت لآخذك معى ، حتى نهرب من وجه الدوق الذى بلغه أنك لم تغادرى المدينة بعد، فأصدر أمره بالقبض عليك، وأنت جديرة أن تفرى منه وتهربى من انتقامه. » وظل يقنعها أنه جاء مسرعا لإنقاذها لأن الدوق ، علم أنها لاتزال مقيمة فى المنزل دون أن تصدع بأمره ولم تغادر البلد .

كانت « نينيت » جد متوجسة شراً من الدوق خائفة من عدوله عن العفو إلى الانتقام، وكان لها كل العذر فى هذا الخوف ، فإن الطمأنينة لم تدخل قلبها بعد. لذلك لم تتردد فى مطاوعته وتلبية اقتراحه ، فنهضت مسرعة غير مفكرة، حتى فى توديع أختيها، وسارت معه فى الطريق أول الليل ـ بعد أن حملا كل ما وجداه فى البيت من المال ـ ثم قصدا إلى أول ميناء قريبة منهما ،فأبحرا منها دون أن يعرف أحد وجهتهما ولا ما آل إليه مصيرهما .

* * *

أما الدوق فلم يكد يعلم بقتل « مادلين » حتى أصدر أمره بالقبض على « إيجويت » وعشيقته ، وعبثاً احتجا بأنهما بريئان من تبعة هذا الجرم مستدلين على ذلك بهرب « فولك » « ونينيت » ، فقد أصم الدوق أذنيه ولم يصخ إلى ندائهما ، وأحالهما إلى التحقيق ، واضطرهما ما تجرعاه من غصص العذاب والألم إلى الاعتراف — رغم براءتهما — بأنهما شريكان فى قتل «مادلين» ولم يكن أمامهما — بعد أن فاها بمثل هذا الاعتراف — إلا الموت الوشيك . وبعد لأى ما ، اهتديا إلى طريقة للخلاص من هذا المأزق المهلك فلجئا إلى رشوة بواب السجن ووعداه أن يعطياه — إذا أطلق سراحهما — مبلغاً كبيراً من المال كانا قد خبئاه فى مكان خفى ليستعينا به وقت الحاجة .

* * *

رضى البواب بذلك وأبحر معهما — فى أثناء الليل — فهربوا جميعاً إلى «رودس» حيث تجرعوا غصص الفقر وأهوال الفاقة ، ولم يلبث العشيقان أن حالفهما البؤس حتى واراهما التراب .

اجتماع الحبيبين [1]

فى زمن حكم «غليوم» ملك «صقلية»، كان يعيش فى مملكته رجل من الأعيان اسمه السيد « امبرى » رئيس دير « ترابانى » وكان ينعم بثروة عظيمة .

خلف هـذا السيد ذرية كثيرة من الأطفال فأحوجه ذلك إلى كثير من الخدم، وثم عزم على شراء كثير من صغار العبدان الذين اختطفهم من أطراف « أرمنيا » جماعة من لصوص البحر من أهالى « جنوا » وجاءوا بهم من الشرق .

وكان بين أولئك العبدان الصغار الذين هم على ما ظهر من أصل تركى و يشبهون الرعاة، طفل تبدو على وجهه الوداعة أكثر من الآخرين وتلوح على سيماه دلائل النبل والرفعة .

وكان اسمه «تيودور » وهو ـ وإن كان عبداً رقيقاً ـ إلا أنه نشأ بعد ذلك وترعرع بين أطفال السيد « أمبرى » وكان لا يأكل إلا معهم .

وكلما كبر، نمت عواطفه وتيقظ شعوره وتنبهت طبيعته الحساسة التى لم تكن تماثل طبيعة العبيد .

وجماع القول أنه عرف كيف يبهر سيده بمزاياه النادرة ، حتى أعتقه واقتنع بأنه من أصل تركى عريق فعمده وأسماه « بطرس » وجعله أمينه .

＊ ＊ ＊

وكان للسيد « أمبرى » فتاة اسمها « فيولانت » على جانب عظيم

---

(١) نشرت بمجلتي العصور والإخاء

من الأمانة وهي ذات وجه فاتن جذاب وكانت حينئذ فى المرحلة السعيدة من العمر حيث يبدأ الشعور بالحاجة إلى الحب .

لم يكن يفكر أبوها فى تزويجها فآلمها هذا الإهمال، ووقعت فى حب « بطرس » ، وقد كانت لاتتردد فى إظهار حبهاله —عن طيبة نفس — لولم يمنعها الحياء عن ذلك .

وكان مايلقاه « بطرس » من إكرامها — مع ما ركب فى نفسه من الصفات الكريمة التى خصته الطبيعة بها ، سبباً فى توليد ميل فيه نحوها لم يلبث أن صار هياماً حقاً بكل معانى هذه الكلمة .

ولكنه لم يجرؤ على إطلاعها على ما يكنه لها قلبه من هوى وتحامى جهده أن يعمل أو يقول لها قولا يدل على ذلك .

فلم يتسرب إلى أحد فى البيت أى ظن ولا حامت حوله أية ريبة

ولكنه كان —إذا ماخلامع « ڤيولانت » —أقل حذرا ،فلم تخف عليها حاله ، وسهل عليها الاهتداء إلى حبه إياها ، من خلال إجلاله واحترامه الدائمين .

وأرادت أن تشجعه على الحب فأخذت ترعاه — منذ ذلك الحين — فلا تبدى له سخطاً أو غضبا ، إدارأت تنهده الذى كان يبديه أمامها أونظراته المختلسة التى لم ينقطع عن استراقها منها .

وعلى الرغم من كل العقبات، لجئا إلى لغة العيون وإن كانا يودان لو أتيحت لهما فرصة الافضاء بالكلام الصريح.

وأخيراً رق لحالهما الزمن فأمكنتهما الفرصة من تحقيق ذلك الأمل المحبوب ، وأزالت الخوف الذى كان يحول بينهما وبين الإفضاء بحقيقة هيام كل منهما بالآخر.

كان للسيد « أمبرى » على بعد نصف فرسخ من « ترابانى » قصر فى الريف على جانب كبير من الفخامة ، تذهب إليه زوجه وابنته مع سيدات أخريات فيقضين فيه أوقات السرور والانشراح .

ففى ذات يوم خرجت تلك السيدة ورفقتها ـ وخرج « بطرس » فى صحبتهن حسب عادته . ولما حان وقت العودة إلى المدينة ، غامت السماء وتلبدت فجأة بالسحب ، وكان ذلك يحدث كثيراً فى فصل الصيف ، وأنذر كل مافى الطبيعة بقرب هبوب العاصفة .

وخشيت السيدة «أمبرى» ورفيقاتها ، أن يعوقهن ذلك عن الوصول إلى المنزل، فأسرعن بالعودة إلى « ترابانى » وظللن يسرعن الخطا ليصلن فى أقرب وقت.

أما الفتى والفتاة ، فقد حسهما الحب وبعث فيهما من القوة والنشاط ماأنساهما شدة العاصفة ، فسارا أمام الجميع مُغِذّين السير إغذاذا وتقدماهما بمسافة كبيرة ،ومازالا يغذان السير حتى غابا عن الأنظار. ثم قصفت الرعود داوية مجلجلة وقامت على أثر ذلك زوبعة هائلة اضطرت الأم ورفيقاتها إلى الالتجاء إلى كوخ مزارع فى الطريق .

أما « بطرس» و «فيولانت» فلم يجدا أمامهما ملجأ يحتميان به ، إلا طللا بالياً تهدمت جوانبه فلم يبق فيه إلا لوح واحد من ألواح السقف . فوقفا تحته يتقيان به هطول المطر واضطرهما ضيق المكان إلى تلاصق جسميهما معاً . وقرب بينهما هذا التلاصق وزاد توثيق عرى الألفة بينهما كما أثلج قلبيهما الهائمين وأتاح لهما فرصة الإفضاء بما يجنه قلباهما من الوجد ـ بصراحة لامواربة فيها ـ فبدأها الفتى قائلا :

« كم أنا مدين لهذه العاصفة بالسعادة، وكم يبهجنى أن تطول فلاتنتهى

أو تتحول إلى أبد ـ لو كان ذلك فى حدود الإمكان ـ حتى أظل هكذا سعيداً بالقرب منك ياحبيبتى »

فأجابته الفتاة :

« ليت ذلك فى الإمكان »

ولم تكد تتم قولها حتى تناول « بطرس » يدها بلهفة المشوق وانهال عليها بالقبلات وأجابت الفتاة انعطافه وتودده بمثلهما وأكثر ، ثم تعانقا



والتقت شفاهما المحترقة بنار الوجد ، وأسرفا فى اجتناء أعذب ثمار الحب منتقمين من تلك الأيام الطويلة التى لم يتمكنا فيها من المصارحة بحبيهما.

ولن أتدخل فى تفصيل ماتذوقاه ـ حينئذ ـ من ألوان السعادة فى تلك الخلوة المنفردة التى التقيا فيها رأساً إلى رأس،وحسبى أن أقول إن العاصفة لم تنته إلا بعد أن نعما بكل ما يمكن أن ينعم به حبيبان لا يقل

هيام أحدهما عن هيام الآخر ، دون أن يحسبا للمستقبل حسابا.

* * *

سكنت العاصفة فسارا فى طريقهما الأولى حتى بلغا أبواب المدينة ثم انتظرا وصول بقية الرفقة فلما حضرت ذهبوا جميعاً إلى المنزل .

ولم ينس الحبيبان بعدُ تلك السعادة التى نعما بها فى ذلك الطلل المتهدم فترقبا سنوح الفرص حتى إذا أمكنتهما لم يدعاها تفلت من أيديهما دون أن ينتهزاها . ولم يَرْتَبْ فى أمرهما أحد، وتكرر ذلك الأمر حتى حملت منه الفتاة فحزنهما ذلك أشد الحزن وحاولت «فيولانت» أن تتخلص من حملها وطرقت فى ذلك كل حيلة فلم تنجح .

ولم يكن « بطرس » أقل همًّا منها فقد أيقن أن ذلك الحادث لن يمر دون أن يودى بحياته، فصمم على الهرب وكاشف حبيبته بعزمه فقالت له :

ـ « إذا هربت فإنى أقتل نفسى بلا تردد . »

ـ « وماذا تريدين أن أعمل ياحبيبتى بعد أن يظهر أمرك وتنكشف حيلتنا ؟ إنهم سيرحمونك لضعفك ويجدون لك من ذلك الضعف شفيعاً، أما أنا فماذا يشفع لى أنا التعس المسكين الذى لايخفف من شناعة جرمه أى اعتبار ؟ فهل تريدينى على أن أستهدف لنقمة أبيكِ العادلة وأذهب ضحية غضبه الحق ؟ »

فقالت له :

« لن أستطيع أن أخفى جرمى طويلا، ذلك أمر مقرر أعترف لك به ولكن كن على ثقة ياحبيبى أنك ـ إذا حافظت على كتمان سرى كما أحافظ أنا ـ فلن يستطيع أحد أن يعرف أنك أنت الذى ارتكب هذا الجرم أو اشترك فيه قط، ثق بذلك واعتمد على حبى وإخلاصى لك . »

وعلى هذا الشرط قبل حبيبها أن يبقى فى البيت وقال :

« سأظل مقيما هنا فاذكرى وعدك ياحبيبتى . »

* * *

ورأت « فيولانت » أن بطنها يعلو قليلا قليلا على مر الأيام وعلمت أنه من المحال أن تخفى حالها طويلا ، فكاشفت أمها بحقيقة أمرها وتوسلت إليها ـ والدموع فى مآقيها ـ راجية منها أن تنقذها من هذه الورطة .

ولم تكد تعلم أمها بذلك حتى أفعم قلبها يأسا فانهالت عليها لوما وتعنيفاً وسباباً وطلبت إليها أن تخبرها باسم من جنى عليها وهتك عفافها . ولكن الفتاة تحاشت أن تذكر اسم حبيبها حتى لاتعرضه للخطر ، فلفقت أكذوبة لم ترْتب الأم فى صدقها وأخذتها حقيقة مسلما بها ، وترقبت الأم وابنتها فرصة سانحة فرحلتا معا إلى الريف .

وحان وقت الوضع وأحست الفتاة آلام الطلق فظلت ترسل صيحاتها عالية داوية فى أجواز الفضاء . وإنها لكذلك إذ عاد أبوها من الصيد ولم يكد يصل إلى منزله ليستريح من العناء حتى قرع أذنيه صوت ابنته المتألمة وصرخاتها العالية فأسرع إلى غرفتها توا ، ولم يكد يرى أمها حتى سألها عن جلية الأمر .

* * *

بهتت الأم ـ حين رأته أمامها ـ ورأت كل انكار لايجدى فاضطرت إلى الافضاء إليه بحكاية ابنتهما كما سمعتها منها بلا تحريف . ولكنه كان أقل انخداعا من زوجه وأقل إغضاء فلم يقتنع بذلك التلفيق وقال لها إنه من المحال على «ڤيولانت» أن تجهل الشخص الذى حملت منه . وليس له مناص ـ إذا أرادت أن يصفح عن زلتها ـ من أن تصارحه بالحقيقة

كاملة ، و إلا كان جزاؤها الموت المحقق بلا رحمة .

بذلت الأم كل ما فى وسعها فى تهدئة زوجها وتخفيف غضبه وأكدت له أنها ستنفذ إشارته محاولة بذلك أن تشغله قليلا أو تهدئ من روعه ولكن شيئا من ذلك لم يجد ولم تستطع أن تترضاه بهذه الوسيلة .

فقد اقترب الزوج من ابنته ـ شاهراً فى يده حسامه ـ وكانت قد وضعت غلاماً فى أثناء ذلك الحوار ، فلم يَرْث لضعفها وأقبل عليها غاضباً، وخيرها بين موت وشيك أو تفضى له باسم والد الطفل . وثمة حملها الخوف على خيانة حبيبها ، فاعترفت لأبيها بكل شئ بعد أن ترددت كثيراً فى الإفضاء إليه بالحقيقة.

* * *

اشتد حنق « أمبرى » حيث عرف مقترف ذلك الإثم فانهال عليها سبا وتعنيفا وكاد ينفذ سيفه فى جسمها ، لولا أنه غالب نفسه مغالبة شديدة مؤجلا انتقامه منها إلى وقت آخر .

وظل يصب عليها من اللعنات والسباب ماشاء له غضبه حتى نفس بذلك عن صدره قليلا . ثم ركب جواده عائداً إلى « ترابانى » وكان أول همه ـ بعد أن بلغ المدينة ـ أن يذهب إلى السيد« كونو راد »الذى كان متوليا القضاء فى ذلك البلد ونائبا عن الملك فيه . ولم يكد يرفع إليه شكواه حتى أمر بالقبض على « بطرس » فى الحال وشرعوا يحققون معه ولجئوا إلى وسائل التعذيب القاسية حتى أرهقوه إرهاقا فأقر لهم بكل شئ . ولم يكد ذلك التعس يعترف لهم بجرمه حتى حكموا عليه بالموت شنقا ـ بعد أن يجلد أولا فى ميادين المدينة .

ولقد سر « أمبرى » من ذلك الانتقام وان كان لم يشف غليله

ويرضى شهوة غضبه الجامحة كلها، فصمم على إكمال ظفره بقتل ابنته وولدها فى نفس اليوم الذى يصلب فيه عشيقها، وامتلأت نفسه بتحقيق تلك الفكرة السوداء فنادى خادما له يثق به ويعتقد بأمانته، فخرج أمامه ومزج السم بالنبيذ ووضعهما فى قدح، وناوله إياه كما أعطاه حساما ثم قال له :

« إذهب إلى « ڤيولانت » فقل لها — واحذر أن تخالف أمرى — إنها مخيرة بين احدى الميتتين. بالسم أو بالسيف. فإذا أبت فإنى مذيقها ماهى جديرة به من النكال على ملأ من الناس.

ومتى انتهيت من ذلك خذ طفلها الذى أتت به إلى هذا العالم فاضغط رأسه بين يديك وبين الحائط ثم ألق به فى أقذر طريق من الطرق. »

* * *

كان الخادم متوحشا ميالا إلى الشر والإجرام، فذهب لتحقيق أمر سيده دون أن يشعر بشىء من الكراهية لأدائه.

وكان لابد لإنجاز كل هذه الأعمال الفظيعة — البالغة أقصى حدود القسوة — فى نفس اليوم الذى يعدم فيه « بطرس ».

ولقد أخرجوا الفتى من سجنه الضيق — بعد أن جلدوه مائة جلدة — وذهبوا به إلى ساحة الإعدام. فمروا أثناء سيرهم بمنزل صغير كان فيه وقتئذ ثلاثة من الأرمن ذوى الخطر، كان ملكهم قد أرسلهم إلى « روما » ليقابلوا « البابا » رغبة فى تسوية مسألة هامة عظيمة الخطر، وعنَّ لهم أن يمضوا بضعة أيام فى تلك المدينة فلما علم بذلك أعيانها وسراتها أسرعوا إلى لقائهم والاحتفاء بمقدمهم.

وبلغ أسماع أولئك السفراء نبأ قدوم ذلك المجرم فأطلوا من النوافذ

لرؤيته وكان عارياً من رأسه إلى وسطه وكانت يداه مغلولتين إلى ظهره ورآه « فينيه » ـ أحدالسفراءالثلاثة ـ وكان شيخاً وقوراً جليل القدر فاهتم لأمره ولمح على صدره علامة كبيرة حمراء اللون حبته بها الطبيعة من ذلك النوع الذى يطلق عليه النساء هنا اسم (الورد) و يسمونه أيضا (وحما) ـ ولم يكد يراها حتىأعادت إلى ذهنه فى الحال ذكرى أحد أطفاله وكان قد اختطفه اللصوص منذ خمسة عشر عاما وانقطعت عنه أخباره منذ ذلك الحين ، وذكر أن ولده لو عاش إلى اليوم لأصبح فى مثل هذه السن ، فساورته الشكوك والقلق على هذا الغلام وخشى أن يكون ولده . ولكى يحسم هذه الشكوك ، ناداه باسمه ، ولم يكد يسمع « بطرس » نداءه حتى رفع إليه بصره ـ عن غير قصد ـ وثمة وقف الجلادون ـ احتراما للسفير ـ فسأل المتهم من أى بلد هو ومن أبوه فقال: « بطرس » أنا من « أرمينية » واسم أبى « فينيه » وقد جاء بى إلى هنا قوم لا أعرف من هم .

وثمة لم يرتب « فينيه » بعد أن سمع منه هذا الجواب فى أنه ولده فأسرع وضمه وأقبل زميلاه عليه يهنئانه بلقائه ورأى الجلادون ذلك فكفوا عن صلب الغلام ، ثم ألقى السفير على ولده معطفاً ثمينا ليغطى به جسمه ، وأصدر إلى الضابط أمرا بوقف التنفيذ حتى يصدر أمرا آخر . ولما علم السفير من أفواه الناس السبب الذى حكموا على ابنه بالصلب من أجله ، ذهب ومعه السفيران ورجال الحاشية إلى السيد « كونوارد » فقال له : « إن الذى حسبته عبداً ليس إلا حراً وهو ولدى وأنا أبوه وهو مستعد للزواج من تلك الفتاة التى يزعمون أنه غرر بها ، فارفق به من أجلى حتى نتبيّن نيّاته ، فإذا قبلته الفتاة زوجا لها عفوت عنه دون

أن تكون قد خالفت القانون أو عملت ضد نصوصه ».

* * *

خجل الحاكم من تسرعه فى الحكم على ابن السفير الذى كان يحسبه عبداً رقيقاً وشعر بدهشة شديدة ، وأدرك أن « فيبيه » على حق فى طلبه، فأقره فى الحال . ثم أرسل إلى «أمبرى» فأحضره وقص عليه ماحدث ، فتعاظمت دهشته ، وكان لايشك فى أن ذلك الحكم القاسى قدقضى على ابنته ، فندم أشدالندم على تسرعه ، وأسرع بإرسال رجل آخر إلى ابنته ليحول دون إهلاكها إذا كان فى الوقت متسع . وقد وصل ذلك الرسول ـ لحسن الحظ ـ قبل فوات الفرصة ، فوجد الخادم واقفا أمام سرير «ڤيولانت» ممسكا السيف بإحدى يديه، والسم بالأخرى، محاولاً إرغام الفتاة، المسكينة على تخير إحدى الميتتين . فأظهر له ماقرره سيده فاطمأنت الفتاة وعاد الرجلان إلى سيدهما ليخبراه بما تم .

* * *

إمتلأت نفس «امبرى» فرحا بذلك، فذهب إلى لقاء السفير «فيبيه» معتذراً إليه جهده ، طالبا منه الصفح عن تلك الخشونة التى عامل بها رفيقه القديم، مؤكدا له أنه يكون أسعد الناس إذا تزوج «تيودور» من ابنته التى يسمح له بها عن طيبة خاطر . فقبل منه «فينيه» إعتذاره، وأخبره أنه شديد الرغبة فى تزويج ولده من ابنته ، مؤكدا له أنه إذا رفض ابنه ذلك فلن يكون له من جزاء على رفضه، إلا القتل. وكذلك تم الاتفاق بين الأبوين ، فذهب إلى « تيودور » ، الذى لم يكن قد عاد إلى رشده بعدُ من الذعر الذى اشتمل عليه ، ولم يكد يطلب إليه أن

يقترن « بفيولانت » ، حتى نسى كل آلامه ـ لفرط ماغمره من السرور والابتهاج ـ وقال له :

« ليس أشهى إلى قلبي من تحقيق هذه الأمنية التى ستجعلنى ـ إذا تمت ـ أسعد إنسان فى العالم . »

ثم بعثوا إلى «فيولانت» ، يسألونها عن رأيها فى الاقتران « بتيودور» . فلم تكد تسمع منهم ذلك حتى تبدلت آلامها فرحا، وامتلأت نفسها أنسا وابتهاجا . وقالت لهم : إنها لاترى فى العالم كله مايعدل سرورها بهذا الزواج من حبيبها « تيودور » .

وهكذا تم عقد الزواج فى نفس اليوم ، وإن كانوا قد أرجئوا حفلة العرس ، حتى يعود « فينيه » بعد أن يتم مهمته التى جاء من أجلها مع « البابا » .

* * *

وقد ابتهج كل من فى المدينة بخلاصهما ، وأقبلت « ڤيولانت » على طفلها ترضعه، وصفا لها الوقت فأشرق جمالها واكتمل حُسنها . ولم تكد تنتهى من أيام النفاس، حتى عاد « فينيه » من « روما » ، فلم تتوان فى القيام بواجب حميها على أتم وجه ، وقد رأى السفير منها مابهره من جمال وأمانة ، فعاملها كما يعامل ابنته . وتمت حفلة العرس على أحسن ماتتم به من بهاء وروعة .

* * *

وبعد أيام قلائل عاد « فينيه » إلى وطنه ـ ومعه ابنه وزوج ابنه وطفلهما ـ فوصلوا إلى بلدهم سالمين . وعاش الزوجان عيشة هادئة لذيذة ناعمين بين أحضان الحب :

قد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لاتلاقيا .

ڤولتير

محمد الاغراء



« ولد ڤولتير فى باريس عام ١٦٩٤ م ، وقد تفوق على معاصريه وامتاز ببراعته فى الخطابة والتاريخ والقصص والشعر والروايات التمثيلية.

وعكف من سنة ١٧١٤ إلى سنة ١٧٧٨ على الكتابة بلا انقطاع ، وكانت الكتابة عنده شغله الشاغل. وهى فى رأيه: « أن يدحض الإنسان ويقاوم جهده كل خطأ أو زيف ، ويناضل عما يراه صحيحاً وحقيقة. » وهو من كبار الفلاسفة فى القرن الثامن عشر ومن أساطين الأحرار الذين أثاروا بكتاباتهم الثورة الفرنسية . وقد غلب اسمه على جيله فأصبح القرن الثامن عشر يسمى :« جيل ڤولتير . »

ممر الاغراء

كان « نابوسان[١] »، ملك سرنديب، من خير ملوك آسيا وأنبلهم ولم يكن يتحدث إليه إنسان إلا أحبه.

كان هذا الملك الطيب القلب جديرا دائما بالثناء وإن سهل على كل إنسان أن يخدعه، وكان عرضة لمن ينهب خزائنه ويسرق تراثه.



وكان المحصل العام[٢] لجزيرة سرنديب يتبع خطوات أسلافه فى سرقة خزائن الملك ونهبها، وكان الملك يدرك ذلك، وقد غير المحصل العام عدة مرات، ولكنه لم يستطع أن يغير الطريقة المتبعة فى تقسيم الإيراد إلى قسمين غير متساويين يخص القسم الأصغر منها صاحب الجلالة، والقسم الأكبر من فى يدهم أزمة الإدارة.

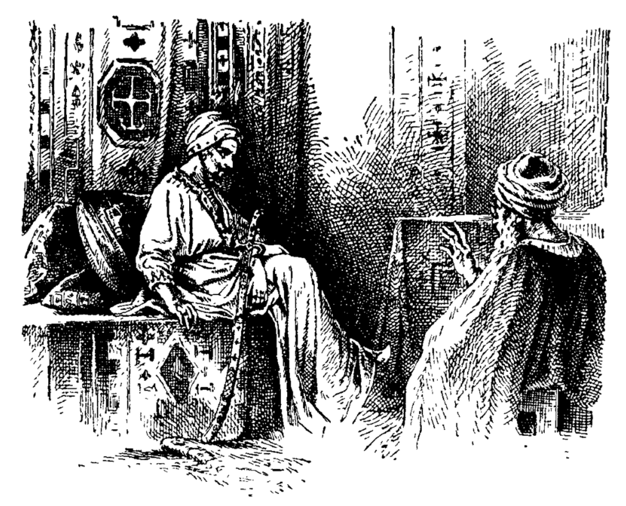
وقد شكا الملك « نابوسان » هذه الحال المؤلمة إلى الحكيم « زاديج[٣] » وقال له :

---

(١) « نابوسان » شخص خيالى. و « سرنديب » اسم كان يطلقه العرب سابقاً على جزيرة شهيرة.

(٢) المحصل العام هو صراف أو أمين خزائن الدولة.

(٣) « زاديج » شخص خيالى.



الملك (مابوسان) والحكيم (زاديج)

« أنت أيها الحكيم الخبير بأسرار النفوس وفضائلها ، ألا تجد لى وسيلة أهتدى بها إلى محصل أمين على خزائنى لا تسول له نفسه سرقة شىء منها ؟. »

فأجابه « زاديج » : « أعرف — على التحقيق — وسيلة تهيء لك رجلا عف اليدين[1] أميناً. » فسر الملك من جوابه ، وسأله مستفسراً :

« وكيف السبيل إلى الاهتداء إلى هذا المخلص الأمين؟ » فقال له: « ليس من سبيل إلى ذلك إلا أن تأمر جميع من يتقدم إليك لتقلد هذا المنصب العظيم، بالرقص ، وسترى أن أقدرهم على الرقص هو بلا ريب، أشرفهم. »

(١) عف اليدين أى لم يسرق أبداً .

فقال الملك :

« إنك تسخر منى حين تقترح علىّ هذه الطريقة الهزلية فى انتخاب أمين خزائنى . ولست أدرى كيف تزعم أن الذى يقفز بخفة فى الهواء ، يكون أشرف رجل مالىّ ويكون أكثر الناس أمانة ؟ »

فقال « زاديج » :

« أنا لا أقول أكثر أمانة بل أحقق أنه ـ دون أى شك ـ أشرف رجل . »

* * *

وكان « زاديج » يتكلم مستوثقاً مما يقول ، حتى خيل للملك ، أن لديه سرا فوق الطبيعة يعرف به رجال المال .

ثم قال له « زاديج » :

« إنى لا أحب أن أتعلق بالخيال والمحال ، فإذا أردتم جلالتكم أن تدعونى أعمل هذه التجربة التى أقترحها عليكم ، فإنكم ستقتنعون بأن سرى سهل ، وترون أنه أمر غاية فى السهولة .

وكانت دهشة « نابوسان » ملك « سرنديب » عند ماسمع أن هذا السر سهل ، أعظم مما سمع منه أنه سر ملغز ، فقال له :

« إذن ، فافعل مايحلو لك . »

فقال له « زاديج » : « وثق أنك ستربح . »

فأجابه الملك :

« سأحقق لك هذه التجربة وَفق ماتريد . »

وفى اليوم نفسه أذاع ـ باسم الملك ـ أن من يرغبون فى وظيفة المحصل العام لأملاك صاحب الجلالة المعظم « نابوسان » ، عليهم أن يجيئوا إلى غرفة استقبال الملك فى ثوب حريرى خفيف .

فذهب أربعة وستون . وأمر الملك بإحضار عدد من الكمان فى القاعة المجاورة وتم إعداد كل شىء للرقص ، ولكن باب هذه القاعة كان مغلقاً

وكان لابد لداخلها أن يمر برواق صغير مظلم .

وجاء حاجب يدعو كل مرشح للدخول ، الواحد بعد الآخر ، من طريق هذا الرواق ، وكان يتركه وحده بضع دقائق . وكان الملك الذى يعرف سر « زاديج » ، قد أمر بوضع كنوزه كلها فى ذلك الرواق .

ولما وصل جميع المتقدمين للمنصب، إلى قاعة الاستقبال ، أشار جلالته بأن يأمروهم بالبدء فى الرقص . ولم يشهد فى حياته أحداً يرقص بأقل خفة ورشاقة وأكثر تثاقلا من هؤلاء ، فقد كانت رءوسهم جميعاً مطأطأة ، وهم منحنون وأيديهم لاصقة بجيوبهم ، فقال «زاديج »:

« يالهم من لصوص . »

وكان واحد منهم يجيد الرقص فى خفة ونشاط ، وهو مرفوع الرأس، ثابت النظر ، مبسوط الذراعين معتدل الساقين ، فقال «زاديج» :

« آه ! ياله من رجل شريف ، ياله من رجل شهم . »

* * *

فقبل الملك هذا الراقص الطيب الصالح ، وعاقب الآخرين على خيانتهم وقضى عليهم بأقصى ما تقضى به عدالة فى العالم من غُرْم . لأن كل واحد منهم ، حين مر فى الرواق المظلم الضيق ، ملأ جيوبه بالأموال فأثقله ما حمل وكاد يُعجزه عن المشى .

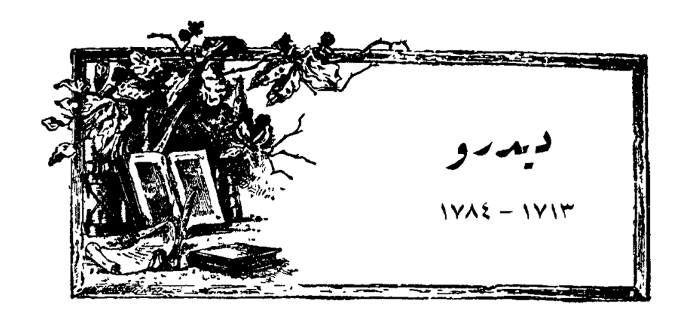


وقد تكدر الملك من هذه الطبيعة الخائنة إذ رأى بين أربعة وستين راقصاً ثلاثة وستين لصاً .

وقد أطلق على الرواق المظلم إسم « ممر الإغراء . »

ديدرو

صديقا «بوربون»



ديدرو نجل صانع آلات قاطعة للأسلحة وهو كاتب وفيلسوف انقطع عشرين سنة من عمره لإنجاز دائرة المعارف ، وهى أهم ماوضع من مؤلفاته ، وقد ألف بعدها كتبا صغيرة فى العلم والأدب ومقالات ومحاورات فى مواضيع شتى .

وقد أعجبت طبقة أهل الثقافة المستنيرين فى عصره بفصاحته وجرأة فكرته ، وكان ذا مواهب خارقة . وقد كان فى قدرته ـ على التحقيق ـ أن يكون مثال العبقرية العالمية فى القرن الثامن عشر ، ولكن لم تتح له ظروفه أن يصل إلى هذه المرتبة ، ولم يترك طرفة تسمو إلى مرتبة روائع « فولتير » أو « روسو » .

صديقا «بور بون»[1]

بطلا هذه القصة رجلان يمكننا أن نطلق عليهما اسمى « أوراست » و«فيلاد [2]» . وكان أحدهما يدعى «أوليفييه» والثانى« فيلكس » . وقد ولد كلاهما فى يوم واحد وفى بيت واحد . وهما ابنا أختين شقيقتين وقد رضعا معا بلبان واحد ، لأن إحدى الأختين توفيت ـ إبان الوضع ـ فتعهدت الأخرى هذين الولدين بالرضاع .

وقد تربيا معا وكانا دائما فى عزلة عن الأولاد الآخرين،وكانا متحابين حبا خالصا لا تشوبه شائبة ، وكانا يشعران بذلك كل لحظة ولعل أحدهما لم يكاشف الآخر بما يضمره له من حب .

وقد أنقذ«أوليفييه»حياة«فيلكس»ـ ذات مرة ـ وكان همه أن يصير سباحا عظيما وقد أشرف على الغرق،ولم يذكر كلاهما هذا الحادث بتاتا.

وأنقذ «فيلكس » « أوليفييه » مائة مرة من مآزق مهلكة زجه فيها طبعه الحاد ،ولم يفكر «أوليفييه»مرة فى أن يقدم له الشكر، بل عادا من هذه الحوادث معا إلى المنزل دون أن يكلم أحدهما الآخر عنها ، وكانا يتحدثان فى شئون أخرى .

ولما سحبت الأوراق للالتحاق بالجيش ،كانت أول تذكرة مشئومة من حظ «فيلكس» فقال « اوليفييه » :

« إن الثانية لى. » فكانت له كما توقع .

---

(١) محطة مائية فى هوت مارك

(٢) أوراست وفيلاد أى الصديقان اللذان لا ينفصلان ، وهذه إشارة إلى الصداقة المخلصة الوثيقة التى كانت بين أوراست وفيلاد فى العصر القديم .

وقضيا مدة الخدمة الحربية ، ثم عادا إلى بلدهما ، وكلاهما يعز الآخر



أكثر مما كان يعزه من قبل، هذا ما أظنه وليس فى وسعى أن أحققه لك . لأنه إذا كان صنع الجيل المتبادل يدعم الصداقات الصميمة ، فلعل هذا الجيل لم يكن له أثر يذكر فى مثل هذه الصداقة الوثيقة .

ففى الجيش قد حدث فى إحدى المعارك أن « أوليفييه » كان مهددا بشج رأسه بضربة سيف، فتقدم « فيلكس » بسرعة ليتاقى هذه الضربة، وبقى أثر الجرح فى وجهه طول عمره

ويزعمون أنه كان فخوراً بهذا الجرح . أما أنا فلا أظن شيئا من ذلك

وفى « هستنك [١] »، أنقذ « أوليفييه » صديقه « فيلكس » من بين أشلاء الموتى المكدسة التى سقط فيها .

وكانا عندما يسألان أن يتحدثا فى بعض الأحيان عن المساعدات التى قدمها كلاهما للآخر ، لا يذكران ما قام به أحدهما للآخر من خدمات . وقد كان « أوليفييه » يتحدث عن « فيلكس » وهذا يتحدث عن « أوليفييه » ولكن لا يباهى أحد بعمله .

* * *

ولبثا فى بلدهما حينا ، ثم أحبا فى وقت واحد ، وشاءت المصادفات أن

(١) قرية فى « هانوفر » مشهورة بمعركة انتصر فيها الفرنسيون سنه ١٧٥٧

أن يحبا فتاة واحدة ، فلم تكن بينهما أية منافسة. ولما لاحظ أحدهما مرة حب الآخر هذه الفتاة ، تخلى له عنها ، وتركها « فيلكس » فتزوج منها « أوليفييه » .

* * *

وسئم « فيلكس » الحياة دون أن يعلم لماذا سئمها ، فغامر فى شتى أنواع المهن الخطرة وكان آخرها اشتغاله بالتهريب . وأنت لاتجهل أن بفرنسا أربع محاكم لمحاكمة المهربين وهى محاكم « كاين » و « ريمس » و « ڤالنس » و « تولوز » ، وكانت محكمة « ريمس » أشد هذه المحاكم قسوة فى أحكامها ، وكان يرؤسها قاض اسمه « كولو » وهو أشد وحشية وقسوة من أى نفس كونتها الطبيعة .

وقد ألقى القبض على « فيلكس » ـ وهو متقلد سلاحه ـ ومثل أمام « كولو » الرهيب وقضى عليه بالقتل ، كما قضى على الخمسمائة الذين سبقوه من قبل .

* * *

وعلم « أوليفييه » بمصير « فيلكس » فخف ليلة من جانب زوجته ، من غير أن يقول لها شيئا . وذهب إلى « ريمس » وتوجه إلى القاضى « كولو » وارتمى على قدميه ملتمسا أن يتفضل فيأذن له فى رؤية « فيلكس » وتقبيله .

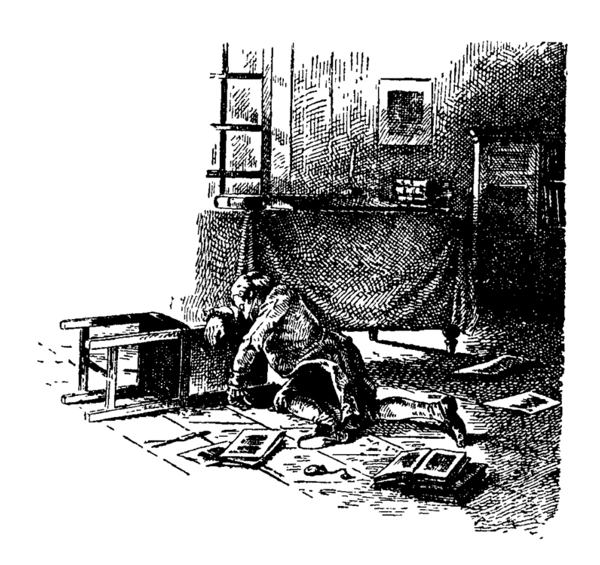
فنظر إليه « كولو » ولاذ بالصمت لحظة ، وأشار له بالجلوس فجلس ، وبعد نصف ساعة أخرج « كولو » ساعته وقال « لأوليفييه » :

« إذا أردت أن ترى صديقك وتقبله ـ وهو على قيد الحياة ـ فعجل

بذلك لأنه فى طريقه الآن إلى ساحة القتل . و إذا كانت ساعتى مضبوطة فإنه سيقتل قبل أن تنقضى عليه عشر دقائق . »

* * *

فثار غضب « أوليفييه » وهب واقفا ، ثم هوى على عنق القاضى « كولو » بضربة شديدة من عصاه ، فألقاه صريعا أدنى ما يكون إلى الموت ،



وخف مسرعا إلى ساحة القتل . ولما بلغها أخذ يصيح و يضرب الجلاد ورجال العدالة ، وقد هاجَ العامّة الذين ساءهم حكم القتل وثاروا ، وتطايرت الأحجار وأُطْلق « فيلكس » ولاذ بالفرار .

ثم فكر « أوليفييه » فى إنقاذ نفسه والنجاة بها من الهلاك ، ولكن أحد الفرسان الذين نيط بهم حفظ الأمن، أصابه فى خاصرته بطعنة من رمحه ، فلم يشعر بها إلا بعد أن بلغ باب المدينة ، وأحس أنه لا يستطيع أن يواصل سيره بعد ذلك .

ومر به جماعة محسنون من الحوذية فحملوه على عربة وساروا به حتى وضعوه أمام باب منزله — قبل أن يلفظ النفس الأخير — ولم يتسع له الوقت إلا بمقدار مافاه لزوجته بهذه الكلمات:

« اقتربى منى يا زوجتى لأقبلك فإنى ميّت لا محالة ، و إن كان صديقى الذى أصيب بأثر الجرح فى وجهه قد نجا . »

* * *

وفى مساء يوم بينا كنا داهبين للتنزه — حسب عادتنا — رأينا أمام باب أحد الأكواخ امرأة واقفة — وعند قدميها أربعة أولاد — وكانت أمارات الحزن والثبات البادية عليها ، مما لفت أنظارنا إليها . و بعد أن سكتت لحظة قالت لنا :

« هاهم أولاء أربعة أولاد وأنا أمهم وليس لى زوج . »

وقد أثرت فى نفوسنا هذه الطريقة السامية فى التماس الإشفاق والرحمة، فقدمنا لها ما نستطيع من مساعدة ، فقبلتها فى شرف وعزة ، وفى هذه الفرصة أتيح لنا أن نقف على ما وقع لزوجها « أوليفييه » وصديقه « فيلكس . »

وقد تكلمنا معها فأخبرتنا بهذه القصة .

وها أنت ذا ترى أن عظمة النفس وما إليها من الصفات السامية تكون فى جميع طبقات الناس وفى جميع البلاد

ومثل هذا الموت المحزن الغامض لا ينقصه إلا مسرح ، وليس علينا أن نذهب إلى «الايروكوا» (١) لنجد مثل هذين الصديقين .

* * *

ولعلك تريد أن تعلم ما آل إليه أمر « فيلكس » ، وهذه رغبة هينة، والسبب الداعى إليها محمود . ونحن نأخذ أنفسنا باللائمة إذا لم نحس هذه الرغبة . ولكى نصلح هذه الغلطة فكرنا أولا فى المسيو « بابن » ، وهو طبيب تيولوجى وخورى «سانت مارى» فى «بور بون» .

ولكن والدتى علمت بالأمر ولهذا آثرنا أن نتوجه إلى المسيو « أوبر » وهو رجل طيب القلب وقد بعث إلينا بالرواية الآتية ، ولك أن تتأكد منه صحتها :

« إن المدعو «فيلكس» لايزال على قيد الحياة فهو بعد أن أفلت من يد العدالة لجأ إلى الغابات التى فى هذا الإقليم وهو خبير بنواحيها منذ كان يعمل مع المهرّبين . وظل يتقدم جاهداً شيئاً فشيئاً ليدنو من مسكن « أوليفييه » وهو لايدرى بما أصابه وما انتهى إليه .

* * *

وكان فى نهاية الغابة ، فحام جعل كوخه مأوى لأمثال هؤلاء المهرّبين ، ومستودعا لبضائعهم وأسلحتهم ، فذهب « فيلكس » إلى ذلك المكان وهو مستهدف لخطر الوقوع فى قبضة رجال الأمن الذين كانوا يقتفون أثره . وقد أذاع أحد شركائه نبأ سجنه فى « ريمس »، ولما رآه الفحام وزوجته حسبوا أنه قد بُرّئ من جريمته . وسأقص عليك الخبر

---

(١) هنود من ذوى الجلود الحمراء كانوا يقطنون فى القرن السابع عشر حول بحيرات كندا . ويشير « ديدرو » هنا إلى مؤلف ظهر سنة ١٧٧٠ اسمه : « الصديقان » وهو قصة ايروكوية .

كما سمعته من الفحامة التى توفيت منذ عهد غير بعيد . وكان أبناؤها الذين يلعبون حول المسكن هم أول من وقعت أبصارهم عليه فقد وقف يداعب أصغرهم الذى كان شبيهه ، ودخل الأولاد الآخرون الكوخ وصاحوا : « فيلكس ، فيلكس » فخرج الأب والأم وهما يكرران هذا الصياح ، وكان هذا المسكين قد وصل إلى أقصى درجات الإعياء والتعب وألحت عليه الحاجة إلى حد أنه لم يقو على الرد وسقط خائر القوى بين أذرعهما ، فأسعفه هذان الزوجان الطيبان بما عندهما من زاد وقدما له خبزاً ونبيذاً وشيئاً من الخضر فأكل ونام .

ولما استيقظ كان أول ماقاله :

« أوليڤييه » ، الأولاد . ألا تعلم شيئا عن «أوليڤييه ؟. »

فأجابه الفحام وزوجته : « لا »

وقص عليهما حادثة « ريمس » ، وقضى الليلة واليوم التالى معهما ، وكان يتنهد ويذكر اسم « أوليڤييه » وهو يحسبه فى أحد سجون « ريمس » ، وكان يريد الذهاب إليه ويود أن يموت معه . ولكن الفحام وزوجه حولاه عن عزمه هذا بعد عناء شديد . ولما جاء منتصف الليلة الثانية أخذ بندقيته وتأبط سيفه وقال للفحام بصوت منخفض :

ـ «يافحام . »

ـ « ما ذا تريد يافيلكس ؟ »

ـ « احمل بلطتك واتبعنى حيث أسير . »

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « ياله من سؤال ظريف ! سنذهب إلى « أوليڤييه ... ؟ »

ثم سارا معا ، ولما خرجا من الغابة اكتنفتهما فصيلة من الفرسان.

* * *

ولأقص عليك ماقالته لى الفحامة ، وأنت ترى أن من المؤلم أن راجلين يحاولان أن يقاوما عشرين فارسا ، وقد تظاهر هؤلاء الفرسان بأنهم متفرقون لأنهم كانوا يرغبون فى القبض على غريميهم وهما على قيد الحياة .

ومهما يكن من أمر فقد كان العمل شاقا مضنيا .

وكان أمامهم خمسة من الجياد المعدة وسبعة من الفرسان المسلحين بالبلط وبالسيوف ، وقد أصيب الفحام المسكين برصاصة فى صدعه أودت بحياته فى الحال .

ثم عاد «فيلكس» إلى الغابة. ولما كان خفيف الحركة وكان فى حال مؤلمة حرجة لا تخطر ببال ، ظل يجرى من مكان إلى آخر ويحشو بندقيته — فى أثناء جريه — ويطلقها ثم يصفر .

وقد استطاع بهذا الصفير وتلك الطلقات الداوية — التى كانت تصدر فى فترات متقطعة من جهات مختلفة — أن يخيف الفرسان ، ويخيل لهم أنهم أمام شرذمة من المهربين فعجلوا بالانسحاب .

* * *

ولما رآهم «فيلكس» قد ابتعدوا عنه عاد إلى ميدان المعركة ، وحمل جثة الفحام على كتفيه وتولى صوب كوخه، وكانت الفحامة وأولادها لايزالون نائمين . فوقف عند الباب ووضع الجثة على الأرض وجلس، ثم أسند ظهره إلى شجرة ، وكان وجهه إزاء مدخل الكوخ . هذا هو المشهد المفزع الذى كان ينتظر الفحامة عند خروجها من الكوخ.

واستيقظت الفحامة ولم تجد زوجها إلى جانبها . وبحثت عن «فيلكس» فلم تجده فعجبت . ولما خرجت وقع نظرها على هذا المشهد، فصرخت وسقطت على ظهرها ، وأسرع أولادها بالخروج ورأوا ما رأت فصرخوا مذهولين وارتَمَوْا على جثتى أبيهم وأمهم .

* * *

وأفاقت الفحامة من غشيتها إثر هذه الجلبة وصراخ الأولاد وجعلت تقطع شعرها وتمزق خديها و « فيلكس » مايزال ساكناً لا يبدى حراكا وهو جالس إلى جذع الشجرة مغمض العينين مرسلا رأسه إلى الخلف . ثم قال لهم بصوت خافت حزين :

« اقتلونى . »

وساد الصمت لحظة ، ثم تجدد الألم والصراح ، وعاد « فيلكس » وهو يقول لهم :

« اقتلونى أيها الاولاد . أشفقوا علىّ واقتلونى رحمة بى . »

* * *

وهكذا أمضوا ثلاثة أيام وثلاث ليال وهم فى هذا الحزن والألم الشاملين . وفى اليوم الرابع قال « فيلكس » للفحامة :

« احملى مِخلاتَكِ أيتها المرأة وضعى فيها الخبز واتبعينى . »

وبعد سير طويل — خلال الجبال والغابات — وصلا إلى منزل « أوليفييه » وهو فى نهاية الضاحية ، فى المكان الذى ينقسم إلى طريقين تؤدى الأولى إلى « فرنش كونتيه » والثانية إلى « لورين »

وهنا علم «فيلكس» بوفاة «أوليفييه» وألفى نفسه بين أرملتى رجلين، ورأى أنه كان السبب فى قتلهما ، فدخل وأسرع قائلا لزوجة أوليفييه :

أين « أوليفييه ؟. »

وعندما رأى سكوت المرأة ، ولون ملابسها و بكاءها ، أدرك أن « أوليفييه » قد مات . فاشتد تأثره وخارت قواه ، وسقط فشج رأسه إذ اصطدم بالصندوق الخشبي المعد للعجين . فحملته الأرملتان ـ وقد سال دمه عليهما ـ و بينا هما تجففانه قال لهما :

« أنتما زوجتاهما وها أنتما تان تقومان بإسعافي. »

ثم خارت قواه وعاد إليه صوابه ـ بعد قليل ـ فقال وهو يتنهد :

« ولماذا تركني أوليفييه ؟ ولماذا جاء ريمس ؟ . ولماذا سمحوا له بالمجيء إليها ؟ »

ثم أغمى عليه بعد أن اشتد به الغضب ، وسقط وأخذ يمزق ثيابه .

* * *

وفى إحدى نو باته هذه استل سيفه وهم أن يَبْخَعَ نفسه به ، فألقت المرأتان جسميهما عليه وصرختا طالبتين الإغاثة ، فجاء الجيران مسرعين وأوثقوه بالحبال ـ بعد أن جرح نفسه فى ثمانيـة مواضع ـ ثم سكن غضبه لشدة ما أصابه من ضعف قواه. ولبث كالميت ثلاثة أو أربعة أيام ،

وثاب إليه رشده فى نهايتها، وما كاد يفيق حتى تلفت حوله كمن استيقظ من سُبات عميق وقال :

« أين أنا ؟ ومن أنتما أيتها المرأتان ؟. »

فأجابته الفحامة :

« أنا الفحامة . »

فقال : « آه ! نعم الفحامة . . . وأنتِ ؟ »

فسكتت زوجة «أوليفييه» فانخرط فى البكاء، ولفت وجهه إلى الحائط وقال وهو يزفر : .

« إنى فى بيت «أوليفييه» ... وهذا السرير هو سرير «أوليفييه» ... وهذه المرأة هى زوجته . . . آه »

وعنيت به المرأتان كل العناية وأشفقتا عليــه كل الإشفاق ـ وألحتا عليه أن يبقى على حياته ، وأظهرتا ـ والحزن يمزّق قلبيهما ـ أنه هو عمادهما الباقى ، وبهذا وحده أقنعتاه برأيهما وحولتاه عن عزمه .

* * *

وكان بعض الناس يعلمون أنه فى بيت «أوليفييه» ، وكان بينهم بعض الأشرار الحاقدين ، فنبهته الأرملتان إلى الخطر المستهدف له .

وبعد ظهر يوم كان جالسا على مقعد وسيفه على ركبتيه وقد اتكأ بمرفقه على المائدة ووضع راحتيه على عينيه ، ولم يجب على شىء أولا .

وكان لأوليفييه ولد تتراوح سِنُّه بين السابعة عشرة والثامنة عشرة ، وللفحامة ابنة فى الخامسة عشرة . فقال فجأة للفحامة :

« اذهبى وابحثى عن ابنتك وائتينى بها . »

* * *

وعادت الفحامة مع ابنتها وتزوج منها ابن « أوليفييه » ، وكان عند « فيليكس » شىء من محصول حقله فباعه وأعطى الزوجين النقود وقبلهما وسألهما الصفح وهو يبكى . وذهبا ليقيما فى الكوخ ـ ولا يزالان به إلى الآن حيث أصبحوا أُسْرَة واحدة للأولاد جميعا ، وأقامت الأرملتان معا ووجد أبناء «أوليفييه» فيهما أبا وأما . »

وقد ماتت الفحامة منذ سنة ونصف سنة تقريبا ، وما تزال امرأة «أوليفييه» تبكيها كل الأيام .

وفى مساء يوم حيث كانتا ترقبان « فيليكس » ، — وكانت كل واحدة منهما ترقبه دواما بالتبادل — فرأتا الدمع ينهمر من عينيه ، وقد بسط ذراعيه فى سكون صوب الباب الذى يفصله عنهما ، وأخذ يجمع حاجياته ويضعها فى حقيبته ، فلم تقولا له شيئا ، لأنهما كانتا تعلمان أن رحيله عنهما أمر لا مناص منه ولا معدى عنه . وتعشى ثلاثتهم دون أن يتكلموا . وعندما أقبـل الليل وساد الظلام ، نهض قائما — ولم تـكن المرأتان قد نامتا — وتقدم صوب الباب على أطراف قدميه ، ثم وقف وأجال لحاظه فى سرير المرأتين ، ومسح عينيه وجفَّف دموعه بيديه وخرج . فتضامَّت المرأتان — بعضهما إلى بعض — بأذرعهما ، وقضتا بقية الليل تبكيان ولم تَعْلما إلى أين ذهب .

على أنه لم ينسهما ، فلم يكن يمضى أسبوع واحد من غير أن يبعث إليهما بكل ما يستطيع من معونة وزاد .



آلفرد دي ڤني



« تقفون والفلك المسخر دائر ، وتقدرون فتضحك الأقدار »

« أبو العلاء »

الجزء الأول

مقدمة المؤلف

كنت – فى الصيف الماضى – أروّح النفس من عناء العمل فى مَحَلَّةِ «سان لونير» وهى – فى الحق – من أبدع الشواطئ البريتونية .

وكنا نَقْضى أغلب أوقاتنا فى اجتلاء روائع الطبيعة الفاتنة ومشاهدة مناظر السابحين المتكررة المتشابهة وهم يصارعون الأمواج الثائرة ويغالبونها مغالبة الجبابرة العُتَاة ، وعلى كَثَبٍ منا ظَبَيَات البحر سابحات يَقْفِزْنَ بالقرب من الشاطئ مُمْسكاتٍ بالحِبال لِيُصْبِحْنَ بمأمَنٍ من كل خطر .

وكنا – ولا نزال – من عشاق البحر المعجَبين به ، نَقصِدُ إليه – لِذَاته لا لشىء آخر سواه – فنجلس على صخرة كبيرة ممتدة ، هى أشبه بلسان صخرى يقطع البحر ويكوّن فيه ساحلين غاية فى الروعة والجلال .

وكثيرا ما مرت بنا الساعات سراعا ونحن فى نشوة من جمال الطبيعة ولذة القراءة وأنس الأحاديث المعجبة ، فلا نصحو من نشوتنا إلا على زمجرة المياه تحت أقدامنا أوصفير باخرة دانية منا .

* * *

وفى ساعة من تلك الساعات المؤنسة التفتَ إلىّ صديق كريم وقال :

« هاك صفحاتٍ سجّلْتُها من حياتى ، وهى تُمثّل قصتى وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى ، وهى – فى ظنى – جديرة أن تسترعى اهتمامك

لقد كنتُ — في هذه السن — غِرًّا ساذَجا ، ولم تكن عندي شجاعة كافية لإتمام هذه القصة ، و إني أعدك بقَصّ بقيتها عليك إذا رأيت في ذلك فائدة . »

* * *

ولقد رأيت — بعد قراءة هذه القصة — أنها جديرة بالقراءة ، فهي كتاب نفيس يكشف كثيرا من نواحي النفس الإنسانية ودقائقها المُستَتِرة .

وهي قصة — فيما أرى — جذابة ورائعة ، وللقارئ أن يحكم عليها بعد قراءتها بما يشاء .

« الفرد سرفن »

الفصل الاول

فى باريس

وصلت إلى مدينة « باريس » وكنت — حينئذ — فى الثانية والعشرين من عمرى ، وكنت — فى هذه السن — على شئ من الغرور ، إذ خَيَّلت إلىّ نفسى أننى خبير بأسرار الحياة المستسرة الخفيّة ، وأنى قد أدركت كنه السعادة التى أخفق الناس فى الاهتداء إليها .

وأذكر أنى طالما حاولت أن أتذوق ألوانا من الحب ولكننى رجعت من سعيي بصفقة المغبون ، ولم أوفق فى تحقيق شئ من أحلامى الذهبية الرائعة .

وقد رحلت إلى « باريس » وكلى أمل فى أن أحقق عدة نظريات تشبعت بها روحى ، وأُنَمِّى فى نفسى رغبات أراها فى حاجة إلى التعهد والنمو ، وقد امتلأت نفسى ثقة بأننى سأوفق فى سعيي إلى تحقيق تلك الآراء والنظريات ، وجعلتُ سبيلى إلى ذلك أن أستسلم للتفكير العميق. ولم يكن ذلك ميسورا لمثلى ، إلا بعد أن يقر قراره فى مكان بعينه . فاستأجرت غرفة صغيرة لتكون مأوى لى — قبل كل شئ — وقد وفقت فى الاهتداء إليها . وكانت — على صغرها — كافية لراحتى وإسعادى ، ولم يكن ارتفاعها بأكثر من ارتفاع قامتى إذا وقفت ، ولا طولها بأكثر من امتداد جسمى إذا نمت .

ولقد كنت أرى السماء أمامى وأستمتع بجمالها ، وكان بالقرب منى شجرة وكنيسة ، وكنت أطل من غرفتى على سطوح المنازل المجاورة لى . فإذا شئت التفكير فى الأبد واللانهاية ، أجلت بصرى فى السماء وأطلت تأملى فى نجومها .

وإذا شئت التفكير فى الطبيعة، نظرت الى الشجرة وأطلت التأمل فيها، وإذا شئت أن أفكر فى عالمنا الأرضى وسكانه، أدرت لحاظى فى سطوح المنازل القريبة منى .

* * *

وكان فى حوزتى عدة كتب اخترتها وَفق تفكيرى وميلى إلى الاطلاع ونظرتى للحياة ، وكانت هذه الكتب تتكلم كما أفكر أنا ، ولم أكن أعمد إلى مطالعتها إلا فى ساعات الملل والضجر ، حين أستسلم للكسل والخمول .

فإذا شئت أن أتنزه . ذهبت إلى حديقة « التويلرى » وهى على كثب منى ، تخترقها قناة من الماء النمير ، وعلى مسافة قريبة منها كنيسة « نوتر دام » وقد ارتفع برجاها فى أجواز الفضاء ، ـ وبدت إلى جانبها ـ دار « العداله » وقد أشرفَ سطحها المحدد وظهرت إلى جانبها « سانت لاشابل » بسهمها الذهبى الوهاج .

وكنت أخرج من الحديقة ـ بعد أن تغلق أبوابها ـ قاصدا إلى الجسر لأشهد منظر غروب الشمس . وما أنس لا أنس يوم شهدتها وهى محصورة فى نصف دائرة « قوس النصر » ، وقد بدا بابه الفسيح كأنه باب مُوقَد ملتهب متأجج ، وخيل إلى ناظره أنه يرى شبحا أسود اللون فى تلك السماء الحمراء ، وتمثلت الشمس كأنها قطعة كبيرة من الياقوت تحت هذا القوس البابلى .

ثم سطع القمر وبدا من ناحية المجلس البلدى وألقت صفحته النقية الصافية أضواءها الساحرة على الماء ، وهى تشع على الأمواج المتكسرة القاتمة فتمنحها روحا طاهراً دنسته وشايات اللؤماء . وكان كل ما يكتنفنى

ـ من الأشياء ـ أشبه بالمناظر الخيالية منهُ بالحقائق ، ومصابيح الغاز يخيل إليك أن لونها أحمر ، وبرج « سانَ جاك » يبدو شامخا وكأنما يسخر من المساكن المتواضعة التى تكتنفه وهو يُطل ـ فى إشفاق الهازئ المعجب ـ على تلك البيوت الباهتة اللون ، التى تأوى إليها جمهرة من المساكين الباهتى اللون .

وتمثلت الاشجار الممتدة على الرصيف وكأنما التحفت بمعاطف من الورق وهى تمضى ليلها فى مثل سكون النائم الحالم ، فإذا هب نسيم بليل من جهة النهر ، سمعت حفيف تلك الأشجار ، خيل إليك أنها ترتجف من قسوة البرد .

***

هكذا أمضيت عاماً ، بأكمله وأنا مستسلم لعزلة قاسية ، وكنت أشعر بنمو إحساسى ، ونزعات نفسى ، ونضوج آرائى واكتمال صحتى وقوتى ، وأنا مستغرق فى أحلام تفكيرى اللذيذة وتأملاتى العميقة ، وكنت أحس أن الهواء يتعطر بأريج ساحر ، كلما مرت امرأة جميلة أمامى ، وربما تمثلت ـ فى ظلال الأشجار الكبيرة ـ ألوانا رائعة تتبدى فى شعاع الشمس وهو يجوس خلال تلك الظلال الوارفة

وربما انتبهت من أحلامى هذه إثر نظرة مستفسرة يلقيها على أحد المارّة ، أو ثوب رقيق ناعم يلامسنى عن غير قصد

وكثيرا ما استرعى بصرى منظر فتى وفتاة ـ فى مقتبل الشباب ـ كانا يسيران فى تلك الطريق ، وكلاهما معتمد ذراع الآخر ، وقد أثملهما الغرام ، وبدا فى مشيتهما تبريح الوجد وهما سائران فى ذلك الممشى المقفر الذى طالما ألفت الجلوس فيه

ولقد كنت أشعر برجفة تسرى فى كل أجزاء جسمى حين أرى تبادل نظراتهما المغناطيسية أو أسمع وسوسة شفاههما العذبة ، فتثير من لاعج أشجانى ما تثير .

* * *

وعندى أن الحب الأول، ليس هو الحب الحقيقى، أو هو على الأقل ، ليس بالحب الصادق المتين . فإن المرء ـ لأول عهده بالحب ـ يكون غرا جاهلا لم يسبر أغوار الحياة ولم يتعرف حقائق الأشياء ، فهو ـ اذا أحب ـ كان حبه أقرب إلى الدعابة والتسلية منه إلى الجد .

والفتى ـ فى فجر حياة الشباب ، وأول عهده بلقاء النساء ـ يحب غالبا إن لم أقل دائما أول امرأة يظفر بلقائها وتمكنه الفرصة من الاتصال بها والقرب منها. فإذا أخطأته هذه المرأة فربما نجا من الحب طول حياته ، وخلص من تبريحه وآلامه أبد الدهر، مادام لم يجد تلك المرأة اللعوب، التى تسوقها إليه المصادفات المحضة، فتغريه بالدنو منها وتطمعه سهولتها فى وصالها

* * *

فإذا لم يظفر بإنسانة من هذا النوع خشى أن يتقدم فى هذه الطريق خطوة مادام لم يجد من يشجعه عليها

و يارب نظرة مغرية تلقى بها سيدة لعوب على فتى مراهق ، تبعث فى نفسه الأمل على طرق هذه الطريق المجهولة ، فيغض من بصره حياء ـ فى أول أمره ـ ثم لا يلبث أن يتشجع حتى يملأ الحب قلبه من حيث لا يدرى .

ولهذا السبب تنصرف أول رغبة جنسية يحسها الشاب ـ على وجه العموم إلى امرأة أكبر منه سنا ، وأقدم منه بالحياة عهدا .

* * *

إن الجمال الذى يوشك أن يذبل ، والحسن الذى دنا من آخرته ، وكادت تذهب روعته وبهاؤه ، ليجد فى غرارة الشباب الناشئ من ألوان التملق ما يزدهيه و يبهجه ، و إن ذلك الشاب ليجد فى انعطاف مثل هذه السيدة و إقبالها عليه ـ وهو لم يألف مثل هذا العطف من قبل ـ ما يرعبه و يملأ نفسه ثقة و إعجابا .

ومن ثم ينفسح أمام هذا الشباب عالم الخيال ، و يفتح كل قلبه لهذا الحب ، و يفيض على تلك السيدة بألوان الجمال الذى يمثله لنفسه ، و يظل يكسوها ثو با خياليا أنيقاً حتى يغرقه اليأس والخيبة ، فتنكشف له حقائق الأمور ، ولا يلبث أن يرى الأشياء على حقيقتها .

ثم لا تلبث التجارب أن تصقل نفسه حتى يأتى الزمن الذى يتعرف فيه حبيبته التى ينشدها و يخلص لها و يهيم بحبها .

فالحب الأول ، حب تسلية ودعابة وتفريج هم ، والحب الثانى ، حب قاهر لاقبل لك بمدافعته وكبح جماحه ، ولا سبيل إلى التخلص منه بعد أن أصبح قلبك ملكا لمن تحب وفريسة له .

و فى هذا الدور من الحياة تنعكس الآية ، فلا ترى شابا يحب سيدة أسن منه ، بل ترى كهلا يحب فتاة أصغر منه .

لا ترى فتى يحب نَصَفاً و يبحث فيها عن جمال ذابل ، بل ترى رجلا يشعر أن نفسه قد أوشكت أن تذبل ، و يرى أنه فى أشد الحاجة إلى من يَرْجعه إلى شبابه و يعيد إليه ماضيه السعيد .

ومن ثم نرى للغادة الكعاب جاذبية قاهرة وسلطانا بعيد المدى ، على نفوس الرجال الذين أنضجتهم تجارب الحياة .

الفصل الثانى

في الـكنيسة

إن فى حياتنا ليوما يعدل الخلود بأسره ، ذلك يوم يهيئه لنا كل ماضينا الحافل بشتى ألوان المتاعب و المسرات ، و ربما توقف على ذلك اليوم السعيد كل مستقبلنا .

يطلع علينا فجر هذا اليوم مشرقا سعيدا مؤتلقا إذ تتاح لنا فيه مصادفة سعيدة سارّة ، حين نظفر بلقاء المرأة التى صورها لنا خيالنا الخصب ومثلتها لنا رغباتنا وأمانينا ، تلك المرأة التى نفهمها وتفهمنا وتلتقى أحلامنا بأحلامها وشعورنا بشعورها ، و يدانا بيديها ، وشفتانا بشفتيها ، وتتجاوب خفقات قلوبنا بخفقات قلبها ، فتبتسم لنا الحياة ، ونحس كأننا فى عالم من عوالم السحر ، لشدة ما استولى على نفوسنا من فرط السرور .

* * *

لقد أشرقت شمس هذا اليوم السعيد ، فى ربيع لتغرب فى خريف ، وكأنما كانت الطبيعة نفسها ، تَشْرَكنى فى الابتهاج بهذا الفجر السعيد ، وفى الألم لتلك النهاية المحزنة . فقد كانت الطبيعة فى ربيع حسنها ، وكنت فى ربيع آمالى ، واحتشدت الطبيعة ، بكل ما فيها من أغان واغاريد وأزهار ، وكأنما كانت تحتفل بما يدخره لى الزمن من شتى ألوان السعادة ، حتى اذا آذنت شمس آمالى بالمغيب ، وتحطمت أمانىّ وأحلامى ، وذبلت أزهار سعادتى رأيت فى الطبيعة مرآة هذه الخيبة و بدأت تتساقط الأزهار أوراق الغصون — كما تتساقط دموعى — ثم تذوى وتصفر الأشجار ،

ـ كما أذوى سواء بسواء ـ وأصبحنا جميعا عاطلين ، هى من وارف الظل، وأنا من ابتسامة الحب .

* * *

وقد أسلفت القول بأنى كنت فى ذلك العهد فى مقتبل شبابى . وانى لأذكر أننى خرجت فى مساء ليلة من الليالى ، وكان من عادتى أن أخرج للتنزه فى كل ليلة، ولم أغير شيئا من مألوف عادتى، إلا خطة السير وحدها. وكانت هذه الليلة ، هى أول ليالى شهر مايو ، وقد خرجت أضرب فى سيرى اعتسافاً إلى غير وجهة،وظللت أجوب الطرقات وأنا لا أعرف إلى أى مكان أقصد، حتى مررت على كنيسة عادية ليس لها مظهر خلاب ، ورأيت نوافذها مضيئة ، وسمعت ساعتها تدق الثامنة ، وشهدت جهرة من الناس يؤمونها ، و يدخلونها. فتابعتهم فى ذلك عن غير قصد ، و إنما هما التقليد والمحاكاة دفعانى إلى دخول تلك الكنيسة ، ولم يكن لى عهد بدخولها . وكان مدخلها مظلما فسلكته حتى وصلت إلى مكان الترتيل ، فرأيت شموعاً ومصابيح موقدة ، وسمعت أناشيد ساذجة ، ورأيت قسيسا يعظ الناس ، قائما على مذبح الكنيسة، وعلى كثب منه، فئة من المتدينات، يصلين على مقاعدهن، وإلى جانبهن بعض المتدينين جاثين ، وسمعت الراهبات يسرعن فى ترتيلهن أحياناً، و يبطئن أحياناً أخرى ـ وقد ارتسمت على وجوههن أمارات الخشوع ـ وكانت تأتى بعض السيدات بين حين وآخر فتبادر بالانضمام إلى من سبقنهن.

ولست أذكر أننى سمعت أغانى كاثوليكية ـ منذ خرجت من بلدتى الصغيرة ـ مجردة من الفن ، كما سمعت فى تلك الليلة. على أننى شعرت بسرور وأنا أنصت إلى تلك الموسيقى الساذجة وأستمع إلى ذلك الأرغول وهو

يعزف بعد أن سكت طويلاً فى أثناء ترتيل الراهبات ، ثم عاد فانضم إلى ترتيلهن ، وانسجمت أصواته مع حركاتهن ، ثم هدأت الأصوات كلّها واستمرت تلك الآلة الموسيقية فى عزفها وهى تردد تلك الأناشيد ترتيلا صادق الأثر شجىّ النغمات أسال منى الدموع وملأ قلبى روعة وخشوعاً .

الفصل الثالث

اليتيمتان

ولما سكنت الأصوات،وساد الصمت رُواق الكنيسة ، صعِدْتُ إلى السلم ، حتى انتهيت إلى المنبر ، وكان مصباح الآلة الموسيقية لا يزال ينبعث منه دخان ، والمكان أقرب إلى الظلمة منه إلى النور ، ولم أبصر — فى أول الأمر — سوى نهاية الكنيسة ، حيث يبدو المدرج وفيه أضواء باهتة ، وطرق أذنى فجأة صوت خافت أشبه بالتنهد ، فرفعت عينى فرأيت فى الجانب الآخر من المنبر امرأة جاثية على ركبتيها، وقد أسندت مرفقيها إلى الجلفق ، وأخفت جبينها بين يديها ، وتدلى ثوبها الأسود المتثنى على قدميها ، وكان على رأسها قناع لم يخف كل شعرها الأصفر ، وكانت يداها نحيفتين قليلا ، ووجهها رائع الجمال ، وجلستها غاية فى الروعة والحسن .

ولولا أننى وجدتها مرتدية ثياب الحداد ، لحسبتها ملاكا من ملائكة السماء. ولقد كانت — فيما يبدو لى — غارقة فى تأملات عميقة ، فلم تشعر بمجيئى واقترابى منها ، وكان إلى جانبها فتاة صغيرة فى الثالثة عشرة من عمرها ، تدل ملامحها على أنها شقيقتها ، وهى مرتدية — كأختها — ثياب الحداد . وبعد قليل حولت السيدة الشابة رأسها فجأة ، فبدا لى نصف وجهها مضيئا ، ولمحت كأن خطاً من النور مرتسم عليه ، ورأيت أمامى وجهاً يترقرق فيه ماء الحسن صافياً فيبدو لرائيه جميلاً وجذاباً، ويشعره أنه فاتن أخاذ ، يجمع — الى جلال الأثر الفنى — سحر الجمال العصرى .

ثم شهدتها وقد وقفت بالقرب من البيان ، وما كادت تدانيه حتى أجالت أصابعها فى دساتينه ، فسمعت لحناً بديعاً ينبعث من أوتار

« البيان » وقد ملك على كلّ نفسى ، و بعد قليل خرج الناس ، وغادر القسيس المذبح ، وانطفأت الشموع ـ واحدة بعد الأخرى ـ وساد الظلام المكان وكشف القمر عن وجهه الشاحب فرسمت أشعته على الجدران ظلال الزجاج الذى فى النوافذ ، فكان منظر يشبه الأحلام ، و رأيت تلك السيدة الشابة وقد بسطت يداها إلى الطفلة وهى تقول :

« تعالَىْ يا شقيقتى »

فجمجمت الطفلة وقد خفضت عينيها :

« لقد صليتُ لأمى »

فأجابتها أختها :

« لقد فعلت يا « كلودين » نفس ما فعلته أنا ، ولقد طالما سمعت الناس يقولون: إن الله يجيب دعوات اليتامى . ولعله يجيب دعاءنا »

* * *

ثم سارتا فى طريقهما وقد مرتا بجوارى دون أن تريانى، ولمس ثوب الكبرى يدى، وعدت إلى بيتى ولكن عينىّ لم تغمضا، فقضيت الليلة كلها مؤرقاً مسهداً .

الفصل الرابع
أول الحب

صحوتُ في اليوم الثاني ، فوجدتُني في أشد الحاجة إلى المشي والاختلاط بجمهرة الناس، لأنني كنت في حاجة إلى الشعور بالحياة والعمل - بعد أن غرقت في عالم من عوالم التفكير والأحلام - فسرت على قدمي ، وظللت أجول في الطرقات معتسفاً ، ولكن الجلبة فيها لم تلبث أن أتعبتني بعد وقت قصير ، فحولت سيري إلى محطة السكة الحديدية حيث أقلني القطار إلى قرية « ميدون » تلك القرية البديعة ، وكان القطار يجري في خلال الحقول المزدهرة الناضرة. وما كدت أحل في تلك القرية ، حتى استرعى بصري بيت أبيض خلف دوحة عادية آهلة بأسراب من الطيور المرحة ورأيت حديقة وارفة الظلال ، وأطفالاً يلعبون على بساطها السندسي وقد امتلأت نفوسهم بهجة وانشراحاً ، وسمعت رنين ضحكاتهم العالية، ورأيت أمهم وقد انتحت مكاناً قصياً عنهم ، حتى لا تكدر صفوهم وهي تنظر إليهم من بعيد ، وترقب حركاتهم من خلال زهر الزنبق المزدهر ، وجاء طفل يعدو إلى أمه وانطرح بين ذراعيها وهي متظاهرة بأنها لم تره لانهماكها في تفكيرها.

ورأيت جمهرة من صغار الأطفال ، وعلمت أنهن تلميذات ، جئن يتنزهن في الخلاء ومعهن المدرسات يرقبنهن عن كثب ، وقد استولى المرح على أولئك الصغيرات وظهر على أساريرهن الابتهاج لما ظفرن به من حرية مطلقة، وكن أشبه بالعصافير التي فرت من أقفاصها وامتلأت نفوسها بهجة وانشراحا للخلاص من ربقة أسرها. وما زلت أسير من طريق إلى أخرى ، وأنا أمتع ناظريّ بمناظر الطبيعة المبهجة ، وأملّي بصري

برؤية نهر « السين » ، والتلال الكثيفة القريبة منه وقد غصت بالحشائش ، والسهول المنبسطة على جانبيه. وما كاد النهار يوشك أن ينتهى حتى عدت من طريق غابة « بولونيا » وقد امتلأت نفسى بروائع الطبيعة وجلال مناظرها . وما كدت أصل حتى حملتنى قدماى — عن غير قصد — إلى الكنيسة ، وكأن إلهاما يحدونى إلى دخولها لرؤية اليتيمتين اللتين رأيتهما بالأمس .

وما كدت أصل إلى الرواق الكبير حتى رأيته خالياً من الناس ، ودنت ساعة الوعظ والصلاة وأشعلت الشموع وصعدت إلى السلم الحلزونى ، ودنوت من الآلة الموسيقية ، أكثر مما كنت بالأمس ، ولبثت مدة طويلة أترقب — بفارغ الصبر — وصول اليتيمتين ، وكنت مشغول البال مرهف الحس ، لا تكاد تسقط حصاة على السلم أو تهب ريح حتى تسترعى انتباهى ويخفق لها قلبى ويتجه إليها عقلى ، وأنا أحسبها حركة قدوم الفتاتين . وبعد قليل سمعت وقع قدمين ، ورأيت الأخت الكبرى تدخل وحدها ، ورأتنى شديد الانتباه إليها وأنا شارد الفكر زائغ البصر ، فكان ذلك أول ما لفت نظرها إلىّ ، وبعد أن أتمت صلاة قصيرة ، دخل رجال الكنيسة ورتلوا أناشيدهم ، وازدحم المكان — بعد قليل — ثم عزفت تلك الفتاة لحناً مشجياً لم يفتنى شىء من دقائقه ، وما كادت تنتهى حتى التقت عيناها بعينىّ اللتين بللتهما دموع الخشوع والوجد .

وكان هذا أول اتصال روحى بينى وبينها ، فقد أدركت أنى قد فهمتها وفطنتُ إلى دُخْلَتِها ، وكان آخر نظراتها نظرة شاكرة لى . وقد كنت — لحسن حظى — جالساً فى هذه المرة إلى جانبها ، فلم تكن لتستطيع أن تتحرك أقل حركة ، من غير أن تمسنى ، وكنت أسمع تمتمة لذيذة بين شفتيها وهى تصلى ، وبعد قليل انفضّ الجمع ، وانصرفت اليتيمة من حيث أتت .

الفصل الخامس
ليلة فى الكنيسة

وهكذا قضيت خمسة عشر يوما من أيام الريف المبهجة ، وقدمرت على وتيرة واحدة ، وشعرت أن حياتى أصبحت غريبة ، وتملكنى شعور عجيب ، فصرت لا أحفل بالمستقبل ولا أهتم بالحاضر نفسه.

وكانت الشقيقتان تأتيان إلى الكنيسة معاً ـ فى بعض الأحيان ـ وتتخلف الصغرى عن مرافقة أختها فى أحيان أخرى . على أننى لم أكن أُعْنَى بتغيب الصغرى ، فقد كان همى كله ومطمحى فى أن أرى الكبرى لأنها حسبى من الدنيا جميعا .

ولم يكن ليخطر على بالى قط أن نهاية شهر مايو ستكون نهاية تلك الحفلات الليلية التى تقيمها الكنيسة ، فقد أنسانى الحاضر كل شئ ، و بقيت ألتهم السرور التهاماً ، وقد ركنت نفسى إلى الهدوء والدعة ، ولم تلبث اليتيمتان أن تعودتا رؤيتى ، واطمئنتا إلىّ ، وكنت قد ألفت أن أذهب إلى الكنيسة قبل حضورهما ولا أغادرها إلا بعد انصرافهما ، وكنت أنحنى أمامهما وأشير إليهما بتحية صامتة كلما مرا بجانبى فترد علىّ الكبرى تحيتى من غير أن ترفع عينيها .

أما الصغرى فكانت فى أيام تعارفنا الأولى تفتح عينيها النجلاوين الدعجاوين كلما رأتنى أمامها ، ثم تختلس النظرات اختلاساً ـ بين حين وآخر ـ ومالبثت الشقيقتان أن ألفتا رؤيتى ، وطالما رأيت فى إنسان عينها البرئ الطاهر دمعة تترقرق ، فخيل إلى أننى أرى زهرة غضة تتفتح فى الصباح وقد بللها الندى وطال عليها الرقاد .

* * *

وإذ كان لكل بداية نهاية ، حل آخر الشهر وحرمت رؤية ملاكى المحبوب المجهول الذى لا أعرف عنه سوى اسمه الظريف: « چورچنيا » وكنت أحسب أن هذه الليلة الختامية سيعقبها حرمان طويل من مشاهدة من أحب ، ولم أدر ما يدّخِرْه لى الزمن من ساعات الصفو والسعادة التى لم أكن أحلم بهما من قبل ، فقد أتيحت لى فرصة ثمينة ـ لم تكن فى حُسبانى قط ـ أكسبتنى صداقتهما ، ثم توثقت صلات الصداقة بعدُ ، فصارت حبًّا لم يلبث أن أحكمت أواصره فأصبح كلفا بها وهياما .

* * *

انتهت حفلة الكنيسة وخرج الناس وساد الصمت والظلام ، ولم يبق إلا فتاتى المحبوبة غارقة فى صلاتها . وما كادت تنتهى منها حتى أغلقت أبواب المعبد، فما أفاقت « چورچينا » من تفكيرها العميق إلا على صوت دقات الساعة ، وصرير الأبواب الثقيلة ـ وهى تقفل ـ فالتفتت إلىّ « چورچينا » حائرة ، ونظر كلانا إلى الآخر مشدوها ، وتملكنا الرعب جميعا فقد حدث مالم نكن نتوقعه ، وتقدمتْ إلىّ « چورچينا » مسرعة وقالت بصوت مضطرب :

« سنضطر إذن إلى قضاء هذه الليلة وحدنا فى الكنيسة . »

فَطَمْأنتها ، وقلت لها :

« لا تخشَىْ شيئا يا آنسة فإنى باذل جهدى كله حتى يفتحوا لنا الباب »

***

ثم نزلت من السلم مسرعا وأنا ألمس طريقى فى الظلام ، وحاولت أن أفتح الباب الكبير ، فذهبت محاولتى عبثا ، فجريْتُ مسرعاً إلى باب

آخر كان يخرج منه القسيسون لعلى أجد أحدهم قد تلكأ فى الخروج، وما كدت أصل إلى ذلك الباب حتى ألفيته مغلقا أيضا ، ونظرت من ثقب صغير فيه فرأيت ثلاثة من القسس على كثب من الباب، وسمعت رنين ضحكاتهم العالية وهم عائدون ، فخيل إلى أننى أرى أمامى ثلاثة تلاميذ خرجوا من المدرسة فرحين بعد أن انتهت ساعات دروسهم وهم يقهقهون و يفركون أيديهم فرحا بانطلاقهم من أسْرِ المدرسة .

فهززت الباب هزة عنيفة ، ولم أكد أفعل حتى خامرتنى فكرة مُوَفقة ، فما أسرع ما رجعت إلى نفسى فعلمت أن المصادفة السعيدة قد أتاحت لى هذه الفرصة الفذة الثمينة ، وأمكنتنى من قضاء ليلة كاملة مع « چورچينا » من غير أن أسعى إلى ذلك أو أفكر فيه .

***

وخشيت أن يكون القسيسون قد سمعوا هذه الضجة التى أثرتها ، ووددت لو أنهم لم يفطنوا إلى شئ من ذلك ، وقد تم لى ما أردتُ ، وحمدت الله لأنهم كانوا فى شغل عنى ، فرجعت أدراجى فى هدوء وصمت وقد تملكنى شعور غامض بالسعادة التى يدخرها لى القدر — فى هذه الليلة — فغرقت فى حلم لذيذ ، وأصبحت نصف مستيقظ ونصف نائم ، وظهرت لى الكنيسة حينئذ رائعة التناسق، وكأن نور الأمل والسعادة يشع فى كل مكان ، وتصبب جبينى عرقاً بارداً ، وشعرت برعشة انتظمت جسمى كله انتظاماً لشدة ما غمرنى من السرور والابتهاج بتلك السعادة التى أتاحتها لى المقادير .

ورأيت — على ضوء السماء الشاحب — عدة خفافيش تمر سراعاً أمام الألواح الزجاجية الكبيرة ، فلم أستطع أن أتبين أجنحتها الخفاقة فقد كان

لونها أسود كالليل ، ولـكنها كانت تلتصق أحياناً بالزجاج فتبدو أمام عينى كأنها رؤوس بغير أجسام ، ويخيل إلىّ أنها جاءت لترقبنى وتحدق أبصارها فىّ .

ولما عدت إلى المنبر لم أجد الفتاة ، ولـكننى كنت على ثقة من أنها لم تبرح الـكنيسة بعد فإن أبوابها كلها مغلقة . فنزلت من السلم وطفقت أدعوها متلطفاً بصوت خافت ـ حتى لا أزعجها ـ وأناديها مترفقاً :

« إلىّ يا آنسة چورچينا »

وسمعت لصوتى صدى غريباً ـ لا عهد لى به ـ يرن فى تلك الـكنيسة المظلمة المقفرة، وخيل إلىّ أن القديسين جميعهم يرددون معى هذا الاسم الجميل المحبوب ويهتفون باسم « چورچينا » معى .

ولم ألبث أن سمعت وقع خطوات خفيفة فعلمتُ أن الفتاة قد سمعت ندائى ، وأقبلت علىّ وهى تقول :

« أرأيت أن الأبواب كلها مغلقة ؟ أليس كذلك؟ »

وقلت لها:

« هو كذلك يا آنسة ، ونحن مضطران إلى البقاء هنا سجينين إلى الصباح . »

فقالت مرتبكة :

« وما العمل ؟ وكيف أصنع وأختى الصغيرة « كلودين » وخادمتنا العجوز « فرنسواز » ترقبان عودتى بفارغ الصبر ، وما أدرى كيف تقضيان ليلتهما هذه وأىّ هم وقلق سيستوليان عليهما بسبب وحشتهما وانزعاجهما علىّ ؟ . »

فبذلت كل جهدى فى تسكين روعها وهوّنت عليها الخطب حتى سُرّىَ

عن نفسها ، ولم تمض لحظات قليلة حتى أغرقت فى الضحك ، متعجبة من ذلك الموقف الغريب الذى ساقتنا إليه المقادير .

* * *

وأرادت « جورجينا » أن تجلس فى أحد الأروقة الخارجية ، فاعتمدت ذراعى وهى صاعدة على السلم ، وكان السلم - لحسن حظى - شديد الضيق ، فالتصق جسمانا ولم يكن من ذلك بُدٌّ ، وشعرت بضيق فى تَنَفُّسِى لفرط ما غمرنى من الحيرة والسرور ، وكان شعرها يمس خدى - بين حين وآخر - فيمتقع لونى ، وتسرى الرعشة فى بدنى كله ، وأشعر بقسوة ما أنا فيه من التعذيب والشقاء فى مغالبة عواطفى الملتهبة الثائرة .

* * *

ولما انتهينا إلى الرواق الخارجى الذى يممناه ، جلسنا جنباً إلى جنب ، وكان الليل ساجياً هادئاً ، وكنا نشعر كأننا نطير فى جو المدينة المضيئة التى نشرف عليها من ذلك المكان ، ولبثنا زمنا نستمع إلى خرير النهر ونُباح الكلاب ووقع أقدام المتنزهين ، ونمتع أبصارنا بمراقبة الزوارق وهى تشق الغدير ، ثم خفتت الأصوات واستولى النوم على سكان المدينة ، وساد الصمت فلم نسمع نأمة ولا صوتاً .

وفاضت أحاديث السمر بيننا فى مختلف الشئون ، وكانت عارفة باسمى - لحسن حظى - فقد نشأتْ فى بلدتى - كما علمت من حديثها - وكان والدى صديق أبيها . وهكذا تم التعارف بيننا فى صحراء كنيسة مغلقة .

* * *

وقصصت عليها تاريخ حياتى وما لقيته من مصائب الزمن ونكباته ،

وكم كنت سعيدا حين رأيتها تشركني فى الألم وتريق دمعة من عينها حزناً علىّ ، وكنت جالساً إلى جنبها ، ممسكاً بيدى إحدى يديها وهى تحاول أن تخفى ـ بيدها الأخرى ـ طلعتها الجميلة ، ولم تكن أصابعها لتحول دون أن تسقط على يدى تلك الدمعة الفاترة التى أراقتها عينها ، فأرسلت شفتى عليها وشعرتُ بسعادة لامثيل لها .

* * *

ثم دقت الساعة الأولى فى أول يوم من أيام سعادتى ، وأنشأت «چورچينا» تقص بدورها علىّ سيرة طفولتها .

الفصل السادس

قصة چورچينا

« كان أبى تاجرا ، على أنه لم يخلق ليزاول هذه الحرفة تماماً ، وقد عام فى مضاربات جريئة أفضت إلى خرابه بعد خمس سنين من زواجه، وسارت حاله من سىء الى أسوأ — حتى تملكه اليأس ، وكان كثيرا ما يقضى طول نهاره مهموما محسورا حزينا ، وربما انتابته نوبة حزن فأَرَّقَتْهُ طول ليله .

وفى أثناء هذه المحنة التى دهمت هذا الرجل الوديع أخا الطبع الهادىء والشعور الحى المتيقظ، كان يغلى فى قلبه مرجل الغضب، ويصب من فيه اللعنات ، وربما كفر بالله ، وقرع صدره بيده متحسرا ولطم جبينه كما يفعل المخبول . وكان يخرج من المنزل عارى الرأس والأمطار تهطل والهواء البارد يهب قارسا .

وربما قضى زُلَفاً من الليل على هذه الحال ، حتى إذا مارجع أدراجه إلينا هددنا بأنه قد صمم على الانتحار .

فإذا جاء الغد تملكه الضعف والتعب ، وربما عاوده تأنيب الضمير ، فهدأت ثائرته وأتيحت بذلك لأمى فترة من السكون والراحة ، ولست أذكر أننى وجدتُ أمى — عقب خروج أبى من المنزل — إلا باكية حزينة تتلمس عزاءها فى العطف علىّ وتقبيل وجنتىّ .

وكنت — على صغر سنى — قادرة على إدراك ذلك، وقد استمرت هذه الحال المحزنة عدة سنوات أعقبتها سنتان قضيناهما فى هدوء وسعادة .

وقد وُلِدَتْ « كلودين » شقيقتى فى خلالهما .

وبدا لنا كل شئ فى الحياة مبتسما . ولكن شاء القدر ألا يطول أمد سرورنا ، فقد خطِفت المنية والدى ودفن فى قبره بجوار آخر بناته .

* * *

وأول من تفتحت عليها عينا « كلودين » ، كانت امرأة مرتدية ثوب الحداد ، تصل ليلها بنهارها باكية . وحينئذ اتخذت والدتنا بنا منزلا صغيرا كانت تملكه ، ولا أزال أذكر كل شئ فى هذا المنزل ، ففى فنائه حشائش مرتفعةوعلى كثب منها كرمة مُهَدَّلَة عناقيدها الصافية .

وإنى لأتمثل الميزاب وقد رف عليه حمامنا الأبيض وهو يداعبه بأجنحته ، كما أذكر طرق هذه الحديقة حيث يبعثر الدجاج بأرجله السوداء الحصى ، وأذكر المكان البعيد الذى كان يرقد فيه القط وهو يقظان نائم ، وأحسبه كان يحلم بما سيقدم له من غذاء اليوم .

وكان مطبخ البيت مبلطا ، والبهو الذى إلى جانبه مغسولا وهو أبيض اللون وفى داخله رفوف حمراء عليها صحافنا ، وهناك قليل من الكراسى المصنوعة من القش وبيَانٌ قديم كانت والدتى المسكينة تعلمنى عليه مبادئ العزف، وهذا مانعيش منه الآن أنا و « كلودين » وكانت هناك مائدة كبيرة مستديرة تقفل متى شئنا أن نقفلها ، وهى قائمة على قوائم كأنها صليب متحرك . وكان فى الطابق الأول غرفتان خصصت إحداهما للنَّوم ، والثانية للدرس وقد علَّمْتُ شقيقتى القراءة قبل أوانها ، وماكادت تبلغ الثانية من عمرها حتى أصبحت تستطيع النطق بالحروف الأولى . وكانت أمى تعلمنى الغناء ، فعشنا معا متعاونين .

ولما أن حذقتُ الموسيقى ، رأت أمى أن تهيئ لى عملا فى باريس فجاءت بنا إليها . وماتت أمى فيها ، و بعـدئذ لبثت وشقيقتى هنا ، وكنت أذهب غالبا إلى قبر أمى لأبلل زهوره بالماء . وقد اشتريت لها أرض المقبرة لمدة خمس سنوات ، ولى أمل كبير فى أن أجعل هذه القطعة دائمة لها . وقد عرضت نفسى على رئيسة هذه الكنيسة فاستبقتنا أنا وأختى طول هذا العام. ولهذا فأنا أعيش عيشة راضية مع «كلودين» وأحصل على قوتى من الدروس الخاصة التى أدرسها للبنات، وأعزف الموسيقى فى هذه الكنيسة ابتغاء مرضاة الله .

* * *

و إلى هنا سكتت اليتيمة .

و وضح النهار فأشرق علينا بضوئه، ودقت الساعة الخامسة وفتحت أبواب الكنيسة وتيسر لنا الخروج .

ولكنا تعاهدنا ـ قبل أن نفترق ـ على أن نلتقى، وحلفنا على الوفاء جميعا ولا زلنا إلى اليوم مرتبطين بهذا القسم .

الفصل السابع
فى بيت چورچينا

تغيرت حالى تغيرًا تاما وأصبحتُ — بفضل هذه المصادقة السعيدة — رجلاً جديداً لا صلة بينه وبين قديمه ، فقد تحولت الشجاعة والجزع والإيمان فى نفسى ، واتجهت كلها وجهة أخرى هى الشغف بالعمل والاكباب عليه ومواصلة الدءوب ليل نهار ، وأصبحت غارقا فى الكتابة ثمانى ساعات متواصلة ليس بينها فترة انقطاع فى مسكن حقير ، وكنت أقضى أياما كاملة فى دور الكتب العامة وما زلت كذلك حتى حل مايو سريعاً .

وذهبت إلى الكنيسة فى مثل اليوم الذى قضيته حتى فجره مع « جورچينا » حيث قطعنا الليل ساهرَين ناعمى البال .

وبعد قليل جاءت « كلودين » مع شقيقتها « چورچينا » فابتسمت لى تلك الصغيرة العزيزة ابتسامة التحية ، وبسطت « چورچينا » يدها لى مسلّمة ، فصافحتها فى شغف ولهفة ، ودق قلبى لذلك دقات سريعة ، وظل يخفق خفقاناً متداركاً . وليس فى قدرتى أن أعبر عما غمر قلبى من السرور حين رأيتهما أو أصف ماسرى فى جسدى من الكهرباء فى ذلك المساء ، وكل مافى قدرتى أن أقول هو أننى أتمثل هذه الصورة الرائعة وأحبها ، وأرى خيالها ماثلاً أمام عينى ثم لاأستطيع الوصف بعد ذلك .

لقد أفهمتنى هذه الفتاة الشابة — المملوءة روحاً وجمالاً — ماهو الحب ، وذكرت حين لقيتها تلك الدمعة التى سكبتها على يدى ولما أنسها .

وذكرت كيف كانت تنصت إلى قصة آلامى وأحزانى ، وكيف كنت أصغى — من كل قلبى — إلى قصة حياتها كما أصغى إلى أنغامها الحارّة المبتكرة

التى كانت ترسلها أصابعها على دساتين البيان العاجية ، فكان يغمرنى من طيب هذه الذكريات المتناسقة مايغمرنى .

* * *

ولما غادرت الأختان منصة البيان ، جاءتنى صغراهما وقالت لى فى صراحة طالما ألفتها من صغار الفتيات ، وكانت تسرع فى كلامها :

« هل لك فى أن تصحبنا فى طريقنا إلى البيت ياسيدى ؟ . »

فقلت لها :

« لقد انتهيت الآن من أداء كل واجباتى ، وليس لدى مايمنعنى من مرافقتكما ، ولست أخشى إلا . . . . »

فقاطعتنى « كاودين » ودنت منى قائلة ، وقد علت شفتيها ابتسامة لطيفة :

« لا تخش شيئا ياسيدى ، فإن شقيقتى تبتهج لتلبية هذا الرجاء . »

* * *

فلم أتردد فى إجابة طلبها ، وسرنا فى الطريق قليلا ثم توسطتهما ، فاعتمدت الكبرى ذراعى ، وأمسكت الصغرى بيدى الأخرى ، وانضمت « چورچينا » إلىّ والتصق كتفها بجسمى ، وكنت أشعر لهذا بسرور يغمر قلبى ويملأ نفسى . وما زلنا سائرين فى صمت لذيذ وقد تركنا للقلوب أن تتكلم بعد أن استغنينا عن لغة الكلام .

وكنت ألتفت — بين حين وآخر — نصف التفاتة لأملّىَ نفسى من وجهها الصبوح وهى ترفعه إلى السماء فيلتقى نظرى بنظرها كما تلتقى الشفة بالشفة والقبلة بالقبلة .

وكم شعرت بإعجاب وتيه يملآن نفسى وأنا أسير إلى جانبهما كما يسير البطل الذى يحمى حماه ويذود عن أهله .

واشتد التصاقها بي واعتمادها عليّ ، وشعرتُ بما تُجنه لي من حب وثقة .

وما كدنا ننتهي إلى بيتها ، حتى أفلتتْ من ذراعي مسرعة إلى فتح باب الحديقة . وهممتُ أن أستاذنها في الانصراف ، وكأنما أدركت ما يجول بخاطري ، فلم تدع لي فرصة للإفضاء به ، وقالت لي من فورها: «هلمّ ياسيدي فاسترح في بيتنا لحظات قليلة لترى مسكننا البسيط .»

* * *

وكان بيتها يشرف على أحد الشوارع الكبيرة ، تكتنفه نباتات متسلقة ، خيل إليّ أنها تذود عن هذا البيت المسكين عوادي الزمن ، وتحميه نكبات الخطوب .

ورأيت حديقة صغيرة فاجتزتها سائراً بين أشجار الكمثرى والأزهار القائمة على جانبي المدخل المؤدي إلى السلم ، وجلست في غرفة الاستقبال ، وكان فيها بيَانٌ ومُوقَد مصنوع من الرخام الأبيض ومرآة وشموع وساعة من البرنز وصور دقيقة فنية تمثل احداها صورة «مينين» متحسراً على وطنه، وتمثلهأخرى ضارعا يلتمس من الله الرحمة.

* * *

جلست أتأمل ماتحويه الغرفة من طُرف ، وعزفتْ «چورچينا» لحنا رائعاً من ألحانها الجميلة يمثل غريبا في منفاه وهو يحلم بالوطن ويألم لما يكابده من مضاضة الأسر وذله . وليس أروع من الحنين إلى الوطن وذكرياته الجميلة المحببة إلى النفس،لما تمثله لنا من أحلام الماضي وأيامه الحلوة اللذيذة ، وما فيها من فاتن الذكرى .

وظللت أتأمل في جمال تلك الحسناء الفنيّة وأعجب بشعرها الأصفر

وعينيها الدعجاوين وأهدابهما الطويلة

واشتد إعجابى بها وأغرقنى سحر جمالها فجثوت أمامها على ركبتى ، وأمسكت بإحدى يديها ورفعتها إلى شفتى ، وطبعت عليها قبلة المحب المدلّه ، فارسلت إلى نظرة كتبتْ بهـا فى تاريخ حياتى ذكرى باقية لا يستطيع الزمن أن يمحوها .

＊＊＊

ولم تشأ أن تسترد يدها من يدى ، فظللت أغمرها بالقبل ، وتملكنى ذهول عجيب فلم أدر كيف أصنع وكيف أقول ، ولم أستطع أن أبقى أمام صمتها النبيل . وسمعتها تقول لى حين رأت ارتباكى :

« ألسنا معاً شقيقةً وشقيقا ؟ . »

فاشتـد ارتباكى وحيرتى واضطرابى ولم يسعنى إلا أن ألوذ بالفرار هربا من السحر والشوق اللذين استوليا علىّ . ولم أشعر بنفسى إلاّ بعد أن رأَيتُنى فى غرفتى الحقـيرة وأنا ذاهل حائر ، لاأكاد أتثبت مما أتيت ، ولاأدرى أيقظان أنا أم حالم

الفصل الثامن

ميثاق الحب

لم أستطع قضاء اليوم التالى من غير أن يعتادنى الندم على ما فعلت ، وأردت أن أستغفر عما فرط منى بالأمس من حركات جنونية ، فذهبت فى الساعة الثانية إلى ذلك الباب الصغير ، ودققت الجرس ففتحت لى خادم عجوز ، هى البقية الباقية من خدم الجيل الماضى الذين انقرض أثرهم . وكان يبدو على أسارير وجهها أنها جد فخورة ومخلصة لسيدتيها . وهى -على عنادها وعدم إطاعتها أوامر سيدتيها - طيبة القلب أمينة وفية. وما كادت ترانى حتى أجالت لحاظها فىّ كما أنعمتُ بصرى فيها وظل كلانا يفحص الآخر ، فرأيت عينيها تختلجان خلف نظارتها الفضية الكثيفة ، وهى متوسطة الفم رقيقة الشفتين ، يضيق جبينها من أعلاه ، وعلى رأسها قبعة بيضاء نظيفة . وكانت هذه المرأة دائبة العمل لا تكاد تنى عن غزل الصوف ، وهى ممسكة بيدها كُرات من الصوف السوداء وقد بدت فى أصابعها خروق صغيرة من أثر الابرة التى لا تكاد تفارقها لحظة . ولمحت فى جيبها سُبحة وأكبرت فيها نشاطها - على كبر سنها - وكان ذقنها نحيفا وخداها غائرين ، وبشرتها بيضاء مترهلة لا أثر فيها للحسن ، ولعل هذا سر بقائها إلى اليوم من غير أن يلم بها حادث من حوادث الحب أو شكاوى الغرام . ولمحت فى إصبعها الرابعة من يدها اليسرى خاتما من الفضة ، وتبينت - من لمحاتها وحركاتها - الميل الشديد إلى الدقة والنظام والنظافة . وما كدت أسألها عن سيدتيها حتى أخبرتنى أنهما قد خرجتا ولا تلبثان أن

تعودا . ثم أدخلتنى البيت وأجلستنى على أحد المقاعد، وطفقت تحدثنى ـ وهى منهمكة فى غزل صوفها ـ فعلمت من حديثها أنها كانت تخدم أم الفتاتين قبل أن يموت أبوهما ، وأن « چورچينا » قد استدعتها إلى « باريس » عقب وفاة والدتها ، وأنها ـ على حبها البلد الذى نشأت فيه وترعرعت وقضت حياتها فى ربوعه ، وعلى رغبتها الشديدة الملحّة فى أن تقضى مابقى من عمرها فى مسقط رأسها ـ قد أتت « باريس » ملبية أمر سيدتها « چورچينا » التى تقدسها ولا تتردد فى تلبية كل ماتأمرها به، لأنها ربيبتها منذ الطفولة، وطالما صنعت لها جواربها الصغيرة حين كانت طفلة .

* * *

وبينا هى مسترسلة فى حديثها إذ فتح الباب ودخلت اليتيمتان وتقدمتا إلىّ ، فقبلت كلودين وصافحت « چورچينا » فقالت لى بصوت منخفض :

« ماالذى أعجلك بالأمس ؟ ولماذا تركتنا من غير استئذان ؟ إنى لشديدة العتب عليك . »

والتفتُّ خلفى قبل أن أرد عليها فلم أجد « فرنسواز » العجوز ، فقلت « لچورچنيا » :

« اصغىْ إلىّ ياچورچينا ، لقد اضطربت نفسى بالأمس اضطرابا شديدا ولم أشأ أن تتبينى حيرتى وارتباكى فآثرت الفرار . »

فأجابتنى وهى ترسل إلىّ بنظراتها الصافية البريئة :

« لست أفهم شيئا مما تقول . »

فضحكت « كلودين » فقلت :

« ألا تدركين يا «چورچينا» أى أثر تركتِهِ فى حياتى أول نظرة إليك؟ لقد كنتِ — منذ النظرة الأولى — مبعث سرور لا يُحَد ، ومصدر بهجة أجهل سببها ولا أعرف كنهها . لقد كنت الزهرة التى أنشق منها أريج الحياة والحب . . »

فقاطعتنى قائلة :

« الحب ؟ ألست تحبنى كما يحب الصديق صديقته ؟ »

وأغرقتْ فى ضحكها تلك الحسناء البديعة ، فطأطأتُ رأسى مفكرا خجلا ، ثم استأنفتْ قائلة :

« اصغ إلى ، إنى مدركة ماتقول ياصاحبى ، على أننى فى حيرة من أمرى وأمرك ، فلست أدرى هل أنت واجد فى ذلك سعادة ، أوأن من الخير لك أن تيأس وتبدد آمالك؟ذلك ماأجهله، وماأحوجنى إلى صراحتك لأستنير بها فيما أقرره ولتكن على ثقة أننى لن أكون لك الآن كما تحب — بحال من الأحوال — فإن شقيقتى كلودين لاتزال صغيرة ، وأنت تدرى أنى أخذت نفسى بتربيتها وتعهدها ، ولا أزال مقيدة بهذا العهد ، ولا سبيل إلى قبول حبك إلا بعد انقضاء هذا الزمن . فلنكن شقيقين — أنت أخى وأنا أختك — حتى أُتِم تربية شقيقتى العزيزة ، أيعجبك هذا ؟ . »

فقلت لها :

« شكرا لك ياشقيقتى الصغيرة ، فليس لى بعد هذا من أمنيّة تطمح إليها نفسى . لقد غمرتِنى بالسعادة ، وجعلتنى غارقا فى بحر من الآمال البهيجة . . »

فوضعت يدها الصغيرة على فمى لتسكتنى ، فقبلتها قبلة حارة سريعة

ثم ضممتُ أصابعها الصغيرة، وكأنني أقبض على فراشة جميلة . »

وقد دهشتْ لهذا التودد وابتسمتْ وقالت لي في لهجة البنوة الحنون :

« يجب أن تكف عن هذا ياصديقي لئلا تتعوده . »

وكانت ترفع شعري بيدها وهي تتحدث إليّ ، فالتهب جبيني حين لمستْ شعري بأصابعها البضة الرشيقة ، وصرت نهب الأشجان الثائرة التي لا حيلة لي في دفعها ، فطوقت قوامها البض بذراعي ، وأسكرتني لدونته ونسيت كل شيء ، فاندفعت إليها وقد غلبتني قوة قاهرة لاسبيل إلى دفعها ، وقبّلتُ جفنيها وجبينها وشفتيها ، ولم تستطع أن تنفلت من بين ذراعيّ إلا بعد جهد عنيف ، وما كادت تنطلق حتى قالت لي في لهجة عذبة فاتنة :

« كلا لم أُجز لك هذا فحذار أن تعيده مرة أخرى ، وإياك أن تضمني إليك كما فعلت الآن ، فأنا لاأزال طفلة غريرة ولكنني — على غرارتي — أسمع صوتا يُهيب بي أن مافعلته معي أمر لا يليق ، وليس من الخير لي ولك أن تسيء استغلال ثقتي ، وما دمت تحبني فأنت جدير أن تحترمني . »

* * *

وخيّل إليّ — وأنا أستمع إلى كلامها — أن وحيا كريما ساميا لاعهد لي به من قبل ينطق على لسانها ، فلم أعرف كيف أقول . وإني لفي حيرتي هذه إذ دخلت « كلودين » ونظرت إليّ بعينيها — وقد جال فيهما معنى غامض — وكأنها كانت تحاول أن تقف على مبلغ ماأضمره من حب أختها ، وقد بدا على أسارير وجهها القلق والاضطراب ، وارتسمت عليها أمارات مختلطة من السعادة والهم . وكأنها أدركتْ ما يجول بنفسي ، وعرفتْ

من ارتبا كى شيئا مما حدث ، وكانت « كلودين » فيما - يبدو لى أكثر هوادة من أختها وأكثر توددا وذكاء ، وإن كانت أقل شعورا وأكثر حماقة وأقل حنانا وحبًّا ، على أنها كانت - إلى ذلك - أكثر ثباتا وعزما وأقل جمالا ورشاقة . وقد اقتربت منى وقفزت على ركبتى وسألتنى مستفسرة :

« أحقا أنك تحب چورچينا ؟ »

فقلت لها :

« كما أحبك يا كلودين. »

فقالت :

« إذن فلا تضايقها ، ولا تسبب لها عناء وإلا فكن على ثقة من أننى لن أحبك بعد . »

* * *

وكانت « چورچينا » تُنصت إلى كلام أختها - كما أنصت - وتنظر إليها صامتة . ولم يحدث فى هذا اليوم أكثر من ذلك ، ولم تسلم علىّ « چورچينا » - حين تركتها - ولا أدرى أكان ذلك سهوا منها ونِسيًانا أم فعلته عن عمد وإصرار .

الفصل التاسع

كتاب الى چورچينا

شعرت باضطراب عميق إزاء ما رأيت من سلوك « چورچينا » ـ عند ما تركتها ـ وامتلأت نفسي رهبة وحيرة ، فخشيت أن أكون قد هدمت كل آمالى بسبب جرأتى وما بدر منى من حماقة وتهوُّر .

ولم أجرؤ على مقابلتها ورؤ ية ما تركتُ فى نفسها من أثر ، فعنّ لى أن أكتب إليها ـ قبل لقائها ـ فكتبت الأسطر التالية وأنا ثائر محموم نهبَ العواطف الجامحة ، وهى ـ على سذاجتها واضطرابها ـ تمثل ذلك الشعور أصدق تمثيل :

« أيتها الآنسة: أشعر فى هذه اللحظة التى أكتب اليك فيها مستعطفا، أننى قد أصبحت فريسة التردد ونهب الحيرة والقلق ، فلست أدرى حقيقة آرائك ومدى أحكامك على ما يتواضع عليه الناس من آراء اجتماعية ، وإلى أى مدّى تقبلين ـ أو ترفضين ـ ما يقرره العرف ، وثمة لا أدرى هل تعدين هذا الكتاب الذى أبعث به إليك جرأة تضيفينها إلى سابقتها ، أم تغفرين ذلك لى ؟ ومهما يكن من أمر ، فإن صراحتى وجرأتى ـ اللتين أظهرتهما لك أمس ـ كان مبعثهما الحب والولاء لك . ولما كنت لا أستطيع أن أكبح جماح عواطفى الثائرة فى حضرتك ، آثرت أن أبعث إليك بهذا الاعتراف وأنا بعيد عنك ، فقد خشيت أن يسوءك الإفضاء به إليك عن كثب .

لقد قصصتُ عليك ـ من قبل ـ قصة طفولتى وما فيها من مسرات

وآلام خفية. على أنى عرفتُ قليلا من ألوان العواطف والنزَوات ، وأدركتُ كيف تتضارب الآراء والأحكام فى أمر بعينه ، وكانت أمى امرأة شريفة النفس ، نبيلة الأسرة ، ولكن الأيام فرقت بيننا ، ولم نكن نتبادل شعور الإخلاص والولاء ، إلا بعد أن شتتنا البين وفرقتنا الأيام فلم نجد وسيلة نبث فيها آلامنا وآمالنا ، إلا ما تبعث به رسائلنا المتبادلة من شعاع ضئيل يمثل حبنا وولاءنا تمثيلا ضعيفا .

وفى سن العشرين ، يفيض القلب بالعواطف الغنية ، ويثور ثورات عنيفة فلا يستطيع حبه البنوى أن يهيمن عليه بعد أن شغل مكانه حب العاشق المدلّه .

وقد جئت اليك يا « جورجينا » وأنا ثائر العواطف ملتهب الإحساس شديد الألم ، فشفيتنى من آلامى وأوجاعى ، جئتك حزيناً فأسعدتنى ، وعرضت علىّ أن تكونى أختى الشقيقة ، وما أظنك تضنين بوفاء هذا العهد ، فهو — فيما أرى — ألزم لك منه لى .

* * *

لم يكن يخطر ببالى أنى قد أغضبتك حين توسعت معك فى الحرية الطبيعية ، وما أحسبنى قد ركبت شططاً فيما فعلت ، فإنى أحبك ، نعم أحبك أكثر مما أتخيل . فأنت رمز آمالى وتقديسى وحبى ، وما أحسبنى قد أخطأت حين ضممتك إلى قلبى ، ولم يكن لى أن أفعل شيئا غير ذلك .

فقد أدنيتك من المكان الذى تسكنينه ، والذى حلت به صورتك المحبوبة ولن تغادريه إلى الأبد . أما أنى قبلتك ، فهذا حق ، وما أرانى ارتكبت جرماً فى ذلك ، فقد كانت شفتاك تدعوان شفتىّ إلى التقبيل ،

ولم يكن لى مندوحة عن تلبية هذه الدعوة الطبيعية الحبيبة إلى نفسى.

ولا بد لى أن أعترف لك يا « جورجينا » أننى حديث عهد بالحب ، فقد كان هواك أول هوًى حل فى قلبى . وثقى أن قلبى لم يخالطه الحب قبل أن أراك فى الكنيسة وأنت جاثية على ركبتيك ، وقد تمثلتُ فيك ملاكاً رائعَ الحسن ، وملأت قلبى بذكراك فأصبحت لا أسير خطوة إلا تمثلتك أمامى، وغدوت ـ منذ ذلك اليوم ـ تائها ضالاً فى مجاهل الحب ، وصرت نهب العواطف الثائرة ، وأنا لا أدرى أى طريق أسلك وأى خطر أنا قادم عليه من أخطار الحب ، ولكن :

ركبنا فى الهوى خطراً فإما لنا ما قد كسبنا أو علينا .

« جورجينا » :

أُقسم لك إن احترامى إياك لا يعادله إلا حُبّيك . لقد تفضلت علىّ بثقتك قبل أن تتم أواصر المعرفة والمحبة بيننا ، فأفضيت إلىّ ببعض أسرارك ـ وأنت تجهليننى ـ ولكنك وثقت منى على غير معرفة سابقة لما توسمتِه فىّ من إخلاص فأفضَيْتِ إلىّ بِدُخْلَتِك . فلا تضنى علىّ بثقتك بعد أن أسعدتِنى بها .

و إنى أختم كتابى بتحيتك ـ ياعزيزتى « جورجينا » ـ وأؤكد لك أنك لا تستطيعين أن تعرفى أى عبء أحمل فى الحياة .

ولا زلت لك المحب الوامق . »

« لوسيان »

* * *

وقضيت ليلتى مؤرقاً ساهداً ألتمس الراحة فلا أجدها ، وقد تلوت كتابى عشرين مرة وأنا أترقب الرد عليه من « جورجينا » ولم يهدأ

قلبي إلا بعد أن ظفرت بكتابها ، ففضضته متلهفا وقرأت فيــه ما يلى :

« لوسيان »

« أنت مجنون ـ بلا شك ـ وما أراك جديرا بالصفح . كن سعيدا فإن سعادتى مرتبطة بسعادتك دائما على الرغم من كل شئ . »

« جورجينتُك »

حاشية :

« احضر هذا المساء . »

* * *

ولقد تلوت هذا الـكتاب وأعدت تلاوته مراراً ، ثم قبلته وأعدت تقبيــله تكـراراً ، وفاض الفرح على قلبى ، وانتشيت من فرط السرور .

الفصل العاشر

نزهة المُحبَّيْنِ

و بادرت مسرعا إلى منزل «چورچينا» لأظفر منها بالصفح عن زلتى، ولما قرعت الجرس فتح الباب واعتمدت «چورچينا» ذراعى ، وسرنا إلى الغرفة .

وما كدنا ندخل حتى لفّتْ ذراعها الأخرى حول عنقى ، وضمت يديها على كتفى، وقدمت لى جبينها .

ولما رأتنى متردّدا فى تقبيله قالت لى :

« ماذا ! ألا تزال حاقدا علىّ أيها الأحمق ؟ »

فانحنيت على هذا الوجه الجميل ، وأنا سعيد بهذا العتاب اللذيذ الذى سرى فى جسمى مسرى الكهرباء ، ثم قالت :

«إن شقيقتى نائمة وستكون سهرتنا بديعة ـ بلا شك ـ فهل لك أن نتنزه ونسمرُ ما شاءلنا السمر .»

فقلت لها مأخوذاً :

« أحقا ماتقولين ياحبيبتى ؟ وهل تجيئين معى وحدك هذا المساء ؟ أوه ألا تجيبين على سؤالى . »

فقالت لى :

« أتريد أن نخرج معا ؟ هأنذا مستعدة . »

وخرجنا من المنزل .وكان عليها نَوْفلِيّةٌ طويلة

واجتزنا « السين » ثم وصلنا إلى غابة بُولونيا . وكان الوقت هادئا فى

آخر شهر مايو . وكان القمر شَخْتا والنجوم كثيرة فى السماء ، وخيّل إلينا أن أسرارا عميقة جاثمة فى ألفاف الغابة .

ومَشَيْنا فى عدة طرق ونحن ساكتان نسمع نَبَضَات الحياة فى حفيف الأوراق القوية والحشائش وطنين الحشرات الليلية المنبعث من هنا وهناك وقد خرجت من ظلماتها .

وانتهينا إلى البحيرة الكبيرة ، وكانت تتلألأ كأنها بحيرة من الفضة فى تلك الليلة الصافيـة الأديم .

وكان الضوء موزعا على الشاطئ ، فدنونا منه وجلسنا على الحشيش النابت ـ جنبا إلى جنب ـ وزحزحت الفتـاة نوفليتها إلى الخلف ، وأخـذ الهواء يداعبها على كتفيها كما يداعب ألفاف شعرها الأصفر . وأخذت أنظر إليها مشغوفا وأنا أتبين فى الضوء الفضى الذى ترسله السماء كل نواحى جمالها وأشعة فكرها ، وكنت ألمح أحيانا ابتسامة يشرق لهـا وجهها ثم يبدو عليهـا ظل من الحزن يرتسم على أساريرها المحبوبة .

وفى هـذا المساء كنت أنظر إليهـا وكأنى أنظر إلى الخلود ، وقد كنت جدّ متثبت من دقائق حسنها وتفاصيله .

وأول مايلفت النظر فيها هو نبلها ، وربما لمح الإنسان أن فيها قليلا من البرود عند أول نظرة منها . على أنها لاتلبث أن تستحوذ على الناظر وتهيمن عليه بطهرها الجرئ .

ثم تأخذ عيناها حالتهما الطبيعية برقتهما الوضاءة القوية وإنسانيهما الأزرقين المؤتلقين فى ظل حاجبين طويلين ذهبيين وجفنين تزينهما

أهداب طويلة ، وترى أنفهامعتدلا رقيقا وشفتيها فى مثل لون الأزهار ولم يمس مُحبٌّ بعد هذا النور الرائع ، وفى طرفى فمها ثنيتان هما أشبه بيا سمنتين ، وجبينها منبسط متلألئ وَضَّاء ، وهو يرتفع مقوسا فوق حاجبين يظللان الأهـداب قليـلا .

وشعرها ـ فى الضوء ـ أصفر ذهبي وهو رمادى فى الظلام ، ويداها دقيقتان شفافتان وأظافرها وردية مقوسة ، وقدماها تدعوانك إلى تقبيلهما جاثيا على ركبتيك .

وعودها الممشوق اللدن هو أجمل مافى تلك الإنسانة المعبودة . وقد فَصَلَنى نظرى ـ مدة طويلة إليها ـ عن باقى العالم .

وانبعثت فجأة من الجانب الآخر من البحيرة نفحة لذيذة فى هذا السكون ، هى لحن البلبـل العاشق وهو يحي الليل مجوِّدا بسحر تغريده العذب الذى يستقبل به الربيع .

فقلت «لجورجينا» :

« أسامعة أنت لتعرفى كيف يتحابّ البلابل ؟ »

فقالت وهى تبتسم:

« نعم كما تحبنى وأحبك . »

وكانت ـ وهى تنطق هـذه الكلمات ـ تقدم إلى شفتيها قطعة من برتقالة فأخذتُها مسروراً .

ولـكن هذه الجرأة التى أثرتها فى نفسها قد أفزعت هذه الصغيرة العزيزة ، فوقفت فى ذهول وهى ترجونى ألا أنظر إليها ، وتسألنى أن أبتعد عنها قليلا وألا ألقى برأسى على كتفيها ، وألاأقدم لها ذراعى .

وسكبت الدموع وهى تسألنى أن أرفق بضعفها . وكانت ـ وهى تلقى هذا الـكلام ـ تخفى عينيها بيديها وقد احمر وجهها خجلا .

* * *

وعدنا إلى المدينة ـ وكلانا على بعد خطوات من الآخر ـ وكنت أتبعها وهى تلتفت أحيانا إلى الخلف كأنها تطلب إلىّ أن أصفح عنها لِما تبديه من تحفظ .

ولما وصلنا إلى البيت قدمتْ لى جبينها وقالت :

« عم مساء ياصاحبى ـ بل ياسيدى ـ ولا تفكر فىّ كثيرا . »

ثم فتح الباب الصغير وسمعته وهو يُغلق فعدت متثاقلا .

الفصل الحادى عشر

فى بلد چورچينا

بدأ شهر مايو فى إشراقه ، وبدأ حبنا فى نمو مطرد ، وفى كل يوم جديد يشع عليه شعاع جديد فيملأ نفوسنا بهجة ويزيد أواصر حبنا توثيقا ، حتى أصبح حبنا على مرور الأيام – كلفاً وهياماً – وكانت الأزهار تبدو – حينئذ – رائعة مؤتلقة يفتتن رائيها بشتى ألوانها المعجبة وما يكتنفها من الخضرة التى عرف فصل الربيع كيف يبدع فى تنسيقها ما شاء له الإبداع .

وما أروع منظر تلك الغابات الكثيفة ، والحقول الواسعة وقد اصفر القمح ونضج فيها ، والحدائق الغناء وقد تفتحت أزهارها ، وشعت فيها أنوار الفضاء وأضواؤه الدائمة ، وقد بدت أشجار الشوارع الضخمة على جانبى الطريق ، و بدت الأرض مغطاة بالرمال حينما لاحت ألوانها كلون العنبر .

وفى ذات مساء قالت لى « چورچينا » :

« لقد اعتزمت أن أمضى فى بلدى شهرا ، وما أحسبك تأبى أن ترافقنى مع أختى وتقضى معنا تلك الأيام ، فإننى أشعر أننى سعيدة السعادة كلها إذا لبيت هذا الطلب . ولا تنس أن شواطئنا الرملية فى هذا الفصل تجتذب إليها الزائرين من كل بلد لجمالها . »

* * *

ولم يكن أشهى إلى نفسى من تلبية هذه الدعوة . ورأت الخادم المخلصة

العجوز أن تبقى بالمنزل لتحرسه إبان سفر سيدتها وإن كانت شديدة الرغبة فى رؤية بلدها الذى اشتد حنينها إليه.

وفى فجر يوم مشرق من شهر « يونيو » برحنا « باريس » وأقلّنا القطار وهو ينهب الأرض نهبا ويخترق أرض « فرنسا » ويُرينا من جمال الخلاء الباسم ما يشعرنا أن الطبيعة تشركنا فى سعادتنا وأفراحنا. وكان الفلاحون ينظرون إلينا وقد تطلّقت وجوههم بشراً وإلى جانبهم فتيات ريفيات لابسات قبعات كبيرة من القش، وقد بدا على وجوههن المرح، وبدت سوقهن عارية إلى ركبهن، وهن يرمقن القطار وهو ينهب الأرض نهباً، وكانت العجول ترفع أفواهها إلينا وتحدق أعينها فينا، ثم تبدو قباب الكنائس فلا تلبث أن تختفى — بعد لحظة سريعة — وينفسح أمامنا وادٍ بديع ضاحك، ثم لا يلبث القطار أن يجوبه بعد زمن قصير فيختفى عن أبصارنا. وكانت « جورجينا » جالسة إلى جانبى و « كلودين » جالسة أمامى — وربما جلست فوق ركبتى — وكان فى رفقتنا شيخ طاعن فى السن تبدو على أساريره أمارات الإعجاب بجمال « جورجينا »، وكانت نظراته تملؤها حياء فيحمر وجهها من الخجل، ويخفق قلبى لذلك خفقاناً شديداً.

ثم انتهينا إلى « بريتونيا » وقت الشفق وسمعنا الصلوات تنبعث من الكنائس والأكواخ. ولما بلغنا « رنس »، بدت لنا عاصمة « بريتونيا » القديمة وقد بدا عليها شىء من الاكتئاب والحزن، فخُيِّل إلينا أنه أسف على رقيها السالف الذى فقدته. وما كدنا نصل إلى المدينة حتى استقلّنا عربة بسيطة، انتهت بنا إلى « سان مالودن »، وبدا لنا ضوء القمر

فى منظر فاتن خليق ببلد الأقاصيص . وبدت الأشجار الباسقة وكأنها أشباح عظيمة يميل بعضها على بعض ، أو كأنها شياطين يطارد بعضها بعضا . وقد استرعى بصرنا منظر أشعة السماء ، وهى تشع فى الماء وتنعكس أضواؤها عليه فتجعله أشبه بالمرآة الصقيلة :

« إذا النجوم تراءت فى جوانبها — ليلا — حسبت سماء ركبت فيها »

* * *

وربما استرعت أبصارنا تلك الخرائب المغطاة بالأعشاب فذكرتنا عهودها القديمة، وبدت أمامنا كأنما تفكر فى عصورها الزاهية السحيقة. ورأيت « جورجينا » وقد بدت على أساريرها أمارات الفرح والحنين وهى تستنشق هواء بلدها ومسقط رأسها المحبوب . فلم أقطع عليها تأملاتها الوطنية المبهجة ، وشركتها فى حنينها إلى هذا البلد الذى هو وطنى ووطنها جميعا . ودقت الساعة الثالثة ، وبدأت « جورجينا » تشعر بتعب ، فوضعت رأسها على كتفى واستسلمت للنوم ، وكانت أختها « كلودين » لا تزال نائمة ، وأحاط ذراعاى بهاتين الشقيقتين ، وكنت أحب كلتيهما ، وأمحضهما الود جميعا

ثم هب هواء لطيف من جانب البحر ، ونشطت الأشجار إلى الحركة بعد السكون ، فاهتزت أغصانها الطويلة وبدأت ظلمة السماء تنقشع شيئا فشيئا . وما كدنا نصل إلى المدينة حتى أشرقت الشمس ، ولمحنا فتيات مرتديات ملابس الراهبات يخرجن من الدير . ونزلت « جورجينا » وأختها فى منزل رأيته فى آخر ميدان غرست فيه الأشجار عند شاطئ رملى مشرف على البحر وما يحويه من سفن قادمة وعائدة.

وقد اكترت غرفتين فى الطابق العلوى ، واكتريت أنا غرفتين فى منزل قريب منه فى الطابق الأرضى،وكان منزلها آهلا بالدجاج والديكة ، والطيور تحتل حديقته الصغيرة ، وكانت تمتزج كل وقت أصوات الدواجن بأغاريد الطيور .

* * *

فى هـذا الوقت بدأ الشهر الأخير من حيـاة الحب التى تذوقت فيها أشهى أفاويق السعادة التى لم أنعم بمثلها فى الحياة .

الفصل الثانى عشر

البيت الأول

ألمّ بجورجينا مرض فى أول عهدها بالإقامة فى مدينتهـا ، وطرقتُ غرفتها لأول مرة ودنوت من سريرها ، وكانت الحمى تنتابها فى بعض اللحظات ، فإذا هدأت ثائرتهـا نظرت إلىّ وهى نصف جالسة وقد اتكأت على وسادتهـا البيضاء . وكان يبدو لى من رأسها المنحنى من التعب ، ومن يديهـا المرتجفتين المضمومتين ، ومن ذراعيهـا العاريتين الباهتتين الشفافتين ، أن كل هذه الأعضاء تقول لى :

« أنا مِلكٌ لك . »

* * *

وبعـد خمسة أيام نهضت من سريرها منهوكة القوى إثر تلك الحمى الخبيثة . وفى صباح يوم رغبتْ فى أن ترينى منزلها ـ الذى وصفته لى ليلة كنا فى الكنيسة ـ فرافقتها فى هـذا الحج . ولم يكـن بهذا المنزل سوى امرأة عجوز أجازت لنا ـ على مضض ـ أن ندخل المأوى الأول « لجورجينا » ، فدخلنا من باب أخضر مقوس فى الفناء الصغير ، وكان هذا الفناء صامتا مقفراً كالسطح ، وليس به من دجاج يتشاجر ولا حمام يهدل . وصعدنا ثلاث درجات من السلم حيث انتهينا إلى مطبخ البيت .

ولما وضعت « جورجينا » قدمها فى غرفة نومها السابقة ، بدت على أساريرها ذكريات الماضى السعيد وجلست فى مسكن أهلهـا وكأن

قوة الذكريات قد هيمنت عليها فى هذا المكان الحبيب إلى قلبها وأذرفت دموع الألم لما استولى عليهامن تأثير الذكريات. وتمثل أمامى ذلك الجلال الحزين الذى يجثو على ركبتيه وكأنما يجثو أمام قبر قديم . وكان هناك كل شئ يتكلم عن الماضى الذى اندثر فلا أثر له الآن . فالأزهار ساقطة على بساطها الأرضى، وشجرة الصفصاف تميل ـ فى حزن ـ على الصديق الذى لا وجود له، وفى الأيام الممطرة يهمى الماء من ثنايا غصونها كما تهمى الدموع .

وكان كل شئ هناك فى عزلة ووقار ، ولم يكن فى وسع غريب أن يتدخل بيننا فيكدر علينا حواطرنا ، ولا لكائن من كان أن يقتفى أثرنا ، ولا لأى صوت مفاجئ أن يقطع علينا صمتنا . فكل شئ حولنا كان ساكناً هادئا مستريحا أمام هذا السر الغامض العويص الذى يسمونه الفناء ، تلك الكلمة الرهيبة التى تفصل بيننا و بين هاوية الحياة السحيقة .

وفى هذا البيت الذى بيع تبدّل كل شئ وانقلب كل شئ ، فبيضت حائطه ، ورفع الأثاث القديم ، واختفت آثار المداد الذى ألقاه أبوها على أرض الغرفة . وبدلا من الدقّاقة الحديدية ، التى كانت تفتح الباب ، التمع زر من النُّحاس لم تلمسه أيدينا قط . وهكذا جاء المالك الجديدفأرانا أنه محا ـ فى طريقنا ـ جميع ذكرياتنا ودمّرها تدميرا.

* * *

وتغلبت « چورچينا » على ألمها، واعتصمت بالتجلد ـ بعد أن خانها الجلد ـ لترينى ما بقى من منزلها القديم . وتفقدنا ـ والقلب يكاد يتقطع حسرات ـ تلك الغرف المهجورة التى لم يبق لنا منها غير مظهرها، وقد ألقت العناكب خيوطها فى أركانها وهربت ـ عند حضورنا ـ

فى اضطراب كما هرب إحدى بنات عرس فزعة من رؤيتنا ، وجدّت فى الهرب حتى سقط بعضها من الحائط

* * *

ثم ذهبنا إلى الحديقة . وكان التدمير فيها تامًّا إذ اقتلعت جميع الأشجار السابقة وهى صديقات «چورچينا» القديمة ، وزرع الخرشوف فاحتل مكان الأزهار الأُولى .

وهنا قالت چورچينا :

« هــل ننصرف ، فلم يبق فىّ من جلد على رؤية هــذه المشاهد المؤلمة . »

الفصل الثالث عشر

أحاديث الهوى

اشتد حبنا ونما وزاد فى الأيام التالية، وتضاعفت ثقة « جورجينا » بى . وشعرتُ أن هذه السياحة التى أتاحت لى فرصة البقاء بجوارهاتين اليتيمتين قد أتاحت لى ـ إلى ذلك ـ أمراً آخر هو شعورى بأننى مسئول عن إسعادهما وإيناسهما . وما كان ألذه شعوراً نبيلاً إذ أحس أننى لهما أخ وصديق، وأننى ـ وحدى ـ مناط آمالهما ومبعث ثقتهما .

وكنا نخوض شتى الأحاديث اللذيذة ، وكانت تتخللها فترات من الصمت الطويل ، ثم يعاودنا الميل إلى الكلام فى مستقبلنا السعيد حين تصبح شريكتى فى الحياة .

* * *

وفى مساء يوم ذهبت لأرى « جورجينا » وكان الوقت وقت عطلة عامة فى المرفأ والمصانع التى تجاوره ، وكانت النزهة مستحبة فيه والمنظر أخاذا ، والريح تهب فتحرك أشرعة السفن الراسية وتكسوها أشعة الشمس ألوانها الحمراء ، وهى مؤذنه بالمغيب .

وانتشرت ـ فى الأفق ـ سحب حمراء ، وكانت الشحارير شديدة المرح وهى تعدو ـ فى مثل لمح البصر ـ فى ساحة ذلك الميدان الصغير الذى تكتنفه الأشجار ، فتقفز الشحارير من بينها وكأنها سهام منطلقة من قسيها وقد انبعثت منها ـ فى كل ناحية ـ أصوات السرور والإبتهاج . وبعد قليل انطفأ لألاء السحب المتوهجة شيئاً فشيئاً ، وسطعت الكواكب ،

وأرسل المنار أشعته على البحر ،وأضاءت أنوار المدينة فتألف من ذلك كله منظر عجب

وكان البحر هادئاً ، فارتسمت على صفحته كواكب السماء ، وهدأت الأمواج فأصبحنا نراها تسير إلى الشاطئ الرملي — في بطء — كأنها تتحسس طريقها لتأمن العثار ، وهي تتئد في خطواتها كأنها تسير في متنزه ليلي جميل.

* * *

ووقفت متكئا على النافذة المفتوحة ، فجاءت «چورچينا» مقتربة مني ، وتلامست أصابعنا ، فطوقت قامتها بذراعي ،وضممتها إلى صدري وطويتها وقد غمرتني السعادة. ولبثنا كذلك لحظات — ونحن غارقان في صمت لذيذ — وكأنما غرقت في عالم حافل بالسحر ، وقد ذهلت عن كل شيء . وإني لكذلك إذ أمسكت «چورچينا » بيدي فجأة ، ووضعتها على قلبها وقالت وهي مضطربة :

« انظر إلى قلبي ، ماأشد خفقانه . »

ثم تخلصت من ذراعي ، وقد عراها الذهول واحمر وجهها خجلا .

* * *

وقد أثارت في نفسينا هذه الألاعيب الصبيانية الحارة ، رغبات أخرى ، فالتقى حبانا واندمج شخصانا فأصبنا شخصاً واحداً ، له هوى واحد وأمل واحد ومطمح واحد وهدف واحد

فقالت لي الفتاة فجأة :

« أي شيء فيك من السحر ؟ وأية قوة أكسبتك هذا السلطان القاهر على نفسي حتى فتنتني إلى هذا الحد ؟ »

— « ذلك بأني أحبك . »

— « وإلى أى مدى يطوح بنا هذا الحب ؟ ألا ترى أننا قد أصبحنا مجنونين ؟ » .

— « وهل يعقل المحبون » .

— « يجب أن يعتصموا بالعقل، ولكن هيهات ، وأنى لهم ذلك وهل أنا قادرة على مقاومة دلالك أو مناقشتك الحساب ، وأنت لاتفى بالوعد ولاترعى العهد وهل ترانى حقدت عليك لشىء من ذلك ؟ » .

— إن مرآك الفاتن ليُنسى كل شىء ، ومن ذا الذى يستطيع أن يتقى على الجمر الملتهب المحرق ؟ وكيف أدنو منك دون أن تعرونى هزة اضطراب؟ وكيف أرى شفتيك تدعوانى إلى التقبيل فأحجم عن تلبية هذه الدعوة ؟ وأية قوة أستطيع أن أقاوم بها هذا السحر ؟ وكيف أحجم عن الورود وبى ظمأ قاتل ؟ وهل تشعرين بسعادة إذا رأيتنى دائما صاحب إرادة مطلقة لاتغلب ؟ ألا يسرك أن يهزمنى حبك فيفقدنى كل صبر ويسلبنى كل إرادة ؟ أجيبى . »

* * *

فقالت لى — وقد دنت منى — وهى تتكلم بصوت خافت :

« الحقُّ هو ما تقول »

ثم استأنفت كلامها قائلة فى استحياء وخفر :

« وأنا أشعر — فى بعض الأحيان — برغبة فى أن يتم زواجنا. »

— « فى بعض الأحيان فقط ؟ »

— « بل دائما . »

* * *

ولقد برح بها الوجد وهيمن عليها الاضطراب وهى تنطق بهذه الكلمات فلم تتمالك نفسها — فى أثناء ذلك — أن تضع شفتيها المرتجفتين على جبينى ،

و بلغ بى الاضطراب والانفعال كل مبلغ إزاء ما فاض على نفسى من نشوة السعادة ، فلم أستطع الوقوف . فجلست وأسندت رأسى إلى حافة النافذة ، وانحنت «جورجينا» لتضع ذراعها بينى و بين الخشب ، فأكبرت منها هذا الحنو ، وجذبتها إلى ركبتى فلم تمانع ، والتقت ذراعها الثانية بذراعى الأولى ، وسنحت لى فرصة نادرة ، وقد ألقى على جسمى هذا الحمل اللطيف، وبقى جسمها مستقراً لحظة سعيدة تبادلنا فيها عدة قبلات سريعة ثم شفعناها بقبلة أخيرة لبثت وقتا طويلاً ولما أوشكت أن تسترد شفتيها ضممتها إلى قلبى فقابلتنى بالمثل وغمرنى شعرها المعطر . آه ! لماذا تضن علينا الحياة بمثل هذه اللحظات السعيدة ؟ ولماذا لا يطول أمدها ؟ وماذا على الدهر لو أنه لم يفجعنا فى هذه الأحلام ؟ وما باله لا يترك لنا من تلك السعادة العظيمة إلا روعة الذكريات ؟ »

* * *

ولم نلبث أن سمعنا خطوات « كلودين » وهى مقبلة علينا ، فعادت « جورجينا » إلى مكانها الأول ، وجاءت أختها بخطوات خفيفة ، وأشرق وجهها الضاحك المتمرد ، وقد عكس حسنه علينا شعاع المصباح .

وقالت « كلودين » فى رنات موسيقية خلابة :

« لقد سمعت ماتبادلتما من حديث ، وعرفت الآن السر فى إقصائى عنكما ، وعلمت لماذا تأمرانى باللعب فى الحديقة وحدى . »

فقالت لها « جورجينا » :

« أى حديث سمعت يا كلودين ؟ »

فأجابتنا الصغيرة وهى تهز رأسها مُحنَقَة :

« أنت جد خبيرة به . ألا ترين كيف ورّد الخجل وجنتيك ؟ »

فقلتُ لها :

« ما أعجب أمرك أيتها المجنونة الصغيرة . »

فقالت :

« كلا . ما أنا بمجنونة ، بل أنا مجنونة ـ كما تقول ـ ولا مناص لى من أقبِّل وأحب كما تقبِّل أختى وتحب . أسامع أنت يا سيدى ؟ . »

فقبَّلت وجنتيها ضاحكا متعجباً ثم أمرتها « چورچينا » أن تذهب لتنام ، وكانت قد عودتها ـ منذ زمن طويل ـ أن تنام وحدها ، وعادت الصغيرة ـ من فورها ـ وهى فخورة مزهوّة ، لأنها قُبِّلَت كما قُبِّلَتْ أختها .

* * *

ثم جلست و « چورچينا » إلى منضدة صغيرة ، وشرعنا نقرأ قصة « ڤرتر » تلك القصة الرائعة التى عرفت كيف تستوعب ـ فى مرارة وحزن ـ آلام الشباب الجاهل الطموح . وقد تجلت فيها تلك العبقرية الغنية القوية التى أبدعت ما شاءت أن تبدع . فمثلت لنا شابا وثَّاب الأمل تلتهب فيه جهرة الشباب وحاجته القصوى إلى الحب ، وكيف وقف اليأس حائلا دون بلوغ آماله وإدراك أمانيه ، فعجز عن تحقيق سعادته كما أخفق فى مقاومة طموحه ، ثم تجرع ـ من آلام الإخفاق والخيبة ـ مالا قبل له باحتماله ، ووقف القدر العاتى القاهر سدًّا منيعا دون أمله ، فلم يجد أمامه ما يعزيه و يخلص نفسه من الشقاء إلا الانتحار بعد أن رأى فى القبر راحته وسَلواه وعزاءه ! .

* * *

وكانت « چورچينا » تقرأ هذه القصة ، والبكاء يغلبها على أمرها ، وكأنما أحسَّت ـ ونحن فى أهنأ ساعات أنسنا ـ أن فى الجو غيوما

وسُحباً تعترض سعادتنا وتقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق أمانينا وكأنما حفزها شعور خفيٌّ غامض إلى أن تتمثــل فى قصة « فرتر » قصتها ، وترى فى مصرعه المؤلم نهاية حياتها المحزنة

* * *

واآسفاه ! لقد ذهبت تلك الأيام إلى غير عودة . أيام نقرأ فى كتاب واحد ، ونشعر ـ فى أثناء قراءته ـ بشعور واحد وتأثر واحد ، ونتذوق من حسن بيانه لذة واحدة .

وأى سعادة يطمح إليها الإنسان أجل وأهنأ من تلك السعادة ؟

الفصل الرابع عشر

على شاطئ البحر

كان الحر يشتد فنترقب غروب الشمس بفارغ الصبر، حتى إذا أقبل الليل عرفنا كيف نقضيه ناعمين بأشهى الأحاديث وأعذب الأسمار. وكان لسهراتنا لذة ساحرة، وكثيرا ما ذهبنا إلى شواطئ « البرانس » حيث نستمتع بتلك الخلجان الصغيرة الصامتة وما يكتنفها من رمال لامعة، وكنا نروّح النفس برؤية مناظرها الطبيعية وهى منبثة خلال الشواطئ تكتنفها الحشائش الصغيرة وزهرات البنفسج التى ينفحنا بها الربيع، وإلى جانبها الغصون الممتدة المزدهرة وهى ملتفة بعضها على بعض كأنها التيجان مشرفة على أمواج البحر ترقب المد المفاجئ الخادع

وفى أحد الأمسيات اعتزمنا أن نحقق فكرة بديعة طالما هممنا بتحقيقها من قبلُ، فقررنا أن نستحم معا عند ظهور الشفق بالقرب من الشاطئ فى مكان منعزل عن الناس، كنا قد تعرفناه فى أحد الأيام السابقة.

وتخيرنا ـ لتحقيق هذا الأمل اللذيذ ـ مساء ليلة كانت فيها « كلودين » تلعب مع جاراتها الصغيرات فى الحديقة، ولبسنا ثياب الحمام وأمسكتْ « چورچينا » بذراعىّ فرحة مبتهجة، وقد علاها شئ من الاضطراب

وهى مقدمة على تحقيق هذه الفكرة الصبيانية ، وكانت الطرق التى مررنا بها مزدهرة يتضوّع الطيب من أرجائها وتنبعث منها الروائح الزكية إلينا ونحن سائران بخطًى وئيدة متباطئة ، ثَمِلَيْنِ من نشوة هذا الأريج العطر.

* * *

واخترقْنا غابة صغيرة حتى وصلنا إلى نهايتها حيث رأينا مستنقعا قد أسِن ماؤه واخضر لونه . ومضينا فى طريق مزدهرة كثيرة الأعشاب والحفر . وقد ظفرت ـ فى أثناء سيرى فى هذه الطريق ـ بقبلات ثلاث من « چورچينا » ، وكانت الطيور تغرد على أفنان الشجر ، وقد استولى عليها المرح والنشاط فلم تكَدْ تستقر على أفنانها لحظة . وامتزج طنين البعوض بتغريد الطيور ، وكان البعوض يرقص فى الهواء فى خفة ونشاط عجيبين .

وانتهينا إلى منعرج الشاطئ الرمليّ الصغير وجُسنا خلال طريق مملوءة بالحصى ، ملتوية الشعاب حتى وصلنا إلى الرمل . وأرادت « چورچينا » أن تسير عليه عارية القدمين . على أن حرارة النهار لم يُمْحَ أثرها منه بعد .

وقد سمحتْ لى أن أنزِع بيدى جوربها الأبيض ، فكانت فرصة نادرة ظفرتْ يداى بقدمها كلها ، وليس هذا عند المحب بالشئ القليل .

وقد حذوت حذوها ونزعت حذائى وجوربى ، وعدَوْنا قليلا ـ أحدنا فى إثر الآخر ـ بحرية أخويّة ، وقد تلألأ الأفق وانعكس لألاؤه على الأمواج الوضاءة ، فخيل إلينا أنها مرآة صافية انعكست عليها أضواء

الأفق ، وظلت تلك الأضواء ترقص من بين ثنايا الأمواج ، رقصا أخاذا بديعا .

وتخيرتُ مكانا من البحر لتنتحيه « جورجينا » كما تخيرتُ لنفسي مكانا قريبا منه ، بحيث يحجبها عني في أثناء نزولها إلى البحر .

* * *

وبعد لحظة نادتني « جورجينا » فهُرعت إليها ، فرأيتها أروع جمالا ، وأكثر إغراء مما عهدت ، واشتد شغفي بها وهي في ثوبها الأزرق الموشى بتطريز أبيض ، وكان عليها حزام فضفاض يطوق قامتها البديعة ، ويبدي من روعة جمال هذا الجسم ما يسحر ويفتن . وكان سروالها قصيرا ، فلم يكد يعدو ركبتها فتكشفت عن ساقين رائعتين ، يبدو فيهما جلال الأرستقراطية ، وكان شعرها المسترسل وراء قلنسوتها آية في الحسن .

وهُرعتُ إلى ندائها ، وأمسكتُ بيديها واندفعنا إلى الماء جميعا ، وتعالت أمواج البحر وأزبدت ، وكان الماء عند الشاطئ فاترا ، فحملت « جورجينا » بين ذارعيّ كما يفعل السابح الماهر حين ينقذ المشرفين على الغرق ، وطوّقت عنقي بذراعيها — وهما نصف عاريتين — وضمتني إليها ضمة الخوف أو ضمة الحب لا أدري . ولعلها أشفقت على نفسها من الخطر ، أو لعلها تناسته واستسلمت إلى هواها شأن المرأة الحريصة على حسنها حين تضمه اليها ضمة الشوق والاخلاص

* * *

وبعد قليل زال ما علق بنفسينا من أثر الرهبة ، واستولى علينا شعور لذيذ ، إذ وضعت « جورجينا » رأسها على كتفي ، وقد ظهر

على وجهها أثر الإعجاب ، فتركتْ حياتها بين يدى ، أصرفها كيف أشاء ، وصممتْ أن تواجه الخطر إلى جانبي وتتقحم الأهوال فى سبيل حبي .

ورأيتُني قد اكتسبت قوة لا عهد لى بمثلها من قبل ، فحملتها جريئا ولم أستطع أن أمتع نفسى بجمالها — فى هذه اللحظة — لحرصي على إنقاذها. ثم زال الخطر واتجه تفكيرنا إلى الحاضر ، ونسينا الماضى والمستقبل ، وأغرقتنا لذة القرب فأذهلتنا عن كل شئ .

وكثيرا ما رأيت «چورچينا» تدنو منى وتطوّقنى بذراعيها وتلقى بجسمها علىّ ، ولولا أننى أحترمها بقدر ما أحبها لأخليت لنفسى العنان ونسيت كل عهد قطعته على نفسى بعد أن أسكرنى فرط السرور ونشوة هذا العناق اللذيذ .

أى سعادة تلك التى ظفرت بها؟ وأى حلم لذيذ انقضى إلى غير عودة؟

* * *

وكنا قد أوغلنا فى البحر ، فاضطررنا إلى التفكير فى العودة آسفَيْن على تلك اللذة الوشيكة الانتهاء . وأقسمنا أغلظ الأقسام — ونحن بين موجتين — أن نكفل سعادتنا ، وحلفنا على الوفاء جميعا أبد الدهر .

وما كدنا ننتهى من هذا القسم حتى غامت السماء ، واحتجبت الكواكب ، وساد الظلام ، فامتُقِع وجه «چورچينا» وأشلرت محزونة إلى ظلمة الأفق ، وعرتّها الرجفة . ولست أدري أكانت من أثر الخوف أم من شدة البرد ؟ . على أن الأمواج ساعدتنا — لحسن الحظ — على الوصول إلى الشاطئ بسرعة شديدة ، وحملنا التيار إلى حيث أردنا ، وكان المد على وشك أن يصل إلى المكان الذى وضعنا فيه

ثيابنا ، فأسرعنا إليها قبل أن تبتل ، وأردت أن أتركها لتلبس ثيابها فأمسكتْ بذراعى وقالت مرتاعة :

« إبق هنا .. فلست أستطيع البقاء وحدى ، وأنا أخشى أن تتركنى فقد أدركنا الليل »

* * *

وإلى هنا خاننى جلدى ونفِدَ صبرى، ولم أعد أقوى على مغالبة الوجد ومقاومة هذا الحب العنيف ، فقد أفنى قوّتى جهادى الطويل فى مغالبة الأمواج وتلاشت إرادتى أمام عواطفى الثائرة وهيامى المستعر ، وقام عراك هائل بينى و بين نفسى، وشعرت أن عاصفة الحب قد أوشكت تجتاحُنى أمامها ، وساعد الليل الساجى على إثارة بواعث حبى ، وخيمت علىّ الدُّجنة الحالكة ، واشتمل الظلام علىّ وعلى من أُحب، ولم تبق إلا خطوة واحدة يسيرة لأُطفئ ثورة وجدى وأنقع غلتى الملتهبة .

فانتظمتنى هزة عنيفة،وانطرحت على قدمى حبيبتى،وقد تهدّج صوتى وأنا أخاطبها ، فأدركتْ مادار بخلدى من الهواجس ، وقالت لى :

« إنى طوع أمرك ، وأنا متاع لك ، ووَفق إرادتك ، لأننى زوجتك ولكن يجب ـ قبل كل شىء ـ أن يجمع بيننا قسَم ،و إلا فخبرنى يالوسيان ماذا تريد منى ؟ أتريد أن تحقرنى أمام نفسى؟ أوه. بربك ـ ياحبيبى ـ لا تقدم على شىء من هذا . بربك لا تجمع توسلاتك و براعتك إلى ضعفى ، فليس فى قدرتى أن أعصى لك أمرا أو أرد لك مطلبا . فدعنى طاهرة عفيفة وتريث فى أمرك حتى يتم زواجنا . ألا يرضيك هذا . »

***

وابتعدت عنى بضع خطوات ، وارتدت ثيابها وانتثر شعرها الذى طالما نعمتُ بترجيله ، واشتنشاق أريجه العطر.

ثم عدنا أدراجنا وقد امتلأت نفوسنا غبطة بعد أن تغلبنا على هوانا ولم نستسلم للضعف .

وهبت عاصفة قوية ، فاهتزت الأشجار ، وثار البحر واصطخب موجه على الشاطئ الرملى. وسرنا فى طريقنا عائدين ، وكانت قطرات الأمطار تسقط علينا ، وبرقت السماء فأسرعنا الخُطى حتى بلغنا منزل « حورجينا » .

الفصل الخامس عشر
ساعة الخطر

بين مصب نهر « البرانس » ورأس « سان كاست » الشهيرة ، ترى غورا عميقا متعرّجا ، يمتد فى الأرض إلى بعد نصف ميل، وترى هذا الغَوْر أشبه بكهف يكاد يكون مغلقاً لما تكدس عليه من أكوام الحصى التى يدفعها البحر إليه . وقد اختلفت أحاديث الناس ورواياتهم العديدة وأقاصيصهم الخرافية التى ينسبونها إلى هذا المكان .

ويبدو الشاطىء — فى تلك الناحية — وكأنه منفصل عن البحر . وترى الصخور الشاهقة مشرفة عليه وقد تباينت أشكالها وأوضاعها ، فمنها ما تتمثل فيه شكل أبى الهول الصامت — وقد جاس القرفصاء — ومنها ما تراه مائلا كأنه أعناق البواشق . وهى — لروعتها — توحى إلى ناظرها أسرارا غامضة تملأ النفس بين هذا الصمت الذى يسود الشاطىء الرملىّ وقد خلا من كل ضوضاء وأصبحت لا تسمع فيه إلا أصوات الطيور البحرية التى تقطع عليك جلال هذا السكون بين حين وآخر .

* * *

وكانت « چورچينا » شغوفة شغف كل بريتونية بمشاهدة هذه الروائع الطبيعية . وقد أسلفت القول إن فى ذهنها أثرا من آثار الميل إلى تصديق الخرافات والإيمان بالأساطير . وإنك — إذ تراها — تحس أنها غارقة فى أحلام لذيذة ، وترى شعاع هذه الأحلام ينبعث من أسارير ها ،

وتحس — إلى ذلك — أنها على وداعتها جريئة ، عنيدة تلقى الخطر بثغر باسم . وقد عرفت شجاعتها حين واجهنا الخطر فى هذا المكان السحيق كما سيمر بالقارئ بعد .

* * *

كنا وحيدين — لا ثالث معنا — حين ذهبت بى « چورچينا » إلى هذا المكان ، وقد سحرها ما فيه من صمت رهيب مفزع ، و بدت على أسارير ها دلائل الإعجاب بتقحم هـذا المكان المنعزل الذى لا تكاد تعرف فيه منفذا تدخل منه. وقد اضطررت إلى تحقيق رغبتها ، و بذلت جهدا عنيفا فى إزاحة قليل من الأحجار التى تسد مدخل هذا الكهف ، وأخذنا نزحف على ركبنا حتى انتهينا إلى رواق شديد الاتساع ، وكنت — لحسن حظى — أحمل مصباحا فأشعلته فأنار لنا طريقنا ، وكان المكان موحشا ققرا ، و بدت لنا الجدران — على ضوئه — حمراء ، ومشينا زمنا قليلا وكلانا إلى جانب الآخر — وقد تماسكت أيدينا فلم تكد تفترق — ثم جلسنا على صخرة جنبا إلى جنب ، ولبثت صامتة — وعيناها نصف مفتوحتين — وألقت برأسها على كتفى وأمسكت بيدى بقوة شديدة ، ثم رفعت رأسها وقد غرقت فى حلم لذيذ أخاذ هو حلم السعادة المقبلة التى نفكر فيها جميعا ، ثم قالت لى :

« سنكون سعيدين . »

فقلت لها :

« لا شك فى هذا يا حبيبتى . »

فقالت :

« نعم لا شك فى هذا ، وسأكون جد فخورة حين ألقب باسمك

المحبوب ، يا مناط أملي ومبعث حبي. ولسوف نغمر « كلودين » بحبنا جميعا ونتكاتف معا على تنشئتها وتعليمها حتى إذا كبرت زوجناها ممن تحب متى شعرت أن قلبها يتكلم و يدعوها إلى الحب .

يا لها من سعادة إذ يجتمع ثلاثتنا حول المُوقَدِ في الشتاء ، أنا أطرز وأنت تقرأ و« كلودين » تنظر إلينا شاردة الفكر ، وإننا لكذلك إذا بريح الشتاء الباردة تتسرب إلينا من خلال المدخنة ، وتهوى كرات الجليد الصغيرة على ألواح النافذة الزجاجية ، وقد سادنا المرح ونعمنا بالدفء واكتنفتنا السعادة و بسم لنا الزمن فامتلأ بيت هذه الاسرة السعيدة بأفانين البهجة وعلا ضحكنا . فإذا عنَّ لنا أن نذهب جميعا لزيارة بعض جيراننا الفقراء أسرعنا إليهم ومعنا شيء مما زاد من عشائنا الوفير ، لندخل على قلبهم السرور بما نقدمه إليهم من عطف ومساعدة . »

* * *

وهكذا استسلمتْ « چورچينا » لأحلامها وشركتُها فيها. ومازلنا نتحدث عن السعادة القابلة ساعة من الزمن ، ثم قطعت علينا سلسلة الحديث حركة مفاجئة غير عادية ، فشغلتنا عما كنا فيه من الأمانيّ والأحلام .

لقد فوجئنا حقا مفاجأة مُرَوّعة ، فقد سمعنا حفيفا مُفزّعا ممتدًا وخيل إلينا أن قرقعة وضجيجا يقتربان منا وقد أعقبهما صفير وصرير وجلجلة .

وطارت نفسي شعاعا من هذه المفاجأة ، وثار البحر واصطخبت أمواجه ، وتكرر الصوت الذي سمعناه — وقد انبعث من مدخل الكهف — فخيل إلينا أننا هالكان — لامحالة — بعد أن سُدَّت أمامنا طرق الخلاص .

فحملت صاحبتى « چورچينا » بين يدىّ ، وعدوت بها بمقدار ما يسمح لى ضوء مصباحى الضئيل ، واشتدت الحركة واقتربت منا ، ثم غمرنى الماء إلى ساقى ، ورأينا الماء يتدفق فى المدخل الصغير ، فسهل علينا تعرف مكان الباب. ولكننا كنا بعيدين عنه. واشتد الخطر وتعذر الخروج وضاقت بنا سبل النجاة وكدنا نيأس من الحياة .

كيف نخرج من هذا المأزق ؟ هذا هو السؤال الذى عجزت عن الإجابة عليه ولم أكن فى ذلك الوقت زاهدا فى الحياة ولا راغبا فى الفناء ، فقد كنت غارقا فى أحلام السعادة الوشيكة التحقيق ، وكان باب المستقبل الحافل بألوان الفرح والابتهاج مفتوحا أمامى على مصراعيه ، وكان الحب يملأ كل قلبى ، وكانت الحياة أمامى باسمة وادعة والدنيا مقبلة علىّ ، ثم تحول كل شىء من الضد إلى الضد ، وانقلب الصفاء كدرا والأمل يأسا والعرس مأتما ، ولُفَّت روائع أحلامى وعرائس أمانىّ فى تابوت الفناء الذى سيعقبه نسيان أبدىّ لا رجعة له ولا عود ، قبل أن نعد معدات الفراق أو نتأهب للقاء الموت .

* * *

على أننى نسيت كل شىء إلا واجبى المقدس فى حماية « چورچينا » وإنقاذها من هذا الخطر ، فتراجعنا إلى الوراء وإذا بخطوات خفيفة تدانينا -من خلال الرمل- ورأينا جمهرة من سرطان البحر هائلة الحجم وقد لفظها الماء علينا وقذف بها الزبد إلينا ، فرفعت أيديها الطويلة منذرة إيانا بالهلاك. وقد استجمعت « چورچينا » كل قوتها فى هذا الموقف الحرج وقابلت هذا التهديد برباطة جأش. واستأنفنا السير فى طريقنا والأمواج تتعقبنا بخطى وئيدة

و رأت « چو رچينا » أن عودتنا قد أصبحت مستحيلة ـ فى ذلك الوقت ـ فأشارت إلى ناحية قريبة ، وقالت فى هدوء ينم على طبيعتها الهادئة وحلمها الراجح :

« أتحب أن نجلس على هذه الصخرة ؟ »

فأكبرت شجاعتها وشعرت فى تلك اللحظة أن حبها قد تأصل فى نفسى ونما وأصبح شعلة متقدة ، و إن كنت أعلم أن مصير كل نار إلى خمود .

* * *

وتمثل أمامى طُهْرُ « چو رچينا »ـ من جديد ـ وقَدَاستَها ، وعاد إلى ذاكرتى تمثالها ـ حين رأيتها فى الكنيسة للمرة الأولى ـ وأحسست أن قلبى يحترق و يتصاعد دخانا أمام هذه النار الإلهية المقدسة التى التهبت فيه التهابا . وتمثلنا معا ذكريات الماضى كلها فلم نَنس منها شيئا ، والتقت نظراتنا المطمئنة الهادئة ـ بعد أن أخلدنا إلى الخطر وارتاحت نفسانا إلى لقائه ـ وتجسمت أمامنا السعادة التى أوشكت أن تقبَرَ بعد لحظات قليلة . وكانت ـ فى الحق ـ لحظة رهيبة لعلها أحرج لحظة واجهتها فى حياتى .

و وقع فى روعى خاطر من الأمل فى أن « چو رچينا » لا يمكن أن تهلك وأهلك معها بمثل هذه السرعة ، فانفسح أمامى عالم من الرجاء والغبطة و إن كان يخالطه شىء من الخوف والفزع الغامضين كلما تمثلت أن الموت سيجمع بيننا ـ ونحن نتهيأ للعرس ـ فقد كنت أسمع لحن الفراق يطغى على لذاتنا التى تغمر قلبينا .

وكان الهدوء ـ الذى يكتنفنا ـ سببا فى إعادة الشجاعة إلى نفسى . وأنسانا الحب كل خطر فى الدنيا فلم نفكر فى شئ إلا فى التأهب للموت وتمثل حالنا بعده .

* * *

و إنى لغارق فى هذه التأملات العميقة ، إذ رأيت «چوچينا » تبكى متألمة لفراق « كلودين »، فشربتُ دموعها فى شراهة عجيبة ، وهوَّنت عليها الأمر ـ جهد استطاعة محب يحاول أن يرفه عن حبيبته و يسرِّى عن نفسها ـ ثم أقبلت علينا أمواج البحر من أعلى الكهف ، ولم يبق إلا أن تغمرنا فنلقى حتفنا جميعا .

الفصل السادس عشر

المجنونة

وفى هذه اللحظة نفد زيت المصباح ، ولم يبق فيه إ . . . . . .
لم يلبث أن انطفأ بعد قليل . واشتمل علينا ظلام دامس واشتد خفقان قلبينا ونحن غارقان فى ظلام تلك الليلة الحالكة .

وسمعت فجأة صوتا يغنى أغنية هزلية ساخرة ، ثم ثارت موجة صاخبة أعنف من سابقتها واندفعت فى إثرنا ، و بللت أقدامنا فخارت شجاعة « جورجينا » قليلا ، وسكت النشيد الذى سمعناه ، وانقطع صوته عنا فسرنا فى طريقنا سيرا وئيداً متباطئا ، وظللت ألتمس بصيصا من النور وآمل أن أهتدى إلى أى أمل فى الخلاص . ولاح لى فجأة ضوء يومض من بعيد ، فعاودنى الأمل من جديد وانبعث فينا رجاء فى الخلاص ، ووصلنا إلى صخور منحنية تشبه القبو محفوفة بالأعشاب يجوس خلالها ضوء النهار ، ورأينا السماء فوقنا واضحة من خلال الغصون المشتبكة ، ولكن بقيت مشكلة الخلاص من هذا المأزق الذى نحن فيه ، وكيف يتاح لنا أن نصعد إلى سطح الأرض على تلك الجدران الناعمة الملساء ، وكانت القبة ترتفع إلى عشرين قدما .

ثم فاجأ نا صوت حصى يتدحرج علينا ، ثم أعقبه وقع أقدام وظهرت امرأة تنظر إلينا من علٍ وهى منحنية تنعم النظر فينا ، وتجيل لحاظها مدهوشة متعجبة من ذلك السجن الذى حللناه ، فناديتها آملا أن

تنقذنا ، فضحكت منا ساخرة ، وجلست وكأنها لم تفهم من أمرنا شيئا . وظلت ترمقنا بنظرات حادة وهى شاخصة إلينا لا تكاد تحوّل بصرها عنا. ثم جمجمت ألفاظا عديدة لامعنى لها ، ثم انحنت قليلا وهمست بصوت خافت كدنا لا نسمعه، وكانت تتخلل كلامها ضحكة عالية جافة وقد أدركت أنها مجنونة وهى تهمس قائلة :

«ياسيدى العزيز : أنت فيما أرى رجل طيب القلب ، فهل تعلم أنني ميتة؟ أؤكد لك أنني ميتة لأنني قد وضعت حبي فى غير موضعه . لقد أحببت حبا عنيفا وكنت حينئذ جميلة فى مقتبل شبابى ، ولكن من أحبه قد خانني وهجرني والهجر قاتل . ألا تريان أنني ميتة حقا ؟ »

* * *

وما كادت المجنونة تنتهى من قولها حتى خرجنا من الكهف وشهدنا الأمواج زاحفة على الرمل ، مزبدة مرغية ملتوية كالثعابين .

وكانت المجنونة لا تزال تنظر إلينا حائرة، ثم أخرجت سبحتها وظلت تسقط ما فيها من حب ــ واحدة إثر الأخرى ــ فعنّت لى فكرة سريعة رجوت أن يكون فيها الخلاص. فقلت لها :

« ألا تعلمين أننى أعرف من تعشقين ؟ »

فقالت لى مدهوشة :

« ومن أخبرك أننى أحب ؟ وكيف علمت أن لى عاشقا ؟ أنت كاذب لا تعرف أحدا . »

فقلت لها :

« بل أنا أعرفه معرفة اليقين . »

فقالت :

« أؤكد لك أنك لاتعرفه . »

فقلت لها مؤكدا جازما بما أقول :

« ثق أننى أعرفه ، وأعرف مكانه ، وسأرشدك إليه وأجعلك به متى عاونتنا فى الخروج من هذا المكان . »

فنهضت المسكينة قائمة من فورها واختفت عن أبصارنا فى الحال . وسمعنا وقع أقدامها وهى تبتعد ، وعلت الأمواج حتى وصلت إلى قدمينا ، وقضينا عشرين دقيقةوقد تملكنا الرعب والهلع واشتد خفقان قلبينا ، وحملتُ «جورجينا » بين يدىَّ ورفعتها بعد أن وصل الماء إلى ركبتىَّ،وتساءلنا:«هل تعود المجنونة»؟ ثم سادالصمت ولم يبق إلا صوت أصم ينبعث من اصطدام الأمواج بالصخور بين حين وآخر ، وابتل ثوبى وثوب « جورجينا » ولم يبق لى من حيلة فى انقاذ ثوبها من البلل ، فلطمتنى موجة فى وجهى،وصرخت «جورجينا » صرخة يأس مؤلمة ، وأدركت أننا مغرقان جميعا بعد لحظات يسيرة .

* * *

وسمعنا وقع أقدام بطيئة ، وظهر أمامنا شبح يقترب منا ، ثم الفينا شصا طويلا يتدلى إلينا ، وكانت المجنونة قد علقت الحبل فى غصن شجرة قريبة . و بعث فينا الحب قوةالدفاع فحملت«جورجينا» بين يدىَّ وتعلقنا بالشص ، وأمسكنا بالحشائش حتى بلغنا الأرض العالية بعد أن جرحت يداى و وجهى وخارت قوى « جورجينا »إثر مابذلته من كفاح وجهاد سمعنا صوت الأمواج تتكسر على صخور الشاطئ ورماله ، بعد أن أصبحنا فى مأمن من الخطر وهبَّت ريح الشفق على أغصان الأشجار المتفرقة . وكانت المجنونة على قيد خطوات منا ، وهى

تضحك ضحكات عالية وقد تملكها الذهول ، فقلت لها :

« غدا سأجمعك بمن تحبين . »

فصرخت مذعورة وقالت يائسة :

« غدا . كلا كلا . كلا . هذا مالا يكون . حسبي أنك خدعتني أيضا ، فيالشقائي وويلي عليكم وويلي منكم أيها الفتيان الشباب . »

* * *

ثم أسرعت فى عدوها هائمة على وجهها ، وهى عارية القدمين ، ورأيناها وهى تمشى مسرعة على الحشائش الجافة القريبة من الشاطئ حتى اختفت عن أبصارنا فلم نعد نرى لها أثرا .

على أن شكواها المؤلمة قد تركت فى قلبينا ألما عميقا لا ننساه ، وقد أشفقنا عليها من تلك النهاية المحزنة .

إلى هنا انتهى مخطوط « لوسيان »

وانتهى الجزء الاول .

آلفرد دفن



« تقفون والفلك المسخر دائر ، وتقدرون فتضحك الأقدار »

« أبو العلاء »

الجزء الثاني

الفصل الاول

سفَر فجائى

كان من العجيب أن يعترض هذه القصة الغرامية حادث طبيعىّ بسيط يقع لكل إنسان سواء أكان شاعرا سابحا فى الخيال أم كان رجل عمل لا يعنى إلا بالحقائق . ومن العجيب المدهش أن يكون هذا الحادث التافه سببا فى قلب هذه الرواية رأسا على عقب ، وقطع سلسلة حوادثها .

لم تكد تمر أيام قليلة على مغادرة «چورچينا» ذلك الكهف الذى عرفه القارئ فى ختام الفصل الماضى من هذه القصة ، حتى وصل إلى « لوسيان » إنذار من المحكمة فرأى أن كل تأخير عن حضور تلك القضية المفاجئة ، سيجر عليه الدمار والخراب . وكان من المحتم عليه ، أن يسافر من فوره ، فأسرع إلى بيت « چورچينا » فى نفس المساء ، وما كاد يصعد السلم حتى اشتد خفقان قلبه وكادت نياطه تنقطع ، وشعر بأن حادثا جللاً قد أثر فى حياته تأثيرا عنيفا ، وأحس أن ذلك الحلم اللذيذ الرائع قد انتهى .

وتملكه يأس شديد ، فاحتبس لسانه عن النطق ، ولم يدر كيف يقول لچورچينا وكيف يبدأ حديثه معها . ولبث أمام الباب بضع دقائق مرت بذهنه ـ فى أثنائها ـ صور ذكرياته الحلوة . وطرق الباب بيد مضطربة لا تكاد تستمسك . ففتحت « كلودين » الباب ودخل « لوسيان » ولم

تكد « چورچينا » تراه حتى فزعت مما رأته على وجهه من دلائل الكمد وامتقاع اللون فصاحت مدهوشة :

« يالله ! ماذا بك يا لوسيان ؟ »

فقال لها بصوت خافت ضعيف :

« ليس ما بى إلا أننى على أهبة السفر . »

ـ «أمسافر أنت ؟ خبرنى بربك . أمسافر أنت يا «لوسيان» ؟ أتاركى أنت هنا مع « كلودين » من غير أن تصحبنا معك فى سفرك ؟ وإلى أية جهة أنت نازح . »

ـ إلى « إفرنتى » فى « نورمانديا »

ـ « وأى شئ أعجلك إلى هذا السفر ؟ . »

ـ « هى قضية لا بد من السفر إليها . »

* * *

فامتقع لون « چورچينا » ودخل فى روعها أن خطيبها يخدعها ، وأنه قد ملّ عشرتها فانتحل سببا يبرر به الهرب منها ، ويحطم آمالها ويفصم عرى الحب الوثيقة بينهما .

ولم تتبين « چورچينا » فى ساعة اضطرابها حينئذ سوى أنه ينتحل عذرا كاذباً لا أساس له. ولم يكن «لوسيان» قد حدثها قط عن أعماله وقضاياه فلم تصدق أن له قضية فى « نورمانديا » وقالت له فى لهجة فاترة :

« فليكن لك ما تريد ،ولتسافر إلى حيث تدعوك أعمالك ، ما دمت تأبى إلا السفر . وداعا ياسيدى . وداعا . »

ثم خارت قواها من شدة التأثر والانفعال فارتمت على مقعد ، ووضعت يديها النحيفتين ، على جبهتها الجميلة ، وطفقت تبكى .

واقتربت «كلودين» الصغيرة من «لوسيان» وقالت له لتسرى عن نفس أختها :

«ولماذا تسافر يا «لوسيان» ؟ إن سفرك هذا يضجر أختى «جورجينا» و يُغنِّيها . »

فقال لها «لوسيان» :

«لو كان لى مندوحة عن السفر لفعلت، وما أظنكما تريدانى على أن أظل هنا حتى يحيق بى الدمار فيصبح رواجنا من المستحيل ؟ »

فصرخت «جورجينا» وقد هبت واقفة والدموع تبلل جفنيها ، وقالت فى لهجة مؤلمة ، ضارعة إلى حبيبها :

« إذن فقد ضاع كل أمل يا «لوسيان» وفقدتُ كل شئ . وماذا عليك لو بقيت وتكاتفنا معا على الحياة ، وحسبنا ما تناله من أجر عملك وما أناله من أجر عملى ؟ »

* * *

فوقف «لوسيان» صامتا وهو لا يُحير جوابا ولا يدرى كيف يقول ولا يفهم سرهذا الجزع ومبعث هذه الدموع .

وكان «لوسيان» ـ فى الحق ـ غارقا فى أحزانه ، متألما لمغادرة «جورجينا» الحبيبة إلى نفسه ، وكان على يقين من أن بعده عنها سينغص عليه أيامه ، وأن حرمانه رؤيتها سيقُض عليه مضجعه ، و يؤرق جفنيه . ولكنه كان يعزى نفسه بأنها ستدرك ـ بلا ريب ـ أن هذا البعد هو الوسيلة الوحيدة إلى تحقيق آمالها ، وأنه لا معدى له عن السفر ولا مناص له منه .

ولكنها بدلا من أن تشجعه على تحقيق آماله حاولت أن تثبط همته ،

ودفعها الحب والوجد أن تتشفع به أن يعدل عن سفره . وقالت له ضارعة :

« بربك لا تتركنا هنا . بربك ابق معنا ولا تسافر . »

ثم قالت لكلودين : « لا بد أن أخلو به لأتحدث إليه . فتعال معى يا لوسيان . »

وأمسكت بيدها المرتجفة الملتهبة كتف « لوسيان » ، وسارت به إلى السلم حتى بلغا الحديقة ، وكان فيها خميلة تحتها زهور وأعشاب وإلى جانبها شجرة من التين دانية القطوف كبيرة الورق، يخيل إليك حفيفها — حين تنصت إليه فى هدوء الليل — أنه أنين حزين .

وكان حول هذه الشجرة مقعد من الصخر يكتنفها ، فجلس عليه « لوسيان » و « چورچينا ». ثم لمع فى السحب البيضاء ضوء لطيف أشبه بضوء الأمل . وقالت « چورچينا » مضطربة :

« إذن فقد انقضى ما بيننا يا لوسيان ؟ »

فقال لها متعجباً :

« ولماذا ؟ وكيف تسرّب إلى نفسك هذا الظن يا «چورچينا» ؟ أى شك أنت من إخلاصى ؟ وهل تمترين فى حُبِّيك ؟ لقد أخبرتك أن قضية خطيرة تضطرنى إلى السفر ، فكيف أبقى هنا ؟ »

فقالت :

« الحق معك ، فقد كان لا بد لك من أن تخلق سببا تبرر به هذا السفر المفاجئ ، وكان من حسن حظك أنك اهتديت إلى هذا السبب، وليس فى قدرة أحد أن يثنيك عن عزمك ما دمت تريد أن تسافر

من أجل هذه القضية .

فصرخ « لوسيان » متألما ثم جثا أمامها فوق رمل الحديقة وقال لها :

« أتشكين فيما أقول وتكذبينني ؟ أوتسخرين من الواجب المقدس الذى تتوقف عليه حياتى وسعادتى ؟ فمن تظنينني أيتها الحبيبة ؟ أترينني رجلا ساقط المروءة لا عهد له ولا ذمة؟ يالك من حمقاء إذا وصلت فى إساءة حكمك على إلى هذا الحد !

فقالت :

« لست أسىء الظن بك ولا أسخر من واجبك، ولكننى أتألم ويدفعنى الألم إلى الوقوف هذا الموقف، وليس لى من رغبة ولا مطمح إلا أن أراك بجانبى وأن أمنعك من فراقى ، لأننى فى حاجة ملحة لأن تكون قريبا منى دائما . كل ما أقوله لك هو أنى أحبك وأخشى أن تنسانى إذا سافرت ، ولست مستوثقة من عودتك إلى بعد ذلك . وإن هاتفا ليهتف بى من أعماق قلبى مؤكدا أن هذا السفر سيكون خاتمة عهد الحب بيننا . فهل يسرك أن ينتهى هذا الحلم السعيد؟ وهل تريد أن تقطع علينا سلسلة هذه الأمانى الشهية ؟ إن كان ذلك ماتريد فلتصحبك السلامة فى سفرك ووداعا أيها الحبيب . »

فقال « لوسيان » :

« فكيف تحكمين إذا علمت أن حبك هو الذى يضطرنى إلى فراقك الأليم ، لأننى أريد أن أسعدك ولا أرضى أن أشركك معى فى حياة الشقاء والخراب ؟ إن كل ماأرجوه هو أن أظفر بنصيبى الضئيل من الثروة لأضمن لك عيشا رغدا وحياة هنيئة تغنيك ولا تضطرك إلى

العمل وقتا طويلا فى كل يوم بعد أن تصبحي زوجا لى . أفاهمة أنت ما أقول ؟ أمدركة أى هدف أرمى إليه أيتها الحبيبة المجنونة ؟ »

فقالت :

« بل مدركة كل ماتقصد إليه ، وأراك على حق فى تصميمك على السفر ، ولكننى على ثقة من أنك لو أحببتنى كما أحبك ، لفضلت البقاء إلى جانبي — كلفك ذلك ما كلفك من خسارة وخراب — ولكن شتَّان بين حبي وحبك . أفهمت ما أقول يالوسيان ؟ كلا . كلا أنت لا تعرف الحب . أنت لا تدرى شيئا من لواعج الغرام . كلا لا تدرى شيئا . »

***

وقد حاول « لوسيان » جهده أن يسكن من ثورتها ويعزيها عن خسارتها ويسرى عن نفسها ، ويدلل لها على أن سفره أمر لا مناص منه وأنه حتم من الحتم ، ولكن حججه كلها ذهبت أدراج الرياح . وماذا يجدى المنطق والحجة القاطعة أمام العاطفة الثائرة والوجد المستعر ؟ لقد التهبت « چورچينا » التهابا ، وامتزج الحب بلحمها وسِيط بدمها وهيمن على كل مشاعرها وتغلغل فى أعماق نفسها ، فلم تعد تزن الأمور أو تبالى العواقب . لقد استيقظت فجأة من ذلك الحلم اللذيذ ، بعد أن ألفت حياة كلها بهجة وسرور وتعودت أن يقبلها « لوسيان » ويضمها إلى قلبه ويعانقها عناقا طويلا ويغمرها بحبه وإخلاصه ، وقد هيمن الطهر والعفاف على الخطيبين طول هذه المدة . وأحست « چورچينا » طائفة من الأحاسيس الغامضة المجهولة تلهب فى نفسها الرغبة فى أن تحول بين حبيبها وبين سفره الوشيك .

وذكرت حينئذ كيف كانت تدفع بنفسها إلى « لوسيان » وتطوق

عنقه بذراعيها وقد التهبت حماستهما ووقف الطهر والاحترام حائلا دون انتهاك حرمة العفاف .

* * *

وأحس « لوسيان » أن سفره وشيك فاشتد اضطرابه وخانه جلده ، فجلس عند قدميها على رمل الحديقة وقبلهما من خلال الرمل ، فأحست كهرباء تسرى فى جسمها وقد اجتذبها إليه ، وانهال على وجهها بقبلاته الحارة الملتهبة ، فتخلصت منه - فى فزع - ووثبت قائلة :

« ما ذا تصنع ؟ أمجنون أنت ؟ دعنى ولا تجلس عند قدمىّ هكذا . قف على قدميك أو اجلس إلى جانبى فإنك تخيفنى وترعبنى بهذه الحركات الخطرة . »

* * *

وكانت على حق فيما تقول ، فقد تملكتها الرجفة وسرت الرعشة فى جميع أعضائها وثارت أعصابها الدقيقة ، واشتد تأثرها وخوفها ، وامتلأ رأسها أفكارا غامضة وألغازا خفية حاولت عبثا أن تهتدى إلى توضيحها وتفسيرها . ورأت نفسها تسبح فى عوالم شتّى من عوالم التفكير اللذيذ فى الحب وذكرياته . وقد اندفعت - عن غير قصد - إلى تلك الصرخة التى صرختها فى حبيبها لتقصيه عنها ، واشتد أسفها على ما فعلت وندمت على إقصائه عنها أحوج ماتكون إليه .

ولم يكن « لوسيان » يدرك شيئا من هذه الخواطر التى امتلأت بها نفسها ، فلم يجد أمامه إلا أن يطيع أمرها ويجلس إلى جانبها ، وقد أنهكه ذلك العراك العنيف الذى نشب بين إرادته وحبه ، وظل صامتاً

وهو بين أسفين : أولهما أنه صدم شعور « چورچينا » وظهر أمامها بمظهر الناكث العهد الضعيف الإرادة . والثاني أنه لم يستطع أن ينال ما كان يستطيع أن يناله غيره في مثل هذا الموقف .

ومر شطر كبير من الليل ، وساد الصمت فلم يُسْمَع حينئذ إلا أمواج البحر القريب من بيتها وهى تصطخب .

فقال «لوسيان» لخطيبته هامسا :

« ألا تعلمين الخُبْرَ أن الموت مدركى إذا غبتِ عنى وحرمتُ رؤيتك ؟ ألا تصدقين هذا ؟ »

فقالت له ممتعضة :

« هكذا قلت لى من قبل ولكننى لا أصدقك ، وليس مثلك من يعرف الحب . فإن كنت صادقا فيما تزعمه فخبرنى أراض أنت بتضحية كل شىء فى سبيل هذا الحب ؟ وهل أنت قادر ـ إذا كنت جادًّا فى حبك ـ على أن تقاوم إرادة من تحب؟ إنك لا تزال طفلا يا «لوسيان» ، و إن كنت تبدو بمظهر العاقل الحازم الرشيد. و يظهر لى أن النساء يُخفنك ، وأحسبك لم تصاحب ـ من قبل ـ خليلة . أليس كذلك ؟ »

فقال لها «لوسيان» مؤكدا فى يقين الجازم :

« كلا . لم تكن لى خليلة قط. فأنت أول امرأة أحببت يا «چورچينا» . ولست أحب إلا أول من عرفت . »

فابتسمت «چورچينا» وشرد فكرها وقالت متمتمة:

« إذن فقد عرفت كيف تختار من تحب ، فإنى لك أبد الدهر ، وإنى لأحبك ـ على ما فيك من صلابة وعناد ـ وحسبى هذا الوعد الصادق

الذى ظفرت به منك . فسافر ما دمت قد اعتزمت السفر ، ولتصحبك السلامة فى سفرك وعودتك .»

فاجتذبها « لوسيان » ورفعها فوق ركبتيه وضمها إليه حانيا بكل ما فيه من قوة وحب ، وأمطرها وابلا من القبلات فى عنقها وعينيها وشفتيها ، وقد ألهبه الشوق إلهابا ، وسرت الحرارة فى كل جسمه ومرت يداه فى ثنايا ثوبها على قامتها المشوقة وجسمها البديع ، وزاغ بصره واضطربت أعصابه ، فتخلصت منه مرة ثانية ـ وقد سرت الرعشة والرجفة فى جسمها كله وأمسكت بيديه وهى تخشى أن يتغلب على ضعفها، وقالت له ضارعة :

« بربك تنح عنى ، فإننى سأكون لك كما تحب بعد أن يتم الزواج. وإنى لأخشى أن يرتاب الجيران فى أمرنا ويظنوا بنا الظنون. »

فقال لها :

«لن يظنوا أكثر من أنك خليلتى . »

فقالت :

« بل زوجك إذا شئت يا «لوسيان» ، أما خليلتك فلا،ولن أكونها أبدا . »

فضمها إليه حانيا ، ولكنها فرت من أمامه، وقالت له :

« اذهب وعجل بالسفر .... الوداع الوداع . . أيها المجنون .... سافر غداً وعد بأسرع ماتستطيع ، وحذار أن تبطئ . أسامع أنت ؟ »

* * *

و بعد خمس دقائق غادر المنزل الذى كان مسرح أحلامه ومهبط سعادته بعد أن أنشأ فيه قصيدة السعادة التى لم يتم نظمها لأن القدر أبى إلا أن يقفه من إنشائها عند هذا الحد.

الفصل الثانى

زائر جديد

قضى « لوسيان » أيامه الأولى ـ بعد فراق « چورچينا » ـ منهمكا فى أداء أعماله الجدّية التى سافر لإنجازها ، ولم يجد وقتا للتفكير فى شئ سوى أدائها. وقد وصل إليه كتابان من «چورچينا» قالت له فى أولهما :

« أتدرىَ يا «لوسيان» ـ أننى كنت على وشك الموت بسبب فراقك ولما يمض على سفرك غير يوم واحد ؟

لقد تركتك وأنا على ثقة من لقائك مرة أخرى قبل رحيلك ، فقد كنت جد مستيقنة أنك لن تجرؤ على السفر قبل أن تتزود بقبلة أخرى من حبيبتك « چورچينا » ، ومن ثمة هربت منك فى كياسة ولباقة ولم أمكنك من تقبيلى ـ بعد ختام حوارنا ـ لأدخر لك هذه القبلة قبيل سفرك ، ولأكون على ثقة من لقائك مرة أخرى .

فلما أبطأت فى حضورك عن الموعد الذى ألفتَ مجيئك فيه ، نفد صبرى وضقت ذرعا بالحياة، وخرجت شاردة كالمجنونة وأنا لا أدرى إلى أى مكان أقصد، وظللت أعتسف الطريق اعتسافا. ثم ذكرت أن من المحتمل أن أجدك فى مسكنك ، فأسرعت إليه فعلمت من صاحبته أنك قد غادرته وحملت معك أمتعتك كلها . فدخلت غرفه مهتاجة فلم أجد فيها شيئا من آثارك ، ورأيت سريرك عاريا من الفراش فغادرت المنزل ـ يا حبيبى العزيز ـ وأنا منقبضة القلب ثائرة الأعصاب ، وأخذت أبكيك وأندب فراقك كأنما أندب ميتا عزيزا فقدته .

***

لقد سافرتَ لأداء واجبك الحتم الذى لا معدى لك عن أدائه ، ولم يتغلب عليك سلطان الحب فينسيك فروضك، وهذا عندى- بلا شك - من أدلة رجولتك وحزمك ونقديرك الأمور ، وعدم إغفالك الواجب لأى داع من الدواعى أيًا كان و بالغة مابلغت خطورته .

على أننى آمل أن تكون حريصا على إنجاز وعدك فى العودة ، كما كنت حريصا على أداء واجبك فى تركى . وإنى لمعجبة بك ، فخورة بحزمك ، مبتهجة بعزيمتك الصادقة . وإنى لأ كبر منك قوة إرادتك فى مغالبة نزوات الحب الطائشة التى كانت تجتذبك إلىّ وتثير فى نفسك من الجرأة الجنونية مالاقبل لإنسان بدفعه . ولكنك كنت تخرج منها فائزا منتصرا ، و يغلبك احترامك إياى فلا تستسلم لرغبات الشباب الطائشة . فشكرا لك على عفافك وطهارة نفسك، فقد عرفت مبلغ ضعفى عن مقاومتك فلم تستغل هذا الضعف ، وأبى لك شرف نفسك إلا أن تكون كريما نبيلا ، ولو قد شئتَ لتغلبت عليه بقوتك .

والآن أعود إلى «باريس» مع شقيقتى وسننتظرك فى بيتنا حيث لا تزال ذكرياتك فيه باقية تحدثنى بها الجدران والمقاعد كما يحدثنى عنها كل شىء فى البيت .

وأرجو أن تكثر من الكتابة إلىّ كلما استطعت إلى ذلك سبيلا .

* * *

ألا تزال راضيا عنى يا «لوسيان» ؟ أجبنى بربك وعجل بإنجاز أعمالك ، فقد أهلكنى الشوق إليك . وإلى اللقاء القريب يا حبيبى ، وإنى أبعث

إليك الآن بقبلة حارة فى هذا الكتاب ، أرجو ألا تغفلها إذا كنت لاتزال تفكر فى زوجك الصغيرة التى تقدسك . »

« چورچينا »

« حاشية ـ يالله ! شد ما تبدو لى هذه المدينة الكبيرة موحشة مقفرة كلّما أدرت لحاظى فلم أعثر عليك فيها . »

* * *

وقد سافرت اليتيمتان إلى « باريس » بعد يومين وقد أضجر السفر « چورچينا » وأضناها ـ فى هذه المرة ـ ورأت الطريق موحشة مقفرة طويلة . وما كادت تصل إلى بيتها حتى رأته ـ كما تركته يوم سفرها ـ فقد عُنيَتْ مربيتها « فرانسواز » بتنظيفه وتنسيقه على أكمل وجه ، ولم تكد ترى سيدتها قادمة حتى هشت للقائها وتحيتها ، وقالت لها :

« لقد عُنيتُ ببيتك يا آنسة فى غيابك كما كنت أعنى به فى حضورك ، ولم يعكر علىّ صفائى إلا غيبتك وقلقى عليك . وقد أكثر تلميذاتك من السؤال عنك ، وكن يجئن ـ فى كل يوم ـ ليتنسَّمْن أخبارك ، وقد جاء ـ أمس ـ سيد سَرِىٌّ ومعه ابنته ـ وهى تلميذة جديدة ـ وسألنى عن موعد عودتك . وهو طويل القامة وأحسبه من رجال الجيش وإن كان يرتدى ثيابا ملكية ، وشاربه أسود وإن كان شعر رأسه قد جلله البياض ، وسيعود إليك فى هذا اليوم آملا أن يلقاك . »

فسألتها « چورچينا »

« أتذكرين اسم هذا السيد ؟ »

فقالت

« تريثي قليلا يا آنستي . . . آه ما أغرب أمري ! كيف نسيته ؟
د أضعفت الشيخوخة ذاكرتي القوية فلم تعد تذكر الأسماء !
لى أن عندي بطاقته وعليها اسمه ، وقد وضعتها خلف المرآة . هاك
طاقته يا آنسة . »

فرأت « چورچينا » على بطاقة هذا السيد اسمه ولم تكن تعرفه من
بل ، وهو :

« الكونت چول دي سان إيلم »

فوضعت بطاقته على رخام المُوقَد ولم تعرها بعد ذلك أقل اهتمام .

* * *

ثم جلست إلى المائدة وتغَدَّت — وهي شاردة الفكر — وما كادت تنتهي
ن غدائها حتى خرجت لتزور أُسرَ تلميذاتها وتنبئهن بعودتها من
سفرها .

ولمّا عادت إلى بيتها — في الساعة الخامسة تقريبا — رأت « كاودين »
تنتظر عودتها في الحديقة ، وما كادت تراها حتى قالت لها وهي تقبلها :

« لقد جاء السيد الذي أخبرتك به « فرانسواز » وهو ينتظرك »

فقالت لها « چورچينا » :

« أيَّ سيد تعنين ؟ »

فقالت لها « كاودين » :

« السيد الذي ترك لك البطاقة أمس . »

فقالت « چورچينا » :

« نعم . . . الآن ذكرته . »

* * *

ثم أسرعت « چورچينا » إلى غرفة الاستقبال وصعِدت السلم مسرعة ،

فاشتبك قدماها فى ذيل ثوبها وكادت تسقط على ركبتيها .
ولكن ضيفها الذى كان ينتظر عودتها ، أسرع إليها فحملها بين يديه وطوق قامتها بذراعيه وأنقذها من السقوط

ولم يستغرق هذا الحادث أكثر من ثانية واحدة ، ثم قدم لها الكونت « دى سان إيلم » ذراعه لتعتمدها حتى وصلت إلى المقعد الذى كان يجلس عليه .

ولأمر ما ، جزعت الفتاة وامتقع لونها وسرت الرعشة فى جسمها ، فجلس السيد إلى جانبها وقال لها :

« اسمحى لى يا آنسة أن أقرر لك أننى جد سعيد إذ جئت فى الوقت المناسب ، واستطعت أن أنقذك من شر هذه السقطة المؤلمة المشئومة العواقب . . »

فقالت « جورجينا » مجمجمة بصوت متهدج ينم على ثورة أعصابها :

« شكرا لك ياسيدى على كرمك

— « بل أنا أجدر منك بشكرك يا آنسة « جورجينا » إذ أتيحت لى هذه الفرصة . وإنى لمغتبط لأن حضورى لم يخل من فائدة لك .

— « وكيف عرفت اسمى ؟ »

— « لقد ذكرته لى خادمتك أمس ، على أن اسمك من الأسماء التى لا تنسى . »

* * *

فاحمر وجه « جورجينا » خجلا ، وسألته

« ولماذا لم تحضر معك صغيرتك التى أردت أن أشرف على تعليمها ؟ »

فقال لها :

« لم أحضرها معى لأنها لا تزال طفلة يا آنسة ومن نكد الأيام أننى فقدت أمها منذ خمس سنوات، وقد اضطررت إلى تنشئة هذه اليتيمة وتربيتها بنفسى ـ بعد موت أمها ـ وستحبينها حين تر ينها ، وستكونين لها أمّا، ولن يقل حبك إياها عن حبك الآنسة « كلودين » التى تتعهدينها بعنايتك ورعايتك .

وها أنت ذى تر ين أننا وجدنا فى ظروف متشابهة وأصبحنا وكأننا أسرة واحدة و يلوح لى أنك تفهميننى كما أفهمك . »

* * *

وأمسك الكونت بيدى « چورچينا » ـ فى أثناء هذا الكلام ـ وظل ينظر إليها بعين نافذة مفعمة بالأسرار الغامضة ، وهو يضغط أصابعها ضغطا خفيفا و يداعب أناملها من غير أن يبدو عليه أنه يأتى أمرا غير عادى .

وأرادت « چورچينا » أن تسترد يديها من بين يديه ، ولكنه استبقاهما قليلا ـ على الرغم منها ـ وقال لها :

« لماذا تحاولين أن تستردى يديك الصغيرتين البضّتين بمثل هذه السرعة ؟ لعلى قد آلمتك حين ضغطت عليهما ؟ على أننى أؤكد لك أن هذا دليل الإعجاب الصامت بك من شيخ ربما راعتك منه شيخوخته وأنت لا تزالين صبية بعد؟ »

فلم تجبه « چورچينا » بشىء ، وتراخت يداها وعرتهما برودة من أثر

ضغطه عليهما ، فقال لها الـكونت :

« ما أحوج ابنتي إلى إرشادك ونصحك ! وما أنا بطامع في شيء أكثر من أن أجد لها أمًّا ثانية ، أو أختا محبة - إن شئت - تتعهدها بالعطف والرعاية والحب ، وتقدم لها نصائحها الثمينة وإرشادها . فهل تقبلين أن أن تكوني لها أختا ؟ وأن تُحلّيها من نفسك منزلة «كلودين» ؟ . »

فقالت « چورچينا » :

« ولـكنك ياسيدى لم تعرفني قبل هذه المرة ، ولم تتوثق صلاتنا قبل هذا اليوم ، ولعلك لا تعرف من أنا . »

فقال لها :

«عفوا يا آنسة فإني من أعرف الناس بك ، وقد قرأت - في صفحة وجهك البيضاء - صفاء نفسك ونبل عواطفك؟ ولمحت - من خلال عينيك - نقاء سريرتك، وقرأت في أسارير ك كل مايجول بنفسك من الخلال النبيلة، وعرفت - إلى هذا - أنك متعبدة تقية. وأنا رجل أميل إلى التقي وأكبر الخلق العظيم، وقد حدثني قسيس الـكنيسة - الذى كنت تعزفين عنده - عن خلالك وشمائلك المعجبة ، وكان من حسن حظي وكمال سعادتي أنني سمعت عزفك الرائع في الـكنيسة وأعجبت بمهارتك وحذقك الإعجاب كله .

إن بيتي في « ميـدون » وسأجيء ثلاث مرات في كل أسبوع بعـد الظهر لأصحبك معي إلى البيت ثم أشيعك إلى بيتك في سيارتي بعـد العشاء . وأرجو أن يبدأ ذلك النظام من الغد - إذا شئت - كما أرجو أن تدليني على أيام فراغك لأنك - فيما أرى - جد مشغولة . »

فقالت له :

« سيبدأ وقت فراغي غداً من الساعـة الثالثة بعـد الظهر وساستقل

القطار إلى بيتك فإن آخر درس أعطيه يبدأ فى الساعة الثانية وينتهى فى الثالثة وهو فى منزل شارع دى بورجونى . »

فقال لها

أتريدين أن أرسل إليك سيارة لتنقلك الى منزلى ؟ »

فقالت له :

« لاتكلف نفسك أى عناء ياسيدى فإنى سأكون عندك فى الموعد الذى حددته لى . »

— « وهل تعرفين عنوان منزلى ؟ »

— « نعم فهو مكتوب على بطاقتك التى تركتها لى أمس . »

— « بقى أمر واحد هو تقدير الأجر الذى تريدينه منى ، ولتكونى على ثقة من أننى قد قبلت سلفا كل ما تقدرين . »

* * *

ثم ضغط أطراف أصابعها مرة أخرى ، وانحنى أمامها مبتسما — فى احترام — ثم وقف متئدا رزينا وقد تبدت قامته المرتفعة الأنيقة ، وكان يرتدى معطفا أزرق ، ثم سار بخطوات وئيدة متزنة حتى خرج من الباب الزجاجى، فبدا ظله من خلال ألواح الزجاج وهو يقترب من باب الحديقة.

الفصل الثالث

مأساة في بدت الكونت

« خير قليل وفضحت نفسي (١)

ولبثت « جورجينا » مشدوهة من هذه المقابلة الغريبة . وقد بدى لها الكونت كل ما تحلم به من مزايا الرجل المتسلط القاهر الذى يأمر فيطاع . وأحست قوة روحه ، ووجدت سلطانه عليها قوى الأسر ، ورأت أمامها ما كانت تفكر فيه من جمال الكهولة . وكان هذا السيد الذى أشرف على الخمسين من عمره مثال الرجل القوى والأستقراطى المتأنق .

وكان من عادة الكونت أن يحمل فى جيبه فرجونا يرجل به شعره الأبيض وشاربه الأسود الدقيق الذى يرتفع من جانبي شفتيه، وكان معنيا بأسنانه كل العناية ، وكانت عيناه براقتين ينبعث منهما شعاع نفاذ، وهو ـ إلى هذا ـ لبق فى التعبير عن آرائه يتحدث إليك فى اتزان وتؤدة فتخرج نبراته واضحة قوية ، وتحس فيها تموجات عميقة التأثير . وكان تقطب حاجبيه وجلال لحيته ، يشعرانك أنه متهالك على الشهوة التى تتمثل عنيفة على أسارير وجهه كما تتمثل عليها قوة إرادته التى لا تقهر

* * *

ولما جاء الغد وأتمت « جورجينا » دروسها وخرجت لتستقل القطار فى الساعة الثالثة لتصل إلى « ميدون » رأت الكونت ينتظرها على مقربة من الغابة التى فى طريقها، وهى غابة تكتنفها أشجار مرتفعة من الورد

---

(١) مثل عربى قديم مشهور

والزّنبق، وكانت أزاهير الورد حينئذ مزدهرة منبثة فى أرجاء هذه الناحية. وكنت تسمع شحرورا صغيرا يمرح – بين ظلال أوراقها الخضراء – وقد بدا عليه الابتهاج والحبور.

وكان الطقس شديد الحرارة فى أواخر الصيف، والسماء شديدة الزرقة، وكأنها سطح من الزنك منبسط خلال الفضاء يحجب الهواء فلا يكاد يؤثر فى الجو نسيم البحر وحفيف الأشجار. وكأن حركة الهواء قد وقفت فلاسبيل إلى سيرها فى تلك الناحية. وعلمت أن اسم البيت الذى تقطنه تلميذتها « بيت الورد ». وإنما سمى كذلك لكثرة ما يكتنفه من شجيرات الورد التى تكاد تحجبه عن الأبصار. ولم يكن فى هذا البيت أكثر من طابق واحد فوق الطابق الأرضى وكان منزلا فاخرا ينم على ثراء وفير.

* * *

وقد دخلت غرفة الاستقبال، وبعد قليل جاءت ابنة الكونت فقدمها أبوها إلى « چورچينا ».

وكانت تلك الطفلة فى الثامنة من عمرها ولم تكن تعرف من الموسيقى إلا مبادئها الأولية. والتفت الكونت إلى « چورچينا » قائلا:

« أرجو أن تتعشَّىْ معى فى الساعة السادسة ولك أن تتنزهى فى الحديقة – بعد انتهاء الدرس – أو تستريحى فى المكتبة وَفق ما تشتهين. »

ثم حياها الكونت وانصرف.

* * *

ولما انتهى الدرس أذِنت « چورچينا » لتلميذتها الصغيرة أن تتنزه ومنحتها الحرية، فأسرعت الصغيرة إلى الحديقة فرحة مسرورة بانتهاء

الدرس وظلت تداعب كلبها الصغير حينا وتعدو أمامه حينا آخر وهو يعدو خلفها و يعض أطراف ثو بها.

أما « چورچينا » فقد جلست أمام البيان وعزفت لحنا جيلا اسمه « أنشودة الر بيع » ثم عزفت قطعــة أخرى اسمها « ضوء القمر » لبتهوڤن . وكان ـ في الحق ـ نشيدا رائعا يعبر ـ فى صفاء وجمال ـ عن تحية الغابات حين يكسوها نور القمر.

* * *

ودخل الـكونت غرفة الاستقبال وهى غارقة فى توقيع ألحانها الرائعة فلم تشعر بقُدومه .

وما كادت تنتهى من العزف وتهم بالقيام حتى رأت الـكونت أمامها وهو يتقدم إليها ويحييها بابتسامته قائلا :

« شد ما امتلأت نفسى إعجابا بهــذا العزف الرائع الذى أبدعته يا آنسة . »

ثم أمسك بيديها كما فعل بالأمس ، وطفق يداعبها فى ـحنو وتلطفـ وكانت أصابعه ثائرة ملتهبة تسرى فيها حركة مغنطيسية عجيبة ، وقد نظر إلى « چورچينا » بعينيه السوداوين نظرات نافــذة ينبعث منها سلطان قاهر وتتجلى فيها إرادة لا تغلب .

ثم أخذ بيديها ، وجذبها إلى الأريكة التى جلس عليها ، فاضطرها إلى الجلوس ، ثم قال لها :

« لقد عرفت دُخلتك وما تُجنِه نفسك من آلام وأحزان . فإنك لتكتمين فى قلبك الصغير آلاما لا سبيل لك إلى احتمالها . وأرى أن

مبعث هذه الآلام هو أنك تشعرين بحاجة شديدة إلى الحب .

قد يكون هذا حقا ولعلك شقيت بحب عاثر غامض من أول رجل ملك عليك قلبك . »

* * *

فلم تجبه « چورچينا » بكلمة واحدة. فاستأنف الكونت كلامه قائلا :

« إن صمتك هذا يا آنسة دليل – فيما أرجح – على اعترافك بصدق ما أقول. وما أنا بحاجة إلى إفصاحك عن هذا الحب، وإن كان يهمنى ذلك إلى أبعد حد تتصورينه .

ولقد بدا لى – حين أصغيت إلى لحن « أنشودة الربيع » – أنك تعبرين عن آمالك فى السعادة ، كما بدا لى من اللحن الثانى الذى عزفته، أنك تعبرين به عن حزنك العميق

فقالت له :

« لا ريب فيما تقول يا سيدى ، فقد صهر قلبى حزنى على فقد أمى فإنها طالما زودتنى بنصائحها السديدة التى كانت خير معوان لى فى الحياة. وها أنا ذى أعيش الآن مع شقيقتى الصغرى ، وأتخذها موضع أسرارى وسلوى همومى وأحزانى . »

فقال الكونت :

« إذن فإن من الناس من تأبى عليهم طبيعتهم إلا أن يختصوا الصغار بأسرارهم. وأرانى على حق حين قررت لك أن حبا ميئوسا منه، هو حب ضال عابث لا أمل فيه ولا يمكن أن ينبعث منه أى شعاع ينير الحياة ويجعلها طيبة مبهجة

فقالت له :

« لا شك فى أننى حزينة يا سيدى ولكن أمرى واضح جلى لاخفاء فيه ولا اضطراب. وفى الحق أنى أحببت ولكن من أُحِب لم يحن لى عهدا ولم يخفر لى ذمة . واست أستطيع أن أعتب على خطيبى أو آخذ عليه هنة من الهنَات . »

— « أهو شاب ؟ »

« لا تزيد سنه على أربع سنوات أو خمس أكثر من سنى حياتى . »

— « ليس هذا كافيا ، خبرينى هل أحب أحدا قبلك ؟ »

— « أنا أول من أحَب . »

— « هذا خطأ ، فإن المرأة جديرة — إذا أرادت أن تتزوج — أن تتخير رجلا عركه الدهر وتمرس بحوادث الحياة وتجارب الأيام ، فإذا لم تفعل ذلك فلا أمل لها قط فى مستقبل سعيد . »

— « مابالك ياسيدى ! وكيف تحكم هذا الحكم ؟ »

— « هـذا حق . لأن الحب الصحيح لا وجود له عند الرجل مادام غِرًّا لم يخض غمار التجارب قبل الزواج، ولابد لكل إنسان أن يجرب النساء ويخبر حسهن، ليتسنى له أن يصدق فى حكمه وأن يبنى اختياره على أساس متين . وعندى أن كل شاب لم يخبر الحياة ويتعرف حقيقة المرأة — قبل أن يقدم على الزواج — لن يثبت له حب ولن يدوم له وفاء، ولابد أن يفسخ عقد الزواج بعد قليل من الزمن . »

— « فلتكن على حق فى كل ماتقول فليس فى قـدرتى أن أحاول المستحيل، ولن أستطيع أن أرغمه على أن يكون زوجى إلى الأبد . وليكن هذا حلما لاسبيل إلى تحقيقه ، فليس لى عنه مندوحة ولا معدى لى عن التسليم به . »

— « خبرينى ، ألا تظنين أن زوجك هذا يخدعك ؟ »

ـ « هما أمران لا ثالث لهما : فإما أن أجهل أنه يخدعنى فأعيش معه سعيدة قريرة النفس . و إما أن أتكشف خداعه فأصبح فى حل من التخلص من حبه . »

ـ « ليس التخلص من الحب هيناً بعد أن تبنى عليه الأحلام والأمانىّ الشهية. »

* * *

سكتت «جورجينا» ولم تجب، وامتلأت نفسها حزنا عميقا لا سبيل إلى وصفه ، واضطربت أعصابها أيما اضطراب ، فضعفت قواها وتلاشت إرادتها أمام هـذا الحزن الذى استولى على نفسها .

وأحست فى نفسها ـ وهى غارقة فى هذا الجو المكهرب ـ أن طبيعتها تراخت وأن قواها المعنوية قد انهزمت. وأحست الشك يستولى على نفسها استيلاء والألم يحز قلبها حزاً ، وساورتها ذكرى « لوسيان » فآلمتها الذكرى ، وقد شعرت أنها مقدمة على خيانتـه ، وظهرت أمامها شناعة الجرم ، وحاولت جهدها أن تقصى عن ذاكرتها خيال « لوسيان » وأن تبعده ولو إلى حين فلم تفلح .

و إنها لغارقة فى أحزانها، إذ جاء خادم الكونت وقال بصوت مرتفع فى لهجة الإكبار والاحترام :

« لقد تهيأ العشاء ياسيدى . »

فقدم الكونت ذراعه للفتاة ، فاعتمدته وسارا معاً إلى غرفة المائدة وهى غرفة فخمة سوداء اللون يخيل إليك أنها حزينةٌ ، و ينبعث من النقوش التى عليها ظلمة الموت و رهبة الفناء .

* * *

فامتعضت « جورجينا » وأحست وحشةً وانقباضاً من جو هـذه

الغرفة السوداء . ولكن الكونت جلس إلى جانبها وسرى عن نفسها وظل يقدم إليها من ألوان الطعام أشهاها . وكان أريج الورد ينبعث من الحديقة إليهما ، وبرقت السماء واشتد برقها وبدت الأضواء المنبعثة منه تجوس خلال الأشجار الباسقة ، وجلجل الرعد وتجاوبت أصداؤه فى أرجاء الأوق، واهتزت أشجار الغابة وسقط رذاذ أعقبه مطر قليل ودوت العاصفة فانهمر المطر انهماراً .

* * *

وأمر الكونت بإحضار . قنينة فيها شراب فاخر ، فملأ كأسين وأعطى « جيورجينا » كأسا منهما وأخذ الكأس الأخرى .

وكان شجر البرتقال فى هذا الوقت قد كمل ازدهاره فقال الكونت :

« ما أظنك بحاجة إلى أن تبرحى هذا المكان فى مثل هذا الوقت ، وما أظنك تترددين فى قبول هذا الرجاء . »

وقد نطق الكونت بهذه الكلمات ، فى لهجة الآمر المتسلط ، فلم ترض الفتاة عن هذه اللهجة ، ولكنها شعرت بضعف أمام هذا الأمر فلم تجرؤ على مخالفته ، وبدا عليها الاستسلام ، وقد ترك فى نفسها كلام الكونت أثرا أعظم مما تركه فى اليوم السابق ، فسار بها إلى غرفة الاستقبال ، وقال لخادمه :

« مر الحوذى بإعداد العربة عند ماتهدأ العاصفة . »

* * *

وما كاد يخلو بها الكونت ، حتى أسدل ستار النوافذ. وكان يضىء الغرفة مصباح مغطى بقماش وردى ينبعث منه ضوء ضئيل فى أنحائها. وجلس الكونت على الأريكة ، واشتد دنوه من « جورجينا » حتى تلامست ركبتاهما ، وأحس الرجل حرارة هذا الجسم اللطيف ،

وبدا في هذه اللحظة ضوء البرق ـ في زرقة رائعة ـ فاخترق شعاعه الستار الكثيف ، وأعقبه دوى هائل من جلجلة الرعود وقصفها ، فخيل إليهما أن البيت قد زُلزل زلزالا . فانضمت « چورچينا » إلى صدر الكونت ، وقد تملكها الذعر فطوقته بيديها ، فقال لها وهو يطمئنها بعد أن طوقها بذراعيه :

« لاتخشي شيئاً ياعزيزتي الصغيرة . »

ولم يدع لها وقتا للتفكير في شيء ، فاجتذبها إلى ركبتيه ووضعها عليهما ولثم شفتيها ، فصاحت فيه قائلة :

« دعني ياسيدي . »

فكان جوابه على ذلك ، قبلة أطول من سابقتها وأشد منها حرارة ، وحاولت « چورچينا » جهدها أن تتخلص منه ، فسقطت على الأريكة ، فجثم على صدرها ، فلم تستطع أن تفلت من بين يديه ، ووضعت يديها على وجهها ، وأذرفت دمعها ، فجثا على قدميها وقد تملكه الذهول ، وغمرها بالقبلات من فرعها إلى قدمها ، وقبّل كل مكان في جسمها. وأحست حرارة قبلاته التي سرت في جسمها سريان الكهرباء ، فقالت له متلعثمة مضطربة :

« كلا . . . . هذا قبيح. . . . دعني بربك ! »

ثم خفت صوتها ... وارتمت بين يديه .... وسكنت العاصفة.

* * *

ووقف الكونت ودق الجرس ، فجاءه الخادم وقال له :

« لقد أعددت العربة ياسيدي . »

فقال له الكونت :

« اصحب الآنسة إليها ، وشيّعها بنفسك إلى بيتها . »

الفصل الرابع

خاتمة المأساة

سارت « چورجينا » فى طريقها وهى مشدوهة حائرة كأنها فى حلم لمّا تُفِق منه. واستقلت العربة التى أعدها لها الكونت ، وجلست فيها جامدة واجمة وقد غامت نفسها وتراكمت عليها سحب من الهموم المضجرة ، وصدىء قلبها وتبلد فكرها إثر هذه المباغتة التى لم تكن لها فى الحسبان .

وظلت تحدث نفسها ذاهلة :

« أحق ماحدث ؟ أفى حدود الإمكان أن يكون ماوقع لى صحيحا؟ أم ترانى فى حلم لم أفق منه ؟ أيمكن أن « چورچينا » النقية الطاهرة .. « چورچينا » التى غالبت أهواءها فغلبتها، وصمدت لنزوات الحب الجامحة أمام « لوسيان » وهو خطيبها الحبيب إلى نفسها . . « چورچينا » التى قاومت حبها العاصف ووجدها المبرح .... تسقط فى لحظة واحدة ، وفى سهولة لامثيل لها بين يدى رجل مجهول متقحم جرىء لم تكد تعرفه فى حياتها قبل هذه المرة ؟ »

وهكذا ظلت نهب الأفكار العاصفة وهى تتأمل فى عجائب القدر الذى فاجأها بهذا الكهل الأرستقراطى الوقح فلم تستطع له دفعاً ، وخارت قواها أمام سلطانه العجيب ، حتى إذا نال إربته منها أمر خادمه أن يشيعها إلى بيتها وضن عليها أن يشيعها بنفسه حتى فى المرة الأولى .

ورأت أن عرضها فى يديه كان غاية فى الرخص فلم يجد منها مقاومة تذكر، بل كانت «چورچينا» أمامه غزوة هينة لم تكبده عناء ولم يدفع لها ثمنا. ولو أنه ظفر بأفاقة لا كرامة لها لما ضن عليها بتشييعها إلى بيتها فى المرة الأولى على الأقل.

ولم تعرف «چورچينا» كيف تقابل حبيبها «لوسيان» الذى ناطت به أملها كما علّق عليها رجاءه، وكيف تقول له بعد أن خانته ونكثت عهدها له ودنست شرفه؟.

وثارت نفسها أمام هذا الجرم، فآثرت الشجاعة فى مصارحته بخيانتها والاعتراف إليه بما اقترفته من إثم... ثم ماذا؟ ثم تبخع نفسها بعد ذلك لتكفر عن خطيئتها.

* * *

وما كادت تعود إلى بيتها حتى أرهقها وخز ضميرها وتأنيبه، و بلغ من نفسها الألم كل مبلغ. ورأت أمامها أشجار الكمثرى القديمة تمايل حين هبت عليها ريح المساء، ورأت قطرات المياه التى بقيت بين تلافيف أوراقها ـ وهى تتساقط ـ فخيل إليها أنها دموع باكية تندب جدها العاثر وترثى لفجيعتها الأليمة.

ورأت أختها «كلودين» واقفة أمام الباب فرحة متهللة لرؤية «چورچينا» ـ وهى قادمة عليها ـ ثم رأت «كلودين» تجرى مسرعة إليها وقد ارتسمت على أساريرها أمارات البهجة لقدومها، وقالت لها:

«شد ما أقلقنى غيابك الطويل يا چورچينا. لقد كنت أترقب إيابك بفارغ الصبر لأزف إليك أشهى نبأ يثلج له صدرك وترتاح إليه نفسك»

ـ « وماهو ؟ »

ـ « كتاب من لوسيان . »

ـــ « آه ! كتاب من « لوسيان » ؟ أعطيديه . »

* * *

وأحست « چورچينا » أن صاعقة انقضّت عليها وحطمت قلبها. وأمسكت بكتاب « لوسيان » وقد شعرت أن يدين قويتين تخنقانها ، فتهدج صوتها واضطربت يداها وهى ممسكة بكتاب « لوسيان » . فقالت لها « كلودين » متعجبة :

« مالى أراك يا أختى ممتقعة اللون ؟ »

فلم تجبها بشئ .

وفتحت كتاب «لوسيان» وقرأته ، فرأت فيه ما يلى :

« عزيزتى « چورچينا » .

« أحمد الله على هذا التوفيق فقد أنجزت أعمالى كلها على خير ما يرام ولم يبق علىّ إلا أن أعود إليك وسأسافر غدا لأنعم بلقياك فقد بسم لنا الدهر وتحققت الآمال وسنصبح أسعد الناس . »

* * *

ولم تستطع « چورچينا » أن تتم قراءة الكتاب فاكتفت من قراءته بهذه الأسطر الأولى وأسرعت إلى غرفتها تصلى إلى الله باكية وقد صهر قلبها الألم واللوعة .

وإنها لغارقة فى صلاتها سابحة فى أحلامها المظلمة السوداء ، إذ لاح أمامها خيال « لوسيان » وقد تطلقت أسارير وجهه وظهرت على ملامحه دلائل

الغبطة والفرح بدنو هذه الساعة التى يحقق فيها سعادته بعد أن طال عليه ارتقابها .
وتمثلته وهو يعد الساعات التى قضاها بعيدا عن « چورچينا » ويراها طويلة مضجرة كأنها أبد . وعرفت أن أمله قدخاب فيها وتغير كل شئ . وكأن هاوية سحيقة فتحت بينهما فجأة ففصلتهما أبد الدهر وقضت على كل أمل كانا يؤملانه فى السعادة ، بعد أن اقترفت هـذا الجرم الشنيع.

* * *

وعنّت لها فكرة الانتحار فلم تر منها بدا ، وصممت على التخلص من الحياة بعد أن خانت خطيبها الذى أخلصت له الحب .
وجلست أمام مكتبها وكتبت إلى « لوسيان » بيـد مضطربة وفكر مشرد وحواسها ثائرة:
«ألتمس منك الصفح عنى والرحمة بى . اصفح عن حبيبتك ولا تفكر فيها بعد هذا اليوم فإنها غير جديرة بك . إن قلبى برىء من تلك الغلطة التى اقترفتها . لقـد كنت مجنونة أكثر مما كنت آثمة . على أنه خطأ لاسبيل إلى إصلاحـه وجرم لاسبيل إلى التجاوز عنـه . لقد خنتك وأصبحت خليلة لغيرك ، ولن أستطيع أن أكون لك بعـد . وكل ماأرجوه ألا تقسو علىّ فى حكمك أيها الحبيب العزيز ، وأن تقلل من حقدك علىّ ، فإنى سأقتص لك من نفسى وليس عندى ماأوصيك به إلا أن تتعهد أختى برعايتك وتكون لها ـ كما كنت أنا ـ أخا شقيقا ، فإنى لم أترك لها من حطام الدنيا شيئاً ، وهى الآن قد جاوزت الرابعة عشرة من عمرها ، وأراها تحبك وترى فيك أخاً حـدبا فأحببها يا لوسيان كما أحببتنى. وأنا أتوسل إليك أن تعنى بها بحق حبك «چورچينا» وبحق تلك الذكريات اللذيذة التى بقيت فى نفسك من أيامنا السعيدة التى قضيناها

على الشاطئ تارة ، وتحت الخمائل مرة أخرى ، وفى البيت مرة ثالثة .
أتذكر يا لوسيان ساعة كنا منفردين فى تلك الغرفة الصغيرة ثم جاءت « كلودين » تتجسس علينا وتغار من قبلاتنا التى كانت أعذب مااختلسناه من دهرنا وأشهى مانعمنا به فى حياتنا . »

* * *

وما كادت تنتهى « چورچينا » من كتابة هذه الرسالة حتى رفعت عينيها إلى المرآة التى أمامها وحدقت بصرها فيها ، وأحست كأنها أمام رؤيا مزعجة لاحقيقة واقعة ، فقد رأت فى المرآة باب غرفتها وهو يفتح ورأت «لوسيان» حبيبها وهو يدخل الغرفة ويقف أمامها شاحب اللون، ويقترب منها صامتا، وينظر إليها نظرة فيها كل معانى الحب والإخلاص .

فصرخت « چورچينا » صرخة مفزعة ، والتفتت إلى « لوسيان » وهى تصيح قائلة :

« لاتدن منى . . . حذار أن تدنو منى . . . فلست جديرة بك . . هاك ماتركته لك فاقرأ مافيه . »

* * *

فعجب « لوسيان » من كلامها وأمسك بكتابها يقرؤه . وما كاد يبدأ قراءة الكلمة الأولى منه حتى هُرعت « چورچينا » إلى النافذة ، وألقت بنفسها منها ، فهوت على الصخور التى تحتها . وأسرعت « كلودين » والخادم العجوز إليها فحملتاها وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة وهرع « لوسيان » إلى الحديقة وقد أذهله مارأى وأصبح كالمجنون لايصدق مايراه . فرأى « چورچينا » قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة

فأسرت إليه فى صوت خافت قبل أن تودع الحياة :

« احملنى يا « لوسيان » إلى سريرى . . . . أتلبى رجائى ؟ »

فحملها « لوسيان » بين ذراعيه ، وساعدته « فرنسوار » على حملها، وتبعتهما « كلودين » وقالت لهما فى ألم وحزن:

«سأذهب لاستدعاء الطبيب إليها ، فواصلا العناية بها حتى أعود . . رباه كن عونا لها . »

ومسحت « فرنسواز » دموعها وهى تقول :

« كيف حدث هذا يا إلهى ؟ لك الله ياابنتى العزيزة »

فقالت لها « جورجينا » متنهدة : لاتتألمى ياعزيزتى . اصغ يالوسيان واصغى إلىّ يافرنسواز سأموت لأننى غير جديرة بالسعادة . . إن قلبى ثار على حب « لوسيان » ولكننى غير أهل لحبه . لقد أخطأت وها أنا ذى أضحى بنفسى مكفرة عن خطيئتى . »

* * *

فقال لها « لوسيان » وقد اشتد جزعه :

« خبرينى باسمه. »

فقالت له :

«أتريد أن أذكر لك اسمه لتفتك به وتترك أختى وحيدة لاعائل لها ؟ كلا لن أخبرك باسمه أبدا . »

وهمت بالجلوس وقد علت أساريرها صفرة الموت ، وأبرقت عيناها ، وكانت آخر كلماتها التى نطقت بها وهى فى حشرجة الموت :

« إنى أحبك يالوسيان ، إنى أقدسك و برغمى أننى لم أكن خليلتك»

* * *

ثم رفعت يدها من خلال قميصها الرقيق الذى كانت ترتديه وقالت وهى فى حشرجة الموت :

« آه ! شد ما تألمت ! »

ثم سقط رأسها خارج سريرها وتدلّى شعرها المرسل وتقلص وجهها وانقبضت يداها وطفح الدم من شفتيها ، وابيضت عيناها وتمشى الوهن فى مفاصلها ، ودخلت فى الدور الأخير من النزع . . ثم فاضت روحها .

فوضع « لوسيان » رأسها على الوسادة وقد تملكه الحزن والانزعاج والذهول فصمت طويلا، ثم صاح مذعورا متألما وهو يقول :

« انتهت ! »

وجثا أمام سريرها ، وأخفى جبينه بين ثنايا الملاءة التى كانت تغطيها، وهو يزفر زفرات حارة و يقول وقد كاد يطير صوابه .

« انتهتْ . انتهتْ ! »

* * *

وخرجت « فرنسواز » من الغرفة وقد ناءت بأحزانها فلم تنبس ببنت شفة وذهبت لتنادى الراهبات ليتعهدنها ، ثم عادت بعد قليل ومعها راهبتان من كنيسة قريبة وأوقدتا شمعتين إلى جوار سريرها ووقف « لوسيان » أمام خطيبته حائرا مشدوها وهو آخذ بيديها ، ووقفت « كلودين » أمام سرير أختها تنظر إليها حائرة. و بعدقليل ساد الصمت ونامت الراهبتان وهدأت الضجة

ولما انتصف الليل دنت « فرنسواز » من سرير سيدتها لتراها وتنهدت قائلة :

« يالك من مسكينة .. لك الله يافتاتى العزيزة: »

وأوشكت الشمعتان أن تنطفئا وقد أشرفتا على الانتهاء ، فأرسلتا ضوءاً مصفرا باهتـا ثم انطفأتا كما انطفأت حياة چورچينا .

* * *

ثم ووريت الجثة فى التراب الساعة الخامسة بعد ظهر الغد ، ولم يعد «لوسيان» و « كلودين »إلى البيت إلا عند منتصف الليل تقريبا .

ولم تذرف « كلودين » دمعة على أختها . وما كادت تدخل البيت مع « لوسيان » بعد أن خلا من أختها حتى أمسكت بيده وأبرقت عيناها كعادتها ، وقالت له :

« لوسيان! »

فارتجف« لوسيان »وخيل إليه أن صوت« كلودين »قد تغير وحل مكانه صوت « چورچينا » فقد أحس فى كلامها نبرات « چورچينا » ورنة صوتها ، فأنصت إلى « كلودين » إنصاتا وهى تقول :

« اصغ إلى يا « لوسيان » إن أختى لم تخلص لك فى حبها لأنها خدعتك وخانتك ، أما أنا فأحبك من أعماق قلبى، وسأكون صديقتك الوفية ، وزوجتك الصغيرة إذا شئت ، وسأعرف كيف أسعدك وأبهجك »

* * *

وما كاد « لوسيان » يسمع هذه الكلمات حتى شعر أن شكل « كلودين » قد تغير وأحس أن « چورچينا » لم تمت ، فقد رأى فى « كلودين » صورة صادقة منها

«فضم كلودين» إلى صدره ، وأحس أنه ظفر بما يعزيه عن ألمه ووجده بعد فراق « چورچينا » .

* * *

وأدرك « لوسيان » أن « جورجينا » قد أحبته الحب كله ، وأن هيامها به قد أفاض على نفسها ثوبا روائيا خلابا فألهب قلبها وجدا، وغمرها حبه وأيقظ فيها كل حاسة جسية ، وجاء رجل غريب فاستغل هياجها ويقظة إحساسها ، وأجاب هذه الرغبة الجامحة ، فاستسلمت له — وهى فى نشوة غرامها — ، ولم تجد من نفسها قوة تقاومه بها .

وعرف أن أختها « كلودين » قد أحبته من أعماق قلبها ، ثم كتمت هذا الحب — ولم يكن لها مندوحة عن كتمانه — وأنها ضحت هواها فى سبيل أختها ، وظلت تخفى حبها إياه بين طيات قلبها وإن كانت يائسة من نتيجة هذا الحب . وقد أكبر منها « لوسيان » هذه التضحية النبيلة .

فنظر إلى « كلودين » الصغيرة نظرة المعجب المفتون ، وقد شعر أنه ظفر بطلبته التى كان ينشدها فى أختها من قبل ، ورأى أنها جديرة بأن يضحى بنفسه مكافأة لها على هذ الاخلاص النادر ، فقال لها مجمجا :

« اصغى الى يا « كلودين » . أقسم لك بحق هذه الفقيدة العزيزة إنك ستصبحين زوجتى ، فهل تعاهدينى على الوفاء والحب ؟ »

فقالت له وقد طوقت عنقه بذراعيها :

« أكون لك — يا حبيبى — كما تريد . »

* * *

وفى هذه اللحظة دخلت الخادم العجوز « فرنسواز » من غير أن يشعرا بها ، فقالت لهما :

« الآن يجدر بنا أن نصلى على روح الفقيدة . »

فجثا ثلاثتهم أمام السرير الذى وضعت عليه جثة « چورچينا » بالأمس ، وكانت الريح — فى أثناء صلاتهم — تهب من النافذة على سرير « چورچينا » فتحرك ثوبها الذى كانت ترتديه ليلة أمس وهى فى « ميدون » .

انتهت القصة

سِرْڤَنْتِيس

دون كيشوت



ولد « سيرفنتيس » عام ١٥٤٧ م . بمدينة « فيپى كاستليا » بأسبانيا ومات عام ١٦١٦ .

وكتابه « دون كيشوت » هو طرفة أدبية نفيسة من أروع مؤلفاته، وهو ـ إلى ذلك ـ من أبدع الكنوز الفكرية العالميـة التى كتب لها الخلود . وقد مضى على هذه الطرفة ثلاثة قرون ولا تزال متجددة الروعة عظيمة الأثر فى نفس كل من يقرؤها. ولا زالت تلقى من الإعجاب والتقدير ماهى خليقة به . وهى ـ على توالى العصور ـ تظل ترفل فى حلة قشيبة وشباب نضير .

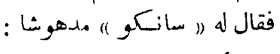
وقد اقتبسنا هذه القطعة من الكتاب الذى ترجمناه، وهو القصة الثانية من « أشهر القصص للأطفال . »

١ ـ طواحين الهواء

رأى « دون كيشوت » ـ ذات يوم ـ زُهاء أربعين طاحونة من طواحين الهواء فالتفت إلى خادمه « سانكو بانزا » وقال له :

« لقد واتانا الحظ يا صديقى و بسم لنا الزمان وأتيحت لنا فرصة ثمينة لتحقيق أشهى أمانينا. ألا ترى إلى هؤلاء العمالقة الجبارين وقد تجمهروا أمامنا ووقفوا فى طريقنا ؟ إنهم بلا شك جبابرة متعجرفون، وقد عمت شرورهم الجنس الإنسانى كله. وهذه فرصة ثمينة لن تفلت منى ، ولابد لى من قتالهم وقهرهم فى ميدان الحرب ، وستكون الغنائم التى نُصيبها منهم بدء ثرائنا العظيم. »

فقال له « سانكو » مدهوشا :



« أى عمالقة تعنى ؟ »

فقال :

« أعنى هؤلاء العمالقة الذين يلوّحون لنا بأذرعهم الطويلة الهائلة ، و يهددوننا بالموت . »

فقال له « سانكو » :

« أناة ياسيدى فقد اختلط عليك الأمر ، وليس ماتحسبه عمالقة إلا عدة طواحين ، وهذه الأذرع الطويلة التى ظننتها أذرع العمالقة ليست إلا أجنحة هذه الطواحين ، فلا يختلطنّ عليك الأمر . »

فقال « دون كيشوت » :

« لك الله ياصديق ، ماأشد سذاجتك ! على أنك فى سعة من العذر ، فأنت لاتزال جاهلا بأسرار الفروسية وخفايا الحروب، لأنك حديث عهد بالمغامرات . إن ماتحسبهم طواحين الهواء ليسوا فى حقيقة الأمر إلا عمالقة أشداء وجبابرة غلاظ القلوب، و إنى لعلى ثقة مما أقول . ولاعليك —إذا كنت خائفا— أن تتنحى جانبا ، فإنى قادر وحدى على خوض غمار هذه المعركة ، وتقحم هذه الحرب، وأنا على ثقة من الفوز على هؤلاء الأعداء و إن كثر عددهم . »

* * *

ثم غمز جواده بمهمازيه ولم يصغ لنصحه ، وصاح فى الطواحين قائلا :



« اثبتوا لحربى وجلادى أيها اللصوص الجبناء . إن فارسا واحداً هو « دون كيشوت » سيقاتلكم ويهزمكم بمفرده . »

* * *

وما كاد يتم كلامه حتى هبت ريح خفيفة فأدارت طواحين الهواء ، وقال « دون كيشوت » :

« لقد أحسنتم صنعا أيها العمالقة إذ تأهبتم لحربى ، وسأعرف كيف أقتص منكم وأذلكم إذلالا . »

ثم أمسك بترسه ، وأشرع إليهم رمحه ، وانقض على أقرب طاحونة وضرب جناحها بكل قوته ، وكانت الطاحونة مسرعة فى دورانهـا فلم يكد يثبت فيها رمحه — وهى دائرة — حتى ارتفع « دون كيشوت » وجواده ، وقذفت بهما الطاحونة إلى مسافة عشرين خطوة .

* * *

فاستحث « سانكو » حماره ، وقد تألم ممـا حدث لسيده ، وبذل جهده فى إنهاضه من سقطته الخطيرة ، ثم قال له :

« آه منك ياسيدى ! لقد حذرتك هـذه العاقبة ، وأكدت لك أن ماتراه أمامك ليس إلا طواحـين الهواء . ولعلك لم تتثبت من رؤيتها جيداً لأول وهلة . »

وأجابه الفارس العظيم :

« رويدا . . رويدا . . . فإن الحرب خدعة، وطالما تغلب الحظ فيها على الشجاعة،لاسيما إذا تصدى الإنسان لحرب ساحر خبيث.على أننى قد أدركت الآن خفايا أمره واهتديت إلى دقائق سره،فإن خصمى — بلاشك — هو ساحر عنيد ، وقد خشى أن أهزم — بمفردى — هؤلاء العمالقـة جميعا،فأسجل — بهذا الانتصار الباهر — فخراً خالداً على مر الدهور،وثمة دفعته الغـيرة والحسد إلى حرمانى هـذا المجد ، فحول أولئك العمالقة

ـ بسحره ـ طواحين ، وقد نجحت حيلته كما ترى وأضاع علىّ فخر الانتصار .

على أننى لن أيأس من إذلال هذا الساحر الخبيث، ولا بد لسيفى أن يقتله فى يوم قريب . »

* * *

وكان « سانـكو » قد اقترب منه ليساعده على النهوض من كبوته ، ثم أسرع إلى « روز ينت » ـ جواد سيده ـ وبذل جهده فى إنهاضه وقد كادت كتف الجواد تنخلع من شدة السقطة .

ولم يكد « سانـكو » يسمع مايقوله سيده حتى قال له :

« حقق الله آمالك ياسيدى ، وكلل سعيك بالنجاح . »

٢ ـ تجار طليطلة

استأنف بطل قصتنا طريقه وهو مزهوٌ برحلته السعيدة الموفقة وقلبه يكاد يثب من صدره فرحا بهذه المقدمات السعيدة التى هيأتها له الظروف للوصول إلى غايته المجيدة .

وما زال « دون كيشوت » سائراً فى طريقه حتى وصل إلى مفترق الطرق، فرأى أمامه أربع شعب لم يدر أيها يسلك ، فذكر ـ من فوره ـ تردد الفرسان الضالين حين يصلون إلى مفترق الطرق وكيف قادهم التردد إلى الهلاك ، لأنهم كانوا يسيرون وهم غير مستوثقين من طريقهم التى يسلكونها .

ورأى « دون كيشوت » ألا يتردد فى سيره ، فوقف جوادَه ، ثم ترك له أن يختار بنفسه الطريق التى يؤثرها ، فلم يتردد جواده « روزينت » فى تخير طريقه التى تنتهى به الى اصطبله .

* * *

ولم يكد يسير مسافة ميلين حتى بصر « دون كيشوت » بقافلة قادمة عليه ، وكانت هذه الجماعة تتألف من بعض تجار « طليطلة » الذاهبين الى « مُرْسِيَةَ » لشراء الحرير من أسواقها ، وكان عددهم ستة يحملون مظلاتهم ، وفى رفقتهم أربعة من أتباعهم راكبين ، ومعهم ثلاثة من الخدم راجلين .

فلم يخامره ريب فى أن هذه فرصة ثمينة أتاحتها له المقادير إذ هيأت له وسيلة عاجلة للمغامرة التى ينشدها . ومثل لنفسه لذة الظفر الوشيك

فى هذه الحرب التى لن يكبده الانتصار فيها أقل عناء .

***

فوقف « دون كيشوت » فى عُرْض الطريق ، وقد بدت على أساريره أمارات الثبات ورباطة الجأش ، وثبّت قدميه فى الركابين ، وأشرع رمحه ، وقبض على ترسه ، ثم دنا من هؤلاء التجار ، وصاح فيهم بصوت جَهْوَرى :

قفوا جميعا أيها الفرسان ، واعترفوا أمامى ــ فى الحال ــ بأن كل حُسْن فى الدنيا ــ بالغاً مابلغ من الروعة ــ يقصر عن جمال أمبراطورة « لامنكا » التى لايدانى حسنها حسن فى أرجاء الدنيا قاطبة .

* * *

وما كاد يتم كلامه ، حتى دهش التجار من غرابة أطوار هذا الرجل ، فوقفوا وقد عرفوا لأول وهلة أنه مجنون .

وأراد أحدهم أن يتفكه بمحادثته والعبث به والضحك على قالَبِه ، فقال له ساخراً :

« ليس فينا أحد ــ أيها الفارس الكريم ــ قد رأى هذه السيدة التى تحدثنا عن جمالها الرائع . فإذا شئت تفضلت علينا برؤيتها ، ولك منا أن نقرك على ماتقول متى رأيناها بحيث تصفها من الحسن . »

فقال لهم « دون كيشوت » :

« ليس من حقكم أن تحكموا على تفردها بالجمال بعد أن تروها ، فإن حكمكم ــ بعد ذلك ــ هو حكم تافه لاخطر له . إنما يعنينى أن تحكموا لها بتفردها فى الجمال من غير أن تقع عليها أعينكم . ولا معدى لكم عن هذا الحكم ــ إذا أردتم السلامة والنجاة ــ ولابد أن تقروه تؤيدوه

وتقسموا على اقتناعكم به ، فإذا أبيتم ذلك فدونكم الحرب ، وعليكم أن تتأهبوا للنزال أيها المتعجرفون المستبدون .

ولكم أن تناجزونى ـ إذا شئتم ـ واحداً بعد واحد كما تقضى بذلك قوانين الفروسية النبيلة ، أو تنازلونى إلباً واحدا كما تقضى بذلك عادة الهمج أمثالكم ، وحسبى أن أصارعكم بيدى فإنكم لأهون على من أن أتأهب لمناجزتكم . »

* * *

فاستأنف التاجر كلامه قائلا :

« تفضل علىّ أيها الفارس الكريم بالإصغاء فإننى أرجوك باسم هؤلاء السادة الذين معى أن تتركنا وشأننا وادعين وأن تعفينا من الحكم على شىء لم نتثبت منه ولم نعرف كنهه ، فإننا بذلك نسىء إلى ملكات الحسان كما نسىء إلى الحقيقة نفسها . فاذا أصررت على طلبك فلا أقل من أن تُرينا صورة هذه السيدة فإن صورتها ـ مهما صغرت ـ كافية للحكم عليها . وإنى أنذرك ـ باسم إخوانى الأمراء ـ بأن حكمنا على صاحبتك لن يرضيك إذا رأيناها حولاء أو عوراء أو عرجاء أو حدباء . فاختر لنفسك ما ترضاه . »

* * *

فصاح « دون كيشوت » فيهم صيحة المغضب المحنق :

« كلا أيها السفلة الأدنياء ، كلا ليست بحولاء ولا عوراء فإن عينيها أجمل عينين عرفهما العالم ، وإن السحر الذى ينبعث منهما لينير الكون قاطبة . وستدفعون الآن ثمن سفاهتكم وغروركم . »

وما كاد يتم وعيده ، حتى اندفع إليهم بجواده وقد أشرع رمحه ليقتل

به ذلك السفيه الجاحد الذى لم يقره على حكمه . ولـكن جواده كبا به ولو لا ذلك لانقلبت هذه السخرية الهازلة إلى مأساة مفجعة . وقد وقع « دون كيشوت » هو وجواده واشتد ارتباكه وحاول عبثا أن ينهض من كبوته ، وظل يصرخ مهتاجا :

« حذار أن تهربوا أيها الأنذال الجبناء فإنهـا كبوة من جوادى ولولاها لحل بكم عقابى الصارم . »



* * *

وغِيظ من وقاحته أحد الخدم ودنا منه وأمسك برمحه فحطمه ثم أخذ بقطعة منه وظل يضربه بها ضربا مؤلما مبرحا جوابا على تهديده ووعيده. فصاح به سادته أن يكف عن ضربه لئـلا يقتله ولـكنه شعر بسرور عظيم من معاقبة هـذا الفارس الوقح، ولم يكف عنه إلا بعد أن أشبعه ضرباً. ثم سارت الجماعة فى طريقها آمنة مطمئنة ، وتركوا بطل قصتنا

ملقى على الأرض يحاول أن يقف على قدميه فلا يستطيع بعد أن أنهكه الضرب .

وظل صاحبنا على هذه الحال المحزنة ، ولكنه كان يشعر – فى أعماق نفسه – بسرور عظيم وغبطة لا توصف، فقد أيقن أن هذه الكارثة – التى طالما وقعت لأمثاله من الفرسان الضالين – لم يكن له يَدٌ فى وقوعها، لأنها كانت نتيجة كبْوَة من جواده . »



فلوبير

سالمبو

سالمبو

وقعت حوادث هـذه القصة فى إحدى ضواحى « قرطاچنة » حيث كانت حدائق « هاميلـكار » مسرحا لها .

وكان جنوده الذين ولى قيادتهم فى « صقلية » قد أقاموا حفلة باهرة إحياء لذكرى معركة « إيريكس » ، وكان قائدهم غائبا عنهم ، فأصبح الجو خاليا أمامهم ، ورأوها فرصة سانحة للهو والعبث ، وساعدهم على ذلك كثرة عددهم وفراغ وقتهم ووفرة الزاد والشراب لديهم ، فأكلوا وشربوا وغنوا وطربوا ، وصفا لهم الوقت وطاب .

* * *

هكذا يبدأ « فلوبير » قصته ، وهكذا يبدأ الفصل الأول منها ، وبهذا المنظر البهيج يبدأ العرض السينمائى ، فيمثل لك حدائق « هاميلـكار » فى عام ٢٥٠ (ق . م .) كما يمثل لك كيف استولى المرح والسرور على هؤلاء الجنود .

وكان « هاميلـكار » قائد « قرطاچنة » — حينئذ — مختفيا هاربا بعد أن خذله أنصاره فى حربه ضد « روما » . وقد أرسل إليها أبطال جيشه المأجورين الذين طالما هزموا الـكتائب تحت قيادته ، ورأت الحـكومة أنها عاجزة عن دفع أجورهم لهم ، ففـكرت فى وسيلة ترضى بها هؤلاء الجنود وتسرى عن نفوسهم وتنتقم من قائدهم فى وقت واحد ، فأحلتهم قصره الفخم وجعلته مسرحا لعبثهم ولهوهم . .

* * *

وفى الحق كان القصر رائعا فخما ، وكان مبنيا بالرخام على أعمدة ضخمة ، وكان مؤلفا من أربع طبقات كل طبقة منها على غرار السابقة مقامة على أعمدة الرخام ، وكان لهذا القصر سلم كبير مصنوع من خشب الآبنوس ، وفى ركن كل درجة من درجات هـذا السلم ، حيزوم قارب مهزوم ، رمزاً للانتصارات المتوالية التى أحرزوها والهزائم المتكررة التى ألحقوها بأعدائهم . وكانت أبواب القصر حمراء ونوافذه مصنوعة من النحاس الأحمر، وعليها عصىّ مذهبة تنتهى الى أعلى فتحاتها ، وكان الجنود من قبل يتهيبون الدخول فى هذا القصر العظيم الذى كان وقفا على «هاميلكار» أما الآن فقد أصبح مسرحا لأخلاط من الرجال المختلفى الأجناس والأوطان ، وأصبحت ترى فيـه أشتاتا من رجال «ليحور» و « لوزيتانيا » و « باليار » هذا الى الزنوج الهاربين من « رومة ». وترى هؤلاء الجنود منطرحين على وسائدهم ثم تراهم وقد اجتمعوا حول موائدهم الكبيرة وقد جلسوا القرفصاء وهم يلتهمون الطعام فى شراهة عجيبة ، ويتخاطفون قطع اللحم ليملئوا بطونهم الخاوية ويشبعوا نهمهم، وقد اتكئوا على مرافقهم فأصبحوا أشبه بالأسود الرابضة وهى تمزق فريستها .

ولما شبعوا أسرعوا ـ من فورهم ـ ليخلصوا الأرقاء ، وكان السكر قد استولى على هؤلاء الجنود فشجرت بينهم منازعات عنيفة أنهكت قواهم .

* * *

ثم أضاء القصر من أعلاه ـ مرة واحدة ـ وفتح بابه الأوسط وظهرت

منه فتاة ـ هى ابنة «هاميلكار» ـ وقد اتشحت بالسواد ، ونزلت من السلم حتى وصلت إلى الطابق الأول وكانت ساكتة حزينة مطأطئة الرأس وهى تنظر إلى الجنود وعلى وجهها سيما الألم العميق ـ وكان من خلفها رجال ممتقعو اللون يرتدون ملابس بيضاء مطرزة أطرافها بأهداب حمراء تسقط على أقدامهم . وكانوا مرداً صلعا لا حواجب لهم ، وهم يحملون أعوادهم ـ وفى أصابعهم خواتم من الماس المتلألئ الأخاذ ، وكانوا يغنون بأصوات عالية مجلجلة حماسية . وكان هؤلاء المرد خصيا يقيمون فى معبد « تانيت » ، وكانت « سالمو » كثيراً ما تدعو هؤلاء القسس إلى قصرها .

وكانت تلك الجموع الحاشدة تنظر إلى « سالمبو » صامتة خاشعة وكان رجلان ـ من بين هذه الجموع الغفيرة ـ ينظران إليها نظرات الإعجاب والافتتان ، أحدهما : « ماتو » القائد الليبى وكان ضخم الجثة قصير الشعر أسوده .

وثانيهما : « نارهافاس » وهو قائد نوميدى شاب .

* * *

وظلّت « سالمبو » تستعرض أمامها جنود أبيها وتتأمل فيهم لتتبين أيهم أروع جمالا ، فاسترعى بصرها منظر « ماتو » فملأت قدحا من النبيذ وقدمته إليه ، فأخذه منها وقد امتلأ قلبه سرورا وبدأ يشرب به ، وماكاد « نارهافاس » يرى هذا العطف حتى اشتعل قلبه غيرة وحقداعلى منافسه فسدد طعنة من حربته إلى ذراعه التى حمل بها كأسه ، فالتصقت ذراعه بالمائدة ، . ولم تجد « سالمبو » حينئذ إلا الهروب والاختفاء عن أعينهم بعد أن اشتعلت نار الفتنة بين هذين الفارسين .

* * *

وبعـد يومين رضى الجنود الأجراء بوعود الحـكومة فاجلوا عن المدينة وأقاموا معسكرهم أمام « سيكا » والتقى « نار هافاس » و « ماتو » وجها لوجه، فتحفز « ماتو » لقتل خصمه ، ولـكن « ماتو » ترضاه وأعتبه وقدم له من الشراب والهدايا ما أرضاه .

وظل الجنود يترقبون أن تصل إليهم أنباء من « قرطاجنة » وذهب انتظارهم على غير طائل .

* * *

وشغف « ماتو » بحب « سالمبو » وظل يذكرها طول يومه .

وجاء رجل هزيل الجسم بالى الأسمال فقص حكاية مروّعة لم تكن فى الحسبان ، قال :

« لقد جئت فى اليوم الذى تركوا فيه « قرطاجنة » وقد رقد الرماة والنابلون فى وقت متأخر ، وما كادوا يصلون إلى مكان الاجتماع حتى كانت الجنود قد غادرت المـكان قبـل حضورهم . ولم يكن لدى الرماة شئ من وسائل الدفاع ، فإن نبلهم كانت مع أمتعة الجنود. وقد انقض عليهم أهل « قرطاجنـة » وسحقوهم سحقا ، وكان عددهم زهاء ثلاثين وثلاثمائة فلم يسلم منهم أحد غيرى .

وما كاد الجنود الأجراء يسمعون من محدثهم هذه القصة حتى تملـكهم الغيظ وصمموا على أن يعودوا إلى « قرطاجنة ». وقد ابتهج « ماتو » لهـذا العزم أيما ابتهاج فقـد أتيحت له الفرصة التى يرتقبها للدنو من « سالمبو » .

فسبقهم إلى « قرطاجنة » ومعه « دى سنديوس » وهو رقيق يونانى ممن أطلق سراحهم فى ليلة ذلك الاحتفال السابق .

* * *

كان فى معبد « تانيت » ستار مقدس يغطى تمثال الآلهة .

وكانت الأساطير تحدثهم أن هذا الستار قد هبط على المعبد من السماء كما تحدثهم أنه هو مبعث القوة لقرطاجنة ، وفيه سر نصرها وتأييدها مادام فيها .

وكانت الأساطير تؤيد هذا وتحظر على كائن من كان أن يلمس الستار أو ينظر إليه . فإن خالف هذا التحذير فإن حتفه وشيك عاجل جزاء له على مخالفته .

* * *

فقال « سينديوس » لسيده « ماتو » :

« هلم معى إلى معبد « تانيت » فإنك إذا أحرزت الستار المقدس صرت أقوى من « قرطاجنة » نفسها .

وتمكن « سينديوس » و « ماتو » من الدخول فى المعبد وسرق « ماتو » الستار المقدس وما كاد يظفر به حتى صاح قائلا :

« شد ماامتلأت نفسى قوة و بأسا حتى لأجدنى قادرا على اختراق اللهب واجتياز البحر ـ ماشيا على قدمى ـ وتقحم الأهوال بلا خوف أو وجل ، ولكن حب « سالمبو » لايزال يهيمن على قلبى و يشعرنى بقوتها و بأسها فلا أ كاد أجد من أسرها فكاكا . و إن صوتا ليناديني : « سالمبو . . . سالمبو . . . » فلا أستطيع أن أتغاضى عن تلبيته .

* * *

وأسرع « ماتو » ـ رغم تحذير « سينديوس » ـ وما زال « ماتو » مسرعا

حتى وصل إلى القصر ،واقترب من غرفة « سالمبو » وكان بها مصباح مضيء على شكل قارب . وكانت « سالمبو » نائمة على سرير منخفض فاخر محلى بالأصداف الغالية والعقيق الأبيض، وقدانبعثت الروائح الذكية من « سالمبو ». و ما كادت تسمع هذه الحركة حتى استيقظت وصاحت قائلة :

« من الطارق ؟ »

فأجابها « ماتو » :

« هاك ستار الآلهة المقدس فقد أحضرته إليك بعد أن طال بحثي عنه في معبد « تانيت » ، وقد اهتديت إليه وجئت به إليك هدية محب لحبيبه . »

فارتاعت « سالمبو » وثارت نفسها خوفا وفزعا من سرقة هذا الستار المقدس .ونادت أرقاءها وخصيانها فلبوا نداءها مسرعين . وكاد يصبح « ماتو » في عداد الهالكين وقد أوشك أن يفترسه العبيدوالخدم لولا قوة قاهرة أقوى من إرادة « سالبو » وأعظم ، كانت سببا في إنفاذه . فقد صاحت « سالمبو » في أعوانها قائلة :

«حذار أن تمسوه فإنه يرتدي معطف الآلهةالمقدس وليس في قدرتكم أن تمسوه لئلا تلعنوا أبد الدهر . »

* * *

وهكذا خرج «ماتو » من القصر من غير أن يجرؤ أحد على لمسه ، وما زال سائرا حتى وصل إلى معسكره.

وقد اشتدت قوة «ماتو » وعظم بأسه بعد أن استحوذ على الستار المقدس،وأصبح منذ ذلك اليوم مرهوب الجانب،فخالفه عدوه « نارهافاس»

وأصبح « ماتو » قائد الجيش وزعيمه .

* * *

وجن جنون أهل « قرطاحنة » واجتمع مجلس الشيوخ فيها ليقرر ما يراه لقهر « ماتو » واسترجاع الستار المقدس منه . وكان « هاميلكار » قد عاد إلى « قرطاجنة » خلسة ، فعهد إليه مجلس الشيوخ أن يتولى قيادة الجيش ضد « ماتو » وجنوده الأجراء . واشتعلت نار الحرب ، وحاصر « ماتو » و « نارهافاس » مدينة « قرطاجنة» وزحف « سينديوس » على رأس جيش كبير على «ما كار» ليحتلها ، وقد نكل به « هاميلكار » وقهره. وذاع نبأ انتصاره عليه ففرح أهل « قرطاجنة »ولكن فرحهم لم يدم طويلا ، فقد ذاع نبأ الهزيمة عقب هذا الانتصار العظيم فكان له وقع كوقع الصاعقة .

وعلم الناس أن «ماتو» قهر « هاميلكار » وهزم جيشه واضطره الى التقهقهر أمامه . ولجأ الأهلون إلى المعابد يستنجدون الإلهة«مولوسن» منافسة الإلهة« تانيت » التي سلبت ستارها المقدس وأهينت بذلك شر إهانة .

* * *

وكان مبعث هذا الشقاء كله هو سرقة الستار المقدس . وقد حقد أهالي«قرطاجنة» على«سالمبو» التي أضاعت فرصة قتله ، فجرت النكبات على قرطاجنة .

واشتد حنق المواطنين ، فتجمعوا أمام قصرها ، وحاولت جمهرتهم أن تقتحمه، فوقف أمامهم حرس «هاميلكار» ولم يستطع أن يحول بينهم و بين الفتك بها إلا بعد عناء شديد .

* * *

وذهب «شاهاباريم» — رئيس الخصيان وكبير قسيسي معبد «تانيت» وتمكن — بعد حجاج طويل — من إقناع «سالمبو» بأن عليها وحدها تتوقف سلامة وطنها ووطن أبيها ، لأن فى قدرتها أن تذهب إلى «ماتو» وتسترد منه الستار المقدس — كلفها ذلك ما كلفها من تضحية بالغة ما بلغت من الجسامة — وأكد لها أن الوطن ينتظر النجدة منها وأنها جديرة أن لا تدخر شيئا فى سبيل إسعاد الوطن وأن تضحى من أجله بكل شئ حتى جمالها وعفافها لهذا البربرى الجرئ .

* * *

اقتنعت «سالمبو» بخطورة الأمر ، وصدعت بما قاله لها رئيس الخصيان ، وسارت — من فورها — خلال الصحراء حتى انتهت إلى معسكر «ماتو بعد ثلاثة أيام .

ولم يكد «ماتو» يرى أمامه ابنة «هاميلكار» — وقد دخلت خيمته — حتى امتلأت نفسه فرحا بهذه المفاجأة السارة ، فأفضى إليها بغرامه ووجده وقضى معها أسعد ليلة .

وما كاد الفجر يطلع حتى ضج الجنود وظهرت عليهم دلائل الحيرة والارتباك إثر مفاجأة مفزعة لم تكن فى الحسبان .

فأسرع «ماتو» بالخروج من خيمته ليتعرف جلية الأمر ، فأخبره «سينديوس» أن «نارهافاس» قد خانه وانضم بجنوده إلى عدوه «هاميلكار» .

ولم يكد «ماتو» يعود إلى خيمته حتى رأى «سالمبو» قد اختفت واختفى معها الستار المقدس ، فأسقط فى يده وهاله الأمر .

* * *

وعادت « سالمبو » إلى خيمة أبيها وأعطته الستار المقدس ، وكان « نار هافاس » حينئذ فى خيمة أبيها أيضا .

وقد سر « هاميلكار » بعودة الستار المقدس وانضمام « نارهافاس » إليه ، فقال له :

« سأكافئك على معاونتك بتزويجك من ابنتى سالمبو »

* * *

وكان فقدان الستار المقدس أكبر دليل على اندحار « ماتو » وجنوده الأجراء . وقد جن « ماتو » من شدة الغيظ والغضب ، فعاد إلى « قرطاجنة » .

وبقى « سينديوس » مع جنوده أمام « هاميلكار » فضيق « هاميلكار » على خصمه الخناق وحصره فى المضيق مدة طويلة حتى أشرف وجنوده على الهلاك جوعا وظمأ ، فاضطروا إلى الاستسلام . فقبل « هاميلكار » خضوعهم بعد أن اشترط عليهم أن يقدموا له عشرة رجال من أعيانهم ليصلبهم جزاء لهم على تمردهم . وقد تم له ما أراد ، وكان من بينهم « سينديوس » قائدهم ، وكان قتله ثمنا لفشله وخيبته .

* * *

وعلم « ماتو » بما أصاب « سينديوس » فصمم على الانتقام له والثأر من عدوه ، فأعد جنوده لوقعة حاسمة تفصل بينه وبين خصمه العنيد « هاميلكار » .

والتقى الجيشان فى معركة حامية الوطيس فى وادى « راديس » وتغلب

نظام القرطاجنيين على شجاعة الجنود الأجراء ، فدحروهم وهزموهم شر هزيمة ، ووقع « ماتو » فى قبضتهم أسيراً .

واستولى السرور على أهل « قرطاجنة » وطغى عليهم الفرح حتى كادوا يجنون من فرط السرور بهذا الفوز المبين.

وأعدت معدات الفرح والاحتفال بزواج « سالمبو » من زوجها « نارهافاس » وكان فى برنامج هذا الاحتفال الرائع فصل يعد من أهم أجزائه ، وهو الاحتفال بقتل القائد « ماتو » .

* * *

و بعـد قليل فتح باب السجن وخرج منه « ماتو » وكان منظره وحشياً مفزّعاً ، فبهرت عينيه الأضواء المتألقة ولبث لحظات لايبدى أقل حراك ، وعرفه الجمهور ورأوه يبذل جهد الجبابرة فى تحطيم قيوده ـ وقد انتفخت رئتاه كما ينتفخ الثعبان ـ فابتدره أحد الواقفين بضربة قوية،وسار « ماتو » فى طريقه بين الجماهير الصاخبة. وحاول الجنود جهدهم أن يفسحوا له الطريق من بين هـذه الجموع المتألبة ، وظل حيثما سار يتاقى من الصفعات واللطمات ما أدهله وأضجره . ثم برّح به الإعياء واشتد به الحنق فظل يرتمى على الواقفين ليعضهم و ينتقم لنفسه مما ألحقوه به من الأذى فـكانوا يفرون منه مسرعين ، وكانت السلاسل والأغلال تحول بينه و بين مايريد، فيغرب الناس فى الضحك وقد طفح السرور على قلوبهم .

وضربه غلام على أذنه فمزقها وضربته صبية بمغزلها فشقت خده شقا ، وتـكاتف الناس عليه فقطعوا شعره ومزقوا لحمه تمزيقا ، فلم يعد يبدو للناظر منه سوى عينيه ، وأصبح جسمه كله قطعا من الدم الأحمر .

ولم يكد يصل إلى القصر حتى سقط على ظهره وقد خارت قواه وعجز عن إبداء أقل حَراك ، وأطلت « سالمبو » عليه فرأت ماأصابه وتمثلت كل ماتحمله من آلام فى سبيل حبها، فاخضلت عيناها بالدموع إشفاقا عليه ، وأمضها الحزن والألم ، فأغمى عليها فى الحال . فحملوها إلى عرشها وأسرع القسيسون إليها وقد حاولوا جهدهمأن يسروا عن نفسها ويهنئوها بهذه الخاتمة الظافرة التى كان لها وحدها فضل وصولهم إليها. وظلوا يصفقون ويهتفون باسمها وقد تعالت صيحات الفرح والسرور بهذا النصر المؤزّر ، وغرقت « قرطاجنة » فى بحر من السرور .

وثمل « نارهافاس » بما أحرزه من مجد وسعادة،فطوق بذراعه اليسرى قامة « سالمبو » وهو جد فخور باستيلائه عليها بعد أن أصبحت زوجته.وأخذ بذراعه اليمنىقدحا من الذهب وشرب به نخب « قرطاجنة » المنتصرة ، ووقفت «سالمبو» إلىجانب زوجها وأمسكت بقدحها لتشرب معه نخب هذا الانتصار،ولـكنها لم تـكد ترفع الـكأس إلى شفتيها حتى سقطت من فورها وهى ممتقعة اللون مفتوحة الشفتين مسترسلة الشعر وقد لفظت أنفاسها الأخيرة وانتهت صفحة حياتها .

* * *

وهكذا ماتت ابنة « هاميلـكار » ضحية ، لأنها لمست الستار المقدس الذى سرقه « ماتو » من معبد « تانيت » .

سويفت

جَلِفَر

جونان سويفت

١٦٦٧ — ١٧٤٥ م

ولد في « دوبلن » في ٣١ نوفمبر عام ١٦٦٧ وكان والده مدير فُنْدُق في هذه المدينة .

وكان « سويفت » من أشهر أعلام عصره ، وأسلوبه الساخر شديد اللذع . وأشهر مؤلفاته قصة « جلفر » - التي اقتبسنا منها هذه الفصول - وهي القصة الأولى من مجموعة للمترجم عنوانها : « أشهر القصص للأطفال . »

وقد أصيب « سويفت » في آخر أيامه بذهول انتهى بفقدان قواه العقلية شيئاً فشيئاً . وقضى عامه الأخير دون أن يفوه بكلمة واحدة ، وكان - فيما يقولون - يستبشع صورة الانسان وينفر من رؤيته ويسير في كل يوم عشر ساعات وهو ذاهل معتوه .

وقد مات في ٢٩ أكتوبر سنة ١٧٤٥ وهو في الثامنة والسبعين من عمره .

١ — فى بلاد الاقزام

و بعد قليل أحضروا إلىّ من الطعام والشراب ما حسبوا أنه يكفينى ، ثم صعِد إلىّ أكثر من مائة قزَم على سلالم وضعوها على جسمى ، وساروا مرتقين إلى فمى ، وفى أيديهم سلال مملوءة باللحم والخبز ، وكانت خِرافهم لاتزيد عن حجم الضفادع الصغيرة ، فكنت ألتهم خمسة خراف وستة أرغفة فى فمى فى مرة واحدة ، وهم يدهشون من ذلك ويتملكهم الذعر والفزع . ثم أشرت إليهم أننى فى حاجة الى الماء ، فأحضروا إلى أكبر برميل عندهم ، وما زالوا يدحرجونه حتى اقترب من فمى ففتحوه فجرعته كله جرعة واحدة ، وصفقوا مدهوشين مما رأوا ، ورقصوا من شدة الفرح — ولهم العذر فى ذلك — فإنهم لم يروا فى حياتهم رجلاً فى مثل هذه الضخامة . ولقد كنت بين هؤلاء الأقزام كأنى



جبل شامخ ، وقد أكلت من طعامهم ما يكفى لغذاء أكبر جيش منهم شهرا كاملا ، وكانوا فزعين من رؤيتى ، فلما أمنوا بطشى ورأوا استسلامى وهدوئى ، انطلقوا يغنون ويمرحون ويرقصون على صدرى وقد استولى عليهم السرور والابتهاج .

وقد كان فى قدرتى أن أقذف بهم إلى الارض قذفاً ، وأن أهلكهم فى لحظة واحدة ، ولكننى رأيت — من كرمهم وحسن معاملتهم — ما لم

يكن يخطر لى على بال ، فلم ألجأ إلى القوة ، ولم أشأ أن أعكر عليهم صفاءهم وابتهاجهم .

ولم أكد أنتهى من طعـامى حتى شعرت بحاجة إلى النوم ، وقد علمت ـ فيما بعد ـ أن الامبراطور كان قد أوفد سفيره لنقلى إلى مدينته ، وأن ذلك السفير قد أمرهم بوضع مادة منومة فى شرابى الذى سقَوْنيه . وقد أعجب سفير الأمبراطور بهدوئى واستسلامى فأشار إليهم بكلام لم أفهمه ، فأحضروا إلى دواء شممت له رائحة ذكية ، فدهنوا به جراحى التى سببتها سهامهم ، فشفيت ـ فى الحال ـ وزالت آثار السهام. ثم أمرهم السفير أن يقطعوا شيئاً من الخيوط التى أوثقونى بها لأتمكن من النوم عـلى جانبى ، وما كادوا يقطعونها حـتى استسلمت للنوم ، وما زلت نائماً ثمانى ساعات كاملة .

* * *

وكان لهؤلاء الأقزام خبرة عجيبة بعلوم الهندسة ، ومهارة فائقة فى كل مايزاولونه من الأعمال ، فلم يكد يأمرهم سفير الأمبراطور بنقلى إلى عاصمة المملـكة حتى ذللوا كل عقبة فى سبيل تنفيذ إرادته .

وقد علمت ـ فيما بعد ـ أنه عهِد إلى خمسة آلاف نجار ومهندس بعمل عربة كبيرة يحملوننى عليها، ارتفاعها ثلاث أصابع وطولها سبع أقدام وعرضها أربع أقدام ، وبها اثنتان وعشرون عجلة . فلما انتهوا من صنعها أقاموا ثمانين عموداً ارتفاع كل منها قدمان ، وفى أعلاه بكرات ، ثم أنفذوا خيوطاً متينة محـكمة الفتل فى تلك البكرات ، وفى آخر كل خيط منها شِص ، ثم ألقوا علىّ هذه الشصوص وشدوها بقوة ، وقد تـكاتف تسعمائة من أقويائهم على شد تلك الخيوط حتى وضعونى فى تلك

العربة ، وأنا مستغرق فى نوم عميق . وقد أنجزوا هذا العمل كلّه فى نحو ثلاث ساعات ، ثم شدوا إلى تلك العربة ألفا وخمسمائة جواد من أقوى خيول الإمبراطور وكان ارتفاع كل جواد منها أربع أصابع ونصف إصبع . ثم سارت العربة فى طريقها إلى مدينة الأمبراطور .

* * *

وما زالت العربة سائرة نحو أربع ساعات ، ثم استيقظت فجأة لوقوع حادث عجيب ، فقد وقفت العربة فى الطريق ريثما يتم إصلاح عطب يسير أصاب أحد أجزائها ، ولم تكد العربة تقف حتى دفع الفضول ثلاثة من الأقزام إلى التمتع برؤية جسمى ووجهى ، فتقدم أحدهم إلى أنفى ، وكان ضابطا جريئاً طُلَعة يميل إلى الدعابة والمزاح ، وكأنما أراد أن يفحصنى ويقف على تركيب جسمى الضخم العجيب ، وما كاد يصل إلى أنفى ويرى طاقتيه حتى خيل إليه أنهما كهفان، فدفعه فضوله إلى سَبْرِ غورهما ، فوضع فى إحداهما رمحه الصغير .

وما كدت أحس وخزة رمحه فى أنفى حتى عطست ، فتقاذف من أنفى رشاش خيل إليه أنه رصاص ، فانقلب على ظهره من شدة الذعر ، وعاد أدراجه ــ هو ورفيقاه ــ وهم يرتجفون من شدة الخوف .

* * *

ثم استأنفت العربة سيرها من جديد ، وما زالت سائرة بقية النهار حتى إذا أدركنا الليل قام على حراستى خمسمائة حارس يحملون قِسِيّهم وسهامهم ليسددوها إلىّ إذا حاولت الفَكاك من أسرى ، وإلى جانبهم خمسمائة قَزم يحملون المشاعل فى ظلام الليل .

وما كادت الشمس تشرق حتى استأنفنا السير مرة أخرى . وما زلنا

سائرين إلى وقت الظهر ، فلم يبق بيننا وبين المدينة إلا مائتا ذراع . فرأينا الأمبراطور وجميع رجال حاشيته قد خرجوا لاستقبالنا والتقوا بنا فى ذلك المكان ، وكان الإمبراطور شديد الشوق إلى رؤيتى — بعد ماسمعه عنى من الغرائب والمدهشات — وقد رأيته فى موكب حافل ثم حاول أن يتقدم إلىّ ، فحذره بعض أتباعه من الدنو منى والصعود إلى جسمى حتى لايحدث له مكروه أو يصاب بأذى .



وكان فى ذلك المكان الذى حللناه ، معبد قديم وهو يعد بحق أكبر هيكل فى جميع أرجاء المملكة ، وقد كانوا يصلون فيه ثم هجروه بعد أن تدنس منذ بضع سنوات ، فقد وقع فيه حادث قتل فأصبح — حسب تقاليدهم وعاداتهم — دنساً بعد أن كان مقدسا ، فهجروه بعد أن نقلوا كل مافيه من أثاث وطُرَف إلى معبد آخر .

وكان ارتفاع الباب الشمالى الكبير أربع أقدام وعرضه قدمين ، و به نافذتان ترتفعان عن سطح الأرض إصبعين وطول كل منهما ست أصابع .

ثم جاءوا بإحدى وتسعين سلسلة — فى حجم السلاسل الرقيقة التى نعلق بها ساعاتنا — وكان طول كل سلسلة منها ست أقدام، فشدوها إلى ساقى اليسرى وأحكموا رباطها بستة وثلاثين قفلا حتى لا يدعوا لى وسيلة للفرار .

* * *

وكان أمام ذلك الهيكل — وعلى مسافة عشرين قدما منه — برج عال، ارتفاعه خمس أقدام. فصعِد الامبراطور وحاشيته إلى ذِرْوته ليتسنى لهم رؤيتى والتحقق من شكلى — وهم بأمن من كل خطر — واشتد زحام الشعب حولى، بعدأن ذاع صيتى فى أرجاء تلك المملكة، وأقبل الناس من كل مكان ليروا ذلك العملاق الهائل الذى أطلق عليه أهل تلك البلاد اسم « الجبل الآدمى » وتوافدوا مسرعين إلى رؤيتى ، وصعِد إلى جسمى نحو عشرة آلاف قزَم . فأشفق الأمبراطور علىّ وأمرهم أن ينزلوا جميعاً، وحرم على شعبه الصعود إلى جسدى وهدد من يخالف أمره بالقتل .

ثم أمر الإمبراطور بقطع الخيوط — التى كانوا أوثقونى بها من قبل — فنهضت واقفاً وسرت حول الوتِد الذى شدوا إليه السلاسل فى دائرة قصيرة أمام ذلك الهيكل العتيق.

وليس فى وسع إنسان أن يتصور مقدار دهشة هذا الشعب وعجبه حين رآنى واقفاً على قدمى ، وكان طول تلك السلاسل نحو ست أقدام فأصبحت أستطيع أن أذهب وأعود فى شكل نصف دائرة .

٢ ـ مشكلة البيضة [١]

وقد زاد على هذا الانقسام الداخلى أننا مهددون بحرب خارجية من سكان جزيرة « بليفُسكو » ، وهى تلى إمبراطوريتنا فى القوة ، فهى ـ إذا استثنيت إمبراطوريتنا ـ أقوى امبراطورية فى العالم .

وقد كنا نسمع أن فى العالم امبراطوريات أخرى ، وممالك ودولا لم نرها ، وأنهم أناسى مثلنا ولكنهم أضخم وأكبر أجساماً منك ، وهو كلام أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة ، وقد شك فى صحته فلاسفتنا وخطئوه .

ولقد حاروا فى تعليل ضخامة جسمك، وتضاربت أقوالهم فى ذلك ، ولم يصدقوا أنك من سكان هذا العالم ، فهم يعتقدون أنك هبطت من القمر أو نزلت إلينا من أحد النجوم . فإن مائة رجل ـ فى مثل حجمك ـ يأكلون فى زمن يسير كل مافى هذه الإمبراطورية من فاكهة وحب وماشية .

على أن مؤرخينا لم يذكروا فى أسفارهم ـ منذ ستة آلاف قمر ـ أن فى الدنيا كلها بلاداً غير إمبراطورية « ليليبوت » وإمبراطورية « بليفُسكو » المجاورة لنا . وقد دارت رحى الحرب بين هاتين الإمبراطوريتين ثلاثين قمراً ، وكانت حربا عنيفة طاحنة .

وكان سبب هذه الحرب خلافاً جوهرياً نشب بين الإمبراطوريتين ،

---

(١) فى هذه الكلمة يروي لنا « جلفر » حديثا قصه عليه سكرتير امبراطورية الأقزام .

وهو ينحصر فى الطريقة التى يجب أن يتبعها الشعب فى كسر بيضة الدجاج ، فقد اتفق الناس جميعاً — منذ أقدم عصور التاريخ — على أن يكسروا البيضة — إذا أرادوا أ كلها — من طرفها المستعرض ، ولكن جد صاحب الجلالة إمبراطورنا الحالى ، وقع له حادث فى طفولته غير هذا النظام — من الضد إلى الضد — فقد قطعت إحدى أصابعه وهو يكسر البيضة ، وثمة أصدر والده أمره إلى جميع رعاياه أن يكسروا البيض من الطرف المستدق ، ووضع أقصى عقوبة لمن يخالف هذا الأمر .

فتذمر الشعب وغضب،وثار ثورات عنيفة على هذا القانون الجديد . وقد ذكر لنا مؤرخو ذلك العهد أن الشعب قد ثار لذلك ست ثورات ، انتهت بقتل جد الامبراطور وخلع والد الامبراطور عن العرش .

* * *

وقد كان لأباطرة « بليفسكو » أكبر يد فى إثارة تلك الفتن الداخلية ، وكانوا يفسحون بلادهم ، لزعماء تلك الثورات الهاربين ، ويحفزونهم إلى إذكاء نار الثورة من جديد . وقد ذكر لنا المؤرخون أن كثيراً من الناس قد آثروا الموت على أن يخضعوا لذلك القانون الجديد الذى يحتم كسر البيضة من طرفها المستدق .

وقد هلك فى هذه الفتن أكثر من خمسة عشر ألف ثائر . وألّف الكتاب والباحثون — فى هذا الموضوع الخطير — مئات من الكتب والأسفار الضخمة، وأرسل إلينا أباطرة « بليفسكو » سفراءهم يتهموننا بأننا قد اقترفنا أكبر جريمة عرفها التاريخ، وانتهكنا الأصول السياسية ، وأحدثنا حدثاً كبيراً فى شريعة نبينا العظيم « دوسترج » وخالفنا نص كتابه المقدس .

على أن رجال الدين عنـدنا لا يرون فى ذلك القانون إلا تأويلاً طبيعيا لنص الآية التى جاءت فى كتاب هذا النبى ، وهى :

« عـلى كل مؤمن أن يكسر البيض من الطرف الذى يراه أكثر ملاءمة له » .

* * *

والرأى عندى أن يترك لـكل واحد أن يقرر ما يراه ملائما له ، أو أن يترك الناس تقرير ذلك الحق إلى الامبراطور .

ولـكن كبار الباحثين الذين نفوا من هـذه البـلاد ، يرون رأى إمبراطور « بليفسكو »

وقد لقيت آراؤهم فى بلادنا كثيرا من المساعدة والعطف والتأييد ، ودارت ـ بسبب ذلك ـ تلك الحرب العنيفة الطاحنة بين الإمبراطوريتين ستةوثلاثين شهراً وكانت سجالا بيننا و بينهم ، وقد خسرنا فيها أربعين سفينة كبيرة من أسطولنا وكثيراً من السفن الصغـيرة ، كما خسرنا ثلاثين ألفا من أشجع الملاحين والجنود المدربين ، ولم تـكن خسارة العدو بأقل من خسارتنا . وقد علمنا أنهم يعدون الآن أسطولا هائلا لغزو شواطئنا .

٣ – ثقافة الأقزام

أما الدروس التي يتلقونها فهي هينة ميسورة لاتكاد تتجاوز مبادئ العلوم وأدب اللغة والدين. ومن حكمهم وأمثالهم المعروفة أن الزوجة جديرة أن تكون لزوجها خير معين، ويجب عليها أن تتعهد عقلها بالثقافة والعلم دائماً حتى لا يشيخ عقلها .

ويرى هذا الشعب – رأى اليقين – أن العناية بتربية الأطفال هي أس نجاح الوطن ومصدر خير البلاد، فإن الطفل الكامل سيكون – بعد قليل – الرجل الكامل . ويقولون : إن من الميسور أن نؤسس أسرة فاضلة ، كما أن من الميسور أن نبذر الحب وأن نتعهده بالعناية. وكما أن بعض النبات يتطلب منا أن نحرسه وندفع عنه غائلة الشتاء وقسوة العواصف الصيفية وفتك الحشرات المؤذية حتى نجني منه أطيب الثّمر ، وكما أن البستاني الماهر الذكي قادر على تعهد حديقته تعهداً يجعلها تأتي بأطيب الثمار ، فكذلك الأستاذ الصالح قادر على أن يتعهد الطفل – كما يتعهد البستاني النبات – وأن يغرس فيه أنبل الأخلاق وأكرم العادات وأن يثمر تعهده إياه أطيب الجنَى وأشهاه .

وهم يُعنون العناية كلها بتخير المعلمين، ويؤثرون أن يكون المعلم صحيح العقل متزن التفكير، على أن يكون ذا مواهب سامية ونبوغ عظيم، وهم يتوخَّوْن – إلى ذلك – أن يكون المعلم كريم الخلق ، ولو كان قليل الاطلاع والعلم .

أما مناهج التربية عندهم فهي مناهج واضحة ترمي – في تفصيلها وإجمالها – إلى تعليم الأطفال كيف يفهمون الحياة العملية فهما صحيحاً وكيف يبتهجون بروائع الطبيعة الفاتنة . وهم يحرمون على المدرسين أن

يزعجوا تلاميذهم بمناقشات عقيمة فارغة وأن يرهقوا أذهانهم بأخلاط من المعارف وأشتات من العلوم التى لاصلة لها بالحياة . وهم يعتقدون أن الذهن الإنسانى يجب أن لا يعرف – من ألوان العلم – إلا الضرورى الذى ينفعه فى الحياة وينير له السبيل إلى النجاح . لذلك كانت علوم تلك المدارس متصلة بالحيـاة الخارجية أوثق اتصال ، فهم لا يكدون أذهان تلاميذهم فى تعـلم لغة قديمة أبلاها الزمن وقضى عليها بالموت ، ولا يرهقونهم بالنحو والصرف وما إلى ذلك ، ولـكنهم يُعْنَون بالتطبيق والأمثلة العملية ، ويعلمونهم – منذ حداثتهم – الحـكمة والفلسفة ، وينتهزون كل فرصة من الفرص لتحبيبهما إليهم ، ويتخذون – من أوقات اللهو والتسلية – مناسبات لشرح أسرار الطبيعة بطريقة فلسفية جذابة . وثمة يصبح الطالب – بعـد الانتهاء من زمن الدرس – مزوداً بكل ماتطلبه الحياة من قوة وجلد وخبرة ، ومعه كل أسلحة النضال والـكفاح .

* * *

وعندهم أن من المخزى أن يخرج الطالب من المدرسة – وهو جاهل بأسرار الحياة – وأن يبدأ درسها بعد ضياع الفرصة ، وأن يحاول أن يتعلم كيف يعيش بعد أن يقترب من نهاية أجـله ، وأن يصل إلى سن الرجولة وهو لايزال طفلاً فى هذه الحياة .

وهم يشجعون كل من يعترف بأخطائه ويمنحونه أجزل مكافأة ، كما يثيبون التائب الذى يدل عـلى نقائصه وعيوبه من تلقاء نفسه ، ويعفون عنه ويكرمونه ، لاعتقادهم أن الرجوع عن الخطأ إلى الصواب فضيلة عظيمة جديرة بالتقدير والتشجيع .

وهم يحتمون على جهرة الشعب أن يخلصوا لإمبراطورهم إخلاص حب ووفاء وولاء ، لا إخلاص خوف وتملق ورياء .

أما دراسة التاريخ فهى على غير ما نألفه فى مدارسنا ، وقلما يعنى مدرسو التاريخ أنفسهم بشرح الحوادث التاريخية وتحليل أبطالها تحليلا دقيقاً يصور للنشء ماقاموا به من جلائل الأعمال ، وما وقعوا فيه من الأخطاء ، وقلما يأبهون لتواريخ السنين التى وقعت فيها أهم الحوادث أو ذكر اليوم أو الشهر أو المكان الذى حدثت فيه ، فإن شيئاً مع ذلك كله لايعنيهم ولا يرون فيه أى خطر .

وكل مايعنيهم من التاريخ هو أن يتعرفوا أسرار النفس الإنسانية وميل الناس إلى الظلم والقسوة والبعد عن الإنصاف والاعتداء على غيرهم بالبغى والجور ، وإذكاء نيران الحروب — فى كل عصر من العصور — لأتفه الأسباب ، من غير أن يحاسبوا ضمائرهم على مايقترفون من جرائم وآثام ، ومن غير أن ينظروا إلى نتائج أعمالهم السيئة التى تنتهى بالقتل والتدمير والخراب .

وليس يعنيهم أن يحببوا العلم إلى كل إنسان ، لأنهم يريدون أن يقبل كل فرد من أفراد الشعب على مايلائم طبعه ومواهبه واستعداده من الفنون والعلوم والحرف ، وكثيراً مايسخرون ممن يُسْرِفون فى الدرس والاطلاع ، ويرون فى ذلك ضرراً بليغاً عليهم . فإن العقل — فيما يعتقدون — كالجسم سواء بسواء .

وكما أن الجسم يؤذيه الإفراط فى الغذاء فلا يسهل عليه أن يهضمه ، فإن العقل — كذلك — يؤذيه الإفراط فى غذائه العلمى ، فيصاب بالتخَمَة التى تؤذيه وتضرُّه وربما أودت به .

وليس عنـد الإمبراطور نفسه مكتبة كبيرة حافلة بالمصنفات العلمية والفنية ، وقلما تجد أحداً يعنى بإنشاء مكتبة جامعة فى بيته ، فإذا عنى أحد الخاصة بجمع الكتب ، سخروا منه وسلكوه فى عداد المعتوهين وشبهوه بالحمار يحمل أسفاراً من الكتب .

* * *

أما فلسفة هؤلاء الأقزام فهى غاية فى اليسر والبساطة ، لأنها فلسفة عملية لا تقوم على المجادلات اللفظية والمناقشات الملتوية المتشعبة والبحوث الغامضة العميقة التى ترهق الذهن على غير طائل ، ولكنها فلسفة واضحة تقوم على مبادئ معقولة ، وتؤثر التوسط فى الامور ، وتعلمهم أن الشرف أثمن من المال ، وأن الرجل العظيم هو الرجل الذى يستطيع — بقوة إرادته — أن يكبح جماح أهوائه ، وأن من يفعل ذلك، جدير أن تسمو مكانته على مكانة البطل الفاتح الذى يغلب الأعداء وينتصر عليهم فى ميادين القتال .

وعندهم أن الفضيلة هى أس النجاح والفوز ، وينبوع السعادة والرفاهية .

وهم يتركون للإنسان أن يتخير بنفسه مايلائمه ويتفق مع طبيعته من الأعمال — وله كل الحرية فى ذلك — من غير أن يقيد نفسه بصناعة أبيه أو فنه . وثمة ترى ابن الزارع — مثلا — قد رفعته مؤهلاته ومزاياه إلى صفوف الوزراء ، وابن الوزير قد أصبح تاجرا ، لأنه لايصلح إلا أن يكون تاجراً .

وليس لهذه الشعوب ميل إلى الطبيعة والرياضة إلا بقدر معلوم ، أى بقدر مايحتاجون إليه فى حياتهم وفنونهم المفيدة ، وقلما يعنون أنفسهم

بتفهم أجزاء العالم وأسرار الطبيعة العميقة ، فحسبهم أن يتمتعوا بمشاهدها الرائعة دون دراستها . أما العلوم النظرية والعقلية فهى عندهم عبث وخيالات وأوهام لاطائل تحتها .

* * *

وعندهم أن الأسلوب الأدبى يجب أن يجمع بين الجمال والوضوح — سواء فى ذلك أسلوب النظم وأسلوب النثر — وهم يمقتون التكلف والإعراب فى اللغة ، ويرون من فساد الذوق والأنانية الممقوته أن يتشدق الانسان بألفاظ غير مألوفة ، ليتظاهر بأنه متفرد بغريب اللغة عن بقية معاصريه .

وعندهم أن اللغة لم تخلق إلا لتؤدى الأغراض بأيسر لفظ وأوضح بيان من غير تصنع ولا لبس . فاذا أغفل الكاتب هذه الأصول الجوهرية ولجأ إلى الأسلوب المعقد والاستعارات الغامضة والكنايات الغريبة ، ونبا عن الأسلوب السهل الصافى ، كان موضع سخرية الناس ، وكان بيانه — فى نظرهم — كأنه ثوب مرقع لا جمال فيه ولا روعة .

وهم يجمعون — إلى عنايتهم بتهذيب النفس — عنايتهم بإصلاح الجسم وتقويته بكل وسيلة من الوسائل ، لأنهم يعتقدون أن العناية بأحدهما — دون الآخر — لاتكفل لهم الحصول على الرجل الكامل ، ولا يتسنى لإنسان أن يصل إلى مرتبة الرجولة الكاملة إذا أهمل العناية بأحدهما . وهم يشبهون الجسم والروح بجوادين قد شُدّا إلى عربة ليجراها معاً ، وثمة لايرون بدا من أن تكون خطواتهما متساوية — فى أثناء سيرهما — حتى لا يختل التوازن .

وعندهم أنك إذا قصرت عنايتك على تعهد عقل الطفل بالثقافة وأهملت العناية بجسمه ، فإن الفساد واختلال الصحة كفيلان باتلاف هذا الثمر الشهي . فإذا قصرت عنايتك على تعهد جسمه وأهملت العناية بتثقيفه ، فإن الحماقة والجهل يستوليان على عقله فلا يستطيع أن يؤدي لوطنه ما يفرضه عليه من الواجبات والفروض .

* * *

وهم يحظرون على المدرسين أن يعاقبوا تلاميذهم عقاباً يؤلمهم ، فحسبهم أن يحرموهم بعض المزايا التي تطمح إليها نفوسهم — إذا لم يجدوا بداً من عقابهم — وكثيرا ما يعاقبون الطالب بحرمانه حضور درسين أو ثلاثة ، فيكون لذلك العقاب أبلغ الأثر في نفسه . وربما تظاهر المعلمون أمام الطالب بأنهم لا يرونه أهلا للتعليم إذا لم يتعهد نفسه بالإصلاح ويقلع عن الوقوع فيما وقع فيه من خطإ . وهم يبتعدون كل الابتعاد عن ضرب الطالب أو إيلامه ، لأنهم يرون أن أمثال هذا العقاب يعوده الخوف والجبن — منذ نشأته — فلا يشفى منهما أبداً .

٤ ـ فى بلاد العمالقة

وفى اليوم السادس من يونيو عام ١٧٠٣ كان أحد ملاحينا معتليا ذِروة السارية ، فلاحت له الأرض من بعيد ، وما كاد يخبرنا بذلك حتى ولينا سفينتنا شطرها . ولماجاء اليوم السابع عشر رأينا اليابسةبوضوح ولم نستطع أن نتعرف أين نحن ، وهل وصلنا الى جزيرة كبيرة أو قارة مجهولة فاقتربنا منها وألقينا مراسى السفينة ، وأرسل رُباننا اثنى عشر ملاحا فى زورق صغير ،ومعهم أسلحتهم ليدافعوا عن أنفسهم إذا داهمهم خطر ، وقد أوصاهم الرُّبان بالبحث عن ماء فى هذه الأرض ، وأعطاهم أوانى ليملئوها ماء ، فاستأذنت الربان فى مصاحبتهم فلم يتردد فى الإِذن لى . ولم نكد نهبط تلك الأرض حتى سرنا باحثين عن نهر أوعين ماء . فلم نر فيها أثرا واحداً يدلنا على أنها مأهولة بالسكان. فسار رجالنا بالقرب من الشاطئ ، ليبحثوا عن الماء وسرت أنا ـ لسوء حظى ـ منفردا ، وقد دفعنى حب الاستطلاع إلى التوغل فى تلك الجهة نحو ميل فوجدتها أرضاً صخرية مجدبة قفراء ، ثم أدركنى التعب والملل فرجعت متباطئا فى سيرى من حيث أتيت ، ولم أكد أقترب من الشاطئ حتى رأيت رفاقى يجدفون بسرعة شديدة رغبة فى إنقاذ حياتهم من الهلاك ، ورأيت عملاقا هائل الجسم يتعقبهم بسرعة شديدة ، ولكن رفاقى كانوا على بعد نصف ميل من ذلك العملاق فلم يستطع اللحاق بهم .

وما كدت أرى ذلك حتى أسرعت بالفرار متسلقا قمة جبل وعر ، ثم نظرت فرأيت مرجا ، وقد تملكني العجب من ارتفاع حشائشه إلى عشرين قدماً ، فندمت أشد الندم على مجازفتي بالخروج إلى هذه الجزيرة والسير فيها بعيداً عن رفاقى ، وعلمت أن حب الاستطلاع قد ساقنى إلى الحتف والهلاك ، ولكننى رأيت الندم لا يفيد فأسلمت أمرى إلى الله ، ومشيت فى طريق كبيرة تنتهى بحقل مزروع شعيراً فسرت قليلاً من غير أن تقع عينى على إنسان .

وكان وقت الحصاد قد دنا ، ونضجت سنابل القمح ، ووصل ارتفاعها إلى أربعين قدما أو أكثر .

فسرت ساعة من الزمن من غير أن أصل إلى نهاية الحقل ، وكان يحيط به سياج عال يبلغ ارتفاعه أكثر من مائة وعشرين قدماً ، وقد عجبت لضخامة الأشجار فى هذه البلاد وطولها الذى لا يكاد يتصوره عقل ، حتى ليستحيل علىّ أن أقدر ارتفاعها . وبحثت طويلاً عن ثغرة فى ذلك السياج لأنفذ منها إلى الحقل . وإنى لكذلك إذ وقع نظرى على عملاق آخر فى الحقل المجاور ، فرأيته فى مثل طول العملاق الأول الذى كان يتعقب رفاقى الهاربين .

٥ — بين سنابل القمح

وهنا علمت أننى فى بلاد العمالقة ، فقد كان كل رجل منهم فى مثل ارتفاع المئذنة ، وكانت مسافة خطوته نحو تسعة أمتار ، فتملكنى الذعر ، وكاد ينخلع قلبى من شدة الهلع ، فأسرعت أحاول الاختفاء بين سنابل القمح ، وانسللت من ثغرة قريبة ، فلمحت العملاق من بعيد ،

و بعد قليل صاح بصوت — كالرعد القاصف — يكاد يُصم الآذان ، فحضر إليه سبعة رجال — فى مثل طوله وضخامته — وفى يد كل واحد منهم منجل صغير — فى حجم ست مناجل كبيرة من مناجلنا — وكان زيهم يدل على أنهم خدم لذلك السيد ، فقد جاءوا ملبين نداءه ، وأقبلوا يحصدون سنابل القمح بمناجلهم — حيث كنت مختبئاً — فجريت مبتعداً عن مكانهم ، ولم يكن من اليسير على أن أنطلق فى عدوى ، فقد كانت سنابل القمح — لشدة تقاربها — تكاد تلتصق ، وكان بعضها لا يبعد عن الآخر إلا بمقدار قدم واحدة .



على أننى بذلت جهدى حتى وصلت إلى آخر مكان أستطيع الوصول إليه ، فقد اعترضتنى أكوام من السنابل المشتبكة ، وحاولت أن أخترقها أو أجوس خلالها فلم أجد إلى ذلك سبيلا ، فقد جف كثير منها ، وأصبح حسكها شائكا مدبباً قوياً كأطراف المدى ، فخشيت أن ينفذ إلى جسمى فيهلكنى ، وسمعت أصوات الحاصدين على مسافة قريبة منى ، وكان الإعياء قد بلغ منى كل مبلغ ، فتملكنى اليأس بعد أن خارت قواى ، فرقدت بين أخدودين من الأخاديد التى شقها المحراث ، وقد يئست من الحياة ، وذكرت وطنى العزيز ، وتمثلت أرملتى وولدى اللذين أوشكا أن يتيتما ، وندمت أشد الندم على جنونى الذى دفعنى إلى هذه الرحلة المشئومة برغم نصيحة خلصائى وتشفع أولادى بى ألا

أفارقهم ، وأيقنت أن آخرتى قد دنت ، ثم ذكرت بلاد « ليليبوت » التى فررت منها ، وكيف كنت فيها عملاقاً هائلاً بين أقزام صغار ، وكيف استطعت أن أستولى — بمفردى — على أسطول إمبراطورية بأسرها ، وكيف قمت وحدى بأعمال جليلة باهرة ستبقى خالدة على ممر الدهور فى تلك البلاد وسيثبتها التاريخ فلا يصدقها ذرارى الأقزام وأحفادهم — لغرابتها و بعدها عن مألوفهم — وإن أجمع أسلافهم على أنهم رأوها رؤية العِيان .

ورأيت الفرق شاسعاً بين الحالين ، ففاضت نفسى باللوعة والألم ، فقد انتقلت حالى من الضد إلى الضد ، وأصبحت فى هذه البلاد — لضآلتى — ألوح لهم كما كان يلوح لى أقزام « ليليپوت » . ولعل هذا هو أهون ما ألقاه من الشقاء فى هذه البلاد ، فقد أقنعتنى التجربة والملاحظة أن المخلوقات الإنسانية تكثر قسوتها ويشتد طغيانها كلما قوى بأسها واشتدت قوتها .

وثمة أصبحت أترقب الهلاك بين لحظة وأخرى وأتوقع أن يمزقنى أول من يظفر بى من هؤلاء العمالقة وأن يزدردنى بسهولة تامة .

٦ — فى قبضة عملاق

لقد صدق الفلاسفة حين قالوا إن الكبر والصغر أمران نسبيان ، فليس فى الدنيا صغير مطلق أو كبير مطلق ؛ ولكن الشىء إذا قيس إلى غيره ظهر كبره وصغره بالمقارنة . ومن يدرى ؟ فقد يجد أقزام « ليليپوت » أمما أخرى غاية فى الضآلة فيجدون أنفسهم بينهم — كما وجدت نفسى بالقياس إليهم — عمالقة بين أقزام .

ومن يدرى ؟ فلعـل عمالقة هذه البلاد إذا قورنوا بغيرهم من الأمم المجهولة التى لم تـكتشف بعد أصبحوا ـ بالقياس إليهـم ـ أقزاماً ضئالا بين عمالقة كبار .



ولا غرو فى ذلك فقـد كنت عملاق العمالقة فى بلاد الأقزام ، ثم أصبحت قزَم الأقزام فى بلاد العمالقة . وهكذا :

«يستصغر الحى الحقير، وتحته أمم توهم أنه جبار »

* * *

وانى لغارق فى هذه الأفـكار الفلسفية التى ملأت نفسى فى هـذا الموقف الحرج المرعب إذ رأيت أحد الحاصدين على مسافة ثمانية أمتار من الأخدود الذى اختبأت فيه ، فامتلأت نفسى رعبا ، وخشيت أن يتقدم إلى الامام خطوة واحدة ، فيسحقنى بقدمه سحقا ، أو يهوى بمنجله إلى سنابل القمح فيقطع جسمى معها شطرين ، وما كدت أراه

يرفع قـدمه ليخطو خطوة أخرى حتى صرخت صرخات مؤلمة قوية ـوقد ملأ الرعب نفسى ـ فوقف العملاق فجأة ، وأخذ يتأمل فيما حوله وينعم النظر فى الأرض ليرى مصدر هذا الصوت الضئيل الذى طرق أذنيه ، حتى اهتدى إلىّ ، فنظر متعجبا مدهوشاً من ضآلة جسمى ، ودنا منى ـ وقد اشتد حذره ـ كما نقترب نحن من حشرة صغيرة خطرة لانعرف كنهها ، وأمسكنى من وسطى ـ بحذر شديد ـ بحيث يأمن كل خطر ، فقد أكون ـ فى نظره ـ حيوانا ساما . وكأنما خشى أن أعضه أو أخدشه ، فذكرنى بما فعلت مع ابن عِرس كنت قد أمسكته من وسطه حتى لايعضنى أو يخدشنى .

ثم تشجع قليلا فأدنانى حتى أصبحت عـلى مسافة متر ونصف متر ـمن عينيهـ ليتثبت من وجهى بدقة وقد أدركت غرضه ـ لأول وهلة ـ فلم أبد أية مقاومة حتى لا يسىء الظن بى فيلقينى من يده فأهوى من ارتفاع نيف وستين قدما ـ وقد شعرت بألم شديد ـ فلم أطق ضغط أصابعه على جسمى وإن كان قد ترفق بى جهـده وحرص على أن يقبض على جسمى حتى لاأنزلق من بين أصابعه الـكبيرة . ولم يكن فى قدرتى أن أقاوم إرادته ، فرفعت بصرى إلى السماء وضممت يدى إليه ـ كما يفعـل المتوسل الضارع واستعطفته ببضع كلمات نطقتها بصوتى الحزين المتهدج ، وقد كنت أخشى أن يلقينى بين لحظة وأخرى الى الأرض ويسحقنى بقدمه ـ كما نسحق الحشرات الـكريهة بأقدامنا لنهلـكها ـ ولـكن أساريره قد تطلقت وتهلل وجهه بالبشر حين سمع صوتى ورأى حركاتى ، وأطال نظره فىّ وقد بدت عليـه الدهشة من ضآلة جسمى

واشتد عجبه حين سمعنى أنطق بألفاظ ـ كما ينطق الآدمى ـ وإن لم يفقه لهـا معنى ، ولم أستطع أن أكف عن التنهد والزفرات ، وهمت عيناى بالدموع ، فقلت له ضارعاً باكياً :

« شد ما يؤلمنى لمس إصبعيك ياسيدى العملاق . »

* * *

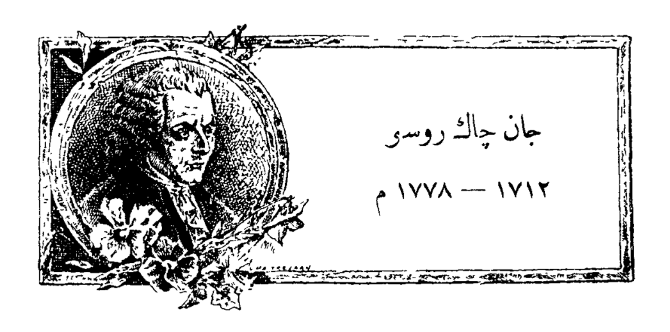
وكأنما فطن لما شعرت به من الألم ـ وإن لم يفهم قولى ـ فوضعنى مترفقا فى جيبه ، وانطلق يعدو إلى سيده الذى رأيته فى الحقل من قبل وهو زارع عنىّ . وما كاد يرانى حتى دهش وأخذ قشة صغيرة من الارض ـ فى حجم العصا التى نتوكأ عليها فى بلادنا ـ ورفع بها أطراف ثوبى وهو يحسبه غطاء وهبتنيه الطبيعة ـ كما تهب الطيور الريش ـ ونفخ فى شعرى ليتبين وجهى بوضوح ، ثم نادى خدمه ، وقال لهم ـ فيما فهمت من دهشته وإشاراته ـ « إنه لم ير فى حياته حيوانا يشبهنى فى حقوله » ثم وضعنى على الأرض متلطفا ، فنهضت قائما ومشيت أمامـه جيئة وذهابا لأريه أننى غير طامع فى الهرب .

ثم جلسوا جميعا ، محيطين بى إحاطة الدائرة ، وظلوا يرقبون حركاتى ، فرفعت قبعتى لأحييهم . وأظهرت احترامى لذلك السيد وانطرحت على قدميه ضارعا إليه بصوت جَهْوَرِىّ ـ وأخرجت من جيبى كيس نقودى وقدمته إليه بخضوع شديد ، فقلبه حذراً ـ عدة مرات ـ بدبوس كان فى ثيابه ، ولم يفهم ماهو ، فأشرت إليه أن يعيد الـكيس إلى الأرض ثانية ، وما كاد يفعل حتى أخذته بيـدى وفتحته ووضعت فى يده كل ما يحويه من الذهب فتأمله قليلا ، وأشار إلى رده إلى جيبى ، ولم يفهم منـه شيئاً .

وقد أيقنت أن ذلك الزارع قد اقتنع بأنى آدمى عاقل صغير ، وظل يحدثنى كثيراً وأنا لا أفهم لكلامه معنى ، وكان صوته يكاد يُصم أذنى ، وهو أشبه بجلجلة طاحونة مائية كبيرة . وكانت ألفاظه متزنة واضحة المقاطع ، فأجبته على كلامه ـ الذى لم أفهمه ـ بكل اللغات التى أعرفها بصوت جَهْوَرى ، فكان يدنى أذنه منى حتى تصبح على قيد متر ونصف متر من فمى ، ولكنه لم يفهم شيئا .

جان جاك روسو

الفتى الكسلان



« جان چاك روسو ، وهو نجل ساعاتى من جنيف كان فى طفولته وشبابه مثالا للنشاط والتوثب ، ولم يكد يبلغ السابعة والثلاثين من عمره حتى نشر كتابه : « خطب فى العلوم والفنون . »

وأشهر مؤلفاته هى : « رسالة فى عدم المساواة » و « العقد الاجتماعى » و « هيلواز الجديدة » و « الاعترافات » .

وكان فى نقــده شديد القسوة على معاصريه . وكان من رسل الطبيعة الداعين إلى البساطة لأنه يرى أن الناس جديرون أن يحيوا ـ إذا تركوا التصنع ـ حياة وادعة سعيدة .

وقد كان « روسو » من أكبر الـكتاب الناثرين الذين تفخر بهم فرنسا. وقد وهبه الله خيالا خصبا رائعا وقلبا جيّاشا بأسمى الأحاسيس ، وقد أبدع فى وصف الطبيعة وروائعها أيما إبداع وأعاد بذلك عهود « برناردن دى سان پيير » و « شاتو بريان » و « چورچ ساند ».

أما الـكلمة التالية فقد اقتبسناها من كتابه: « إميل القرن التاسع عشر. »

الفتى الكسلان

كيف حببه « روسو » فى السباق

كنت أسعى جهدى لتدريب هذا الفتى على الرياضة وتحبيبها إلى نفسه ، وكأنما كنت أنشد المستحيل ، فقد كان هذا الفتى آية من آيات التراخى والكسل ، وكان أزهد إنسان فى العَدْو والسباق ، لا تكاد نفسه ترتاح إلى شىء من ضروب الرياضة لأنه ألف الخمول والدعة . على أنهم قد أعدّوه ليكون جنديا محارباً .



وكان هذا الفتى قد أقنع نفسه ــ وما أدرى كيف تم له هذا الاقتناع ــ بأن أمثاله من طبقة السَّراة والأعيان جديرون أن يزهدوا فى كل ضروب العمل والمعرفة . وكأنما ظن أن شرف أصله وكرم محتده خليقان أن يعوضا عليه ما فقده من نشاط الشباب وقوة الذراعين وخفة الساقين وما إلى ذلك من المزايا الأخرى .

وليس من السهل أن أروض مثل هذا الكسلان على الرياضة وأحببها إلى نفسه مهما أوتيت من حذق .

وضاعف هذه المصاعب أنه كان يزهد فى النصائح ولم يكن لى من سبيل إلى تهديده أو زجره أو العنف به ، ولم يكن لى حيلة فى ترغيبه فى التسامى والتفوق لأنه كان يزهد فى ذلك كله .

فكيف أسلكه فى عداد العدائين وهو على ما وصفت من خمول وكسل؟

ورأيت أن أكون له قدوة صالحة يحاكيها ـ على غير قصد منه ـ حتى تُكسبه المرانة نشاطا ويدفعه التقليد والمحاكاة إلى النشاط فى العدْو .

وأعددت فى أصيل أحد الأيام ـ التى نتنزه فيها معا ـ فطيرتين من أشهى الفطائر التى تتوق إليها نفسه ، وكنت أعلم شغفه بأكل الحلوى ، فأكلت واحدة وأعطيته الأخرى فأكلها بشهية نادرة فى أثناء نزهتنا وعدنا جد مسرورين . وظللت على ذلك أياما ، ثم أعددت ثلاث فطائر ، وكان فى قدرته أن يأكل ضعف هذا العدد من غير أن يصاب بالتخمة . وقد التهم فطيرته بسرعة عجيبة قبل أن أتم أكل فطيرتى ، وهو يترقب أن أعطيه الفطيرة الباقية ليأكلها . فقلت له :

« إننى اعددتها لطعامى وحدى ، فاذا شئت قسمتها بينى و بينك بالسواء . على أننى أحب أن أجعلها مكافأة لمن يكسب الرهان فى العَدْو مع هذين الغلامين القادمين . »

ثم ناديت الصغيرين وعرضت عليهما أن يتسابقا إلى غاية وضعت عندها الفطيرة وجعلتها مكافأة لمن يسبق منهما صاحبه .

فابتهجا بهذه الفرصة ، وما كدت أشير اليهم بالعدو حتى انطلقوا كأنهم السّهام وظفر السابق بالفطيرة ، وأخفق صاحبى فى اللحاق بهما ، والتهم السابق الفطيرة مزهُوًّا فخوراً بإحرازه قصب السبق على صاحبيه المغلوبين .

* * *

وفى الحق كانت تسلية مجدية لعبت فيها الفطيرة دوراً خطيرا وإن

كانت لم تؤت ثمرها المنشود من المرة الاولى .

على أننى لم أتعجل أول الأمر ولم أستسلم لليأس فأنا جد عليم بأن تنشئة الأطفال وترويضهم يتطلبان كثيرا من الأناة والصبر .

وظللت عدة أيام أعد ثلاث فطائر أو أربعا ، وأخص المتسابقين بواحدة منها أو اثنتين . ولم تكن الفطيرة بالجائزة المغرية الكبيرة الخطر ،



ولكن الظفر بها وحده وما يجره من الثناء والتكريم كان شديد الاغراء، وكان يحفز المتسابقين إلى بذل جهودهم فى الحصول على المكافأة .

* * *

ورأيت أن أستغل هذا الظرف فأطلت مسافة السباق وأكثرت من المتسابقين لأذكى فيهم روح المنافسة وألهب حماستهم . وكان ذلك

يسترعى أبصار المارة فيقفون ليروا نتيجة المباراة ، وكانت صيحات الفرح والتشجيع المنبعثة من جمهرة النظارة تثير حماستهم وتذكى همتهم. وكثيراً مارأيت فتاى الصغير يهتاج و يشتد ارتعاشه كلما رأى أحد العدائين قد أوشك أن يسبق رفاقه إلى الهدف .

وربما لجأ بعض المتنافسين إلى الخداع والختل ليعوقوا من ألف السبق وتعود الفوز عليهم فى ميدان السباق . وثمة يتضافرون على خلق العراقيل لتعويقه عن غايته فيلقون فى طريقه الحصى أو يمسك به أحدهم ليعوقه عن الفوز ، فاضطررت إلى فصلهم وجعلت بين كل اثنين منهم مسافة كافية لإفساد مؤامرتهم .

و بدأ الضجر يستولى على نفس الفتى حين رأى غيره يفوز فى كل يوم بأكل هذه الفطائر من غير أن يكون له فيها نصيب .

وقد اقتنع أخيرا أن للعدو السريع مكافأة ، ورأى أن له ساقين لاتختلفان عن سُوق غيره من الفتيان . فبدأ يدرب ساقيه على العدو خفية ، وتظاهرتُ بأننى لا أعلم من أمره شيئا ، ولكننى أيقنت أن طريقتى قد نجحت خير نجاح .

* * *

و بعد أيام أنس الفتى من نفسه قوة على الاشتراك فى هذه المباريات و بدأت أقرأ ذلك على صفحة وجهه .

وكان أول مافعله — بعد أن شعر بقوته على العدو — أنه بدأ يتحدانى و يلح فى أخذ الفطيرة الباقية لنفسه ، فإذا رفضت طلبه قال لى فى لهجة الإصرار والغضب :

«ضعها — إذا شئت — على الصخرة — التى نعدو إليها — وسترى نتيجة المباراة »

فاجيبه ساخرا :

« وهل فى طوق مثلك أن يسابق العدائين ؟ إن الجرى يفتح شهيتك للطعام فإذا أخفقت فى المباراة واشتدت حاجتك إلى أكل هذه الفطيرة فماذا أنت صانع . »

* * *

وكان ذلك يحفزه إلى بذل قصارى جهده فى العدو ليظفر بالجائزة ، وكنت أقصر المسافة وأقصى العدائين المهرة حتى أطمعه فى النجاح .

وكانت هذه أولى خطوات النجاح ، وقد أكسبه الظفر بالمكافأة نشاطا وقوة عظيمين ، وسرعان ما ألف العدو — بعد هذه المرانة — حتى أصبح ينشده من غير طمع فى الحصول على أية جائزة وهو على ثقة من الفوز على منافسيه مهما طالت مسافة السباق .

پول إرڤييه



LES PAROLES RESTENT

كوميديا درام

فى ثلاثة فصول

تمهيد القصة

بقلم أبي العلاء المعرى

« إن شئت إبليس أن تلقاه مُنْصَلِتاً
– بالسيف يَضْرِب – فاعمِدْ للجماعات
تَجِدْهم فى أقاويلٍ مخالِفَةٍ
وجهَ الصَّواب ، وأسرارٍ مُذاعاتِ
يُباكرون بألبابٍ – وإن خَلَصتْ –
مَعصيَّةٍ ، وبأهواء مُطاعاتِ

* * *

قالوا وقلنا . دعاوٍ ما تُفِيد لنا
إلّا الأذى ، واختصاما فى المداعاة . »

« أبو العلاء »

أشخاص الرواية

المركيز دى نوهان
القائد كونت دى ليجيل
البارون مِيسَّن
الدكتور ديبوا دى شير
هِرْمان
سان شيف
برنار
خادم

* * *

ريجين دى ڤِل
السيدة دى مودر
الكونتس دى ليجيل
السيدة دى سابيكور
السيدة برستول (سيدة انجليزية)

(تقع حوادث هذه الرواية في مدينة بارس في عصرنا الحاضر .)

الفصل الأول

(يمثل المنظر آخر السهرة في بيت سايبكور . ويبدو فيه صالون صغير يحتوي موائد للعب ، وفي نهايته منفذان يؤديان إلى رواق فسيح ، وفي الجانب الأيمن من الصالون باب للخروج .)

المنظر الأول

١ ــ الدكتور ٢ ــ هرمان ٣ ــ سان شيف

(عندما ترفع الستارة يبدو هرمان والدكتور وقد أتما دوراً من أدوار اللعب ، ويظهر سان شيف جالسا خلف هرمان على كرسي وقد جعل وجهه قبالة مسنده ، وهو يفحص ورق اللعب .)

هرمان (مرتبكا) شد ما تملكتني الحيرة فما أدري كيف ألعب ! بماذا تنصحني ياسان شيف ؟

سان شيف (يشير سبابته إلى ورقة) أنا أفضل أن أضع هذه إلى اليمين

هرمان أترى ذلك ؟ . . . أما أنا فسألعب من اليسار (يلعب)

سان شيف (بلهجة المتفلسف) ما أحسن إصغاءك للنصيحة فأنت تطلبها لتعمل بعكسها .

الدكتور كيف هذا (يفحص الورق) لقد ظفرت بأربع ورقات غَلاَّبَةٍ !

هرمان أي حظ هـذا ؟ تالله مارأيت لحظك شبيها ! كلا يادكتور ما أراك إلا قد لجأت إلى الغش !

الدكتور كيف تخاطبني بهذه اللهجة الجافة أيها الفتى . أأنا أغشك ؟

ألا تتدبر ماتقول ؟ وما بالك تلقى الكلام على عواهنه شان السوقيين والأوشاب الذين لاخلاق لهم .

سان شيف (يلقى نظرة إلى نهاية الصالون) آى ! السيدة دى سابيكور !

المنظر الثانى

(السيدة دى سابيكور تزيد على ممثلى المنظر السابق)

السيدة دى سابيكور (محتدة) كيف هذا ؟ ومالى أرى شبابا يختبئون هنا ؟ إن هذه الغرفة لم تنشأ إلا لتكون موئلا للعجزة والمساكين ، فما بالك يادكتور تجعلها مسرحا لإفساد هذه النفوس البريئة الساذجة ؟ ألا يؤنبك ضميرك ؟

الدكتور (يضع ماربحه من النقود فى جيبه) إننى ـ على عكس ماتتخيلين ـ أمقت الميسر ولا أتصوره !

السيدة دى سابيكور (متوسلة) هلموا إلى الرقصة الأخيرة ثم لن أطلب بعد ذلك شيئا

هرمان (وقد ضاق ذرعا) شكراً لك لقد أحضرتنا إلى بيتك لتعرضى أمامنا صواحب قائدك وهن فى مثل طول العمالقة إذا حاول أن يمشى معهن الانسان فرّج رجليه ، وإذا حاول أن يخاطبهن رفع رأسه ولوى رقبته ورفع صوته ليصل إليهن.

سان شيف صدقت وأنا أذكر أننى سرت إلى جانب إحداهن ـ ذات مرة ـ فخيّل إلىّ أننى أجرى خلف فارسة، وكأنما أحاول مسابقة جواد مسرع .

المنظر الثالث

(نفس ممثلي المنظر السابق، والسيدة دى مودر ، والسيدة برستول)

السيدة دى سابيكور (تذهب إلى السيدتين) آمل يا سيدة دى مودر أن لا تكونى قد أزمعت الانصراف ؟

السيدة دى مودر كلا فليس عندى غير هذه السهرة فى هذا المساء .

السيدة دى سابيكور وأنت أيضا يا سيدتى . أليس كذلك ؟

السيدة برستول (تروح عروحتها) الحر يضايقنى ! ألا سبيل إلى هواء منعش ؟

السيدة دى سابيكور أتعلمون أن ثلاثة أرباع المدعوين قد غادرونا قبل الساعة الأولى من هذا الصباح .

هرمان ربما كان خطؤك سبب هذا كله .

السيدة دى سابيكور (مدهوشة) خطئى ؟

هرمان أوه ! أعترف لك ياسيدتى بما لك من مزايا نادرة ، فأنت خير من يستقبل الضيوف ويحييهم ، وأنت خير من ينظم الحفلات . فالأزهار والأضواء والمقصف والموسيقى كل أولئك غاية فى الإبداع . والنساء الجميلات اللابسات من الحرير والديباج والموسولين أفخر الثياب . آه ما أروعهن ! لقد أعددت فى فردوسك أشهى ماتتمتع به الحواس الخمس.

السيدة دى سابيكور (باسمة) فأىّ تقصير تأخذه علىّ ؟

هرمان (فى رزانة وتؤدة) لعلك أغفلت بعض الرغبات المعنوية التى كان ينشدها ضيوفك !

السيدة سابيكور (تستفسر بلحاظها لتتعرف رأى الحاضرين) أتفهمون شيئاً مما يقول؟

هرمان (فى رزانة وتؤدة) تريثى ياسيدتى. لقد دعوت السيدة دى بولوار ولم تدعى السيد داليڤران؟

السيدة دى سابيكور أوه، ما أسوأ دعابتك!

السيدة دى مودر أى سوء تأخذينه عليه وهو يذكرك بدعوة داليڤران؟

سان شيف أولا، فى هذا عيبان.

السيدة دى مودر آه! أترى ذلك؟ أما أنا فلا أعرف إلا عيبا واحداً لاسبيل إلى النطق به أمام السيدات (ثم تطلب السيدة دى مودر بصوت منخفض من سان شيف أن يذكر ملاحظاته التى أشار اليها.)

هرمان (يعد على أصابعه) لقد أهملت دعوة السيدة أبلوموف من أجل إيريك.... ثم دعوت الفيكونتس بريڤا وأبيت أن تفتحى أبوابك لسلبرماكر السيد الضخم... و...

السيدة سابيكور (تقاطعه) عفواً فى إعادة دعوتكم إلى مأدبة عشاء وحفلة رقص، ولم يخطر ببالى أن أجعل من بيتى مسرحا للعشاق والمحبين.

هرمان ومع هذا فإنها لم تجد وسيلة ترضى بها أصدقاءها خيراً من هذه الوسيلة.

الدكتور على قاعدة أن تتخير ثلاثة أصحاب من كل جماعة: الزوج وزوجته وخليلها.

سان شيف بل أربعة أحيانا، إذا أضفنا خليلة الزوج.

السيدة برستول (فى حزم وثقة) نعم هناك أزواج كثيرون يخدعون زوجاتهم

السيدة دى مودر (تشير إلى اثنين قادمين من نهاية الصالون) ومع ماتقوله السيدة دى سابيكور فإنى أقرر أنها قد أحسنت صنعا إذ عنيت بأن تجمع بين البارون ميسّن والحسناء ريجين دى ڤِلْ .

السيدة دى سابيكور (بلهجة بريئة ودلال عظيم) أوه ! يالك من خبيثة .

(تدخل ريجين من باب ، وهى معتمدة ذراع البارون ميسن ، ثم يتلاقيا بالكونتيس دي ليجيل فى نفس اللحظة التى تخرج فيها من الباب الثانى)

المنظر الرابع

(ممثلو المنظر السابق وريجين والبارون ميسن والكونتيس دى ليجيل)

الكونتيس دى ليجيل — أرجو ياريجين — أن تكون هذه آخر مرة ترقصين فيها . فافعلى مثل فعلى واستريحى قليلا قبل أن تخرجى وتتعرضى للبرد .

ريجين صدقت يا ابنة عمى الصغيرة .

السيدة دى مودر (مخاطبة ريجين) يبدو لى يا آنسة أنك تعدين للحفلة القادمة تمثال « ديان » الصيادة .

البارون ميسن إنه طرفة رائعة غاية فى النفاسة .

السيدة دى مودر إنى أشك — ياسيدى — فى أنك كنت بين من أسعدهم الحظ برؤية هذه الطرفة الرائعة . لقد أخبرنى من رآها أنها مثال للجمال والابداع . . . على أن الالهة تبدو . . . عريانة .

ريجين   كلا ياسيدتى ، إنها ليست كلها عُريانة ، فإن الثوب الأسفل مرفوع (تضع يدها على لبة السيدة دى مودر ، ثم تضعها على بعد سنتيمترات قليلة من خصرها ، وتقول :) إلى هنـا (تبتعد ريجين والبارون ميس)

السيدة دى مودر (تحدث نفسها) إنها ستكون مسؤولة عن هذه الحركة .

المنظر الخامس

(ممثلو المنظر السابق ماعدا ريجين والبارون ميس)

الدكتور (مخاطباً الكونتيس دى ليجيل)
إذن فقد تركك الكونت دى ليجيل وحيدة فى هذا المساء!
إن هذا لا يليق حدوثه فى أسرة الشباب !

الكونتيس   أنت تعلم قبل كل شىء أن زوجى ليس شاباً .

الدكتور   إنما تقاس سن الأسرة بسن الزوجة .

الكونتيس دى ليجيل   سيحضر السيد دى ليجيل ليبحث عنا و يظهر لى أنه قد تأخر قليلا فى ناديه .

هرمان   وهذا دليل على أنه يربح .

سان شيف (يعمل الفكر) أو على أنه يخسر.

السيدة دى سابيكور   إنى لأود أن أوفد زوجى ليحضر زوجك ، فإن فى هـذا سرورا لزوجـك (تحدث نفسها) بل سرورا لى
(السيدة دى سابيكور والكونتيس دى ليجيل تخرجان.)

المنظر السادس

(هرمان ، والدكتور ، وسان شيف ، والسيدة برستول ، والسيدة دى مودر)

سان شيف لِمَ لا يتزوج السيد ميسّن بالآنسة دى ڤل ما داما متحابين إلى هذا الحد ؟

هرمان إن فى الزواج لمضايقات لا تحتمل .

السيدة دى مودر (فى لهجة إغراء ما كرة) لا سيما إذا شعر الإنسان بأنه فى غير حاجة إلى هذا الزواج .

السيده برستول أرجو أن تغفروا لى جهلى وغبائى . فقد كنت فى باريس منذ عهد قريب وسمعت قصصا عديدة نسيت أكثرها . واختلط علىّ أبطالها وممثلوها . . . فهل بين هذين الشخصين حب ومغازلة ؟

السيدة دى مودر بل إن ما بينهما لأعظم من الحب والمغازلة .

السيدة برستول أعظم من الحب والمغازلة ؟ أية علاقة إذن ؟ أعندكم فى فرنسا علاقات أبعد من الحب والمغازلة ؟

هرمان لا .

سان شيف لا .

السيدة دى مودر لا . لا .

الدكتور (مخاطباً السيدة دي مودر) أوه ! فكِّرى ياسيدتى فى أنها فتاة شابة .

السيدة دى مودر فتاة شابة ! هدا كلام تعجلت فى إصداره يا . . .
ولكن أتدرى ما معنى فتاة شابة ؟

الدكتور نعم أعرف ذلك وقد عالجته وحللته وسبرت أغواره .

السيدة دى مودر أما أنا ــ وقد كنت يوما ما فتاة شابة ــ فلم أكوّن فى فهمه إلا رأيا مبهما غامضا وذكريات حائرة وشعورا مضطربا. فنى هذه الحال القلقة التى تنتاب الفتاة فى تلك السن تضعف ثقتها فى الحياة والأخلاق و يتغلغل فى نفسها شعور خفى لا تعرف كنهه ولا تتثبت منه . على أننى ــ مع هذا ــ كنت موقنة بأننى لم أكن بدعا بين بنات جنسى ــ من شقيقاتى و بنات عمى وغيرهن جميعا ــ ولكننى كنت كأى واحدة منهن . . . على حين أرى الآنسة دى ڤِلْ . . .

الدكتور ألا تحبينها ؟

السيدة دى مودر (بحركة عصبية) لست أرتاح إليها ! ولكم يشتد بنفسى الضجر والضيق كلما سمعت بعض الناس ينعتون هذه الفتاة بالسذاجة مع أنها فى الخامسة والعشرين من عمرها . وهى تمشى أقرب ما تكون عارية وتخرج وحدها مع الرجال بلا مبالاة . أوه ! إنها حرة ! عجيب فكيف إذا كانت متزوجة وليست آنسة !

السيدة برستول وأى ظرف جمعها بالبارون ميسّن و وثّق علاقاتها به ؟

سان شيف إن هـذا الهولندى ثقيل الظل وكريه المنظر . الحق أننى لا أستسيغه .

السيدةدى مودر هكذا يحكم عليه الرجال. أما النساء فلهن عليه حكم آخر وهـذا النوع من الرجال هو أخف وألطف وأحب إنسان إلى المرأة .

هرمان (يرد على السيدة برستول) عند ما مات والد الآنسة دى ڤل ـ منذ عامين ـ كان وزيرا لفرنسا فى «الروملى» وكان ميسّن ـ حينئذ ـ سكرتيرا لسفارة بلاده .

السيدة دى مودر أى أن السيد دى ڤِلْ مات فى الوقت الذى صدر فيه الأمر باستدعائه . أتراه قد مات حزنا وألما ؟ وله العـذر فقد أضيف إلى آلامه حزنه على سلوك ابنته .

سان شيف وقد أفلح ميسّن فى الوصول إلى تعيينه فى باريس بعد أن عادت الآنسة دى ڤل إليها بوقت قليل .

السيدة برستول أراك عارفا بجلية الأمر .

الدكتور أما أنا فقليل التصديق بأمثال هـذه الأحكام . فما أكثر ما تبنى هذه الآراء على ظواهر إذا تعمقنا فى بحثها وجدناها زائفة .

السيدة برستول هذا حق ، وربما وقع لـكل إنسـان ما يؤيده، وربما أودى بحياته .

هرمان (متحمساً فى استحسانه وهو يوافق على ما سمع ويظهر التهكم والسخرية فى لهجته)
ولـكنهم يقسمون إن هذا غير صحيح .

السيدة بريستول إن الإنسان ليشعر بدهشة كلما سمع حاقداً يقص

هذه الأخبار و يذيعها . ولقد طالما سألت زوجى كلما قص
على نبأ من هذه الأنباء الملفقة أن يقلع عن تصديقها . وكم
مرة قلت له : « يجب أن لايصدق الإنسان إلا بما تراه عيناه
(بحدة) إلا بما يفقأ عينيه . »

الدكتور مهما يكن من أمر ، فلا أقل من ذكر الوقائع .

السيدة دى مودر أوه ! إنك تحرجنى بهذا وتضطرنى إلى الإفضاء
بأكثر مما أريد . . . إذن فاصغ الىّ . هبك — لظروف
خاصة — تمكنت من الاطلاع على سر خفى أنت مغمض
عينيك عنه : افترض أن نوافذ بيتك التى تطل على جارك
قد كشفت لك — فى ساعة متأخرة من الليل والناس
رقود — أمرا لم تكن تفكر فى تكشفه. هبك رأيت البارون
ميسّن — عدة مرات — بين منتصف الليل والساعة الثانية
صباحا وهو يدخل أو يخرج من البيت الذى تسكنه الآنسة
دى ڤل وأبوها . . . ثم رأيت — بعينى رأسك — أن هذا
الرجل يقبل اليد التى تغلق الباب بخفة إثر خروجه . فهل
ترى فى هذه الشواهد الناطقة كلها ما يقنعك ويكفى
لوثوقك ؟

الدكتور ومن الذى رأى ذلك ؟ ثم من أذاع بينكم نبأ هذا
الحادث ؟

السيدة دى مودر رجل باريسى نثق بصدقه جميعا ، وهو أحد أبناء
جنسنا ومن خيرة ضباطنا وقد كان منتدبا فى بلاد الشرق
لمهمة حيث تنزه وجال ومتع نفسه .

هرمان وهو الآن ـ فيما يبدو ـ جد نادم على طول لسانه .

لسيدة دى مودر (بحقد) آه ! وهل لاحظت ذلك بنفسك أيضا ؟

لسيدة برستول وأخيرا ، خبرينى من هو ؟

لسيدة دى مودر فليكن لك ما تريدين: هو المركيز دى نوهان . وقد كان من نتائج رواية هذا الشاهد الثقة أن ثارت الشكوك فى نفس أحد أصدقاء دى ڤِل القدماء وكان قد طلب الاقتران بهذه اليتيمة فى العام الماضى . فلما وقف على هذه الإشاعات المتواترة لم يسعه إلا العدول عن الزواج منها قبل الاحتفال بالعُرس ببضعة أسابيع .

سان شيف وكان سر الزواج الطمع فى ثروة طائلة.

هرمان ليس هذا هو السبب بالضبط ، فإن الثروة الطائلة فى هـذا العصر الذى نعيش فيه لا تكون إلا تراث ملك قديم أو خزانة دولة . فنحن لا نكاد ننتقل خطوة إلا سمعنا عن أناس ماداموا يملكون ثلاثين مليونا أو أربعين .

السيدة برستول لاسيما عقب وفاتهم . ولعلكم لاحظتم أن بعضهم ترك ثروات تقدر بخمسين مليونا فما أكثر ما يغالى الناس فى هذه الأخبار عقب وفاتهم . وليس لهذه الثروة من قيمة لهم ما داموا غير متمتعين بها .

هرمان ومهما كان من أمر فإن ثرثرة نوهان قـد أضاعت من الآنســة دى ڤِل فرصة نادرة وأفقدتها ثروة لا يقل ريعها عن مائة الف فرنك .

الدكتور حسن . ولكننى لا أستطيع أن أصدق ما سمعته أذناى إلا بعـد أن أتحقق أن المركيز دى نوهان قرر هذه التهمة

بنفســه وأذاعها بلسانه . فمن الذى سمعه يقـذف بهذه التهمـة ؟

السيدة دى مور (بلهجة المستيقن الواثق) أنا مثلا .

السيدة برستول لست أستطيع أن أفهم بحال مّا كيف يتردّى مثل هذا السيد ويهوى إلى هذا الدرك . وكيف يبيح لنفسه ـ وهو رجل فاضل وأصحابه وخلطاؤه من كرام الناس ـ أن يلوث شرف الآنسة دى فل ويدنس سمعتها ويحرمها هذه الثروة الطائلة ويقوض صرح مستقبلها .

هرمان صه فإنه مقبل علينا .

المنظر السابع

(الحاضرون والمركيز دى نوهان)

السيدة دى مودر (لنوهان) لم يكن حسنا منك ياسيودى نوهان أن تنسى فقرائى مع أنك كنت على يقين من أننى كنت أتولى البيع بنفسى فى الأسبوع الماضى.

نوهان معذرة ياسـيدتى . كونى على يقين أنى سأكفر غدا عن هذه الهفوة .

السيدة دى مودر (تقف وتتنحى بنوهان ناحية بعيدة عن الحاضرين حتى تصل إلى الجزء الأمامى من المسرح) إنى لأعفيك من كل حسنة تصنعها معى ، ولـكنى أصارحك مرة أخرى أننى لن أُعفيك من المساهمة فى هذه الأعمال الخيرية والمبادرة إليها .

نوهان (يحاول أن يروع) لقــد كنت فيما مضى ـ أقبــل على هذه البيوع الخــيرية أيام كنا ندفع عشرين فرنــكا فى شراء كيس لايزيد ثمنه عن عشرة سنتيمات . أما الآن فقد تغيرت الحال وأصبح كل شيء يباع فى هذه المزادات بثمن بخس أقــل مما يباع به فى المحال التجارية، وثمة أرى أننا نستغل الفقراء بدلا من مساعدتهم .

السيدة دي‌مودر هذه دِقة مشكورة لك .ولــكنني ـعلى ماتبديه من نزاهة ـ يخيل إلىّ أننى لو استعنت فى ترويج تلك السلع بالحسناء ريجين . . . .

نوهان وما معنى أن تذكرى هذا الاسم أيضا ؟

السيدة دى مودر (تشير إلى الحاضرين وهم منهمكون فى حديثهم) لقد كانوا يتحدثون عنك ـمنذ لحظةـ ياصديقى العزيز المسكين .وقد أدهشهم أنك قد أصبحت عاشقا مدلها . وأصبحت أول من يدافع عن حقوق سبقك إلى الدفاع عنها رجل آخر .

وهان ألا تــكفين عن هذا الخبث؟ ألا سبيل إلى أن تــكتمى هذه الإذاعة المجرمة الممعنة فى الشناعــة واللؤم ؟ إننى لم أقترف هذا الجرم ـ على التحقيق ـ إلا معك وحدك،فقد أفضيت به إليك همسا على مسافة قريبــة من أذنك حتى لا يسمعه أحــد

السدة دي‌مودر (بمطاطة) حذارأن تعيد علىمسمعىهذه الذكريات.

هاز إنهاـ على ذلك ـ تحمل فى طياتها عــذرى وبراءتى من هذه الجريمة .

(ينتصب جسمها كأنما تتأهب لمناجزته)

أوه. إنك لعلى يقين من أنني لن أجرى ذكرها على لسانى قط. ولـكنك بلجاجتك وعنادك أبيت إلا أن تفضحى هذه الإنسانة وتلوثى سمعتها ـ أعجز ما تـكون عن الدفاع عن نفسها ـ ثم أبيت إلا أن تتخذى من ملاحظتى التافهة الجريئة التى تـكتنفها الشكوك والأوهام قصة حقيقية تذيعينها بين الجميع

السيدة دى مودر أهكذا تزعم؟

نوهان لقد أرهقونى ـ أنا نفسى ـ بالأسئلة عن جلية الأمر وهم يحسبون أننى عارف بتفاصيلَ وافية. وقـد سئلت فى ذلك من عشرة مصادر أنت أذعتِ بينها هذا النبأ المجرم، كما سألنى الـكونت نيشان الذى عرف هذا منك، ومنك وحـدك، وعنك دائما تذاع هذه الإشاعة الـكاذبة .

السيدة دى مودر ماذا تـكون النتيجة وكيف نصنع إذا علمت الآنسة مايروى عنها وعرفت ـ إلى ذلك ـ أنك مصدر هذه الرواية التى قصصتها علىّ ؟

نوهان (متألما صارعا) أوه ياسيدتى !

السيدة دى مودر هى! هى! أناة ياصاح، فإن كل شىء يجىء تدريجيا. وكل ما أخشاه هو أن يستولى الغضب والنزق عليها ـ إذا علمت هذه الأنباء ـ فإن الناس يعزون إلى طبعها حـدة وطيشا. وحسبك منها أن تسمع هذه الحقائق التى تأباها كل آنسة فاضلة .

نوهان   شد ما تُبغضينني .

السيدة دى مودر   أى شئ تنتظره منى غير هذا بعد أن مات حبنا ؟

نوهان   أما أنا فلن أبغضك قط .

السيدة دى مودر   وهذا ما ألومك عليه أشد اللوم (ثم تقول بلهجة الإشفاق والسخرية) لاحاجة بك إلى تقطيب حاجبيك وتعبيس وجهك فإن هذا يضرك. هات ذِراعك واخرج معى نتنزه .

المنظر الثامن

(الحاضرون والكونت دى ليجيل)

هرمان   ها هو ذا القائد دى ليجيل

نوهان   (متأهباً للخروج مع السيدة دى مودر وقد تأبطت ذراعه ، نحييه ليجيل تحية فاترة) سيدى القائد .

ليجيل   (يخاطب نوهان بفتور) آه أنت هنا ؟

هرمان   لقد بدأ الضيق يتملك نفس الكونتس من أجلك .

السيدة دى مودر   ولكن ربيبتك لم يضجرها هذا التمهل (يبتعد نوهان والسيدة دى مودر من نهاية المسرح)

ليجيل   (للدكتور) كيف هذا يادكتور ؟ كيف بقيت فى هذا الحفل إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل ! عجيب ! فما ذا تصنع إذا دعيت إلى زيارة أحد مَرضاكَ ليلا ؟

السيدة برستول   (بخبث) أنت تعرف حق المعرفة أنه دكتور عصرى ظريف محب للاجتماع ، وهو — إلى هذا — مفتون بزائراته جمعا

الدكتور (بحمة وتدلل رغم الشيب الذى يخلل شعر رأسه) هـذا ما يشيعه عنى زملائى القدماء ليسوئوا سمعتى .

المنظر التاسع

(الدكتور هرمان، وسان شيف ، والسيدة برستول ، والكونت دى ليجيل ، والسيدة دى سابيكور)

السيدة دى سابيكور (تدخل) هلم ننظر أيها السادة ــ بربكم ــ أولئك الصغيرات الراغبات فى الرقص وحسبكم هذه الثرثرة على غير طائل .

ليجيل (قلقا) صدقت فقد ثرثرنا طويلا وأكثرنا ــ فى حديثنا ــ من الغيبة .

هرمان (سذاجة) وقد كانت ثمة خصومة من قبل .

ليجيل ثم أصبحت نهش أعراض . أليس كذلك ؟ آه لقد فسد الزمان ! فليس أشهى وأحب إلى كل إنسان من أن يأكل لحم أخيه . وانقضى العصر الماضى بحسناته وحرمنا تلك الملاحظات الخفيفة والدعابات البريئة والتهكم الظريف ببعض العيوب والنقائص المستحبة ، ثم دار الزمن دورته فأصبحنا لا نسمع ولا نرى إلا ادعاءات وقحة وتهماً خطيرة وشُنَعاً قاتلة تقشعر منها الأبدان ، لأنها لا تقف عند حدود النقد البرىء العف بل تتخطاها إلى تلويث الشرف وتمزيق

أعراض الأصدقاء .

السيدة دى سابيكور يالها من نغمة حكيمة صادقة . فقد طالما فاضت أشباه هذه الأحاديث بين الخلصاء المتحابين الذين تحلو لهم الثرثرة . وما أجدر الأصدقاء أن يعفوا عن الخوض فى أعراض أصفيائهم آباء كانوا أم أزواجا . . .

السيدة برستول أو عشاقا .

السيدة دى سابيكور (بسرعة) هذا ما يُفَزّ عنى ياعزيزتى. لأن أمثال هذه الحالات مخفى عن أعيننا فى بعض الأحايين .

ليجيل اصغوا إلىّ . إننى جندى شيخ . وإنى أقرر أمامكم أن الانسان إذا أخذ على غيره بعض الهنات . . . أليس كذلك يادكتور ؟

الدكتور فإنه جدير بالصمت .

ليجيل بل يجدر به أن يواجه صديقه بها كما أفعل أنا .

سان شيف أحسنت . . . ثم تتأهب لما ينهال عليك من صفعاته .

ليجيل ألا يبدو لكم فى حياة الصالونات انحطاطا غريبا ؟ إن فى هذه الاجتماعات لشراً مستطيراً وآثاما مفزعة ، فإن أصحابها ليقضون ليلهم ونهارهم فى أسمار خاطئة وتهم ملفقة يتقاذفونها و يرمون بها البرآء على غير تحقيق . وما أسرع ما يتهمون، وما أسرع ما يصدرون أحكامهم على الغائبين بالقتل . . . ثم ما أعجزهم عن تنفيذ هذه الأحكام .

السيدة دى سابيكور لن تطيب الحياة إذا عاش الناس فيها ذئابا .

ليجيل لم لا . إن فى مقدور كل إنسان أن يتخير الوسط الذى يلائمه و ينخرط فى الجماعة التى تشبهه . فإذا كان مولعا بالغيبة وجد بين أشباهه مجاله الفسيح . فقضى معهم السهرة فى ثرثرة عابثة ، وهم يقولون مثلا :

« فلان يحذق الغش فى لعبة الروليت ، وفلان الذى يحادث السيدة فلانة هو عمها ! . . . »

ـ « آه ! عجيب ومن أخبرك بذلك ؟ . . . »

ـ « لا أدرى ، ولكن تريث قليلا فلعلك أول من أخبرنى بهذا الأمر . »

ـ «أنا ؟ كلا لم يدر بخلدى ذلك ؟ ومتى أخبرتك به ؟ أنا ، أنا ؟ كلا كلا . »

ـ « إذن فهى وشاية وشى بها أحد أصدقائك ليغير قلبى عليك . »

(صوت الموسيقى مع الراقصين والراقصات وهم يمرون من الرواق)

السيدة دى سابيكور لقد بدأ الرقص ياسيدى القائد ، فإذا شئت أن تسترسل فى وعظك و إرشادك فإنا تاركوك تعظ فى الصحراء. هلم يا سيد هرمان وإلا اختطفتك .

سان شيف (للسيدة دى برستول) اختطفينى ياسيدتى إذا شئت (يخرج الشابان مع السيدتين)

المنظر العاشر

(ليجيل ـ الدكتور)

ليجيل أى حافز يادكتور يحفز الإنسان إلى تكشف الجوانب المستورة

فى حياة غيره ؟ وبمَ تسمى هذا الفضول الذى يدفع الإنسان إلى البحث عن مخازى الناس وقاذوراتهم ليظهر بمظهر النبيل المترفع عن هذه الأدناس التى يحلو له أن يعرضها على الناس؟ أليس هذا مرضاً جديداً؟

الدكتور	صدقت ، فهو مرض بلا شك ، وقد زاد الأمراض المعروفة مرضاً واحداً فقط .

ليجيل	إنى أتعمد سؤالك عن هذا المرض بنوع خاص لأنك طبيب. فليكن هذا السؤال استشارة طبية لتصف الدواء من هـذا الألم الذى لا أطيق احتماله . . . . اصغ إلىّ يا دكتور . . . . منذ يومين كنت خالى الذهن لا أعرف بماذا أشغل فراغ وقتى ولا أدرى ماذا أعمـل وفيم أفكر . . . ثم جاءتـنى ـ صباح أمس ـ رسالة بدون إمضاء مكتوبة بأحرف كبيرة بأسلوب ينفى اتهام أية يد .

الدكتور	(يحدث نفسه) ياله من شيطان ! (يحدث ليجيل) مثل هذه الرسالة يجب أن تلقى بها فى النار .

ليجيل	تريّث . . هذا فيما بيننا . . . أليس كذلك ؟ إن فى هذه الرسالة تهمة موجهـة إلى رجل شريف من أصدقائى وأنا أمْحَضُهُ الود وأخلص له إخلاصاً عميقاً . . على أن الوشاية دنسة وهى غاية فى الحماقة والجنون إلى حد لا يكاد يتصوره العقل . ولقد ذهبت فى تفسيرها كل مذهب، ثم قر رأيى على أنها حالة باثولوجية .

الدكتور لك أن تحتقر هذه الرسالة مادامت تحوى ـ فى طياتها ـ اتهام رجل شريف من أصدقائك . فهى ـ فيما أرى ـ كيد أفاك ودس دنئ ، ولعلها انتقام من سيدة بريئة ، وأغلب الظن أنها رسالة ملفقة كاذبة .

ليجيل بل أنا مضطر إلى العناية بهذا الاتهام ـ بكل أسف ـ لأن فى طيه برهانا صادقا كنت لا أزال أعده إلى الآن كلاما غير معقول ، وهو تغير فى سلوك صديقى ومقاطعة تامة لى ولكل من يلوذ بى من غير مبرّر معقول .

الدكتور (يعمد إلى التهرب) أنت وحدك أقدر على درس هذا الموضوع والحكم فيه .

ليجيل هذا صحيح . وسأتخير أحسن طريق لمعالجة هذا الأمر (يمسك بالدكتور) ولكن خبرنى وأقنعنى أن مثل هذه السفالة هى نتيجة مرض عصبى يضطر جارمها إلى اقترافها فلا يعد مسئولا عما يجترحه من إثم . وإلا فخبرنى كيف يجرؤ إنسان مسئول على أن يفجعنا فى أعز أصدقائنا وأقدس خُلَصائنا وأكرمهم علينا ؟ لا بد أن لهذا المرض اسما علميا !

الدكتور هيه ! هيه ! تستطيع أن تطلق عليه اسم أنفلوينزا .

ليجيل دعك من المزاح . وأجب على سؤالى إجابة جدية .

الدكتور إن فى لغة الطب التى نعرفها ألفاظا تشير إلى حالات قريبة مما ذكرت . فعندنا كلمة : « الكِبْرُولِيَّة » وهى علَم على

داء يتعذر شفاؤه لأنه إغراء قاهر مُلِحّ لاسبيل إلى مقاومته وهو يدفع صاحبه إلى الإفحاش وهجر القول فلا يرتاح صاحبه إلا إذا تقايأ هذه القاذورات الدنسة من فيه لوّثت من لوّثت وأساءت إلى من أساءت. وعندنا كلمة « الإكوليّة » أى محاكاة الأصداء ، وهى تعنى مرضا غريزيا يصاب به بعض الناس فيدفعهم إلى محاكاة كل شئ وترديد كل صدى ، فإذا سمعوا عُواء كلب جاروه فى عُوائه أو صرير منشار حاكَوْه بلا روِيّةٍ أو حديثا ردّدوه بلا تعقل شأن الببغاوات.

ليجيل لا شك أن هذا المرض هو الذى يقهر معاصرينا على أن يقذفوا من أفواههم تلك القاذورات والأدناس ويرددوا أحط التهم وأقبح الإشاعات ، ولا يتورعوا عن الصياح مع كل صائح والندب فى كل مناحة .

الدكتور ربما عُنِيَ الطب بهذا المرض وتناوله بالدرس والتحليل . ولكن ألا تَشْرَكنى فى رأيى أن أبناء هذا العصر – إلى حدّ مّا – ليسوا إلا من سلالة مجانين أو سكيرين ومعربدين ؟ وتأمَّلْ فى تلك السموم الفتاكة التى يَشربها الناس أو يستنشقونها أو يتنفسونها دخانا أو يحقنون بها أجسامهم تحت الجلد ليضاعفوا لذاتهم فى كل حين وفى كل مكان . . . آه لقد أظمأتنى هذه الذكريات إلى المقصف ، فهم ياصديقى إلى طيباته ولذائذه .

ليجيل كلا . فقد حُرِّمتَ على جميع ألوان الشراب من حلو وحامض

وغازى وما أدرى ما ذا أيضا . .

الدكتور آه ! لو أن مرضانا يأخذون بنصائحنا لأقفرت دور الأطباء من المرضى ، ولكنهم ـ لحسن الحظ ـ لا يفعلون . هيا بنا هيا . وخالف النصح بين وقت وآخر ، وليكن ما يكون.

(يذهبان وئيدا حتى نهاية المسرح ثم يخرجان من أحد البابين فى الوقت الذى تدخل ريجين وميس من الباب الآخر)

المنظر الحادى عشر

(ريجين ، والبارون ميس)

ريجين (ترتمي على أريكة وقد أجهدها الإعياء) والآن أرانى فى أشد الحاجة إلى العناية بصحتى . . . أرأيت كيف كنت طائعة؟

ميس أرأيت كيف كنت عارفه بما تأمرين .

ريجين ولكن هذا يضايق فى أكثر الأحايين .

ميس كم أود لو حصلت على أمر منك (يريد أن يجلس)

ريجين (تمنعه) بل اذهب عنى ودعنى هنا وحيدة .

ميس آه ! ما كنت أتوقع أن تأمرينى بالبعد عنك . فهل لهذا الأمر من سبب يبرره على الأقل .

ريجين بلا شك . . . ولكن . . .

ميس أريد أن تذكريه لى .

ريجين (يشتد بها الضيق) إننا لم نكد نفترق ـ فى الرقص وأخشى أن يفتقدنا الناس ويفطنوا إلى انفرادنا هنا .

ميسن وهل ألحفت عليك فى دعوتى ؟ ولماذا لم تنبهينى إلى ذلك فى أثناء السهرة ؟

ريجين لم يمر بذهنى هذا الخاطر ـ حينئذ ـ فلما حضر ابن عمى « دى ليجيل » ذكرت أنه أمرنى ـ فى هذا اليوم ـ قبل أن أحضر إلى هنا . . .

ميسن بماذا أمرك ؟

ريجين اسمع على شرط أن لا تحقد عليه . . . أمرنى أن أحتجز عنك . . . لأن اندفاعك الىّ على مشهد من الناس . . . مما يسوّئ سمعتى . . .

ميسن شد ما تدهشنى هذه الملاحظة وتسوءنى وتؤلم نفسى .

ريجين صدقت . . . فقد دَهِشتُ لها ـ أنا نفسى ـ ولكننى أكرر الرجاء أن تعود إليهم الآن .

ميسن لست أرتاح إلى هذه اللهجة .

ريجين (عاصبة محتدة) لماذا لاتخضع لهذا المطلب اليسير وتلبيه سريعا ؟ لقد أردت منى أن أبرره وقد أجبتك إلى طلبك ـ وأنا على استحياء منه ـ فلا تنس أن هناك أمورا توغر الصدور إذا حاول صاحبها أن يكشفها .

ميسن (بخبث) ألم يخامرك هذا الوسواس إلا فى هذه اللحظة التى حضر فيها السيد نوهان ؟

ريجين نعم . وهب ذلك صحيحا،فليس من حقى ولا يمكن أن يكون من حقى أن أعتذر إليك من شئ لايوجب الاعتذار . (تلطف من حدتها) وإنى أكرر لك القول مرة أخرى بأن

لك فى قلبى مَنْزِلاً من الصداقة والود مثل مالى عندك. وأنا على يقين من أنك تحبنى كثيراً و إن تظاهرت ـ فى بعض الأحايين ـ بغير ذلك.وهذا مجال لعتبى عليك فلست أسمح لك به . . . والآن . . . أضرع إليك أن تعجل بالذهاب إلى هناك لتجلس بين تلك السيدتين وتؤنسهما بعذب أحاديثك لعلهما تغفران لى هذا الوقت الطويل الذى تمتعت فيه بقربك وانفردت بهذه الطرفة الثمينة التى هى أنت .

ميسن ولكننى راغب عن الزواج كما أؤكد لك .

ريجين ما أظن ذلك حقا !

ميسن كيف ؟ . . . ماذا ؟ . . .

ريجين (ترى نوهان وهو يدخل الصالون ثم يحاول أن يخرج بعد أن رآهما) مابالك لم تُحَيِّنى ـ ياسيد نوهان ـ تحية المساء ؟

المنظر الثانى عشر

(الموجودان ونوهان)

ريجين (لنوهان) لعلك تعرف البارون ميسن حق المعرفة ؟

نوهان (متلطفا) على التحقيق .

ريجين (لميسن) لعلك تعرف السيد نوهان ؟

ميسن (بجفاء) لا .

ريجين (تعرف كلا منهما بالآخر) ـ المركيز دى نوهان ـ البارون ميسن . (يتبادلان تحية مختصرة ، ثم يذهب كل منهما إلى طرفين متقابلين من الغرفة) لقد تم تعارفكما الآن (ثم تحاول أن تمزح

وتداعب فى شئ من الارتباك) لقد كان كلا كما — منذ لحظة — يحاول أن يفضى إلى صاحبه بحديثه ، ولكن حياء كما حال دون ذلك . (تبتسم لنوهان ابتسامة مقتصبة) أما أنت فإذا لم يكن لديك أى حديث فلا يمنعك ذلك من خلق أى كلام (وتقول لميس بإلحاح) مجاملة على الأقل .

ميسن (لايزال غاضبا) سأفضى بالأسباب ؟ . . . (ثم يقول فى تلطف عظم) لقد طالت السهرة ، ولا ريب أن برقيات كثيرة تنتظرنى فى دار السفارة لأحل رموزها . (يخرج)

المنظر الثالث عشر

(ريجين — نوهان)

ريجين أرجو أن تصارحنى القول فتخبرنى عن مصدر غضبك على ، وأى إساءة بدرت منى فاستوجبت هذا الغضب .

نوهان لست أفهم لهذا السؤال معنى يا آنسة .

ريجين أراك تتجاهلنى الآن وتقابلنى وكأن أحدنا لايعرف الآخر ، فما سبب هذه الجفوة وما بالك لم تصافحنى فى هذا المساء ؟

نوهان هبينى متوحشا ، فلا تأخذى علىّ طبعا لاسبيل إلى تبديله .

ريجين إنى — أنا وحدى — أتّهم ولكن لا أدرى بماذا أتهم . . . لما أخذنى أبناء عمى « دى ليجيل » فى كنفهم بعد وفاة أبى كنت بين أسرتنا كأنك واحد منهم ، وكنت لاتكاد تفارقنا فى فطور أو غداء ، وكنت تتنزه مع القائد على الجياد . فى هذا الوقت تعارفنا وتمت الألفة بيننا حتى خيل

إلينا أننا صديقان منذ عهد بعيد . ولقد كنت ترى فى معاملتى خير مثال للتودد والملاطفة ، وكنت ـ حينئذ ـ تعدنى طفلة ، وأنا أدهش لذلك دهشة ممزوجة بالفرح .

نوهان لقد كنتُ مخطئا يا آنسة ـ على غير علم منى ـ حين أسقطت الكافة معك حتى أشعرتك بذلك .

ريجين اغفرلى بربك هذه الكلمات فإننى لم أقصد بها إلى شئ غير شكرك وإن كنت قد أخطأت السبيل . . . . فمن المحقق أنك بعد أن درست أخلاقى فى فسحة من الوقت وعرفت طويتى عن كثب ـ بعد هذه الألفة الطويلة ـ كنت جديرا أن تحقق أملى فيك فتنيلنى أوفر نصيب من صداقتك . ولكنك كنت ـ على العكس من ذلك ـ مخيب آمالى، وأصبحت إنسانا آخر لا يكاد يعرفنى، فإذا حييتنى فهى تحية أجنبى كلها احترام متكلف . . . ثم قل ترددك على من كنت تأوى إلى بيتهم . . . واشتد نفورك منى حتى خيل إلى أنك لم تعد تطيق صبراً على رؤيتى معك فى مكان واحد . . . ترُى ماذا حدث وكيف تحولتَ عن عهدى ؟ وأى حدث قلل من خطرى عندك ؟ ومن لنا بالرجوع إلى ذلك العهد الذى طالما نعمنا فيه بصدق الولاء ؟

نوهان لقد كنتِ ـ على التحقيق ـ مخدوعة فيما ذهبتِ إليه من فهم الوقائع ، كما كنت مخطئة فى فهم شعورى وآرائى . . .

ريجين هل لك أن تخبرنى متى بدأت تشعر بالتحول عنى ؟ أنا أخبرك بذلك . لقد بدأ ذلك فى العام الماضى فى نفس

الوقت الذى فشل فيه زواجى .

نوهان (محزونا) شد ما آلمنى وحزّننى فشل هذا الزواج !

ريجين إن مبعث ألمى وحزنى هو المسلك الذى ارتضاه الكونت « نيشان » لنفسه حين قرر عدوله عن رأيه ، فلقد قسا ذلك الرجل قسوة عنيفة حين رجع عما قرره بعد أن أخذ على نفسه — كما زعم — أن يتبنانى وأن يجعل من بنت صديقه الحميم « دى فِلْ » فتاة سعيدة وأقسم أن يخلصها من براثن الشقاء وأعباء الحياة .

نوهان أيجوز لى أن أسألك عما قاله لك الكونت ؟

ريجين قال لى والدموع ملء جفنيه : « إنى أحبك يابنيّتى وأحنو عليك حنوّ الوالد على ابنته ، ولكن الشيب الذى جلل شعرى قد ثنانى عن عزمى . فإن من الحماقة وأَفَنِ الرأى أن يتخيل الإنسان أن فتاة مثلك فى ميعة الصبا ونضرة الشباب يصل بها الإيثار وإنكار الذات إلى حد أن تنسى حظها من الدنيا . . . ولست أرضى لك أن تتحملى آلاما وأعباء ثقالا بسبب شيخوختى . »

وما كاد ينتهى من هذه الكلمات حتى قبلنى قبلة أبوية . وكنت أصغى إلى قوله خاشعة مطرقة إلى الأرض . ولكننى لم أكد أسمع كلامه حتى شعرت بفراغ عظيم فى نفسى — من غير أن أعلم له سببا — وقد أحسست حاجتى الشديدة إلى ذلك العائل المعين وقد فقدته أحوجَ ما أكون إلى عطفه الذى مازلت أتحدثُ به إلى اليوم . ثم غلبنى اليأس على أمرى

ولم أجـد حولى من يعزينى عن آلامى وأحزانى . . . الم أكن جديرة بعطفك يا سيد نوهان لتشد أزرى فى هـذه المحنة وترفه عن نفسى المـكلومة المعذبة وتقوى من حالتى المعنوية .

نوهان (وقد علته التأثر العميق على أمره) آه! إننى فى وقت واحد يا آنسة أسوأ وأحسن مما يدل عليه ظاهر أمرى . . . وما أحسبك تستطيعين أن تتكشفى دُخلتى على حقيقتها . . ولـكنّ وراء هـذا الاضطراب كله إخلاصا عظيما يجب أن تثق به .

ريجين أحق ماتقول ؟ شكراً لك ! لم يبق لى إلا رجاء واحد عندك هو أن تزيل من ذهنى الاعتقاد بأن وجودى فى بيت « دى ليجيل » هو سر نفورك من زيارتهم فإننى جـد حريصة على إرضاء هذه الأسرة الصديقة لك لمـا يغمرنى به أفرادها من رعايةوعطف.ويعنينى أن لايعتقدوا أن وجودى بينهم هو السبب فى إقصائك عنهم . . . أضف إلى ذلك أنك بمأمن من رؤيتى ولقائى هناك لأننى لا أكاد أفارق غرفة التصوير ـ التى أصرف فيها كل وقتى ـ وهى فى الطابق الثالث .

نوهان إنك تجهدين نفسك بالعمل !

ريجين رغبة فى تنمية مواهبى وأملا فى الوصول إلى الكمال الفنى حتى يسهل على سبيل العيش ماديا . . . وأدبيا ، مادام قد قضى على أن أعيش طول عمرى عذراء . . . وأن أظل

بكراً حتى تدركني الشيخوخة .

نوهان (كاتما يتحدث على الرغم منه) لن يكون هذا أبداً لأن . . .

ريجين ولماذا ؟

نوهان أرى أن جرأتي في القول قد طوحت بي إلى حد بعيد . ولكن . . اسمحي لي أن أتحدث إليك في حرية وإخلاص . . . ألا تطمحين إلى الزواج من البارون ميسّن ؟

ريجين لم يدر بخلدي مثل هذا الظن لحظة واحدة ؟

نوهان (معصبا معلوبا على أعصابه) ولكنه يغازلك ويتودد إليك . . . ومن المحال أن يكون ذلك من غير أن يفاتحك (بحسد وغيرة) بأنه يحبك .

ريجين (تنهي كلامه باشارة خفيفة) أوه !

نوهان أَتَرَيْنَ ذلك زهدا منه في الاقتران بك ؟

ريجين فهمت من ثنايا أحاديث ميسّن ـ في بعض الأحيان ـ أن أسرته راغبة في تزويجه ، وأن هناك أسبابا قاهرة تحول دون زواجه مني . . . ثم انقطع كل حديث بيننا في هذا الصدد .

نوهان اعذريني يا آنسة إذا سألتك : لماذا أبحت له أن يلازمك بعد هذا ؟

ريجين لأن ذكريات مؤلمةً عزيزة عليّ تربطني بهذا الرجل !

نوهان (متألما) آه !

ريجين أغاظك منيْ هذا القول ؟ وهل كنت تريد مني أن أخفي عنك سراً ؟ . . . كلا يا صديقي ما أنت بالرجل الذي أكتم

عنه أمرا بالغا مابلغ من الخطورة . . . ولست أرى أى ضير
فى أن أخبرك بحقيقة الدور الذى حاول البارون أن يمثله فى
اللحظات الأخيرة من حياة أبى . . .

نوهان — أرجوك أن تفضى إلى بهذا السر . . . بربك لاتتأخرى
عن توضيح هذا اللغز لتساعدينى على فهم الحقيقة .

ريجين — ها أنا ذى أقص عليك ماتريد فأصغ إلىّ . . إن ماعرف
به السيد دى ڤِلْ من النشاط والوطنية كان سببا فى إثارة
أحقاد بقية السفراء السياسيين وغيرتهم منه . وقد دفعتهم
أحقادهم إلى التألب عليه ولم يبق له من ولىّ حميم إلا رئيس
« ميسّن » وقد أظهر الحياد رسمياً .

نوهان — ثم ماذا ؟

ريجين — ثم اضطر إلى الاتصال بأبى خفية حتى لايعلم الناس بولائه
له ، فكان يفضى إلى أبى بما يهمه من الأنباء ، ولم يكن
يستطيع أن يقابل أبى بنفسه ، فاضطر إلى توسيط ميسّن
فى حمل هذه الأنباء .

نوهان — فى الخفاء ؟

ريجين — نعم، فى المساء . . . وفى وقت متأخر .

نوهان — تقولين فى المساء .

ريجين — أى فى جنح الظلام ، فى وقت متأخر من الليل .

نوهان — عند مايستسلم الناس للنعاس ؟

ريجين — أكون — أناوحدى — مستيقظة واقفة خلف الباب الخارجى
لأتلقى منه الأنباء التى يتلهف أبى على تعرفها بفارغ الصبر

لينقذ نفسه من المأزق الحرج .

نوهان (محدث نفسه) يالشقائى وتعاستى ! (يتكلم بنشوة من ظفر بالحقيقة) الحق أن الأمر كما تقولين . . . ولا يمكن أن يكون غير ذلك . . . هذا واضح .

ريجين أرأيت كيف وثّقتْ هذه الذكريات أواصر الصداقة بينى و بين ميسّن ؟

نوهان أتوسل إليك أن لا تظهرى أمام الناس بهذا المظهر . . فإن واجبك يقضى بذلك إذا . . .

ريجين كذلك أخبرنى ابن عمى .

نوهان آه ! ليجيل ؟ . . .

ريجين أنت أدرى بهذا على التحقيق . . فإن نفوس بعض الناس مملوءة دنسا وريبة .

نوهان (من أعماق نفسه) صدقت .

ريجين (مستاءة) ليس للفتاة المسكينة سوى سمعتها . . فهل جرؤ أحد على اختلاق كلام علىّ ؟

نوهان لا .

ريجين ولو أنك سمعت شيئا من هذا فما أظنك إلا متحمسا لدفعه . أليس كذلك ؟ ألست أولى الناس بالدفاع عنى ؟

نوهان (مرتبكا) بكل ما فى وسعى .

المنظر الرابع عشر

(رنجين ـ نوهان ـ الكونتس دى ليجيل)

الكونتيس دى ليجيل حان وقت الانصراف ياريجين (تخاطب نوهان) أما أنت فقد قطعنا كل أمل فى زيارتك بعد أن قاطعتنا ولم تبق لك رغبة فى زيارتنا ولا عمل يدعوك إلى لقائنا .

ريجين (تبدى لنوهان إشارة من عينيها بالموافقة على ماتقول)على العكس ياعزيزتى فإن المركيز دى نوهان قد طلب إلى الآن أن تكون زياراته لنا كل خميس .

الكونتس دى ليجيل وهل حدد ما بعد الساعة الرابعة موعداً لهذه الزيارات ؟

نوهان مادمت الآن خارج بيتك فلا داعى تحديد الموعد ، ومتى حان يوم مقابلاتك حددت لك الساعة .

الكونتس دى ليجيل أوه . يجب أن لا يتأخر حضورك عن هذه الساعة التى حددتها بتبصر وفطنة لتأخير الزيارات الثقيلة حيث لاتكون امرأة فى بيتها بكل قلبها . هذا هو الوقت المناسب ياعزيزى فاعرفه ولا تتأخر عنه ، فإذا تأخرت عنه فلاداعى لحضورك وخيرلك أن تبقى فى بيتك فإننا بعد هذه الساعة لا نستطيع أن نستمتع بأحاديثك (تمد يدها لنوهان لتحييه) إلى الخميس ياعزيزى .

ريجين (تمد يدها لتحيى نوهان) إلى اللقاء .

(ينزل الستار)

الفصل الثانى

(فى مرسم ريجين دى ڤل بمنزل أسرة ليجيل)

المنظر الأول

(ريجين ــ ليجيل ــ خادم)

(حينما يرفع الستار تكون ريجين فى مرسمها أمام لوحة التصوير جادة فى إنجاز صورة الـكونت دي ليجيل وهى مرتدية ثياب اليوم)

ريجين   استرح لحظة إن كنت شاعراً بالتعب .

ليجيل   أتأذنين لى أن أرى صورتى ؟

ريجين   نعم. بكل سرور مادمت قد تفضّلتَ علىّ بإظهار رغبتك فى رؤيتها . على أننى كنت أوثر أن لايقع عليها نظرك إلا بعد إنجازها .

ليجيل   (يذهب إلى الصورة ويراها) أوه ! ما أجملها صورة وما أشـد انطباقها علىّ !

ريجين   (متهيجة) أهى تماثلك حقا ؟ أراض أنت عن هذا التصوير ؟

ليجيل   (يرى صورته المرسومة وصورته في المرآة المقابلة لها ثم يوازن بين الصورتين) أواثقة أنت من أن أنفى غليظ إلى هذا الحد ؟

ريجين   (توازن بين الأنفين) الفرق هين ميسور وسأصلحه .

ليجيل   (يمعن النظر فى الصورة مرة أخرى) جميلة بلا شك . جميلة جدا هذه الصورة . ولـكننى أخشى أن يكون الفم قد اتسع قليلا .

ريجين   (محزونة) أترانى أخفقت فى تصويرها ؟

ليجيل (يوازن بين صورته وخياله فى المرآة) أكرر لك أنك وفقت وأبدعت . انظرى إلى عينىّ ياريجين (يلتفت إليها) ألا تَرَيْنَ أن عينىّ مفتوحتان أكثر مما يجب ، وأن بريقهما أقل من الحقيقة ؟ أنا لا أزعم أن عينىّ شديدتا الاتساع ، ولكنهما على كل حال واسعتان .

ريجين إنك تحاول أن تبدو فى وقفتك أحسن منك فى صورتك الحقيقية، لأنك تبالغ فى التجمل والاحتياط إلى حد غير طبيعى . (تقلد ليجيل) فأنت تقطب حاجبيك وتكشّر عن أنيابك فيحسبك من يراك نشيطا مشغول البال ، ولو أنك استسلمت لسجيتك وظهرت بمظهرك الطبيعى لكان ذلك أجمل بك .

ليجيل عجيب ! إنى أبذل جهدى لأكون فى وقفتى طبيعيا جدا ، ولست أغير من طبيعتى شيئا رغبة منى فى أن أحصل على صورة صادقة . و إن الجهد الذى أبذله فى سبيل ذلك هو جهد مضن شاقٌّ يكبدنى عناء شديدا حتى ليخيل إلى أننى جادٌّ فى درس خريطة الحرب وتعرّف خطط النصر .

ريجين ما كان أجدرك أن تتحاشى هذا الجهد .

ليجيل ولكن أبرع الصور التى تعجبنا لاتتم إلا بهذه الطريقة ؛ ولابد أن ينطبع فى صورة الإنسان شىء من مواهب ومزاياه، وإلا أصبحت صورة تافهة تمثل شخصا عاديا لاخطر له . ولست أرى بدا من إظهار ملامح الإنسان ودقائقها ليتبين فيها أعقابه وذراريه كل مايعنيهم من سماه وملامح

ريجين (تعود إلى لوحتها) كل مايعنيني هو أن تبذل جهدك لتكون طبيعيا .

ليجيل (يسطر فى ساعته) ألا تخشين أن تتأخرى عن الموعد ؟ فقد قرب الوقت الذى تنزلين فيه إلى الصالون لتساعدى السيدة دى ليجيل فى تهيئة معدات الشاى قبل الساعة الرابعة .

ريجين لقد سألت ابنة عمى أن تعفينى فى هذا اليوم من مساعدتها

ليجيل ولماذا ؟

ريجين ستهزأ بى أيضا إذا ذكرت لك السبب ؟

ليجيل كيف تقولين ؟

ريجين هو نفس السبب الذى منعنى عن مصاحبتك فى حفلة أمس .

ليجيل دائما وأبدا لأن الكونت دى نيشان قد توارى ودفن نفسه ! ولكنك ياطفلتى العزيزة تسيئين إلى نفسك حين تغالين فى حزنك ، فليس من المعقول أن تظلى أرملة ميت لم يتم زواجه منك ، فإن فى الحياة أمورا أخرى أعظم وأجل خطرا من هذه السفاسف .

ريجين احكم علىّ بالسُّخف إن شئت . فليس لى من حيلة فى فى ذلك . أترانى أخطأت لأن لى نفسا شاعرة مُرْهَفَةَ الحِسّ ؟ أترانى أخطأت لأن إحساسى الدقيق يُشعرنى بأننى قد أصبحت أرملة بكل معانى هذه الكلمة ، فأنا أرملة من زوجى ، أرملة من ذوى الشهامة الذين يعزوننى فى مصابى ، أرملة من مباهج الحياة التى حرمتها ، أرملة من أحلامى الشهية الرائعة التى صحوت منها صفر اليدين . . .

ليجيل — ياللشيطان ! لكأنما شاء الكونت دى نيشان أن لا يختم حياته بشئ غير الإساءة إليك .

ريجين — ربما كان ذلك صحيحا، ولعله قد أحسن صنعا فيما فعل ، لأنه قد آثر البعد عنى وهو يعتقد أنه يرضينى بذلك . مع أننى قبلت زواجه منى وقدرت ذلك حق قدره ورأيت فيه منة لا أنساها له ، وشكرت لكم ما غمرتمونى به من فضل . . . على أنه كان محرونا ولم يكن سئ القصد فيما فعل . أضف إلى ذلك أننى لا استطيع أن أحمل حقداً أو ضغينة لأحد إلا إذا اعتزمت أن أحبه . . . . أحبه بأسلوب خاص .

ليجيل — آه ! عجيب ! باى أسلوب ؟

ريجين — بأسلوبى أنا !

خادم — (يدخل) المركيز دى نوهان يطلب من الآنسة أن تأذن له بمقابلتها .

ريجين — (تطوى لوحة الرسم بسرعة وتسندها إلى الحائط) نعم . بكل سرور . أوه ! ولكننى لا أستطيع أن أقابله وأنا مرتدية هذه الثياب (للخادم) أرج من المركيز أن يصعد (لليجيل) اعتذر له عنى . (تدخل غرفتها)

المنظر الثانى

(ليجيل — نوهان — خادم)

ليجيل — لا بد لى — من الآن — أن أبحث الأمر من جديد مع نوهان.

لأقف منه على جلية الخبر وأقر الأمر فى نصابه (نوهان يدخل) أسعد الله نهارك ياصديقى .

نوهان ما فعل الله بصورتك ؟

ليجيل إنها على وَشْك الانتهاء . أتريد أن أريكها قبل أن تعود ريجين . إنها مشغولة بارتداء ثوبها الآن فلا تخبرها أننى أطلعتك على هذه الصورة (يجيء بالصورة)

نوهان (ينظر الصورة) بديعـة ! بديعـة جداً ! ما أروعها صورة وما أبرعه تصويراً .

ليجيل صدقت . لولا هنات قليلة فيها . . .

نوهان نعم . . . لعلك تعنى الأنف . . . فقد فرطحته قليـلا على حين أرى أنفك أميل إلى الاستدارة .

ليجيل (يعيد النظر الى المرآة) إن لى أنفا لا يختلف عن أنوف الناس

نوهان (ينظر الصورة مرة أخرى) آه ! إنهـا تمثلك أصدق تمثيل . وليس فيها من خلاف إلا ضيق قليـل فى فمك واتساع فى عينيك .

ليجيل لـكل ناقد أن يلاحظ ما شاء . فإن بلوغ الـكمال مرتبـة لا تدرك . (يذهب فيطوي صورته من غير اكتراث) هل من جديد تريد أن تفضى به إلى ريجين ؟

نوهان هيه . . . لا . . . ولماذا ؟

ليجيل لأنك قد بكّرت فى الحضور . . . وقد قابلتها أول من أمس ثم قابلتها أمس فى الأوبرا وتحادثت معها مليّا . . .

نوهان أيسوءك شئ من هذا ؟

ليجيل شد ما يحزنُنى أن أثير آلامك مرة أخرى ، وإنى لأربا بنفسى عن استثارة ذكريات الماضى من جديد . إن لوْم الناس هو الذى أبلغ أسماعى ما وقعت فيه من خطأ جدير بالأسف . فأنا ـ يا زميلى فى السلاح ، ويارفيق طفولتى ـ لم أكن أحب أن أسمع عنك ما سمعت ، ولا أحب أن أرى منك إلا ندم التائب واستغفار المُنِيب فائذن لى أن أتحدث إليك ـ من أعماق قلبى ـ عن الساعة الراهنة .

نوهان الساعة الراهنة ؟

ليجيل نعم الساعة الراهنة ، والساعة القابلة فإن الحاضر والمستقبل جديران أن تنعم الفكر فيهما . . . فإلى أى غاية تريد أن نصل ؟

نوهان أنا ؟ . . . إلى أى غاية نصل ؟

ليجيل لقد ظهر لى بعد أن مضى شهر على ذلك الحديث المحزن الذى تبادلناه ـ حينئذ ـ أنك لم تغير من سلوكك . وأغلب ظنى أنك ما تزال دائما على تنفيذ خطتك التى ارتضيتها لنفسك منذ حين ، وهى أن تهجر منزلنا . ولقد شاركتك فى ألمك وعرفت أن سر ابتعادك عنا هو وجود الآنسة دى ڤِلْ فى بيتنا وإقامتها معنا . . . وقد أفضيتُ بذلك إلى السيدة ليجيل وأقرتنى عليه .

نوهان كيف ! أكذلك تفعل ؟ وكيف تذكر هذا لزوجتك ؟

ليجيل أوه ! اعلم أولا أننى لا أخفى شيئا عن زوجتى .

نوهان الآن أدركتُ السر فى تغير قلبها علىّ .

ليجيل أكنت تؤثر أن أخفى عنها أمراً ذائعا لا يجهله أحد من خلصائنا ؟

نوهان صدقت فإنهم جميعا قد عرفوا حماقتى المجرمة بل جنونى المطلق الذى دفعنى إلى إذاعة هذا يومامن الأيام (فى نفسه) الحق أننى لم أذِع شيئا و إنما همست به همسا.على أننى أعود إلى نفسى ألومها وأسائلها : أحقا أننى رويت مثل هذا الكلام ؟ أحقا أنى أقصيت عن هذا المنزل إقصاء ؟

ليجيل (يظهر تأثره) وما أظن ندمك على ما فعلت وألمك لما فرط منك إلا آخذين فى الازدياد بلا شك حين يذيع الناس أنك قد أصبحت — منذ أيام — مقربا إلى ر يجين وأنك تتردد عليها متظرفا (نوهان يسترد جأشه ويتظاهر بالقوة والنشاط) نعم . أعرف أن فى قدرتك أن تُسكِت أول أحمق يجرؤ على الكلام . . . وكيف ؟ الأمر ميسور . تضرب صفحا عن ذِكر الآنسة دى فِلْ ولا تقابلها إلا بالإجلال والاحترام ، وما أظن ذلك ينقص عدد الساخرين .

نوهان آه لوقُدّر لهؤلاء الساخرين المسرفين فى إساءة الظن المتحمسين لتشويه هذه السمعة النقية أن يقرءوا ما أضمره فى نفسى من احترام لهذه الإنسانة لهالهم ماراْوْا ولأشفقت عليهم مما شهدوا . وفى الحق أننى لاأستطيع أن أخدع نفسى فى فضيلة ر يجين دى فِلْ وعفافها النادر . ولو أننى فعلت ذلك لكنت قد تعمدت الإساءة إليها من جديد بأسلوب آخر . و يل

لهؤلاء الساخرين . وأنى لهم أن يؤمنوا بهذه الفضيلة إلا إذا شموا عبيرها واستنشقوا طيبها كما أتيح لى من قبلهم ! على أننى مستعد للاعتراف أمام جمهورهم أننى أحب هذه الآنسة الحسناء ، ولعلهم فى غير حاجة إلى هذا الاعتراف فما أحسبهم إلا قد رأوا (متحمساً بحرارة) على الأقل أننى أحبها . وما أظنهم يشكون فى صدق هذا الحب .

ليجيل — آهٍ لك يا عزيزى ! يا صديقى المسكين ! شد ما تؤلمنى وتسبب لى عناء لا يحتمل . والله يعلم أننى ما أردت إلا أن أفتح أمامك باب التشجيع وأنمّى فى نفسك مايدب فيها من الرجاء والأمل . ومهما كان من أمر فإن واجبى يدعونى إلى مطالبتك بالتروّى فيما تقول . وما أجدرك أن تهدئ من ثائرتك وتسكن من أعصابك التى عُلِبْتَ عليها، وتتحاشى ترددك علينا بكثرة، فإنى أخشى أن تجدد زياراتك أقاويل الخبثاء ، وتثير من ذكرياتهم الشريرة التى يخفونها .

نوهان — (بحرارة الالم) أفى هذا الظرف الدقيق الحرج تصارحنى بهذا الرأى وتتخذ من آلامى وسيلة لإقصائى عن هذا البيت . وقد كنت جديراً أن تذكر صداقتنا القديمة فلا تحاول إبعادى عنكم . على أننى واثق من أنك ترمى بهذا الإقصاء إلى غاية !

ليجيل — لا . . . كلا ياصديقى... فما أنا بعاشق لريجين... بل أنا أعشق زوجتى وحدها. على أننى لا أكتمك أننى أحس ــ إلى ذلك ــ أننى صديق لهذه الفتاة وأنها صديقة لى. بل أنا أشعر أنها أكثر

من صديقة ،أشعر أنها صفية،و إن بين الأصفياء لعاطفة أكبر من عاطفة الصداقة وأعمق ، وليس فى قدرتى أن أتعرف كنه هذه العاطفه ومداها . . . ولا أكتمك أننى أحس مثل هذا الشعور أو قريبا منه إزاءك،فأنت لى أكبر من صديق، أنت صفي كما أنها صفيتى .

نوهان — شكراً لك . . .

ليجيل — إن هذه العاطفة الطاهرة هى أقرب إلى حنان الأب أو ـ على الأصح ـ إلى حنان الأم، إذا جاز لنا أن نطلق هذا التعبير على قائد جيش مثلى. ولعل مبعث هذا الشعور هو أننى مسئول عن حماية هذه الفتاة ورعايتها . ومتى صح ذلك فأنا أناشدك باسم هذا الحنان أن تقف عند هذا الحد فلا تتعداه . فما أسرع ما يتسرب إلى أذهان الناس أنك تُغرى ريجين بحبك . وقد فرط منك ما يعزز هذا الظن الآثم، ولا شك أن أول هفوة تبدر منك ـ بعد ذلك ـ كافية لتقريره وتثبيته فى أذهان الناس .

نوهان — إن من يظن مثل هذا الظن الخاطئ لهو نذل ساقط المروءة، وإن من يجرؤ على إساءة الظن إلى هذا الحد ، لهو أجرأ وأوقح فى ادعائه منى .

ليجيل — ياللشيطان . وهل تريد ـ بعد ماعزى إليك ـ أن لاتذهب الظنون إلى أنك طامع فى الاقتران بالآنسة دى ڤلْ ؟

نوهان — (ينهض واقفا) نعم . . . عندى هذه النية .

ليجيل — كيف ! . . أنت ! بعد أن . . . قلتَ . . . أتريد . . .

نوهان نعم . فلا معدى لى عن تلافى هـذا الخطأ الذى ارتـكبته ضد الآنسة دى ڤِل ، ولابد لى أن أكفر عنه عند قدمى المركيزة دى نوهان . . . وحسبى هـذا إرضاء لضميرى وإصلاحا لخطيئتى . . . والزواج ـ فيما أرى ـ هو أبلغ دليل يقطع ألسنة المتخرصين

ليجيل أحسنت وأصبت فيما تقول ، وما أرى فى هـذا العزم إلا شهامة ورجولة .

نوهان أنا على ثقة من أنها لن ترى فى حوزتى ثروة تعدل تلك الثروة الطائلة التى كنت أنا السبب فى حرمانها إياها . وأنت أدرى بأننى أكاد أحسب فى عداد الفقراء . على أن اسمى ـ بعد هذا ـ يسمو إلى الذروة التى تحل فيها أنبل الأسماء وأعظمها جاها . وهو جدير أن يشرف المرأة التى تحمله

ليجيل وهل حاولت أن تتعرف شعور ريجين نحوك ؟

نوهان فى ظنى أنها ـ على الأقل ـ تشعر بشىء من العطف على

ليجيل أتحب أن آخذ على عاتقى سؤالها فى هذا الأمر ؟

نوهان كلا . . . أشكرك . . . يجدر بى أن أتحدث إليها بنفسى فى هذا الأمر . (يدخل خادم فى أثناء هذا الكلام)

ليجيل (للخادم) ماذا ؟

الخادم جاء كاتب السجل الشرعى يحمل رسالة إلى سيدى .

ليجيل (يسائل نفسه) كاتب السجل الشرعى ! ولأى سبب جاء ؟ (للخادم) خبره أننى آت لمقابلته (لنوهان) إنى تاركك الآن (يخرج)

المنظر الثالث

نوهان ـ ريجين

ريجين　لقد طال انتظارك . . . فهل ترانى تأخرتُ كثيرا ؟ أوه ! إننى جد متباطئة . وهذا شأنى ـ كلما وكلت إلى خادمتى أن تلبسنى ثيابى ـ وكثيرا ماشعرت بالضيق من هذا البطء . وكذلك أجدنى متباطئة كلما ارتديت ثيابى بنفسى (متلطفة مودة) لأننى أشعر بسرور عظيم من ذلك .

نوهان　لاداعى للاعتدار ولست عاتبا عليك !

ريجين　ما أظننى إلا قد أضجرتك ، فإنى لألمح آثار الضجر بين عينيك ، فإن تقطيب حاجبيك دليل على ملالك ، ولست أحب أن أرى سيما الضجر بادية عليك مرة أخرى .

نوهان　ولماذا ؟

ريجين　أوه ! إن من كانت مثلى مصابة ـ لسوء حظها ـ بنكبات القدر وأحداث الخطوب ، تشعر ـ على خلاف مألوف الناس ـ بارتياح وطمأنينة بعد أن راضت نفسها على المصائب . ولكنها لاتطيق أن ترى سيما الحزن مرتسمة على وجه صديقها .

نوهان　إذن فقد لاحظتِ من وجومى أننى تعس متألم ؟

ريجين　نعم .

نوهان　وشعرتِ بعطف علىّ فتمنيت أن أكون سعيداً ؟ فهل

أفهم من ذلك أنك تُعْنَين بأمرى فى بعض الأحيان ؟

ريجين نعم.

نوهان وأنك تسائلين نفسك عن سر تعاستى وشقائى وعن الوسيلة لإسعادى ؟

ريجين نعم !.

نوهان آه ! ومادا ترين ؟

ريجين لاشىء . (يمر وقت)

نوهان بم يشقى الرجل ؟

ريجين ما أكثر أسباب الشقاء فيما أرى !

نوهان أريد أمرا واحداً يشقى به الرجل !

ريجين (تحاتله وتتهرب منه) أنا لست رجلا فأتعرف سر شقاء الرجال .

نوهان حسن . ألا تستطيع المرأة أن تحصر مصدر شقائها فى سبب واحد . . . (تخفض عينيها) هو شخص بعينه (تبدي ريجين علامة التصديق دون أن ترفع رأسها) إذن فأنت ـ على العكس من ذلك ـ ترين أن مصدر شقاء الرجل وتعاسته هو المرأة . . . وأن المرأة وحدها هى كذلك مبعث الأمل فى السعادة والسرور .

ريجين (باستحياء) كذلك تشعر المرأة . . .

نوهان (لايتمالك نفسه من الضحك) وعلى العموم فإن ذلك يحدث شيئا من الضيق والأسى .

ريجين ما أجدر الإنسان ـ فيما أرى ـ أن يجهل سر شقاء صاحبه

ليكون أقدر على إسعاده .

نوهان ليس فى الدنيا سعادة ممكنة ، إنما تعرف السعادة إذا قابلت المرأة ـ التى نهيم بها ـ حبنّا بمثله .

ريجين أليس ذلك كثير الحدوث ؟ ألم يقع مثل هذا من قبل ؟

نوهان لاريب فى ذلك ، ولكن لابأس من استئناف الحديث . خبرينى يا آنسة كيف يخلق الإنسان من الشجاعة مايمكنه من استجواب قلب المرأة ؟

ريجين لعل فى هذا السؤال حرجا وضيقا . . . لكليهما جميعا .

نوهان أما أنا فلا أرى فى نفسى من الشجاعة مايعيننى على الصبر على سماع إجابتك على ماصرحت به لك .

ريجين من الواجب ـ فى مثل هذا الحديث ـ أن يحدد الانسان مايقصد إليه بالضبط قبل أن يتكلم فيه . . .

نوهان (يعود إلى نقطة تصرحه) ولكن إذا جاز لإنسان أن يكشف عن حبه ، أو يلقى بسؤاله . . . سؤاله الرهيب . . . إذا كان الإنسان جانيا . . . أعنى إلى أبعد حدود الجناية . . . على من يتوسل إليها أن تكون موضع حبه وثقته . . . (رجين ترتعد) وإذا حكم هذا الانسان على نفسه بأنه غير جدير باخلاص من يحب وعطفه . . . اللهم إلا إذا استطاع أن يكفر عن جرمه جهد طاقته ويصلح ماأفسده بحماقته قبل كل شىء . . . فكيف يصنع ؟ وكيف يقول إذا استولى عليه الضعف والخور فمنعاه أن يبوح بجرمه ؟

ريجين فى رأيى ـ أيها الصديق ـ أن مثل هذا المحب جدير بالعطف،

وبودى لو استطعت أن أنقذه من ارتباكه وأزيل عنه وساوسه التى ملأت نفسه . . . وإنى لأتمنى لو تسنّى لى أن أنقذ هذا الرجل الظريف الذى تصفه لى . . . وأن أعاونه فى تحقيق أمنيته العزيزة التحقيق . . وما أجدرك أن تبذل جهدك فى تهوين هذا العبء الذى أنقض ظهره وأثقل ضميره، ولعله واهم فيه ، اللهم إلا إذا كان هناك شىء أقوى من من الكراهة والجحود !

نوهان وكيف تحكُمين إذا علمت أن هذا الرجل هو أنا ؟ وكيف تحكمين إذا قررت لك أن هذا الحب الذى ألتمس مثله سوف يتلاشى مرة واحدة منى أفضيت بجريمتى، وأن من الإساءة إلىّ أن أكشف عن هذه الإساءة ؟ . . . فماذا ترينى صانعا ؟

ريجين يحسن – فى مثل هذه الظروف – أن تغير طريقة الحوار ، فتصرف همك أولا إلى التحقق من أن من فتنت بها تبادلك الحب (يبدو ارتباكها وهى تحاول أن تهرب من تتمة كلامها مع نوهان) . . هكذا أقول وإن كنت غير مستيقنة منه وما أدرى حقيقة أمرك . . . فليس يعنينى أن أتعرف ماترمى إليه. وما أحسبك جادًّا فى هذه التصريحات، ولعلك أردت أن تخترع حديثا طريفا نقضى به وقت فراغنا وقد جاريتك فيه لحدَبى عليك،وأنا أخشى إذا تماديت فى أشباه هذه الأحاديث أن أجيبك عنها أجوبة غير سديدة ، فقد تسمع منى رفضا كما تسمع منى إيجابا ، لأننى لم أكوّن عنها

فكرة ثابتة قاطعة فقد رأيت أن أمرها لايخصنى مباشرة وثمة لم أعنَ بدرسه .

وهان (يقف) لا . يا إله السماء ! إنك لعلى عكس ما كنت أحلم به . وما أدرى كيف أصنع وكيف أقول ؟ ألم تسمعى نجواى وأنا جاث عند قدميك وكأننى جالس أمام المذبح مترقبا تبرئتى ؟ (يمسك يدها) وهل تعلمين أنك أنت التى طالما ترددت فى مصارحتها بأنها المعنية بكل حبى والتى فى يديها مفتاح شقائى وسعادتى ، وحياتى وموتى ؟ .

ريجين أوه ياصديقى ! شد ماتؤلمنى ياصديقى .

نوهان إنى . . . .

ريجين (تضع يدها على قلبها) لا . . . إن هو إلا كلام لا أكثر (تحدث نفسها) إن الكلمات لاتعبر إلا عن العواطف التى تدفع صاحبها إلى الافضاء بها . وهذه خير طريقة .

المنظر الرابع

(الموجودان ـ الكونتس دي ليحيل)

الكونتس (تدخل وعلى أسارير هادلائل الجد والاهتمام) إن زوجى يرجوك ياريجين أن تنزلى ليتحدث إليك (لنوهان بفتور) ما كنت أحسب أنك هنا . . .

نوهان لقد جئت إلى هنا وسألت عن ريجين فعلمت أنها فى مرسمها فصعدت إليها تو"ا

الـكونتس هلم ياريجين فإنهم فى انتظارك . . . وما أحسبك تمتعضين من هذه العجلة . . .

ريجين سأذهب إليهم ياعزيزتى فى الحال (لنوهان) ما أحسبك فى حاجة إلى التعجيل بالخروج ! أليس كذلك ؟ (تخرج)

المنظر الخامس

(الـكونتس ـ نوهان ـ خادم)

الـكونتس ياهذه الصغيرة المسكينة ! آه . ما أشد سرورى بما نالته من حظ باسم وما أجدرها بالسعادة الوشيكة التى تنتظرها فقد لازمها النحس المتوالى مدة طويلة حتى خيل إلينا أن هذا الليل المظلم لن يعقبه فجر . ثم انشق ضوء الصباح بغتة بعد أن يئست منه .

نوهان وماذا تعنين بهذا ؟

الـكونتس لقد رأى الـكونت نيشان أن يتدارك خطأه ـ قبل فوات الوقت ـ فكفر عن إساءته إليها أحسن تكفير إذ أوصى لها بثروة تقدر بأكثر من مليونين .

نوهان (منقبض الصدر حزينا) آه ! لقد تسرّعت فى تحقيق أملى ، فاعترضتنى فى سبيله عقبة لاتذلل ولم تكن فى حسبانى .

الـكونتس ماذا تعنى بهذا الـكلام ؟

نوهان لقد كنت على وشك أن أتوسل إلى ريجين أن تقبل الزواج منى (يطرق هنيهة) أفهمت ؟

الـكونتس نعم فان هـذا الميراث الفجائى الذى لم يكن فى الحسبان (بدهاء وتخابث) يجعل عاطفتك وإحساسك غاية فى الحرج ..

خادم (يدخل) سيدى البارون ميسّن ينتظر سيدتى الـكونتس فى الصالون (يخرج)

الـكونتس أنعم الفـكر فى هـذا الأمر ، واستشر زوجى فيه . . . ولـكن حذار أن يفطن الناس إلى أن زواجك لم يتم إلا بعد أوانه . . . (تخرج)

المنظر السادس

(نوهان بمفرده — ثم ريحين)

نوهان (غاضبا ساخرا) آه ! شد مايستبد الشرف والفضيلة بنفوس هؤلاء الأطهار القديسين من الناس حتى أنهم ليبحثون عن نقائص غـيرهم ويرون فى كل حركة من حركاتهم عيبا يخدش الفضيلة والشرف . ويحَ هؤلاء الأطهار إنهم ليرون فى كل عمل نهم به ، وفى كل معنى يرتسم على أسارير نا ، وفى كل حلم يمر بخاطرنا ، يرون فى كل شىء . . . حتى فى أدق خوالجنا وفى أخفى مانحسه فى أعماق قلوبنا شيئاً يأخذوننا به ويحاسبوننا عليه. إن كل حركاتنا تعنيهم فهى ليست ملكا لنا وحدنا بل هى حق شائع لهم جميعا يستبدون به دوننا . ماذا ؟ بل ليس لنا فيها أى حق قل أو كثر ! فهى إذن ملك لجمهرة الناس ، بل هى ملك العالم بأسره ، من عرفنا

منهم ومن لم نعرف ، يفسرونه كما يشاءون . وليست نَفسُنَا ـ بعد هذا ـ إلا معرضا يستعرض فيه جمهور النظارة ما يروقهم من محتوياته ويأخذون منه مايُريدون . نعم هى معرض يأخذ منه أولُ قادم القطعة التى يعنيه أن يظفر بها ، ثم يحملها معه ويحوِّر فيها ما شاء حتى تلائم أهواءه ونزوات نفسه . وله أن يبدل فيها ويغير ويحرف وَفق مايشتهى ويريد ، وليس لنا أن نَقفَهُ دون غايته . هكذا حكم القضاء ولا مرد لحكمه . (يهم بالخروج وتدخل ريجين وهى تجفف دمعها بمديلها ، وإن لم تفارق الابتسامة شفتيها .) لماذا تبكين؟

ريجين أرجو أن لاتستوضحنى شيئا لأن هذا يثير فى نفسى البكاء . وإنى لأشعر فى هذه اللحظة أن فى قدرتى أن أبكى عدة ساعات . . . ولست أدرى مبعث هذا البكاء أهو من فرط الحزن أم هو من فرط السرور ؟ ... سأبكى ... سأبكى ...

نوهان لاحاجة بك إلى الإفضاء بشىء ، فقد علمت كل شىء .

ريجين هل أخبرتك ابنة عمى بما حدث (يبدى نوهان إشارة إيجابية) يقولون إنك حزنت لهذا النبأ وإنى لأرى الألم باديا على وجهك ! أوه . . . أراك شديد الألم !

نوهان إن السعادة المفاجئة التى ظفرتِ بها قد قلبت حظى وأطارت سعادتى .

ريجين أحسبت أن هذه السعادة تبدل شيئا من طباعى ؟ شد ما يتملكك الوهم ! . . . وما أيسر علىّ أن أبرهن لك على

أنك واهم !

نوهان (على كره منه) آه ! لو أنك تحبينني بمقدار ما أحبك ! إذن لاحتقرت أثمن ما يحويه العالم من نفائس وكنوز وأصبح هذا عندك تافها حقيرا إزاء حبي .

ريجين (تحت وهي مستبشرة) وإذن ؟

نوهان (بشغف) حسبي أن تخبريني أن هذا لم يترك في نفسك أقل تأثير . . . إن لم يترك ابتسامة سخرية . قولي لي إنك تشعرين بشيء من السرور - وإن قل - حين تعلمين أنني أحبك أعمق الحب . . . أحبك الحب كله . . .

ريجين (بعد صمت) أما أن يشعر الإنسان بأنه محبوب ، أو على الأقل يظن أنه محبوب ،فذلك أمر محتمل الحدوث مادامت الفتاة لاتزال في مقتبل شبابها وهي غير دميمة الوجه فإن الحسن والشباب داعيان إلى الإعجاب والحب ، في أكثر الأحايين وعند أكثر الناس. وحسب الإنسان أن يرى الفتاة قد جمعت بين هاتين الميزتين ليحبها. ولكن الحب الحقيقي (بحرارة) القدرة على الحب الصادق ، تتطلب أن يكون الإنسان خبيراً بالحب ثابت الهوى لا يؤثر في حبه أي مؤثر مهما عنُفَ به ، وأن يشعر الإنسان بأنه أسير هذا الحب وأن ليس له من حيلة في دفعه أو التخلص من إساره . . . آه ! هذا هو الحب الذي يملأ النفس بهجة وسرورا . أما الحب الذي يكون له غاية ودواع وآراب ، الحب الذي ينشأ عن الإغراء فهو حب تافه المعنى سريع الزوال . وليس

يعنيني إلا أن يكون الحب متأصلا فى قرارة النفس يلهب شعور صاحبه ويهيمن على نفسه .

نوهان (مدهولا) وهل فى الدنيا امرأة تحب مثل هذا الحب ؟

ريجين أليست النساء جميعا سواسية فى هذا الحب ؟

نوهان إذن فأى رجل فى العالم جدير منك بمثل هذا الحب ؟

ريجين أوه ! من يدرى ! وماذا ترانى فاعلة ؟ إنه رجل يكتم عنى حبه ويأبى أن يبوح به إلىّ، ويحلو له أن يحيرنى فى أمره ويتركنى مضللة عارقة فى سرٍّ غامض رهيب يتنازعنى اليأس والرجاء فى حبه . . . ثم هو لايستطيع أن يفهم أنه المعنىّ بحبى وأنه مصدر هواى ومبعث وجدى !.

نوهان ريجين !

ريجين أرجوك ياصديقى العزيز . . . أيها الصديق المحبوب . . . إن الخجل ليملأ نفسى بعد أن حدثتك عن الحب بمثل هذه الحماسة المتأججة ، وإنى لأكون جانية إذا ما أجبتك فى الحال إلى ماتطلبه منى نظراتك التى تملأ قلبى رهبة وخشوعا (بأقصى ماتستطيعه من التلطف) وهل تريد أن أقول لك ؟

نوهان (يعود إلى نفسه) لا . . . لاتقولى . . . لاتقولى شيئا . . . إنى إذن أكون خائنا ومقصرا فى القسم الذى أقسمته ... اصغى إلىّ . لماذا لايأتى أولئك الذين أخذونى بخطئى ليروا كيف أكفر عنه ؟ وما بالهم لايحضرون الآن ليشهدوا شدة ندمى على تلك الدناءة التى اقترفتها ؟ لقد نسيت أنت ذلك

لأنه أمر هين على نفسك . . . أما أنا فأشعر أن الذهول يهيمن على نفسى ليأسى من كل أملٍ فى الحصول على غفرانك .

ريجين كل ذنب ـ مهما عظُم ـ فإنى أغفره لك .

نوهان هذا بعيد التصديق .

ريجين (تشير إلى كرسى وتخاطب نوهان متلطفة مداعبة) وما هى تلك التهمة التى تلصقها بنفسك يا أخى ؟

نوهان أُرانى ما أزال عاجزا . . .

ريجين فإذا عاودتك على الإفضاء بها (تفكر) انى أراهن على أنى أحس وأرى أشياء غامضة ولكننى لا أستطيع أن أذكر شيئا . . . (تتنهد) فهل لك قصة ؟ فإنى أجهلها ولا أعرف تفصيلها ؟ (نوهان يهز كتفيه) حسن .

نوهان لقد وشيتْ بك .

ريجين وهل وجدت منى مايبرر ذلك ويحفزك إليه ؟ وهل رأيتنى أصبغ شعرى وأنت تعلم أننى لا أصبغه لأنك تدرى أن لونه الطبيعى هو هكذا والدليل على ذلك الماء الذى أغسله به .

نوهان اتركى الدعابة جانبا فالأمر بلاشك أجَلّ وأخطر من أن يمزح فيه.

ريجين ماذا أصابك ؟ وأى طارئ أزعجك ؟ آه ! ياإلهى ! هاأناذى أعود فأشعر من جديد أننى غير سعيدة !

نوهان لقد أمعنتْ فى الإساءة إليك ، وكنتُ ـ فى الحق ـ نذلا وقحا فيما تقوّلته عليك . . . على أن ذلك قد حدث قبل أن أقع فى حبال هواك

ريجين　　وأى جرم أخذته على ؟

نوهان　　كان حديثى عنك بمناسبة شخص آخر .

ريجين　　ومن هو هذا الشخص ؟

نوهان　　البارون ميسّن .

ريجين　　(مرتبكة) وهل قلت إن البـارون ميسّن يغازلنى ؟ (يبدي نوهان إشارة تدل على الموافقة) ومع هـذا فإنك لم تخبرنى بذلك . . . . ولعلك لم تزعم أننى شجعته على هـذا ؟ (إشارة إيجاب) لم تحسن فيما فعلت بل أسأت . . . أسأت أقبح إساءة . . . وما أشد ألمى لهذا . . . ومن الذى أفضيت إليه بهذه الفرية الحمقاء ؟

نوهان　　هذا أمر لا يعنيك ما دام الجميع قد عرفوه بعد ذلك .

ريجين　　(بالحاح) أريد أن أعرف أول من أخبرته بذلك ؟

نوهان　　السيدة دى مودر .

ريجين　　(تعض شفتيها) الآن بدأت أفهم سر نزواتها ومبعث حركاتها العجيبة . . . شدّ ما طوح بك الطيش وقـلة التبصر فى الأمور . . . ولـكن عليك أن تبذل جهدك فى مساعدتى على نسيان هذا . . أتريد ؟

نوهان　　بل أنا معتزم أن أمضى فى سبيل تحقيق آمالى إلى النهاية لأننى أجد من نفسى قوة المحب المتفانى فى حبه الذى لا يحجم عن البرهنـة على وفائه بكل وسيلة بالغة ما بلغت من الصعوبة التى لا تخطر بالبال . ولقد كان فى وسعى أن أكتمك كل

ما حدث وأن أخفى عليك حقيقة ما بدر منى فلا تعلمى من أمرى شيئا . . . فاذا كان قد تسرب الى أذنيك نبأ هذا فما أيسر علىّ أن أكذبه وأنكره ثم أقطع عليك شكوكك وأسئلتك بقبلة من تلك القبلات التى أحسبنى على كثب منها الآن، والتى أحتمى فيها وألوذ بالصمت إلى الابد.

ريجين (مرتجفة) وبماذا أفضيت أيضاً ؟

نوهان قلت: إن البارون ميسّن عشيقك .

ريجين (تتظاهر بأنها لم تفطن أول الامر إلى قوله) عَ . . . . أوه !

نوهان (معصباً محقاً) هذا هو جرمى الذى جنيته (يضرب صدره ويجثو على ركبتيه) وهذا هو ما أطلب إليك أن تغفريه لى وأنا جاثٍ على ركبتىّ.

ريجين (تحجب عينيها دون أن تظهر أنها تراه) كيف ! أنا ؟ . . . التى كانت تضحك بين تلك السيدات والرجال . أنا التى كانت مثال الفتاة الفرحة المبتهجة المحبو بةالوفية . . . إنى ما كنت لأعلم حقيقة ما يضمرونه لى. وكل ما كان منى هو أن كل حركة طبيعية بريئة كنت آتيها بحسن نية كانت — بلا شك — تؤول أسوأ تأويل ، وتحمل على أخبث وجه ، وتقابل بسخرية مضحكة .

نوهان (متلعثماً) ألا ترثين لحالى ياريجين ؟ أتريدين منى أن أنتحر ؟

ريجين (تقف ثائرة هائجة وقد اشتد ألمها) لقد كان لى فيك يا هذا الإنسان يقين متين لا يقل عن يقين العقيدة والدين .

ثم ظهر لى أنك لم تحجم عن الإلقاء بشرفى تحت قدمى هذه الحمقاء السيدة دي مودر . فما ذا دفعك إلى هذه الزلة ؟ وكيف رضيت لنفسك هذه المنزلة ؟ إذن فقد كان يجمعكما رباط وثيق من الحب ؟ . . . كلا . . كلا . . . لا تجب على . . . إنى أحذرك أن تقول أكثر مما قلت . . . إن هذه المرأة قد وجدت فى شرفى وسيلة للتلهى والعبث معك . . . آه ! إنك لا تحبنى بتاتا وإن كنت قد أحببتنى وقتاما. ولست أشك فى أنك كنت تحب أخرى . . .آه لقد كنت أشعر بعجزى وقصورى عن مكافأتك على السعادة التى غمرتنى بها . . . والآن تبدلت هذه السعادة ــ بفضل ما أتيتَ ــ ألما مبرّحا وجحيما مستعرا . . . فأى جزاء ــ يا إلهى ــ أجازيه به ؟

وهان ريجين !

ريجين خبّرنى . هل كنت موقنا بصحة ما تزعم حين لوثتَ شرفى ودنست سمعتى ؟ قرّر أمامى أنك كنت مستريبا فى سلوكى ليكون لك عذر فيما اقترفت من إثم .

نوهان ريجين ! ياحبيبتى العزيزة . لقد احترمتك من قبل وأحببتك الآن . . وإنى لأقدسك وأهيم بك .

ريجين آه ! الآن تبين لى أنك تريد أن تلعب بى وتخادعنى أيضا ، وليس لك مأرب إلا أن تلهو بى وتعبث وَفق ما يحلو لك . ولقد كان خيراً لك أن تثق بما اكتشفته من سر ، وأن تركن وتطمئن إليه بعد أن أصبت الهدف . وإنى لأهنئك اليوم بما ظفرت به من اكتشاف . . ماذا ؟ ألا تصدقنى ؟

ألا يكفيك هذا التأكيد ؟ وأى برهان آخر تريده منى بعد ذلك ؟

المنظر السابع

(الموجودان ـ البارون ميسن)

ريجين آه ها أنت ذا ياسيدى ! تعال إذن وأيد رأى المركيز دى نوهان بأنك لى . . . بأنك . . . آه ! إن هنا كلمة لا يجمل النطق بها !

ميسّن آنسة !

ريجين لا يداخلك شك أووسواس ما دام هو ـ كما يقول ـ يضمن تحقيق ذلك . وإنى لأرجوك ـ ياسيدى ـ أن تقر وتعترف أمام هذا السيد أنك كنت كريما إزائى . وأنك بذلت كل ما فى وسعك لتخفيف آلام فتاة مسكينة . . . كيف تتردد أنت ؟ وإنى ـ مع هذا ـ قد أتحتلك أحسن فرصة لتتخلص من مزاحم مزعوم . . . فقد جعلت الموقف أدنى إلى الوضوح والصراحة (بصوت ضعيف) وإنى أظن أن ولع المسيو دى نوهان . . . ذلك الولع الذى تشكو منه سائرفى طريقه إلى النهاية . . . هيا إذن . . . تكلم .

ميسّن ونوهان (فى وقت واحد) آنسة !

ريجين بل تكلم ياسيدى . تكلم واذكر له كل ما يحتمل أن يزيل من ذهنه آخر شك عالق به . . . اذكر له بجلاء كل

أسرارنا . . . لفق . . . اخترع . . . حتى تملأ نفسه يقينا
بما أراد أن يذهب إليه. (تسرع إلى غرفتها)

المنظر الثامن

(نوهان — ميسن)

ميسّن (بهدوء ودهاء) ليست لى صفة رسمية تبيح لى أن أدافع عن الآنسة دى ڤِل لا سيما فى أمر غامض فى كثير من تفاصيله . ولكن يؤخذ مما ذكرته الآنسة لى واضحا أنك سمحت لنفسك باستغلال اسمى — فى جرأة نادرة — لتكدّر عليها صفو حياتها مع أننى لم أبح أنا لأحد بذلك (يتقدم خطوة نحو نوهان) لا سيما لك أنت ياسيدى على الخصوص .

نوهان (محتداً) لو لم تكن أنت البادئ بالعدوان ياسيدى لطالبتك بإصلاح ما فرط منك .

ميسّن إذن فنحن على اتفاق فى الرأى ويجب أن ننفصل .

نوهان (بريه طريق الباب) وأن ننسحب من هنا .

ميسّن تفضل بالخروج من هنا ياسيدى.

نوهان بل اخرج أنت أولا حتى لا أترك فرصة تتظاهر فيها بأنك صاحب البيت !

يىزل الستار

الفصل الثالث

(تمثل ناحية من غابة بولونيا خلف ميدان السباق ، وعلى جانب من المسرح علم الحرس ، وعلى الجانب الآخر عرائش مزروعة)

المنظر الأول

(ليجيل — نوهان)

(يرفع الستار عن نوهان جالسا على كرسى كبير أمام العلم وقد امتقع لونه إثر إصابته بجرح خطير ، وإلى جانبه مائدة عليها كوب وزجاجات)

ليجيل   لا أراك تحس قشعريرة لأن الطقس هنا حار والهواء أكثر اعتدالا منه فى عرفة الحرس . على أننى لا أحتار لك البقاء هنا فى الخارج ؟

نوهان   أشعر بالظمأ . . . فماذاأباحوا لى أن أشرب به ؟

ليجيل   (بسرعة) كل ما تريد !

نوهان   آه ! أهكذا، وبمثل هذه السرعة ! لقد كنت أظن أن وقت علاجى سيطول .

ليجيل   (في حيرة) إنك تميل إلى المداعبة ! . . . يجدر بك أن تذكر لنا ما تريده ، ولهم أن يبحثوا عما يلائم صحتك ولا يعوّق شفاءك

نوهان   أريد ماء بسكر !

بيجيل   هيه ! هيه ! إنك فى طلبك هذا قليل التبصر بالعواقب !

نوهان   لست أطلب إلا أن أبقى فى هذه الحياة ثمانية أيام فقط (فى لهجة إصرار وحماسة) ثمانية أيام لا أكثر !

ليجيل   (يعدكوب ماء و يذيب فيه السكر) إنك لتهذى فى حديثك وتَسْخُفُ (متظاهراً بالاضطراب على الرغم منه) و بعد ثمانية أيام سنأخذك إلى حَلْبة السباق (يشير إلى ناحية من المسرح) حيث تراها أمامك على بعد خطوتين منك .(نوهان يبدى حركة تدل على الضجر) لا تضجر فإنى لا أرتاح لجاراتك فيما تبديه من دلائل اليأس التى لا ينتج منها إلا الشر والضرر .

نوهان   ألم يؤجل نائب الجمهورية العام العشرة الثانية بسبب العجلة ؟

ليجيل   لقد حدد لى موعدا بعد ظهر اليوم لتوقيعها .

نوهان   ولكن مدة التوقيع القانونية تقتضى أسبوعا (ليجيل يبدى إشارة الايجاب) لله ما أطول هذه الاجراءات . . . . فقد تستدعى بعض الظروف الخطيرة التعجيل ولا يسع الإنسان أن ينتظر مثل هذه المدة . . . هل ذكرت للآنسة دى فِل ـفى كتابك أمس ـ أننى غُلِبت ـ لسوء الحظ وقسوة القدر ـ لا لنكاية لئيمة ولا لغيرة هوجاء ولا من جراء خطئها على الأغلب ؟

ليجيل   نعم . . . نعم فكن مطمئنا

نوهان   وهل أبلغتها إلى أى مدى برّح بى شوقى إلى لقائها وكيف غلبنى الألم والحزن ؟ وهل عرفت كيف تكتب رسالتك بتأثر عميق وأسلوب ملتهب ؟ ما كان أجدرك أن تحرص على نسخة

هذا الكتاب ! ولكن ألا تستطيع أن تذكر ما كتبته لها؟ حاول جهدك أن تعيد على مسمعي نصّ ما كتبتَ

ليجيل (يحاول الهرب من الإجابة) وماذا يجديك أن تعرف ذلك (نوهان يشتد سعاله) ها أنت ذا ترى أن أسئلتك هذه ربما أضرت بك ضررا بليغا وأخرتْ شفاءك

نوهان لاتضايقني فإن ذلك مما يزيد حالي سوءا .

ليجيل (مستسلما) لك ما تريد ، لقد بدئ الكتاب هكذا على وجه التقريب : «عزيزتي ريجين. لقد أصيب المركيز دي نوهان في المبارزة — منذ ثمان وأربعين ساعة — وكانت نتيجة المبارزة غاية في (سدرك) لم تكن حسنة كثيرا ، وقد أصيب تحت حنجرته بضربة سيف (يلطف من تعبيره) كانت مع أنها . . . . . لم تكن حسنة.» وها أنت ذا ترى أن الكتاب قد كتب بلباقة . فهل أدركت مايحتويه ؟

نوهان إنما يعنيني أن تكون قد حثثتها على أن تعجل بحضورها.

ليجيل وقد أضفت إلى ذلك أنك تجلدت وتشجعت رغم مالحقك من الألم ، ولم يبد على وجهك شئ من الجزع الذي يظهر في مثل هذه الأحوال عادة . وأنك لم تيأس من الحياة ولم تشغل نفسك بشئ غيرها لتقضي معها أطول وقت تستطيع ، كما أخبرتها أن لديك نبأ تريد أن تُفْضي به إليها .

نوهان وكيف لم يصلك ردها إلى الآن ؟

ليجيل إن ريجين لن ترد ، فليس هناك داع يحفزها ! الى الرد .

نوهان ماذا تعنى ؟

ليجيل سترى أنها آتية بنفسها !

نوهان وماالذى جعلك تخلق فى نفسى هذا الأمل ؟

ليجيل لأنها لم تكف عن الجزع منذ علمت نبأ جرحك وقد صممت على الحضور وقد كنت وزوجتى نراسلها، وقد حاولنا المستحيل حين أردنا أن نسرّى عن نفسها ونهون الأمر عليها .

نوهان ولكنك لم تخبرنى بشىء من ذلك .

ليجيل لأنك لم تسألنى عن شىء من هذا، وما أظنك كنت تريدنى أن أبدأك بهذا الحديث . . . . فأزيد ارتفاع درجة الحمى عندك أولا ثم أتسبب فى غليان دمك . . . !

نوهان خبرنى – فى صراحة وإخلاص – أأنت فى أعماق نفسك تشعر بأنها موافقة على مشروع الزواج ؟ وهل هى تقدر هذه الفكرة الخطيرة حق قدرها رغم تلك الفضيحة التى نجمت عن هذه المبارزة ؟ وهل ترى أن براءة الآنسة دى فِلْ قد أصبحت ناصعة قوية لا مجال فيها لتخرصات الرأى العام ؟

ليجيل (طيبة قلب) الرأى العام . . . تريد أن تتعرف رأيى فى الرأى العام . . . . إذن خذها كلمة ناصح مخلص . . . لقد شعرت بضجر من اهتمامك بالرأى العام ! فإنه لايقرله قرار. فقد طالما قال ويقول وسوف يقول . . . ثم ما هو الرأى العام ؟ وأين هو ؟ لن يخلق ولن يتكون رأى يمثل آراء

الناس قاطبة . . . . بل قلمـا يتفق اثنان على رأى واحد من غير أن يختلفا فيـه . ماذا ؟ بل إن الشخص الواحد ليتناقض و يختلف أحيانا ـ فيما بينه و بين نفسه ـ فلا يكاد يجزم بحقيقة أمر بعينه. فاذا سألتنى عن الرأى العام . . . . فاننى لا أعرف عنه إلا أنه مجموعة أساطير . . . وكل محاولة لإرضائه أو تعَرّفه أو التنبؤ بما يجمع عليه أو تحديد حكمه هى محاولة فاشلة لا طائل تحتها . وما أدرى كيف تتحقق ؟ إن الرأى العام ليعتبر الخير شراً والشر خيراً و ربمـا غلب عليه أن يعتبر الشرّ شرًّا وقد يعتبر الخـير خيرا فى بعض الأحايين . . . ولا سبيل إلى إسكات جمهرة الناس فان الرأى العام يأبى إلا الثرثرة دائما .

نوهان كلا فإن للرأى العام اتجاها لا يصعب تعرفه والاهتداء إليه وإننا لنحسه فى ثنايا الجو الذى يكتنفنا وشمه فى الهواء الذى ستنشقه . أتذكر ياصديقى تلك الرحلة التى قطعناها منذ حين ؟ أتذكر أننا مررنا بأحد الأغوار الآسنة وأننا أحسسنا ـ حينئذ ـ ذلك الجوّ المسمم الخانق الذى يكتنفنا وشعرنا به فى تنفسنا حتى ضاقت صدورنا وكادت سمومه تزهق أرواحنا . . . هـذا أصدق وصف للرأى العام حين يتسمم فإنك لتشعر بأن جوّه خانق قتال لا سبيل الى احتماله والبقاء فيه ، وهذا هو ما أحسه فى تنفسى الآن وسأظل أشعر به فى الساعات القليلة الباقية لى من الحياة !

المنظر الثانى

(الحاضران — الدكتور)

ليجيل   ها قد حَضرتَ يادكتور . ألم يجئ معك الجراح ؟

الدكتور   سيجئ توًّا، فإنه فى شغل ببتر ساق استُدْعِىَ إلى بترها فى نفس اللحظة التى ذهبت فيها لأحضره لك . وقد أصيب بورم (يشير إلى خده) كهذا ، وقد قضى ستة شهور وهو يعالجه . . . إنه دقيق الإحساس فى رقة مزاج الغانيات (لنوهان) حسن كيف أنت فى هذا الصباح ؟

نوهان   كنت أترقب حضورك لأعرف ذلك منك ؟

الدكتور   (يجس نبضه) لقد انخفضت الآن درجة الحمى (ينظر حوله) وأين الطبيب المساعد الفتى ؟

ليجيل   لعله ظفر بسنارة يصطاد بها . فإن فتوّة الشباب تحفزه إلى النشاط، فلا يحب أن يبقى لحظة بلا عمل يشغله . فهل تريد أن أرسل فى طلبه على شاطئ السين ؟

الدكتور   كلا فما أنا بحاجة إليه ، فإننى أستطيع أن أفحص الجرح بمفردى. على أنه كان جديرا بالبقاء هناك فإنه إذا خرج تعرض للهواء (يشير إلى نوهان) وكيف جاء إلى هنا فى الحديقة ؟

ليجيل   لقد خرج من غرفته معتمدا ذراع مراسلى وهو شاب قوىّ

الدكتور حسن يجب أن تَرْجِعه إلى عرفته.

ليجيل (ينادى) برنار! (يسرع بالحصور ويعاون نوهان على الوقوف صعوبة، و يسير متناقلا إلى البت مع الجندى مساعد ليجيل) يالك من صديق مسكين . . . إنه قوى فى مقتبل شبابه ولما يمض عليه ثلاثة أيام.

الدكتور (ينظر إلى نوهان وهو تمشى حتى تخفى عن ناظره) احتفظ بقواك جيدا واتئد فى سيرك (لليجيل) إنه يتجلد فى مشيته و يظهر من الثبات أكثر مما كنت أتوقعه، بعد أن استنزف الجرح من دمه مقدارا كبيرا.

المنظر الثالث

(ليجيل — الدكتور — الجندى المساعد)

ليجيل (باهتمام) والآن خبرنى يادكتور — فليس معنا ثالث — كيف تجدُ مريضنا فى هذا الصباح؟ هاهو ذا قد عاش يومين ولم يمت فى خلالهما كما كنت تتوقع، فهل ترى أملا فى شفائه بعد ذلك؟

الدكتور من الدلائل الحسنة أنه لم يمت.

ليجيل لقد قرر لى الجراح — بعد أن ضمد جرح نوهان — أن نجاح هذه العملية الخطيرة هو واحد من عشرة. فالأمل عنده فى حاجة إلى التغلب على تسعة أعشار الاحتمالات المؤيسة من شفائه.

الدكتور هذه طريقة لجا إليها ليشجعك بها .

ليجيل وأخيرا متى تستطيع أن تتحقق من إنقاذ نوهان ؟

الدكتور ربما اهتديت إلى ذلك الآن متى تحققت انتظام الدورة الدموية وأن طارئا لم يفسدها بعد . على أننى أؤكد لك أننى اليوم ـ بعد أن ألقيت عليه أول نظرة ـ قد أصبحت أقل تشاؤما وأكثر أملا فى شفائه .

ليجيل إن العلم ليقف حائرا أمام إرادة المريض ، مادام يدفعه تشبثه بالحياة إلى البقاء .

الجندى المساعد (يخرج من البيت) إن سيدى المركيز على استعداد
(يحمل الجندي المائدة)

ليجيل (للدكتور) اسمح لى قبل أن تذهب إليه ـ أن أسألك شيئا لعله يبدو لك غريبا . . . . وهو أن تكتم رأيك عن المريض إذا أقنعك الفحص بصحة ماذهبت إليه الآن .

الدكتور لك ذلك . ولكن لماذا ؟

ليجيل أخشى أن يتنكس ويستفحل الضرر »

الدكتور من فرط السرور ؟

ليجيل كلا . بل على العكس .

الدكتور كيف ؟ إن هذا حق طبيعى لكل من يخشى الموت .

ليجيل إنه لايخشاه ... وإنما يخشى أن يعجل بهلاكه قبل أن يرى بعينيه نجاح مشروع بدأه . . . وهو لا يريد الحياة إلا بضعة أيام .

الدكتور إن أمره لايعدو احتمالين: إما أن يموت من فوره، وإما أن

ينجو من الخطر نهائيا .

ليجيل نعم فإن وساوسه وشكوكه واشتغال باله الدائم بترقب نتيجة سعيه الخبيث مما يعجل بموته الوشيك . و إن الجهد الذى ينفقه فى التشبث بالحياة والقوة التى يستنفدها هـذا الجهد المضاعف كافية لاختصار حياته .

الدكتور إننا متفقان فى الرأى .

ليجيل وعلى هذا يجدر بك أن تترك لى أن أتخير له الوقت المناسب لأخبره بذلك، إذا تحققت من أن مرضه يُرجى له الشفاء .

(يدخلان البيت)

المنظر الرابع

(الجندى المساعد ـ الكونتس ـ ريجين)

الكونتس هوّنى عليك ياصغيرتى (تقول للجندى الذى جاء ليحمل الكرامى) ألا يزال السيد دى ليجيل باقيا هنا ؟

الجندى إن سيدى القائد جالس مع الدكتور الذى يعنى بجرح المريض .

ريجين (تعص يدها حزنا) أوه !

الكونتس ألم تعاهدينى أن تتجلدى . إن التجلد الذى تظهرينه أمام المريض مما يساعده على الشفاء . (للجندى) إذا أمكنتك الفرصة من محادثة السيد دى ليجيل خبّره أننى فى انتظاره مع الآنسة دى ڤِل.

الجندى لك ذلك ياسيدتى

(يخرج)

المنظر الخامس

(الكونتس ـ ريجين)

الكونتس يجدر بنا أن ننتظر .

ريجين (ترتجف) اصغى ! ألا تسمعين صراخا؟

الكونتس (ترهف سمعها) لست أسمع شيئا .

ريجين أما أنا فأسمع طنينا يطن فى أذنى بلا انقطاع ويدوّى فى أذنى أننى وحدى كنت مبعث هذه المصائب .

الكونتس يالك من مسكينة ياصغيرتى ! مابالك تتهمين نفسك وأنت بريئة فى نظر الجميع ؟

ريجين (ترتجف) أما الآن فلست مخدوعة . . . إنى أسمع تأوها . أسمع أنينا مُفزّعا . . . بربك اذهبى ياصديقتى الكريمة وانظرى ما دا حدث فإننى لا أجرؤ . . . اذهبى إليه لتحولى بينه و بين دواعى ألمه .

الكونتس سأذهب لمقابلة زوجى . ولكنى أطلب منك أن تعتصمى بالجلد وأن تجففى من دموعك وتتجملى حتى لا تظهر على وجهك سيما الحزن والألم

المنظر السادس

ريجين (وحدها) إذا كانوا يسببون له كل هذه الآلام فما أحسبهم

يقدمون على ذلك إلا مدفوعين بالأمل فى حياته ، وهـذا دليل على أنهم لم ييأسوا من شفائه . . . آه ؟ شدَّ ما أتمنى لو احتملت دونه هذه الآلام ! ألا ليتهم يمزقون جسمى تمزيقاً، وليتهم يجعلون منى فـداء له من كل ألم يقاسيه، فإنى إذن لسعيدة، وإنى لأشعر بلذة يقصر عنها الوصف لو أمكن الفداء (تضم يديها) امنُنْ عليه بالشفاء ياإلهى ! أنقـذه من الهلاك واجعلنى فـداء له إذا شئت ! (بحياء) حتى تتم سعادته .

المنظر السابع

(ريجين . البارون ميسن . الخدم)

ميسن (يقول للخادم من غير أن يقع نظره على ريجين) أعط الكونت دى ليجيل بطاقتى هذه ، و بلغه أننى جئت بنفسى لأقابله وأتعرف حاله (يدخل الخادم البيت)

المنظر الثامن

ريجين . ميسن

ريجين أأنت هنا يا آنسة ! . . . ما كنت أتوقع أن أراك هنا ؟ (يتقدم نحوها ويمد يده اليها)

ريجين (من غير أن تمد يدها لمصافحته) بل أنا أكثر منك دهشة إذ أراك تجىء هنا

ميسن (متألماً مدهوشاً من هذا الازدراء) عجيب أن تقابليني بمثل هـذا الفتور ، وكأنما قصرت فى واجبى أو أسأت معاملتى

وكأنني ارتضيت لنفسي خطة غير تلك التي رسمتها لي . حسبي أنني لم أنتهج معك من سلوك إلا ماعودتنيه، ولم أسر إلا في الطريق التي شرعتها لي .

ريجين أوه ! لا تقل ذلك . فما أشنعَ ما تلصقه بي حين تقول إنني أنا التي . . . .

ميسن وعلى كل حال . . .

ريجين آه ! ما كان يبقى على إلا أن أسمع منك هذا التأنيب، فإنني لأراني بعد سماعه جديرة بالازدراء بقدر ما أراك جديراً بالازدراء أيضا ... (تجتهد في تلطيف لهجتها) بل ربما ازدريتك أكثر ... ولكن ألا تشعر أنك راض عن عملك ؟ فكيف جئت إلى هنا ؟ وما ذا تريد أن تصنع أكثر مما صنعت ؟

ميسن إنما جئت تلبية لواجب المجاملة والأدب، فقد رأيتني مضطراً إلى تعرّف حال المركيز دي نوهان حين سمعت أنها خطرة ، ولم أقدم على ذلك إلا مدفوعا بأشرف الدوافع وأنبل واجبات المجاملة .

ريجين تقول: واجبات المجاملة ! إنّي لأحسبني ـ من فرط ذهولي ـ حالمة! وإني لأسائل نفسي مدهوشة حائرة : كيف يستسيغ الناس هذه التناقض ؟ وكيف تدفع القحة بعضهم إلى الجمع بين اقتراف الإثم والتظاهر بالشرف ، فلا يحجم عن القتل ثم لا يتورع عن زيارة صريعه (تعنف في لهجتها) نعم إني لأعرف أن هذا هو قانون الشرف الذي يبيح للإنسان أن يفترس

خصمه و ينقض عليه انقضاض الوحش ثم يغسل يديه من دمه الذى أراقه، ثم يظهر أمام الناس ـ فى براءة وطيبة قلب ـ ثم ماذا ؟ ثم يسرع إلى الاستفسار عن صريعه متودّدا متظاهرا بالحنان والعطف !

ميسّن أتجيزين لنفسك أن ...

ريحين (تشتد فى حدتها) كلا . فإنى لأوثر القتلة والسفاحين الأشرار الذين أجمع الناس على احتقارهم، لأنهم إذا ثابوا إلى رشدهم أحيانا أقنعهم ضميرهم على الأقل ... بأنهم كان على خطأ فيما اقترفوه من إثم .

ميسّن (بعصبية) حسبى أن ألفتك إلى أن نظام المبارزة هو نظام عادل، لأنه ـ فى العادة ـ لا يضع نمرا أمام حمل ، بل نمرا أمام نمر مثله . وليس فى هـذا ما يغضب أحدا أو يفتح أى باب للمؤاخذة والطعن . وأؤكد لك أنى كنت متعرضا لنفس الخطر الذى يواجه خصمى فى الميدان فى تلك اللحظة الرهيبة التى طالت ـ على قصرها ـ لخطورتها . ترى لو كان المركيز دى نوهان هو الذى ظفر بى وعاد سالما ؟ . . .

ريحين (مسرورة من هـذه الكلمة) أوه !

ميسّن لو أنه ظفر بقتلى (تخفض من عينيها) أ كنت تعدينه قاتلا ؟

ريحين (تخفض من عينيهـا وتتكلم بصوت خافت) إنى أحبه .

ميسّن (متلطفاً) إذن فقد كنت تتمنين لى أن أموت . أنا الذى كنت جديرا أن أعد ـ بحق ـ حامى شرفك والذائد عن عرضك .

ريحين (بقوة) أحبه .

ميسّن — على حين أنه كان هنا بطل الإساءة إليك ومصدرَ الإشاعة التى لوّثت شرفك .

ريحين — (بحب وسخط) أحبه ! أحبه !

ميسّن — الوداع يا آنسة دى ڤِل.

ريحين — الوداع . . . نعم يجدر بك أن تذهب لشأنك . . . فانصرف.

(يذهب ميسن)

المنظر التاسع

(ريحين — ثم بوهان — وليحيل)

ريحين — لم أعد أعرف شيئا ولا إنسانا (تضع يدها على وجهها) فلم يبق منى إلا قلب يخفق (تولى وجهها شطر لبيت) كل قلبى يخفق بحبه (فى هذه اللحظة يبدو بوهان على الباب ومعه ليحيل) أوه ! أنت! أنت ! أهذا هو أنت؟ (تسرع إلى بوهان) تحدث إلىّ بسرعة وأسمعنى صوتك لأستيقن أنك ما زلت على قَيد الحياة (تسند بوهان) فإن حياتى أستمدها منك .

ليجيل — (يشير إلى العرائش) هلم فلنذهب إلى هناك (يذهبان به ، ويقفون جميعا عدة مرات فى أثناء السير.)

ريحين — لقد مرت بى أوقات كان يخيّل الىّ فيها أنهم يخفون الحقيقة عنّى . . . ولقد طالما أحسست حلول نكبة وشيكة ! . . . شدّ ما تهيمن الأفكار الطائشة الحمقاء على الإنسان ما دام بعيدا . . أما الآن فإنى أراك فيمتلئ قلبى سرور

أجبنى . ولو إجابة مختصرة ، (يبدى لها نوهان إشارة تعجزه عن الكلام) حسبى أن تشعرنى بأنك تتماثل للشفاء .

ليجيل (لريحين بعد أن تخلس نوهان) ها أنذا أتركه لك . . وحسبك لفظة واحدة تقمك على ما تريدين . . إلى اللقاء. (يذهب)

المنظر العاشر

(ريحين ـ نوهان)

نوهان لقد طلبت منه أن يتركنى لأخلو بك، وليس عندى ـ بعد هذا ـ سر أختصك به دون جميع الناس . وكل ما أشعر به هو أن وجود أشخاص آخرين يقلل من حريتى التى أريد أن أتمتع بها فى حضرتك من غير أن يحدها شئ . . .

ريحين كذلك أشعر حين أكون بالقرب منك .

نوهان لدى سؤال أريد أن أطرحه عليك .

ريحين سل ما بدا لك .

نوهان يخيل إلىّ أن قسوة القدر علىّ وعقابه الصارم الذى ألحقه بى قد أتاحا لى الحل الوحيد لإصلاح خطئى الذى اقترفته ضدك .

ريحين أى أمر هـذا الذى تشغل به خاطرك . ألست أنا الجديرة بطلب الصفح منك ؟

نوهان لا زال فى وقتنا متسع يمكننا فى إصلاح ما فات وتلافى هذا الخطأ تلافيا تاما يقطع ألسنة المتخرصين والأفاكين . وإنّى لآسف لعجزى عن تقديم حياتى لك لأننى لا أملكها . أما

اسمى فقد يبقى فى حوزتى زمنا قصيراً ، فهل تقبلين أن تكونى منذ اليوم المركيزة دى نوهان ؟

ريجين نعم .

نوهان إن العقود المستعجلة تمكن المريض المحتضر من تحقيق هذه الرغبة . وهم يسمونها عقود الزواج الذى يقع بناء على رغبة المريض الأخيرة.

ريجين كأنما تتعمد بهذا الحديث أن تُسلمنى إلى الجنون ! بل إنى لأحسبنى مجنونة ، لأننى لا أفقه معنى هذا الكلام ولا أهتدى إلى تفسير هذه الألغاز ؟ . . . ذلك .... ؟

نوهان أقسم عليك لتتركِنّ لى الفرصة لأتمم حديثى . . . أراك قد رضيت أن تشرفينى بحمل اسمى فى الزمن القانونى . . . ومتى رآك الناس مرتدية ثياب الحداد حزنا على موتى، كان ذلك باعثا لهم على احترامك والنظر إليك بما أنت أهله من الإجلال . . . ثم تصبحين بعد ذلك حرة .

ريجين (تبكى) ألا تزال مصمّما على أن تزيد آلامى ؟ وهل كتب على أن أظل نهبَ الأشجان التى تغمرنى شيئا فشيئا ؟

نوهان عفوا فإن حياتى محدودة وأرى اللحظات تجرى سراعا ... أتسمحين لى بأن أطلب من ليجيل إتمام هذه الاجراءات الضرورية ؟ . . .

ريجين (تخفض عينيها) كلا . . . لا تفعل شيئا يشعرنى باحتمال فقدك. لقد برح بى الحزن تبريحا و وصل بى الألم إلى أقصى حد . . وما دمت جالسة إلى جانبك، وما دمت مصغية إلى حديثك (تمسك

يديه) ها أنا ذى ممسكة بك . . . لأحفظك من عوادى الزمن .

نوهان كلا ياعزيزتى ! . . . لاتخدعى نفسك . وكونى على ثقة من أننى لم ألجأ إلى هذا الزواج العاجل وأتعجَّل عقد زواجى منك إلا بعد أن استيقنت من دنو أجلى. ما فى ذلك شك ، بل هو عين اليقين . (يقول لنفسه فى ثبات وحزم) وقد يكون هذا أيضا . . . (لريجين) إن زواجك هذا من ميت لا يرمى إلى شىء أكثر من التكريم الخالص، ولن يجرؤ أحد على انتقاص عملنا وتأويله لأى مصلحة ، ولن يقول إنه نشأ عن جاذبية قهرتنى أو مصلحة أغرتنى مهما بلغتِ من الجمال والثروة .

ريجين قد أكون الآن غاية فى الدمامة التى تثير فى النفس عاطفة الإشفاق وتبعثها على البكاء . . . أما الثروة التى آلت إلىّ فقد وقعت عقد التنازل عنها أمس .

نوهان (يشتد تأثره)أفى حدود الإمكان أن يحدث ذلك ياريجين ؟ وكيف أقدمت على هذا ؟

ريجين لم أشأ أن ألقاك إلا بعد أن أبرأ من كل ذكرى تثير فى نفسك شيئا من الألم . و إذا كان قد قضى علىّ أن أحرم رؤيتك إلى الأبد فانى أجدنى مستعدة لمواجهة الخطوب بقلب ميت لا مجال فيه للرجاء وحياة منتهية ويدين فارغتين ، وفى هذا أكبر إغراء يحبب إلىّ العزلة الأبدية .

نوهان (وقد بلغ تأثره الغاية) أوه ! ما كان أحدرك أن لا تفعلى

شيئا من هذا . . . ولما ذا أخبرتني به ؟ إنى لم أشعر عليك بشيء من هذا ... لقد سلبتني قوتي وملأت نفسي إعجابا وحبا وحنانا . وانى لاحس أن السرور قد فاض على قلبي فما أدرى الى أية غاية انتهيت. والآن فإنى أريد.... (يستعيد قوته) وعلى كل حال فأنا أريد دائما . . . (بيأس) ويجب أن أريد أيضا .

ريجين أنت ملكي وفي حوزتي ولا بد أن تنجو من الهلاك من أجلي ، فلا يداخلنك أقل شك في هذا الإصرار الذي يمثله لعيني الحب . إن النظرات المحبة — مثل نظراتي — تخرق الأستار وتكشف عما وراء الحجب، فلا يحسن بك أن تأخذ برأيك وترفض التصديق بما أقوله لك، فليس في الدنيا أصدق من تلك النظرات (تقدم حسبها إلى شعبي بوهان فيقبله ويدخل حينئذ ليجيل) أوه !

المنظر الحادى عشر

(الحاضران ليجيل)

ليجيل (بسرور) سأعينك يا ريجين ممرضة وحارسة لمريضنا (بابتسامة ساخرة) محايدة .

ريجين لما ذا يغمرك فيض السرور ؟ وما بالك تغالب نفسك حتى لا تنفجر ضاحكا ؟ . . إن الضحك ليغلبك على أمرك فيبدو وجهك — على الرغم منك — متهللا جذلا . . . انظر

ها أنت ذا تضحك . . . تضحك؟

ليجيل (محروبا) لقد سرنى أن رأيتكما ممتزجين . . . على اتفاق تام

ريحين (بانكسار) على مشروع عقدالزواج .

نوهان آه ! لوكنت تعلم وترى إلى أى مدى يصل الإيثار وإنكار الذات! ولو رأيت مايفعله الحب معنا والى أى مدى أثرت هذه الفتاة فى نفسى . . . حتى لأشعر بحاجتى الشديدة إلى حياة مديدة لا تنتهى لأتمكن من مكافأتها على هذا الصنيع الجميل .

ليجيل وَيْحَكَ ! (لريحين) لقد أثر فيه جمالك ـ ياصديقتى الصغيرة ـ أيما تأثير! (لنوهان) وأنت أهكذا تسلم بالبقاء فى الحياة ؟ (لريحين) إذن فخبرى خطيبك أن طبيبه قد أصبح منذ الآن مسئولا عنه .

نوهان (تهمى دموعه بحرارة) ريحين! وأنت ياليجيل الطيب القلب! معذرة . . . إن هذا لمخجل . . ونذالة ... وجميل .

ريحين (تخفق قلباهما سرورا) فَسِّرْ لى بسرعة لماذا لا يمكن أن يموت؟ فقد كنت ـ منذ لحظة ـ لا أصغى إلا إلى غريزتى وقد صاح بى هاتف ملأ قلبى ثقة ويقينا . والآن حين أعود إلى عقلى وحده لأسائله عن جلية الأمر يدور بى رأسى فلا أكاد أتبين شيئا مما يَخْبؤه لى المستقبل .

ليجيل يا للشيطان ! إنى لأعتقد ضعف . . . وكل ما وعيته هو أن غدة قد زالت (يشير إلى ناحية من عنقه) من غير أن يحدث نزيف (يشير إلى الجهة الأخرى) وقد سال من هنا نزيف شريانى ...

مع اتصال الأعصاب بعضها ببعض . وهذا دليـل . على أنه قد نجا من الخطر .

ريجين — والدكتور دوشير عالم . . . عالم كبير ، أليس كذلك ؟

ليجيل — إنه يُقَرّر ذلك .

ريجين — إن عالمـا كبيرا لا يستطيع أن يخدع أحدا فضلا عن أن يخدع نفسه .

ليجيل — إن أمره جد عجيب فهو ـ فى طبه ـ كالقاضى القاسى الذى يسرف فى توخى العدالة . . . ومتى ظهر أمامه أقل شك أصدر حكمه ـ من فوره ـ بالإدانة .

ريجين — (لبوهان) الآن ياعزيزى المحبوب قدأصبحتُ كلى لك . . . كلى لك .

ليجيل — حسبى أن أنبهك إلى أن صديقنا ما يزال ضعيفا وأن كل انفعال يحـدث له يضرُّ به . . . وما دام قد أثر فى نفسه الفرح الآن . . . فعليك أن تضاعفى عنايتك به (لبوهان) هأنذا تاركك لأرسل البرقيات إلى خُلَصائك الراغبين فى الاطمئنان على صحتك (ريجين) وأنت ياريجين أرجو أن ترجئى ـ عند الضرورة ـ أول معركة زوجية . فإن الدكتور قد حظَر علينا كل ما يزعجه أو يثير فى نفسه أية ثائرة حتى لا يؤثر ذلك فى قلبه المسكين المتألم .

المنظر الثانى عشر

(ريجين ـ نوهان)

ريچين ألست ترى ـ ياسيدى ـ أن من الكثير أن تكون كلك لى لا سيما بعد أن عرفت إلى أى مدى وصل افتتانى وهيامى بك؟ ألا تشعر بشيء من الأسف أو الندم على هذا الزواج الذى يقيد من حريتك الواسعة ـ متى تم ـ ويجعلك ملكا لى وحدى ؟

نوهان (تشتبك يداه في يدى ريجين) انظرى . إننى متعلق بالحياة متشبث بها كتشبث هذه الأصابع العشر . ألا تحسين الحرارة تسرى فى يدينا وأصابعنا مجتمعة كما تسرى فى اليد الواحدة من غير انفصال ؟

ريچين هل تجيبنى إلى أول أمنية أتمناها منك ؟

نوهان بكل تأكيد !

ريچين عاهدنى ـ إذن ـ على أن نقبر ذكرياتنا القديمة ونبدأ حياة جديدة منذ اليوم فلا نرجع إلى ما قبله . ولننس الماضى نسيانا يميت ذكرياته ويمحو آثاره . . . أتعاهدنى على ذلك ؟ أتقسم على الوفاء بهذا العهد ؟

نوهان أقسم لك على ذلك

المنظر الثالث عشر

(ريحين ونوهان وهما محتفيان عن أعين القادمين فى أثناء العرائش الكثيفة — السيدة دى سابيكور والسيدة دى مودر تدخلان من اليمين — هرمان وسان شيف يدخلان من اليسار وهما مرتديان ثياب الفرسان .)

سان شيف لقد جئنا فى وقت واحد ، وقد طال بحثنا عنكم أكثر من نصف ساعة .

السيدة دى سابيكور (تشير إلى السيدة دى مودر) لم يؤخرنا عن الموعد إلا الصُّداع الذى أَلمّ بهذه الصديقة .

هرمان (للسيدة دى مودر) حقا إننى لأرى وجهك ممتقع اللون .

السيدة دى مودر (تشم رجاجة ملح) إنه على وشك الزوال . . .

نوهان (فى نفسه) إن هذا الصوت . . .

السيدة دى مودر وقد كنت عاجزة عن الخروج .

ريجين (بعد أن تنظر من خلال الأوراق المتكاثفة تقول بصوت منخفض لنوهان وقد التصقت به) إنها السيدة دى مودر ... كلا لا أريد أن تقع عيناها علىّ ... ولا أريد أن يرانى رفاقها الآخرون .. أريد أن أختبئ . . . كلا لا أحب أن أراهم .

السيدة دى سابيكور أهذا هو المكان ؟ أرجو أن تستفسر لنا ياسيد هرمان عن أنباء المريض أو تحضر لنا الدفتر الذى تسجل فيه أسماء الزائرين (يذهب هرمان إلى الباب ويتحدث إلى الجندى المساعد برنار الذى كان خارجاً وهو يحمل صور البرقيات)

سان شف إن النبأ الذى وصل إلينا أمس فى النادى لا يبعث على الأمل

(تظهر ريحين ألمها وتحتج فيما بينها وبين نفسها ، ويتنحى ناحية ليظهر سروره بذلك)

السيدة دى سابيكور   يالها من خسارة ! كم كان مسرورا منشرح الصدر وهو عندى (للسيدة دى مودر) ولقد كنتِ أيضا غارقة فى حبه . أليس كذلك ؟

السيدة دى مودر   (يشتد تأثرها) أُحبه الحب كُلَّه ، و إن ألمى لشديد لأنى لا أستطيع أن أصالحه قبل أن يموت .

الجندى المساعد   معى برقية للسيدة دى سابيكور .

السيدة دى مودر   ولى ؟

هرمان   هاتها . . هاتها . . . (يعود بالبرقيات التى أخذها من الجندى) هذه صور البرقيات التى يبعث بها القائد دى ليجيل ليرسلها إلى أصحابها (يقرأ بصوت مرتفع إحدى البرقيات . وفى أثناء ذلك تنتظم الرعشة السيدة دى مودر وهى تقرأ ورقة أخرى أخذتها منه : « سكرتير ريدنج كاوب . شارع جبريل باريس . نجا المركيز دى نوهان من الخطر ؟ »

ريحين   (بصوت مخفض لنوهان) يامن بعثت إلىَّ حيا !

هرمان   حقا لقد امتلأ قلبى سرورا .

السيدة دى سابيكور   هكذا أشعر ... لقد أصبحنا فى عهد يبالغ فيه الناس فى كل شىء .

سان شيف   إن حاله — على الحقيقة — أقل خطورة مما كان يظن .

السيد دى مودر   (بتهكم) أو كما كانوا يزعمون . أرهفوا أسماعكم إلىَّ . . . هذه برقية مرسلة للنائب العام . . . خاصة بزواج

نوهان من دى ڤِلْ : « لا فائدة الآن من إجازة زواج نوهان بالآنسة دى ڤِل و يمكن إعداد الاجراءات العادية بعد. مَعْذِرة وشكراً . ليجيل . »

نوهان (فى نفسه) يالها من وقاحة . . . إنها نذالة وخسة (هرمان يعيد البرقيات إلى الجندى ويذهب إلى سبيله)

السيدة دى مودر (معصبة) هل بلغت بنا السذاجة هـذا الحد ؟ شدّ ما طوحت بنا الغفلة . . إن الإنسان ليشفق . . . و يتألم . . ويدور به رأسه . . . يجب أن نعد أنفسنا لتنظيم الأكاليل وصوغ قصائد التهانى للزوجين فهما فى حاجة إلى ذلك .

ريجين (تهم بالتدخل بينهم ويقاومها نوهان حتى لا تفعل ذلك) اتركنى لهم . . . أرجو أن تتركنى لأطردهم من هنا طردا .

سان شيف (لهجة مغرية) ما أعجب هذا الحظ فمن أين له هـذا التوفيق . . .

ريجين (لنوهان وهو يقوم وهى تجتهد فى كبح ثائرتها ، ثم تضع يديها على أذنيه) كلا . لا تصغ إلى كلامهم.

السيدة دى مودر لا يصبح الانسان جديرا بحظه إلا بعد أن يستوفى الشروط الثلاثة التى فى المثل ؟ . . .

هرمان أن يُقهر . . . و يُسر . . .

السيدة دى مودر (تلتفت إلى هرمان وعلى فيها ابتسامة حمقاء) ثم ماذا أيضا؟

(فى هـذه اللحظة يرى نوهان يفلت من يدى ريجين ويسرع إليهم وهو يصيح هائجا ثم يخر ميتا)

ريجين (يجن جنونها) آه ! النجدة . . . . . الغَوْث !

المنظر الرابع عشر

(السيدة دى مودر يغمى عليها — ليجيل — الكونتس — الدكتور — يحضرون مسرعين من البيت ، وتذهب الكونتس إلى ريحين والدكتور إلى نوهان)

ليجيل (مذهولا) ماذا جرى ؟ نوهان ! نوهان ! ماذا أصابك ؟

ريحين (لا تستطيع الكلام فتشير بإصبعها إلى الآخرين فيوجه ليجيل كلامه إليهم) ماذا حدث ؟

السيدة دى سابيكور هى كلمات تحدثنا بها عن قصتهما وكنا نحسبها ألفاظا طائرة فى الهواء وما كنا ندرى أنهما يسمعان ما نقول فإن القول كما تعلم يطير.

ليجيل (يمد يده لنوهان) كلا . . . فإن القول يبقى !

الدكتور (بتأثر عميق) بل و يقتل !

(ريحين تبكى بكاء حارا)

ينزل الستار

وتنتهى القصة

فهرست

احسن وامتن روايات ظهرت باللغة الفرنسية

مترجمة بقلم الكاتب الكبير الاستاذ

اسعد داغر

المحرر بالاهرام

ظهر منها

حياة شاعر

ملخصة عن رواية جوسلين

للشاعر الكبير الفونس دى لامرتين



للمسيو هنرى بوردو

العضو فى الأكاديمية الفرنسية

أغرب ما صادف ضابط بوليس

بقلم البكباشى

عبد المنصف محمود

اركان حرب المخابرات السرية بمصلحة خفر السواحل

قالت المقطم الغراء بتاريخ ٣١ اغسطس سنة ١٩٣٣

اشتمل على عشر حوادث أو قصص لذيذة لحوادث ومخاطرات يعجب منها القراء أيما عجب لما اشتملت عليه من المخاطرات والفوز على العابثين بالامن من اللصوص وتجار المخدرات والفاتكين فى الأقاليم

قالت الاهرام الغراء بتاريخ ١١ ابريل سنة ١٩٣٣

طالعت الجزء الأول من هذا الكتاب وقد عرتنى بذلك عدة عوامل اهمها غرابة حوادثه وبراعة نسجه ورقه اسلوبه الخ

وهذا الكتاب فتح جديد فى التأليف العربى جمع بين العظة البالغة والفكاهة الطلية العذبه، وهو يحاكى روايات شرلوك هولمز البوليسية و يمتاز عليها بأنه ينطوى على قصص حقيقية واقعية

قالت الجهاد الغراء بتاريخ ١٧ ابريل سنة ١٩٣٣

فان قرأت كتابه أيها القارىء العزيز قد كتب بأسلوب رشيق وقلم بليغ يدل على أن الادب العربى قد ظفر بشىء ثمين من تلك اليد التى لم يشغلها حمل السيف عن حمل القلم

وعن قريب سيظهر الجزء الثانى

كتب للمؤلف

صور جديدة من الأدب العربى

مختار القصص

رسالة الغفران

نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى

مصارع الخلفاء

مصارع الأعيان

ديوان ابن الرومى

ديوان ابن زيدون

مختارات كامل كيلانى

روائع من قصص الغرب

موازين النقد الأدبى

مكتبة الاطفال

للمؤلف

حكايات للاطفال

١ – الجزء الأول : الدجاجة الصغيرة الحمراء

٢ – « الثانى : أم الشعر الذهبى

٣ – « التالث : بدر البدور

قصص فكاهية للاطفال

١) عُمارة
٢) الأرنب الذكى
٣) عفاريت اللصوص
٤) نعمان
٥) العرندس
٦) أبو الحسن

قصص جديدة للاطفال

١) بابا عبدالله والدرويش
٢) أبو صير وأبو قير
٣) على بابا
٤) عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٥) الملك عجيب
٦) خُسْرَوْشاه

قصص للاطفال

١) السندباد البحرى
٢) علاء الدين
٣) تاجر بغداد
٤) رو نسن كروزو

أشهر القصص للاطفال

١) جلفر
٢) دون كيشوت
٣) الكوميديا الالهية
٤) شمشون الجبار
٥) رحلات ابن بطوطة

قصص شكسبير للاطفال

١) العاصفة
٢) تاجر البندقية
٣) الملك لير
٤) يوليوس قيصر

قصص علمية للاطفال

١) النحلة العاملة
٢) العنكبوت الحزين

كتب للمؤلف

تظهر قريبا

ذكريات الأقطار الشقيقة

روائع من قصص الشرق

ألف ليلة للأطفال

قصص مختارة للأطفال